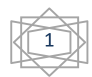
التفسير الحديث المبسّط

(2021)

الأستاذ الشّيخ:

محمد البشير ابن جديدية



التقديـــــم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ
هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨

(يونس آ 57 و58)

فهرس تفسير السور

اسم السورة	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الصفحة
الفاتحة	12	الروم	840	الحشر	1319	الغاشية	1518
البقرة	15	لقمان	860	الممتحنة	1333	الفجر	1522
آل عمران	101	السجدة	873	الصف	1341	البلد	1533
النساء	145	الأحزاب	884	الجمعة	1346	الشمس	1540
المائدة	193	سبأ	915	المنافقون	1352	الليل	1549
الأنعام	227	فاطر	931	التغابن	1356	الضحى	1553
الأعراف	268	يس	948	الطلاق	1363	الانشراح	1557
الأنفال	315	الصافات	964	التحريم	1370	التين	1559
التوبة	333	ص	989	الملك	1376	العلق	1561
يونس	374	الزمر	1006	القلم	1385	القدر	1567
هود	401	غافر	1032	الحاقة	1397	البينة	1569
يوسف	430	فصلت	1058	المعارج	1406	الزلزلة	1573
الرعد	456	الشورى	1078	نوح	1415	العاديات	1576
إبراهيم	470	الزخرف	1100	الجن	1421	القارعة	1579
الحجر	483	الدخان	1119	المزمل	1428	التكاثر	1581
النحل	495	الجاثية	1131	المدثر	1434	العصر	1584
الإسراء	530	الأحقاف	1141	القيامة	1444	الهمزة	1586
الكهف	560	محمد	1155	الإنسان	1451	الفيل	1588
مريم	586	الفتح	1168	المرسلات	1458	قريش	1590
طه	603	الحجرات	1189	النبأ	1464	الماعون	1592
الأنبياء	627	ق	1202	النازعات	1473	الكوثر	1595
الحج	651	الذاريات	1213	عبس	1481	الكافرون	1597
المؤمنون	675	الطور	1226	التكوير	1488	النصر	1599
النور	695	النجم	1237	الانفطار	1493	المسد	1601
الفرقان	724	القمر	1252	المطففين	1497	الاخلاص	1603
الشعراء	742	الرحمان	1262	الانشقاق	1503	الفلق	1606
النمل	770	الواقعة	1279	البروج	1507	الناس	1608
القصص	795	الحديد	1293	الطارق	1511		
العنكبوت	821	المجادلة	1309	الأعلى	1514		

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (الرحمان آ: 1و2)

وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا (النساء آ:113)

وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (النحل الآية 89)

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو تعالى العليم، الحكيم، ذو الفضل العظيم إذ يَسَّرَ لِي ولصحبي إنجاز هذا العمل في بيان ما وَفَّقَنا الله تعالى لفهمه من آي القرآن الكريم: كلام الله تعالى العزيز الحكيم.

ولقد اِخترنا أن نجعل له العنوان التالي :

"التفسير الحديث المبسّط (2021)" تدْوِينًا للسنة التي اِشتغلنا في إنجازه.

- وقد جاء هذا العمل اِستجابة لطلب جمعٍ من شبابنا المهاجرين وَدُّوا لو وجدوا في إحدى قنوات الاتصال الاجتماعي (انترنت) تفسيرا لآي القرآن الكريم "وَسَطِيًا، وَ"مُبَسَّطًا"، و"مُفَصَّلاً".
  - قصدوا "بالوسطيّ" أن يكون موضوعيا ونزيها: لا غلوّ فيه، وغير ملتزم لمذهب عقائدي أو طائفي، أو مذهب فكري يحيد بتفسير الآي عن صفاء جوهرها، وعمق دلالتها في الإرشاد لسبيل التقوى وسلامة المعتقد.
  - وقصدوا "بالمبسّط" أن يكون يسير الفهم، غير معقّد في أسلوب تعبيره، وغير مُتَبَسِّطٍ في الخلافات الفقهية، وتعدّد الآراء المتباينة، وغير مُطْنِبٍ في الدلالات اللّغوية والبلاغية إلاّ بما يخدم النّصّ لبيان معناه الحقيقيّ.
  - وقصدوا "بالمفصّل": بيان معنى كلّ آية على حِدَةٍ لِيتيسَّرَ لهم الرّجوع إليها بحسب رقمها في السورة دون عناء.
- وجاء هذا العمل اِستجابة لرغبتهم في أن يَجِدُوا بين أيديهم – ذكـورا وإناثا– في هواتفهم الذكية أو في حواسبهم – وهم خارج بيوتهم وفي غربتهم– قرآنا مسجّلا يقرؤونه ويأنسُون بذكره في وحشتهم وعند ذكرهم لأهلهم وأوطانهم، وتفسيرًا يرجعون إليه إذا شاؤوا تدبّر آية عَصِيَ عليهم



فهمُها، أو العلمُ بمقصدها، أو إذا سمعُوا من وعّاظ في بلدان الغُربة أقوالا في المعتقد أو في أحكام شرعية لم يسمعوا بها من قبلُ في مدارسهم وفي أهليهم ومواطنهم الأصلية. وليس هذا الأمر بمُستغرب لوجود متطرّفين في الدين هاربين من قبضة الأمن وحكم محاكمهم في بلدانهم، ووجدوا فُسحة في ديار الهجرة فنَصَّبُوا فيها أنفسهم دُعاةً للدين.

- ثمّ إنّ وجود هذا التفسير – على نحو ما أرادوه– على قناة التواصل الاجتماعي يعفيهم من شرط الحصول على تأشيرة مسبقة من بلد الإقامة لإدخال كتاب ديني في تفسير القرآن الكريم معهم في رحلتهم إليه من وطنهم الأصلي.

وإن هذا العمل يُغنيهم عن البحث عن كتاب في تفسير القرآن في البلدان غير الناطقة بالعربية، ثمّ لا يجدون فيها ضالّتهم.

ولقد حاولنا جاهدين أن نتناول فيه قضايا العصر ليدلّ على زمن كتابته وعلى مستحدثات العصر.

- لهذا ولذاك أنجزنا هذا العمل سائلين الله العليم الحكيم توفيقه فيما حرّرنا في بيان معاني آياته البيّنات في كتابه العزيز، وفيما أرشدنا إليه من المواعظ والمقاصد، وما توفيقنا إلاّ بالله العزيز الحميد.

ولمن شاء التوسّع في تَبَيُّنِ معاني آي القرآن الكريم فَلَهُ أن يستنير بكتابي :

– "**تنوير المستنير في بيان معاني البيان**" فهو كتاب في سبع مجلّدات في 4300 صفحة. فيه تفصيل أعمق لما جاء في هذا العمل في توضيح معاني الآي ولما جاء فيه من شواهد، ومناقشة بعض الآراء. ومن خصائص هذا الكتاب أنّ حروفه جميعها مُعْرَبة (أي مشكولة)، وهذه خاصية لم يسبقني فيها أحد من علماء التفسير مع تقديري لهم ولعلمهم ولجليل أعمالهم.

* وهذا الكتاب "تنوير المستنير في بيان معاني البيان" يدعمه فيما يخصّ بيان خصائص رسالة النّبيّ "محمد" صلّى الله عليه وسلّم، وما جرى في تبليغها من أحداث وعقبات حتى أظهرها الله تعالى إظهارا مبينا، كتابي: "رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم رسالة نور ورحمة".

** وفي الأحكام الشرعية وفي الحدود التي جاء بها القرآن الكريم، وفي أصول الفقه وشروط الإفتاء كتبت كتابا بعنوان: "**الإفتاء وأصول الفقه (الضوابط والاختلافات)**" دَعْمًا لما جاء في فقه الأحكام في القرآن الكريم.

*** ويضاف لهذين الكتابين كتاب: "**الوصايا العشر**" في بيان ما جاء في الوصايا العشر الوارد ذكرها في سورة "الأنعام" في (الآيات 152-153-154) مع ذكر نصّ الوصايا العشر الواردة في التوراة في آخر الكتاب للمقارنة.

**** وحرّرت في لغة القرآن كتابا مخطوطا لم يُطبع بعدُ، وهو في بيان لطائف الفوارق بين المترادفات الواردة في هذا الكتاب العزيز من مثل الفوارق بين لفظي: العدل والقسط، أو بين: البصر والنظر، وكذلك في عمل حرف الواو.. وما هذه الكتب إلاّ روافد لكتاب التفسير : "تنوير المستنير".

وبهذا يكون مجموع ما كُتِب في بيان معاني آي القرآن الكريم بحساب هذه الكتب الروافد أكثر من 8000 صفحة، وهو من الأرقام القياسية إضافة لخاصيّة شكل المفردات شكلا تامّا في كتاب: "تنوير المستنير" وهو من العمل الشاقّ المُضني.

نسأل الله تعالى حسن القبول، وحصول الفائدة للقارئين مع الشكر الجزيل لكلّ من ساعد في إنجاز هذه الأعمال بجهده في الإصلاح والمراجعة وعمل الرقن والطباعة وخاصة السيد نجيب الحبيب شعبان والسيدة سميرة عثمان الكراي حرم عبيدة، والسيد الحبيب المعلول والسيدة الراقنة: رجاء معلى.

وختامــا: الحمد لله من قبلُ ومن بعدُ – وهو الحميد المجيد– إذ علّمني ما لم أكن أعلم، وكان فضله عليّ عظيما. وله سبحانه وتعالى الفضل والمنّة إذ أنعم عليّ بفضيلة "القلم" وعلّمني البيان.

وهو تعالى الذي هداني لهذا وما كنتُ لأهتدي لولا أن هداني الله سبحانه جلّ وعلا.

وأسأله تعالى ألاّ أكون قد أخطأت الصواب فيما كتبتُ.

تقبّلنا الله تعالى جميعا بواسع رحمته وغفرانه.

ونسأله جلّ وعلا بحقّ جوده وكرمه وهو الودود ذو العرش المجيد السلامة في كلّ أمر وحسن الخاتمة في دنيانا وآخرتنا.

الكاتب

محمد البشير ابن جديدية

2022-12-01

تَمْهِيـــــــد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا (الإسراء الآية 9)

الحمد لله الذي يسّر لشيخنا "محمد البشير ابن جديدية" أن يستجيب لطلب جمع من رفقائه – وأنا أحدهم – بأن يكتب لنا مختصرا في تفسير آي القرآن الكريم.

لقد سبق لشيخنا أن صدر له :

1– شرح مفردات القرآن في حاشية "المصحف المعلّم" الّذي طبع ثلاث مرّات، ونفدت هذه الطبعات.

2– كتاب ضخم في سبعة مجلّدات في تفسير القرآن الكريم في 4300 صفحة بعنوان : "تنوير المُستنير في بيان معاني البيان"، وكان أوّل تفسير يصدر في صفاقس. وهو كتاب لأهل الاختصاص وللدّارسين والرّاغبين في التّوسّع في معاني آي القرآن، وهو كذلك في متناول العموم. وعموم النّاس ينشدون ما يَسْهُل تناوُلُه في بساطة لغته ووضوح عباراته، وجلاء معانيه ودلالاته، ويَنشدون كذلك ما يعالج قَضاياهم المعاصرة أو ما يشير إليها، بعيدا عن البحوث اللّغويّة والبلاغية وعن مناقشة أهل الفرق الكلامية المختلفين في بعضٍ من المسائل العقائدية ذات الصلة بالغيبيات، وعن بسط آراء الفقهاء من المنتسبين لمذاهب غير مذهب أهل البلد في الفقه: فقه العبادات أو فقه الأحكام والمعاملات، إنّ هذه المسائل من اِهتمامات أهل الاختصاص، وعامّة النّاس يرجون ما صَفَا لفظُه، ووضُحَ معناه وإشاراته، وأوجز وأفاد.

وهذا تفسير فريد من نوعه لأنّه مُعْرَبٌ إعرابا تامّا (مشكولا شكلا تامّا) وهذا ليكون المفهوم أوضح وأيسر للفهم، ويُساعد المبلّغ به أن ينطق بمعانيه نطقا صحيحا سليما من اللّحن (الخطإ في الإعراب وفي النطق بعلامة عين الفعل). وكان عملا مضنيا على الراقن وعلى المصلح لما فيه من تدقيق وضبط لعلامة كلّ حرفٍ. ولم يسبقه أحد لمثل هذا العمل الذي يتطلب اِمتلاك ناصية اللّغة العربية.

وفي مقدمات الكتاب ما يُفيد الراغب في تفسير القرآن الكريم بما يلزمه من علوم القرآن ليتمكّن من بيان معانيه في اِلتزام للشروط المعرفية اللازم توفّرها فيه.

3- كتاب في السيرة النبويّة بعنوان "رسالة محمدﷺ : رسالة نور ورحمة وحوار". مستمدّا شواهده من النصوص القرآنية، صدر عن دار مُنى للنشر والتوزيع سنة 2009.

4- دراسة معمّقة في الأحكام الشرعية بعنوان "الإفتاء وأصول الفقه (الضوابط والاختلافات)" صدر عن دار منى للنشر والتوزيع سنة 2013.

5- كتاب "الوصايا العشر في القرآن الكريم" صدر سنة 2017 بطلب من دار منى للنشر والتوزيع جاء في خاتمته عرض الوصايا العشر الواردة في التوراة والتي جاءت في الألواح العشر.

و"التفسير الحديث المبسط" كتابه السّادس الذي استجاب فيه لطلبنا نحن رفاقه وقدّم هذا العمل واِشترط علينا بسبب ظهور بوادر ضعفه وتعبه لتقدّم سنّه لنتولّى مهمّة رقن مخطوطه وإصلاح ما يرقن، ومراجعته فيما يَشْكُلُ على القارئ فهمُه، أو طلب زيادة التوسعة في بيانه، فقمتُ بالتنسيق لإنجاز هذا العمل بمعية السيدة سميرة عثمان الكراي حرم عبيدة الأستاذة في الآداب العربية التي كلّفت بإصلاح ما يُرقن، وبمعيّة الأستاذ في التربية الإسلاميّة : السيد الحبيب المعلول المكلّف بمراجعة المسائل العقائديّة والفقهيّة الواردة في هذا العمل، والسيدة رجاء معلى المكلّفة بالرقن وهناك آخرون كلّفوا بتسجيل هذا العمل في وسائل الاتصال الاجتماعي الحديثة ليكون على ذمّة الرّاغبين في تدبّر آي القرآن الكريم وفهم أغراضه وأحكامه ومقاصده ومواعظه في أي بلد في العالم ولكلّ عصر.

ولقد سُعِدنا بهذا التكليف، وإنّا لنسأل الله تعالى أن نكون جميعا قد وُفِّقْنا في هذا العمل لأن نقدّم لكلّ قارئ ما يفيده لإرشاده لما يثلج صدره في فهم آي القرآن الكريم وإدراك إشاراتها.

وبهذا العمل يكون الشيخ قد اِنفرد عمّا سبقه من المفسّرين في أن يقدّم للمؤمنين كتابا حديثًا مبسّطا ومختصرا ومعاصرا لمعالجته بعض قضايا العصر إذا كان في آية من آيات القرآن الكريم ما يُشير لمثلها.

وقد اِخترنا له العنوان التالي :

"التفسير الحديث المبسّط"

(2021)

والله تعالى نسأل أن يكون قد وفّقنا لما رجوناه من تحقيق الإفادة لطالبيها في يُسْرٍ ووُضوح.

والحمد لله من قبلُ ومن بعدُ على ما هدانا إليه رجاء رضوانه.

والســــــلام

تمّ تحريره في ديسمبر 2021

المنسق العام

كما كان يحلو لشيخنا أن ينادِيَ به

نجيب الحبيب شعبان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ (البقرة الآية 120)

الحمد لله الذي تفضّل عليّ بأن أكون ضمن الفريق الّذي عُهِدَ إليه بمتابعة تفسير الأستاذ الشّيخ محمد البشير ابن جديدية لنشره كتابًا إلكترونيّا كما أراده له مؤلّفه وجعَلَ عنوانه "التفسير الحديث المبسّط 2021" وذلك اِستجابة لطلب جمع من النّاس وخاصّة منهم شبابنا في المهجر ليسهل عليهم تداوله عند رغبتهم في فهم معنًى من معاني كتاب الله الحكيم: القرآن الكريم الّذي أُنْزِل نورًا وهدًى للعالمين لمن شاء من عباده أن يستقيم على صراط الله المستقيم، وهذا ليحصل لهم تدبّر كتاب الله تعالى بغير عناء.

ولقد وجدت من خلال قراءتي لهذا التفسير قدرة عالية على الكتابة بلغة فصيحة سهلة قريبة من القارئ المعاصر، بعيدة عن غرابة ألفاظ التفاسير القديمة.

اِرتكَزَ هذا التفسير على منهج تحليلي واضح تتبّع سور القرآن وآياته حسب ورودها في القرآن الكريم، وعمد فيه الشّيخ البشير ابن جديدية إلى :

- تقديم المواضيع العامة لكلّ سورة قبل الشروع في بيان معاني آياتها.
- توزيع الآيات في السورة إلى مجموعات حسب المواضيع والمقاصد.
- ربط الآيات ببعض الأحداث التاريخيّة.
- الإشارة إلى ما في الآيات من عبر ومواعظ.
- إثراء التفسير بما يوجد في التوراة والإنجيل أو غاب فيهما فأتى به القرآن (مثل ولادة عيسى ونطقه في المهد بوصايا الله إليه).
- شرحِ بعض المفاهيم (كالجهاد في سورة الحج أو معنى الروح عند بعض القدامى).
- تحليل التراكيب لغويّا واستخلاص دلالات الآيات ومقاصدها والأحكام الشرعية.
- التذكير بمعاني بعض الألفاظ في اللسان العربي القديم (مثل "والتفت الساق بالساق" أو "يوم يكشف عن ساق"...)
- اعتماد الإيقاع في الآيات كاستغلال الفاصلة فيها وتحديد صيغتها الصرفية وتحديد وظيفتها الإيقاعية والنحوية والدلالية، ومدى تواترها في السورة ومتى تتغيّر ومتى تعود.



- التّوجّه إلى القارئ ببسط بعض القضايا المعاصرة أوْحَتْ بها بعضُ الآيات (قضايا اجتماعية كحياة الأسرة والعلاقات بين الزوجين، وبين الآباء والأبناء، قضايا اقتصادية أو سياسية أو دينية...) وهذا ما يُكسبُ هذه المحاولة لتفسير القرآن الكريم طابعًا معاصرا ونفسا حضاريا، فيرتاح إليها القارئ وتزيده إيمانا أو تدعوه إلى الإيمان.

لقد تأكدتُ من خلال هذا المنهج التحليلي الثريّ وهذا التفسير المتأني للقرآن الكريم أن صاحبَه لا يمكن أن يكونَ إلاّ طلعةً وصاحب علمٍ واسعٍ، إذ يتطلب هذا العملُ من مؤلّفِه درايةً بعلوم القرآن المختلفة (النّاسخ والمنسوخ، التفسير والتأويل، المحكم والمتشابه...) وعلمًا بفقه اللّغة وبالسنّة النبويّة لاعتمادها في آيات الأحكام، وبالسيرة النبويّة. وكشفتُ في هذا العمل الضخمِ سعةَ اِطلاع مؤلّفه على التفاسير السابقة للقرآن الكريم لقبول ما يستحسن القبولُ به ولنقد ما يشوبها من غموض أو تقصير. كما تيقَّنْتُ من وعي الكاتب الشيخ البشير ابن جديدية وعيًا عميقا بقضايا واقعهِ وعصْرِه وامتلاك قلم فصيح بَيّنٍ سمَح له بصياغة تفسيرٍ مبسطٍ للقرآن سيجِدُ فيه القارئُ إن شاء الله فوائد غزيرة ومتعةً وتحفيزًا لقراءة القرآن وتدبُّرِه وحفظِهِ.

وبالله التوفيق

سميرة بنت عثمان الكراي حرم عبيدة

2022-11-11

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمدا لمن أنزل القرآن على سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فارقا به بين الحق الموجب للرضوان، والباطل الموجب للخسران، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، من أمرنا بتدبّر القرآن والاهتداء بهديه، وأشهد أنّ سيّدنا وحبيبنا وقرّة أعيننا محمدا، صلّى الله عليه وسلّم، من بعثه ربّه بالقرآن بشيرا ونذيرا، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين له إلى يوم الدين، وبعد فقد كانت لي وقفات على تفسير أخينا الأستاذ الكاتب والواعظ والإمام الخطيب، محمد البشير ابن جديدية الذي جعل عنوانه:" **التفسير الحديث المبسّط**"، ركّزت فيها خصوصا على تفسيره لآيات الأحكام، ما اشتمل منها على العبادات، من الوضوء والغسل وما يقوم مقامهما من التيمم، والصلاة، ومصارف الزكاة، والصوم، والحج، أو ما اشتمل منها على الأحوال الشخصية كالخطبة، والزواج، والطلاق، والعدّة، والنفقة والإرضاع والحضانة، أو المعاملات كالبيع والربا والدّين... أو أحكام المواريث، وكذلك الآيات المتشابهة المتعلّقة بصفات الخالق جلّ وعلا، من الاستواء على العرش، وصفة الوجه، والعين، واليد، والقبضة، والجنب، والسّاق، والكلام، كما تتبّعت تفسيره في شأن ما يتعلّق بأنبياء الله ورسله الكرام، فوجدته موفّقا بحول الله تعالى، لم يخرج عن منهج الاتّباع للعقيدة السنّية الأشعرية التي تنزّه الخالق جلّ وعلا وكذلك أنبياءه ورسله عن كلّ ما لا يليق، كما لم يخرج في شأن المسائل الفقهية عن المذهب المالكي بل وعن قول جمهور الفقهاء، وكان يحيل إلى بعض المصادر الفقهية المالكية في شأن تفصيلات هذه الأحكام، فكان وفيّا لهذه المرجعية التي تلقّتها أمّتنا الإسلامية بالقبول، وتعبّد بها لله سبحانه وتعالى جمهور الأمّة، وإنّي لأكبر فيه ذلك، وأكبر فيه أيضا مجهوده في جعل هذا التفسير مبسّطا أي مناسبا لعموم الناس، وكافيا لمن أراد الكفاية في فهم كلام الله الذي ورد به القرآن، فهو كتاب وسط بين كتابيه المفيدين في التفسير: الأوّل، "**بيان معاني مفردات القرآن**"، وهو في ثلاثين جزءا أي لكامل القرآن برواية قالون عن نافع، وقامت بطبعه ونشره مؤسّسة "تومام" بتونس العاصمة، والثّاني، "**تنوير المستنير في بيان معاني البيان**"، وهو في سبع مجلّدات، واحتوى على أربعة آلاف وثلاثمائة صفحة، وقامت بطبعه مطبعة التسفير الفنّي بصفاقس، أمّا نشره وتوزيعه، فكان عن طريق شركة المنى بصفاقس.

نحمد الله تعالى على ما وفّق إليه، كما نسأله أن يحقّق به النفع، وأن يكون من الصّدقة الجارية له.

كتب هذا التّقريظ الأستاذ والإمام الخطيب ورئيس جمعية قدماء جامع الزيتونة وأحبّائه – فرع صفاقس –الفقير إلى عفو ربّه وغفرانه : ***الحبيب بن محمود المعلول***، بتاريخ يوم الثلاثاء في 5 جمادى الأولى 1444 هجري الموافق ليوم 29 نوفمبر 2022 ميلادية.

ترتيبها	ســــورة الفاتحـــة	آياتها
1	ـــــ مكيّة ـــــ	7

هي السورة الأولى في ترتيب السور في المصحف، ومن أسمائها: أمّ الكتاب، لأنّه لا تصحّ الصلاة إلاّ بقراءتها وتسمّى كذلك : السبع المثاني.

- بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ :

أفتتح تلاوتي للقرآن والذّكر الحكيم بتعظيم ذكر اسم الله الأعظم تيَمُّنًا، وتَبَرُّكًا، واستعانة به، وتعلّقا برحمته لأنّه هو الرّحمان.

وهو اسم صفة لا يشاركه فيه أحد، خلق كلّ الخلق في السموات وفي الأرض وقدّر كلّ شيء ومن صفاته تعالى : الرّحيم، فهو عظيم الرّحمة بعباده المؤمنين في دنياهم وآخرتهم.

بهذه البسملة أفتتح كلّ عمل أهُمُّ به طلبا لعون الله تعالى، وإرشاده للأصلح، وتوفيقه فيه لأحصل على نجاحي فيه، والأجر عليه.

- ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (1) :

الحمد هو الثّناء الحسن. وهو أعظم من الشّكر. الشّكر يكون بين النّاس على ما يتبادلون من الفضائل، ولكنّ الحمد خاصّ بالله وحده. لا يحمد على فضل إلاّ الله سبحانه.

واستحقّ الله الحمد لأنّه ربّ العالمين. ربّ العالمين يعني أنّه سَيِّدٌ لكلّ ما هو كائن وموجود في هذا الكون والمتصرّف فيه، سواء أكان كائنا حيّا أم كان جمادا، سواء أكان على وجه الأرض أم كان في باطنها، سواء أكان على اليابسة أم كان في البحار والمياه، وسواء أكان في السموات العُلا في مجرّاتها وكواكبها أم كان فيما بينها. كلّ العوالم المخلوقة وكل عوالم الجمادات على تنوّع صفاتها وتنوّع خصائصها، وما أكثرها! سيّدُها هو الله تعالى، هو صاحب الفضل عليها لأنّها خُلقت أو وُجدت بأمره وبحكمته، ولا تفنى إلاّ بأمره ومشيئته وبأمره وإذنه. كلّ عالم من هذه العوالم يحتاج بعضه لبعض وتتعامل لتُكَوِّن هذا الوجود، ولهذا جمعت في لفظ واحد "العالمين".

المدبّر لأمر "العالمين" هو الله تعالى، لذا هو ربّ العالمين، هو سيّده، وهو صاحب الفضل عليه، أمْرُ العالمين بيده : وجودا وفناءً. لذا وجب حمدُه. فلله الحمد ربّ العالمين.

- ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (2) :

"الرّحمان" اسم من أسماء الله الحسنى، سمّى الله به ذاته العليّة، ولا يجوز أن يُسَمَّى به غيره لقوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ (الفرقان الآية 60)) وجاء هذا الاسم

في القرآن الكريم مرتبطا بخلق الإنسان، وخلق السماوات والأرض وما بينهما، وبالاستواء على العرش. دلّ هذا على العظمة والخلق بفضيلة الرّحمة بكلّ شيء خلقه حتّى لا يضيع خلقُه.

وأمّا "الرّحيم" فصفة من صفاته تعالى الدالّة على كثرة رحمته بعباده –المؤمنين منهم خاصّة– في دنياهم وآخرتهم. رحمته العظيمة والكبيرة دلّت عليها رسائله لعباده لهديهم، وخلقه للآيات الدالّة عليه، ودلّ عليها وعده للمؤمنين بالأمان يوم الدين وبتكريمهم بجنان خلده إذا عملوا الصالحات وكانوا مؤمنين صادقين.

وقد جاءت هذه الآية للترغيب في رحمته بعد آية دلّت على الترهيب منه لأنّه سيّد العالمين(الآية1) وقبل آية تشير لترهيب أعظم عند الوقوف يوم الحساب عند الملك(الآية3).

- مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (3) :

هو الحاكم والسلطان يوم يقوم الناس للحساب، وهو أحكم الحاكمين. وقد قضى الله تعالى أن يجعل هذا اليوم ليجمع فيه الناس للحكم فيهم ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه من الحقّ، وفيما تنازعوا فيه، وفيما تظالموا ليقيم العدل فيهم بالقسطاس المستقيم، وليُثْبِتَ للمنكرين بقيامه حُصُولَهُ ووَعْدَهُ الحقّ في الّذين آمنوا وعملوا الصالحات بتكريمهم، ووَعِيدهُ الشّديد في الذين كفروا وظلموا وعملوا السيّئات.

وسُمِّيَ يوم الحساب بأسماء كثيرة، منها : يوم الدّين، وذلك لأنّ الإيمان به من أسس أركان الدّين المستقيم القائم على سِتٍّ: الإيمان بالله وحده، وبرسله، وبكتبه، وبملائكته، وباليوم الآخر، وبالقضاء والقدر: خَيْرِهِ وشرّه.

- إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (4) :

نخصّك يا الله وحدك بالعبادة، أي بالطاعة لأمرك في تذلّل طمعا في فضلك ورحمتك، ورغبة في النجاة من غضبك وعقابك، ونخصّك يا الله وحدك بدعائنا عند طلب العون في أعمالنا لِنُوَفَّق فيها، وللنجاح في أدائها.

الآية جمعت بين أمرين: العبادة والدعاء. وأرشدت الآية لوجوب تخصيص الله تعالى وحده بالتوجّه إليه في هذين الأمرين حتى لا يضلّ المرء الصواب وحتى لا يشرك بربّه أحدا.

- ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (5) :

أرشدنا يا الله إلى السبيل القويم الموصل إلى الخير والهدى والصواب، والطريق المستقيم هو الطريق الأقصر والأوضح والأبسط للوصول للغرض، ليس فيه اِعوجاج، أو اِنحراف، أو متاهات. والسّبيل القويم الموصل للخير والهدى هو منهج الدّين الإسلامي.

• صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ (6) غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (7) :

أرشدنا إلى سبيل الذين رضيت عنهم وتفضّلت عليهم بهديك، واِحفظنا من أن نسلك سبيل الذين غضبت عليهم لأنّهم حرّفوا دينك : آمنوا ببعض وكفروا ببعض بمثل ما فعل أقوام من اليهود، أو لأنّهم عصوا أمرك وكفروا بآياتك، وشاقّوا رسلك. واِحمنا من اتّباع سبيل الذين انحرفوا عن الاستقامة في دينهم فأشركوا بك كالذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة، أو كالذين اتّخذوا الأصنام آلهة فضلّوا عن سبيل الحقّ والهدى.

آياتها	ســــورة البقـــــرة	رقمها
285	ــــ مدنيّة ــــ	2

سورة البقرة هي أول سورة نزلت بالمدينة على مدى من السنوات، وفيها آية هي آخر آية نزلت من السماء، هي قوله تعالى (وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ (الآية 285)).

نزلت يوم النّحر في حجّة الوداع. وهي أطول سورة في القرآن وعدد آياتها 285.

يقال لها: فسطاط القرآن، وهذا لكثرة ما فيها من أحكام ومواعظ. قيل : فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، وسمّيت بهذا الاسم لذكر قصّة ذبح البقرة في عهد موسى عليه السلام تشير لتجنّب كثرة السّؤال في الدّين حتّى لا يكون فيه تشدّد، ولتجنّب المغالاة فيه حتى لا يكون فيه عُسْرٌ.

- الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (1) :

تُقرأ : ألف، لام، ميم. حروف مقطّعة. هي سِرُّ الله في القرآن. لم ينزل من السماء كلام من الوحي يبدأ بحروف مقطّعة قبل هذا. ولم يُعرف عن البشر افتتاح للكلام أو للكتابة بحروف مقطّعة. وقد تحيّر المفسّرون في تأويلها، ولم يُعرف عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قول فيها، وهو المكلّف ببيان ما في القرآن. إذن لا ندري حقّا ما أراد الله تعالى بها. ولعلّ أَسْلَم ما يُقال فيها أنّها من حروف الهجاء الّتي نطق بها اللسان العربي فألّفوا بها كلامهم وحمّلوها مرادهم، وجاءهم القرآن بحروف كلامهم فأعجزهم ببلاغته وفصاحته أن يأتوا بسورة من مثله.

في بقية هذه الآية خير دليل على الإعجاز القرآني وبلاغته وفصاحته وتعدّد وجوه المعنى في جملة واحدة قصيرة، وذلك بحسب اللفظ الّذي تتوقّف عنده في قراءتها، وفيها ثلاثة وجوه للوقف، في كلّ وجه تركيب للجملة الواحدة أو الجملتين، وفي كلّ وجه معنى.

أ) إذا توقّفت عند لفظ (لَا رَيۡبَ) صارت عندك جملتان إِسميّتان، وكان المعنى على النحو التالي: ذلك الكتاب الّذي بين أيديكم هو من عند الله بلا شكّ. وفي الكتاب ما يرشد المؤمنين للمنهج القويم الذي يبلّغهم مرتبة المتّقين.

ب) وإذا توقّفت عند لفظ (فِيهِ) صارت عندك جملة واحدة بخبرين، وكان المعنى : ذلك الكتاب الذي بين أيديكم لا اضطراب فيه ولا تناقض. وهذا الكتاب مرشد وهادٍ للمتّقين الذين يخشون ربّهم لما فيه صلاح عملهم.

ج) وإذا قرأتها كلّها بنفس واحد كانت جملة واحدة بخبر وحال، ويكون المعنى على النحو التالي:
ذلك الكتاب الذي جاءكم لا شكّ في أنّه مرشد وهاد للذين يريدون معرفة منهج التقوى ويرغبون في أن يكونوا متّقين.

واستعمل اِسم الإشارة (ذَٰلِكَ) للبعيد وهو كتاب بين يدي المؤمنين ليدلّ على رِفْعَتِهِ وأنّه بعيد عن تناول المحرّفين لأنّ الله تعالى تولّى حفظه دون سواه.

- ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ **(2)** :

هذه الآية في ثلاثٍ من صفات المتّقين مرتبة ترتيبا تفَاضُليًا:

أولاها: أنّهم يصدّقون بالماورائيات الّتي أخبر بها الله تعالى، واِستأثر وحده بعلمها، وهي التي تُعرف بالغيبيات. من هذه الغيبيات: علم الساعة، أمر الرّوح، وإحياء الموتى وقيامهم للحساب عمّا عملوا في دنياهم... الخ.

وهذا العنصر هو الّذي يختلف فيه النّاس بين التصديق به، أو التكذيب أو الشكّ فيه. وكثيرا ما تكثر أسئلة الناس في هذا العنصر، وهي أسئلة تتحيّر فيها العقول وتخرج عن دائرة مداركها: ولذلك يُطلب فيها التّصديق والتّسليم بها تصديقا بالوحي، وبالقدرة الربانية. ومن صدّق بها كان مؤمنا، ومن سلّم بها كان مسلما لله. ومن كذّب وشكّك فيها كان ملحدا. والإلحاد نمط من أنماط الكفر.

فهذا هو العنصر الأوّل والأساس والأصل للانتساب للإيمان والإسلام، وهو العنصر الأساس في التفرقة بين المؤمن والكافر.

ومن سَلّم بهذا العنصر وصدّق سَهُل عليه العمل بالأمرين الثانيين، ومن لم يكن مصدّقا لم يلتزم بما وراءه من عناصر. ومن شكّك وعمل بالعنصرين المواليين احترازا من الأذى، وتظاهرا بالانتساب للمؤمنين المسلمين كان منافقا.

ثانيها: يقيمون الصلاة على نحو ما أمروا به.

وإقام الصلاة هو من أهمّ عناصر العبادة. وبعد ركن الإيمان يأتي ركن العبادة، العبادة هي التي تحدّد وجهة العبد نحو المُتَعَبّدِ.

وهذا العنصر يخصّ علاقة الفرد بربّه. فمن أدّاها في وقتها وعلى الوجه المطلوب منه في حسن الأداء، وعلى الوجه الأفضل في الخشوع كان أقرب إلى ربّه في عروجه بروحه إليه أثناء صلاته. إنّ الصلاة من أهمّ الأركان التي تربط برباط روحي بين القائم بها، والإله المتوجّه بها إليه.

وثالث العناصر أنّ المتّقين ينفقون ممّا رزقهم الله. والإنفاق قد يكون في وجه من وجوه الإحسان للفقراء للعون والمؤازرة، وقد يكون في وجه من وجوه تحقيق مصلحة للبلاد أو للأمّة. هذا العنصر يحقّق النّفع للبلاد والعباد.

كذا يكون المتّقون: يكونون مؤمنين مصدّقين، ومتعبّدين طائعين لربّهم، ونافعين محسنين للبلاد والعباد.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ (3) :

حوَت هذه الآية ثلاثة عناصر أخرى في صفات المتّقين:

أ) إنّهم يصدّقون بالوحي الذي نزل على محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا التصديق يتضمّن الإيمان برسالته.

ب) وإنّهم يصدّقون بكلّ ما نزل من قبله من كتب سماويّة ورسائل الرّسل السابقين، ذلك لأنّ مُكَلِّفهم برسائلهم هو واحد، هو الله، ولأنّ رسائلهم تجتمع على كلمة واحدة، لا إله إلاّ الله، وأنّ دعواتهم كلّها تهدف لغاية واحدة: الاستقامة على الدين القويم، وعلى العمل الصالح، واجتناب المحرّمات والمنهيات.

ج) وإنّهم يؤمنون إيمانا يقينيا صادقا لاشكّ فيه، ولا لُبْسَ بأنّ النّاس جميعهم سيبعثون بعد مماتهم إلى الحياة للمحاسبة على أعمالهم يوم القيامة وفي غير هذه الدنيا، سيكون بعثهم في الآخرة.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (4) :

من كان على هذه الصفات استقام على المنهج السليم الذي يحفظه من الانحراف والضلال وهذا هو الهدى الذي يرتضيه الله لعبده، ومن سار على هذا الهدى فقد فاز بنعيم الآخرة. وقد أُشير للمتّقين باسم إشارة للبعيد (أُوْلَٰٓئِكَ) للدلالة على رفعة مقامهم عند ربّهم. وبهذا الوصف للمتّقين تُخْتَمُ مقدّمة السورة وافتتاحيتها.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (5) :

على عادة القرآن الكريم في بيان الشيء وضدّه، ورَدت هذه الآية في ذكر صفات الكافرين. هؤلاء لا يقبلون موعظة ولا يخيفهم وعيد. إنّهم لا يصدّقون بما جاءهم من تبليغ عن توحيد الله وتخصيصه وحده بالعبادة والطاعة، ووجوب الاستقامة على فرائضه ونواهيه، وإنّهم لا يصدّقون بالقيام للحساب في الآخرة.

- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (6) :

بيّنَ الله تعالى في هذه الآية موانعهم من الإيمان وهي ثلاثة موانع :

أ) الختم على القلوب: ومعناه قلوب مُغَطّاة لا يدخلها شيء، ولا يصلها شيء، ولا يُوضع فيها شيء غيرَ ما فيها. والقلوب هي أوْعِيَةُ الأحاسيس والمشاعر بآيات الصدق أو مواطن الكذب، وهي المؤثّرة في العقل والجوارح. وقلوب هؤلاء مُغَلَّفَةٌ.

ب) وتعطيل السمع، والسمع هو السبيل إلى تبليغ الأفهام والعقول ما يجب الانتباه إليه، أو الاستفادة بعلمه. هو السبيل للعلم والمعرفة، فإذا تعطّل السمع بقي المرء على ما هو عليه من الجهل وعدم الإدراك والفهم.



ج) وعلى أبصارهم غشاوة، والغشاوة أو الغشاء هو الغطاء الذي يمنع العين على الإبصار جيّدا، ويمنعها من التمييز بوضوح، وهذا هو "العَمَهُ" وليس العمى.

هذه الصفات الثلاثة هي التي حجبت عن هؤلاء الإيمان، فظلّوا على كفرهم. وهؤلاء سينالهم عذاب شديد الإيلام يوم الحساب لأنّهم عطّلوا ما خلق الله فيهم من عقل وإدراك وإحساس وبصر ليهتدوا به فظلّوا على جهلهم بربّهم.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ (7) :

هذه الآية في طائفة من الناس، هم المنافقون، يتظاهرون بالإيمان وينسبون إليه أنفسهم ولكنّ الإيمان لم يدخل قلوبهم. يقولون بأفواههم: إنّا مؤمنون بالله وباليوم الآخر، ولكنّهم في قرارة أنفسهم غير مصدّقين بما يذكرون. وهذا يعني أنّ الإيمان ليس باللّسان ولكن بالقلب، ويصدّقه العمل بأركانه.

- يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (8) :

إنّ هؤلاء يخادعون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بادّعائهم الإيمان، وقد عدّ الله تعالى مخادعةَ الرّسول مخادعةً له تعالى لأنّ الله عزّ وجلّ هو الّذي دعاهم للإيمان برسالته صلّى الله عليه وسلّم. ويُظْهِرُون للمؤمنين إسلامهم مخافةً على أنفسهم، وحفْظًا لتجارتهم ومعاملاتهم معهم. وفي واقع الأمر يخدعون أنفسهم لأنّهم لو آمنوا بالله حقّ الإيمان، وعرفوا أنّه مطّلع على الخفايا والسرائر ما أبطنوا كفرهم، وما يدركون أنّ مخادعتهم ستعود بالوبال عليهم، وسينكشف أمرهم قريبا أو بعيدا.

- فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (9) :

هؤلاء في قلوبهم فسادُ عقيدة. عقيدتهم فيها شكّ ورياء لجلب المصلحة. فزادهم مرضا أي أَوْكَلَهُم إلى أنفسهم، فلم يصلحوا أمرهم، وتمادوْا على ما هم عليه، ولكن سيصيبهم عذاب موجع على كَذِبِهم، وعلى رِيائهم، وعلى مخادعتهم للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ (10) أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ (11) :

من علامات نفاق هؤلاء أنّهم كانوا فاسدين قبل اِدّعائهم الانتماء للإسلام. كانوا يأتون في نواديهم المنكر، ويتعاملون بالرّبا، ولا يتناهون عن اِتّباع الهوى وظلم النّاس وخاصّة يتامى النّساء. ولمّا جاءهم الإسلام بتحريم هذه المفاسد والنّهي عنها اِستمرُّوا على ما هُم فيه من غَيٍّ وإفساد.

وحينما يُسْتَنْكَرُ عليهم فعلُهم هذا، ويُسْتَنْكَرُ عليهم دوامُ مُوَالاتهم للكفّار ومجالستهم يدّعُون شَرَفَ الغاية، يَدَّعُون أنّهم يريدون استمالة الكفّار للإسلام والإصلاح بين الفريقين. وهذا مظهر آخر من مظاهر مخادعة المؤمنين. وجاء الردّ الرباني مُنَبِّهًا للمؤمنين بأنّهم هم المفسدون حقًّا، وبأنّهم لا يشعرون بأنّ أمرهم مكشوف عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

• وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ **(12)** :

وَممّا يُستدلّ به على نفاق هؤلاء أنّهم إذا قيل لهم: كونوا كأتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم في التّصديق به، والعمل بالشرع الّذي ينزل به عليه من الوحي، ردّوا على النّاصحين في تعجُّبٍ واِستنكار، أنصدّق بما يصدّق به هؤلاء البسطاء، وضعاف العقول والرأي؟

إنّ هؤلاء المنافقين هم الجهّال حقّا، وذوو الخِفّةِ في العقل والرأي، ولكن لا يعلمون ما هم عليه من غياب الرُّشْد عنهم حتى تُثْبِتَهُ لهم الأيامُ مستقبلا.

والمستفاد من هذه الآي الثلاث (الآيات 10-11-12) أنّ من أهمّ صفات المفسدين في الأرض: رفض التديّن. وما هذا الرّفض إلاّ لأنّ الدّين يَعِظُهم لأن يزكّوا أنفسهم ليعملوا صالحا، وليتّقوا ربّهم فيما يقولون وما يفعلون ليأمنوا على أنفسهم من العذاب يوم البعث للحساب. وتذكير المفسدين في الأرض بيوم الحساب من أكثر ما يكرهون سماعه، ومن أكثر ما يصمّون عنه آذانهم، لأنّ هذا التّذكير يردعهم عن إتيان أهوائهم في إتيان الفواحش والمعاصي، والانغماس في ملذّات الحياة الدنيا ومكاسبها، وهذا ممّا لا يطيقون سماعه.

ومن غريب أمرهم أنّهم يزيّنون لأتباعهم أن ينكروا مثلهم الإيمان بالبعث وبالحساب، وأن يعتبروا الإيمان بهما من السَّفَهِ، أي من ضعف العقل، ولكنّهم هم السفهاء الذين ذهب عنهم رشدهم.

وإنّ من صفاتهم: الغدر والنّفاق ممّا يجعلهم يسمّون الأسماء بغير صفاتها الحقيقيّة، كالذي يستورد من البلاد الأجنبية نفايات مسمومة ومضرّة بالأرض والبحر والعباد والبيئة بمقابل مادي كبير لفائدته بدعوى الاستثمار وتشغيل اليد العاملة في رسكلتها قبل ردمها أو إلقائها في البحر.

وما ورّده لبلاده هالك للعباد، مسمّم للحيتان وللأرض إذ يجعلها جدباء بعد خصبها، وما هو باستثمار، وإنّما هو من غدره بأرض بلاده وبمن يشغّلهم بها، وهو من جشعه، وما قام به هو من الجرم. ويدّعي مروّجو المخدّرات أنّهم يبيعون للشباب ما يسلو عنهم ويذهب عنهم همومهم، وليس الأمر كما يدّعون، وإنّما هم يبيعون للنّاس سموما، ويبيعونهم ما يدفعهم لجميع أشكال الانحراف، أو التطرّف، أو الأعمال الإجرامية من مثل السرقة أو قطع الطريق على النّاس، أو الاغتصاب، ويلهيهم عن العمل وعن الكسب الحلال. وإنّ ما يربحون من مال من ترويجهم لهذه الممنوعات المضرّة المهلكة للأبدان والأخلاق ليس من التجارة، وإنّما هو من المال الفاسد الحرام، وما هم بتُجَّار وإنّما هم من المفسدين في الأرض.

ومن أصناف المفسدين في الأرض الذين يدفعون أصحاب طالبي الخدمات الإدارية الواجبة قانونيا لدفع الرشاوي لهم لقضاء مصالحهم، ويسمّون هذه الرشاوي هدايا، وما هي من الهدايا

وإنما هي من المال الفاسد الذي يحرّمه الدين ويعاقب عليه القانون، وما أكثر الأعمال التي تدفع فيها الرشاوي التي ليس من ورائها إلاّ الإضرار بحقوق الناس، أو لتدليس الوثائق ذات الأهميّة. وما أكثر مظاهر الإفساد في الأرض طلبا للمال الفاسد، أو لتضليل النّاس عن الحقّ وعن الاستقامة للقيم الدينيّة والأخلاقيّة في عالمنا المعاصر، وما يشعر هؤلاء المفسدون مدى عظم جرم ما يفعلون وما يضرّون به النّاس.

- وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ(13) :

المُراد بشياطين هؤلاء المنافقين هم أعداء الإسلام من رؤساء الكفر والفتنة وكبار الكهنة. ومن علامات المنافقين أنّهم يتحدّثون عن إيمانهم إذا لقوا المؤمنين أو جالسوهم وعند تعاملاتهم المادية معهم لتحقيق مصالحهم، ولكنّهم حين يجالسون رؤساء الكفر والفتنة وكبار الكهنة في جلساتهم الخَلَوِية الخاصة والسّرّيّة طمْأنوهم بأنّهم على الوَلاَءِ لهم، وأخبروهم بأنّ حديثهم مع المؤمنين عن الإيمان كان حديثا للسخرية والمخادعة لأنّهم بسطاء.

- ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (14) :

قيل في "العَمَه" بأنّه عمى القلب، أو عمى البصيرة. وهو في اللّغة هو في العين إذا كانت تُبْصِرُ ولكن يأخذها الخَتَلُ فلا ترى الشيء وهو تحت نظرها كأنّها فاقدة البَصَرَ.

هذه في وعيد هؤلاء المنافقين الذين يخدعون المؤمنين بكلامهم، وَيُبْطِنُون الهزءَ بهم إستخفافا وتحقيرا، يتوعدهم الله تعالى بالاستهزاء بهم. استهزاء الله بهم يعني إمهالهم ليواصلوا هُزْأهم بالمؤمنين وليستمرّوا على ما هُم عليه مع شياطينهم إلى أن يريهم ما يكرهون من نصر المؤمنين وغلبتهم على شياطين الكفر ودَحْرِهم، وحتى يُريهم تنامي قوّة شوكة المؤمنين بما يقذف في قلوبهم الرعب والخوف منهم، فيذلّهم بهذا الخوف، ويملأ قلوبهم ذُعرا من انكشاف أمرهم عند المسلمين فلا يأمنون بهذا سوء عاقبتهم، وهكذا يظلّون يعيشون الخوف وعدم الأمان حتى يموتوا كَمَدًا وتحيّرًا، وهم لا يدرون ما يفعلون.

- أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (15) :

هذه الآية في صورة مِنَ "اُلعَمَه" الّذي كان عليه هؤلاء المنافقون.

والشراء هنا الاستبدال والتعويض، واستعمال اسم الإشارة للبعيد ليدلّ على بُعْدِهم عن الهدى. والمعنى: استبدلوا الصدق بالنّفاق، وعوّضوا الإخلاص بالمخادعة فاستحبّوا بهذا الشراء الكفر على الإيمان، فخسروا في هذه التجارة، وخسروا الصَّفْقة. وبهذا جانبوا الصّواب ولم يهتدوا للمنهج الذي يجلب لهم الخير والربح وعمهوا عن الهدى الذي كان من حولهم، وضلّوا عنه.

• مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ (16) :

مثل هؤلاء الّذين رفضوا الانتفاع بهدي الله، وآثروا عليه بقاءهم على جهالتهم كمثل من أُوقِدَت لَهُ نارٌ في ليلة مُظلمة ليستضيءَ بها، ويكشف بها في محيطه ما ينبغي له أن يتّقِيَهُ ويحذر منه، ويعرف بها موضع ما يحتاج إليه، وما يستفيد منه، فإذا بهذا الضوء يذهب عنه، ويتركه في ظلمة متحيّرا لا يبصر شيئا. وهذا مَثَلُ المعاندين المصرّين على البقاء على جهالتهم، فَ(ٱسۡتَوۡقَدَ) يعني طلب أن يُوقدَ له ليُضاء له، فلمّا جاءه النّور، وهو الهدى الربّاني الذي جاء به الوحي، فأضاء المحيطَ كلَّه بضيائه حُرِمَ منه أولئك فتُرِكُوا في ظلماتهم لا يبصرون.

• صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (17) :

هؤلاء صُمٌّ لا يسمعون ما يدلّهم على الحقّ، ويكشف لهم الباطل، ولا يسمعون ما تلين له القلوب، وتنير السبيل الأقوم للعقول. وهم بُكْمٌ لا ينطقون بالحقّ، ولا ينصرونه، بل يسكتون عنه سكوت الأخرس. وعَمِيت أبصارهم فلم يروا بها دلائل الله وآياته ليعرفوا بها ربّهم. وهم من إصرارهم على الكفر والضلالة لا يرجعون عن هذا الغَيّ إلى الحقّ من عنادهم.

• أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ (18) :

هذه في ضرب مَثَلٍ آخر في كيفية تَقَبُّلِ المنافقين للتنزيل. وفي هذه الآية اِستعارات كثيرة. اُستُعيرَ للوحي أو التّنزيل الذي ينزل بالهدى والتّبشير بصيّب من السماء. وأُستُعير لما كان عليه القوم من أمّية وجهالة وضلالة قبل مجيء محمّد صلّى الله عليه وسلّم إليهم بالظلمات، وأُستعير للوعيد والنّذير بالرعد. وأُستُعير للحجج والدلائل على الوحدانية وصدق الوحي بالبرق المضيء. وأُستعير لما نزل من الحدود والمحرّمات والأمر بالجهاد والإنفاق بالصواعق. وأُستعير بالحذر من الموت للدلالة على خوف هؤلاء من ذهاب هيبتهم وزعامتهم ومصالحهم والانتهاء عن إتيان شهواتهم. والمستفاد من (يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم) الإشارة لامتناعهم عن سماع ما يُبَلَّغُون به.

والمعنى أنّ شأن هؤلاء المنافقين من الوحي كشأن القوم الذين نزل عليهم غيث غزير في ظلمة من الليل مع ظلمة الغيم، وذُعِرُوا من أصوات الرعد الشديد ومن برقه، فسدّوا آذانهم بأصابعهم حتى لا يسمعوا ما يأتيهم من أصوات مخيفة من الصواعق ذات الوقع الشديد على نفوسهم خوفا من أن يموتوا من الذعر، وما علموا أنّ الله محاصِرُهم من كلّ جهة، وأنّه جامِعُهم يوم القيامة.

• يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (19) :

هؤلاء حين يرون من صدق الدلائل والحجج الّتي جاء بها القرآن ما يَبهرُهم، وحين يسمعون من بلاغته وفصاحته ما يُعجزهم يكادون يأْنَسُون به، ويكادون يمْضُون في الاستماع إليه، وهذا معنى قوله تعالى: "يكاد البرق (الّذي هو نور القرآن بدلائله وفصاحته) يخطف أبصارهم (يؤنسهم) كلّما أضاء لهم مشوا فيه" (يمضون فيه)، ولكن "وإذا أظلم عليهم" أي إذا نزل فيه ما يعيب عليهم كفرهم وعنادهم "قاموا" أي أصرّوا على عنادهم وعادوا لنفاقهم. ولولا فضيلة الإمهال عساهم يتوبون ويثِبُون لرشدهم لتركهم في جهالتهم وظلماتهم لا يبصرون، ولعطّل أسماعهم حتى يهلكوا على ما هم عليه من الكفر والنفاق فإن الله لا يعجزه شيء لأنّه تعالى قدير على كلّ شيء.

وبهذه الأوصاف تُخْتَمُ هذه الآية في فضح نفاق الّذين لم يبلغ الإيمان قلوبهم.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (20) :

الخطاب في هذه الآية للنّاس جميعهم، مؤمنيهم وكافريهم، منافقيهم وملحديهم. يأمرهم الله تعالى بالتوجّه بعبادتهم لسيّدهم الّذي تفضّل عليهم بخلقهم، والّذي خلق جميع النّاس من قبلهم. فهو الأحقّ بالعبادة والتقديس والطاعة لهذه الفضيلة، وليس من إلاه غيره قد تفضّل عليهم بالخلق. وعساهم بهذا يخشون غضب ربّهم عليهم.

- ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (21) :

الله الّذي خلقكم وخلق البشريّة كلّها من قبلكم هو الذي خلق لكم الأرض وصيّرها لكم بساطا ممهّدا للاستقرار عليها، والسعي فيها، وجعل لكم السّماء سقفا مرفوعا كالقبّة المضروبة تحميكم وتقيكم من السوء، وهو الذي أنزل من السماء ماءً لشرابكم وحاجاتكم، ولرَيّ أرضكم حتى تخرج لكم الزّرع، والثَّمَر من الشجر لِقوتكم وفاكهتكم. هذا هو الله الذي يستحقّ عبادتكم وشكركم وطاعاتكم، فلا تتخذوا غيره إلاها لا فضل له عليكم، ولا تجعلوا لله الخالق الحقّ شريكا ولا ندّا ولا كُفءًا، والحال أنّكم تعلمون أنّ آلهتكم المزعومة لا تستطيع لكم شيئا، ولم تنفعكم بشيء.

- وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (22) :

هذه الآية تُفهم على وجهين بحسب تحديد العائد عليه للضمير الغائب في (من مثله):

أ) فإن عاد الضمير على (ما نزّلنا) كان معنى الآية في تحدّي بلغاء العرب وفصحائهم لأن يأتوا بمثل هذا التنزيل في فصاحته وبلاغته وضرْب المَثَل، إنْ كان عندهم شكّ في الوحي. ثمّ فليدعوا شهداءهم من الثقات لمقارنة ما يقولون بما نزّل الله تعالى: هل يستطيعون أن يأتوا بمثله؟ فإن لم يستطيعوا فلْيؤمنوا بهذا التنزيل ولْيصدّقوا به إن كانوا نزيهين.

ب) فإن عاد الضمير على (عَبۡدِنَا) وهو محمّد صلّى الله عليه وسلّم فإنّ المعنى يكون على النحو التالي، إن كنتم تكذّبون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم فيما يبلّغكم عن ربّه فأتُوا برجل من مثله: أُمّيٍ، وعلّموه ما شئتم من العلم ومن الفصاحة والبلاغة، ثمّ ادْعوا شهداءكم وحكّمُوهم فيما يسمعون من محمّد صلّى الله عليه وسلّم وفيما يسمعون من رجلكم. هل يكونان مثل بعض؟ وهذا إن كان عندهم شكّ في صدق محمّد وأمانته فإن لم يكونوا فآمنوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وصدّقوا به إن كنتم أمناء نزيهين.

- فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ (23) :

في هذه إخبار، وتنَبُّؤٌ بالتّعجيز تحدّيا قصد إثبات صدق الوحي وصدق النّبي صلّى الله عليه وسلّم. فأمّا الإخبار ففي قوله (فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ)، وفعْلاً لم يعرف عن العرب أنّهم حاولوا الإتيان بكلام من مثل القرآن، أو فكّروا في أن يأتوا برجل من مثل محمّد صلّى الله عليه وسلّم لمُنَاظرَتِهِ.

وأمّا التحدّي فجاء بالفعل المَنْفِي بـ(لَن) التي تُفيد الاستحالة في قوله تعالى (لَن تَفۡعَلُواْ).

فلمّا لم يقع هذا فإنّ عليهم أن يصدّقوا بما جاءهم وبنبيّهم وإلاّ كانوا كافرين، وجزاء الكافرين عند ربّهم أن يكونوا وَقُودا لنارٍ تكون أجسامُهم والحجارة أساسَ وَقُودِهَا.

بهذا التّحدّي التّعجيزي في هاتين الآيتين أثبت تعالى صدق الوحي وصدق محمّد صلّى الله عليه وسلّم في تكليفه بالرّسالة وهذا من التّثبيت للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وبما أنّ الخطاب كان عامّا، وبما أنّ هذا التّنزيل كان بالمدينة فإنّ أهل الكتاب معنيون به ليصدّقوا بالرّسالة. لم يكن الخطابُ خاصّا بالمشركين فحسب.

- وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (24) :

كلّما جاء في القرآن الكريم وعيدٌ أُلْحِقَ بالوعد خيرًا بعده، مثلما جاء في هذه الآية بعد الوعيد السابق، وهذا قصد الترغيب بعد الترهيب. وهذا عادة في القرآن: إنذار وتبشير. وهذه الآية في تبشير المؤمنين العاملين الصالحات بالإنعام عليهم في آخرتهم بالإقامة في محيط مُرَفَّهٍ: إقامة في بساتين تجري من تحتها الأنهار للرطوبة ومتعة للعين وبهجة للمكان، ولهم فيها من كلّ الثمرات رزقا حسنا كالذي كانوا يشتهون ويحبّون في دنياهم. ومع هذه الخيرات يأنسون بالأزواج ذوي العفّة. وهم فيها خالدون لا يخشون زوال النّعيم ولا يخشون موتا وهلاكا.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ (25) :

من خصائص القرآن في الإفهام والإقناع ضرب المثل لتقريب الصورة في تقييم عمل الآدميين كالذي تقدّم في تشبيه عمل المنافقين. وأحيانا يضرب المثل للاستدلال به على آية من آيات القدرة كهذه الآية.

والمعنى أنّ الله سبحانه لا يمتنع عن أن يضرب أيّ مَثَلٍ، قد يصغر وقد يكبر. يضرب المثل ببعوضة، وهي حشرة صغيرة رقيقة جدًا في جسمها، ولكنّ لسعها أليم، وأحيانا يكون خطيرا على الإنسان على ضخامته، وربّما تضرّ بمحيطه وتنقل العدوى في وسط المجموعة من حوله. حجمها حقير وعملها خطير وأليم، تمتصّ دمه، وقد تنقل إليه مرض غيره فتصيبه العدوى. ويضرب المثل بما فوقها ممّا هو أكبر منها حجما، وأشدّها إيلاما وخطرا على حياة الإنسان.

فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنّ خلقها من آيات القدرة على دقّة الخلق وفي تكوين حجمها وخصائص أجنحتها وأرجلها وإبرتها، وفي تحديد نوع قوتها وخاصية بيئتها. وأمّا الذين كفروا فيستغربون من ضرب المثل بهذه الحشرة الحقيرة من غير تدبّر لحكمة الخلق وحكمة ضرب المثل بها. وما يعلمون أنّ تأمّلهم في تدبّر هذا المثل، وفي التأمّل في حجم البعوض ودقّة عمله في امتصاص الدم من العروق، وفي صوته المزعج الذي يوقظ النّائمين من نومهم العميق ما يدلّهم على ربّهم وقدرته عليهم، فقد يسلّط الله على القويّ من خَلْقه أضعف خلقه يؤذيه أو يهلكه. كذا يهدي الله تعالى بضرب هذا المثل عبده المتأمّل إليه وإلى الإيمان بقدرتِه. ومن أعرض عن تدبّره ظلّ على ضلاله. ولا يُوَفَّقُ في الاهتداء لربّه الفاسقُ، وهو الخارج من طاعة الله عزّ وجلّ إلى المعصية. والفِسْقُ هو الخروج عن الشيء كخروج حبّة الفستق عن قشرتها، والفسوق هو نمطٌ آخر من الكفر.

- ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ **(26) :**

هذه في صفة الفاسقين الذين خرجوا عن طاعة الله. حَلّوا العهد الّذي كان بينهم وبين الله ورسوله بعد التأكيد على الالتزام به بالأَيْمَان المؤكّدة وشهادة رسولهم كالعهد الذي أَخَذَهُ أهلُ الكتاب على أنفسهم من قَبْلُ وألزمُوا به أنفسهم بالإيمان بوحدانيّة الله، ثمّ قالت طائفة منهم الله ثالث ثلاثة، وأُخِذَ عليهم العهدُ بالإيمان برُسل الله فلمّا جاءهم محمد صلّى الله عليه وسلّم كذّبوه وأنكروا عليه رسالته وشاقّوه. وهم الذين يقطعون ما أمرهم الله بالتواصل معه كالّذي فعلته طائفة من أهل الكتاب قاطعوا محمدا صلّى الله عليه وسلّم وهو من نسل إبراهيم عليه السلام، وأُخذ عليهم العهدُ بمناصرته لأنّه على ملّتهم في التّوحيد والإيمان بالملائكة وبالرّسل وبالكتب وباليوم الآخر فلمّا جاءهم ناصبوه العداء. وهم يفسدون في الأرض لأنّهم تآمروا على محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلى أتباعه وشاقّوهم، وكادوا لهم في الخفاء، ونصروا عليهم أعداءهم من المشركين وأعانوهم عليهم، وسيأتي بيان مظاهر أخرى من إفسادهم في الأرض في آيات لاحقة.

هؤلاء هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته فخسروا رضى الله عنهم، وخسروا عاقبتهم.

- كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (27) :

الخطاب في الآية للجاحدين الغافلين عن ذكرِ فضل ربّهم في خلقهم. والإستفهام لحَفْزِ العقول للتعرّف إلى الخالق الواجد لهم وإلى الذي أحياهم وقد كانوا من قبلُ في العَدَمِ لا حياة لهم. وقد عَلِمُوا حينما وُجدوا أنّ كلّ حيّ ميّت لا محالة بغير إرادته، وفي وقت غير معلومٍ عنده. كيف يجحدون فضل من أحياهم وكانوا في العدم، وكيف يجحدون قدرة من يُميتهم وقاهرهم بالموت رغْمًا عليهم؟ وكيف يكذّبون ببعثهم بعد موتهم، فهلاّ تدبّروا في خلقهم ماذا كانوا قبل أن يُولدوا ويُبعثُوا للوجود والحياة، والحال أنّ البعث بعد الإيجاد أيسر من الإيجاد من العدم، وإنّهم بعد زمنٍ سيرجعون للذي خلقهم لمحاسبتهم على معتقداتهم وأعمالهم، ومخاطبة هؤلاء الجاحدين الغافلين عن النّظر في أنفسهم لتدبّر خَلْقِهِمْ فيعرفوا من أنفسهم خالقهم، مخاطبتهم بالكافرين يدلّ على أنّ الجحود نمطٌ من الكفر، وأنّهم والمكذّبون بالبعث في الكفر سواء.

- هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (28) :

الله الّذي خلقكم هو الله الّذي خلق لكم كلّ ما على الأرض مسخَّرًا لكم لتقتاتوا ولتقيموا عليها وتعيشوا حياتكم، ثمّ قصد إلى السماء فجعل منها سبع سماوات محكمة القيام متقنة في السير وتامّة التكوين. وهو خبير بكلّ شيء، مطّلع على أفعال جميع مخلوقاته بدقّة كبيرة.

- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (29) :

حين تحدّث تعالى عن خلق الإنسان ناسب هذا الحديث التذكيرُ بقضية خلق آدم، فجاءت هذه الآية وما بعدها لغاية الآية 38 لبسط قضية خلقه، والغاية التي خُلق لها، وخصائص خلقه، وعرضت موقف الملائكة وإبليس من هذا المخلوق المميّز، وقضية نزوله إلى الأرض.

ذكر تعالى في هذه الآية أنّه عرض على الملائكة أنّه خالق للأرض مخلوقا يستخلفه فيها ليعمّرها بسكناه وبعمله وليقيم فيها مظاهر الحياة. تخوّفت الملائكة من أن يفسد هذا المخلوق صنع الله فيها، وما أوجده فيها من عناصر قيّمة مميّزة توفّر الحياة والعيش لِسَاكِنِيهَا، وتخوّفوا من أن يعصي الله في ما يخلق بسفك الدم والقتل فيملأ الأرض معصية وعدوانًا والحال أنّهم يملؤون الوجود تسبيحًا لتعظيم ذكر الله تعالى بحمده، وأنّهم يقدّسونه طاعة، ولا يعصونه فيما

يأمر، وأخبرهم تعالى بأنّ علمه أوسع من علمهم، وأنّه أعلم بما يغيب عنهم من العلم المستقبلي. لم تكن الملائكة على علم بالغيب بما سيفعله الإنسان عند استخلافه في الأرض، ولكنّهم يعبّرون عن تخوّفهم من أن يغفل عن تَسبيح الله تعالى بحمده، وعن تخوّفهم من أن يفسد في الأرض، ويزهق الأرواح البشرية لأنّهم يعلمون عظم هذه المعاصي عند الله عزّ وجلّ.

- وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ(30) :

ولمّا خلق الله آدم عليه السّلام خصّه بعِلْمٍ يفوق علم الملائكة، هو علم الأسماء كلّها، أي دلّه على الوسائل الّتي يُوَفَّقُ بها لتسمية المسمّيات بأسمائها. هذه خاصية في الإنسان تُؤَهِّلُهُ حقًّا ليكون جديرا بالاستخلاف في الأرض. من هذه الوسائل النظر والانتباه والابتكار واستعمال القياس والتجربة وكلّها من خصائص إعمال العقل والفكر واستغلال الذكاء وحبّ الاطّلاع والمبادرة.

وعرض تعالى المسألة على الملائكة فدعاهم لأن يُخْبِرُوهُ بأسماء ما عُرِضَ عليهم إن كانوا صادقين في تخوّفهم من اِستخلاف آدم في الأرض.

- قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (31) :

وأجاب الملائكة بأنّهم ينزّهون الله عمّا لا يليق بعظمته وحكمة تدبيره، وأنّهم لا يعلمون إلاّ ما علّمهم الله إياه، فلا يتجرّؤون عن القول فيما لم يعلّمهم الله إياه، وأقرّوا بأنّ الله هو العليم الذي كثر علمه بدقائق الأمور فلا يخفى عليه شيء منها، وأنّه هو الحكيم المبدع الذي يُحسن تدبير كلّ شيء. ولا يفعل إلاّ ما فيه حكمة بَالغةٌ ولا يخلق شيئا للعبث.

وفي ذكر هذه القصّة إشارة بليغة للعظماء والرؤساء وحكّام الشعوب ليتخيّروا مستشاريهم من الثّقات وأهل النّصح الصادق ومن ذوي الكفاءة ليدلّوهم على ما يجب الحذر منه إذا عزموا على إحداث أمر ذي بال وأهمية كبيرة، ولا خاب من اِستشار. الله تعالى لا يستشير فيما يقضيه أحدًا، ولكنّ هذا العرض القصير لعِظة النّاس وإفادتهم بما ينفعهم إذا عزموا على أمر مهم. ومن الإفادات الأخرى في هذه القصّة أنّ الإنسان قد شُرّف وكُرّم على غيره من الخلق بما علّمه الله جلّ وعلا، فالعلم مناط التكريم: وما أحوج الأمة الإسلامية أن تتّعظ بهذا، وهي أمّة "اِقرأ" وأمّة "القلم"، ولكنّ أغلب مواطنيها يزهدون في العلم والقراءة والتأليف، ويزهدون في اِقتناء الكتب ومطالعتها.

- قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ (32) :

وأمر الله سبحانه آدم لأن يخبرهم بأسماء ما عُرِضَ عليهم من الأسماء ممّا جهلوا معرفتها، فأخبرهم بها آدم، فقال لهم الله: ألم أُخبركم بأنّه لا يغيب عنّي من أمر السماوات والأرض أيّ شيء.



وإنّي على عِلْمٍ بما تظهرون من الأعمال، وما تجهرون به من الأقوال، وما تُخفُون في قراركم من خاطرٍ ورأيٍ.

- وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (33) :

هذا تكريم ثان لآدم تشريفا لبني جنسه، فقد أمر الله تعالى ملائكته بأن يسجدوا لآدم، وسجودهم سجود احترام وتقدير وتشريف، وليس كسجود الآدميين لربّهم سجود التقديس والطاعة. وكان في جموع الملائكة إبليس سيّد الجنّ، فسجد الملائكة كلّهم طاعة لأمر الله عزّ وجلّ وتنفيذا لأمره إلاّ أنّ إبليس لم يسجد، وامتنع عن السجود، ورفض تنفيذ أمر ربّه، وهذا من أعظم مظاهر العصيان وعدم الاستحياء من الخالق، فصار بعصيانه هذا من الكافرين.

من المهمّ التّنبيه أنّ أمر الله بالسجود لآدم كان موجّها للملائكة، ولقد كان إبليس معهم حين جاءهم الأمر من الله، ولمّا سجد الملائكة ولم يسجد إبليس معهم سئل عن تخلّفه عن السجود فأظهرت إجابته اِستعلاءه واستكباره عن السجود للكائن الذي خُلِق من مادّة يراها عدوّة له، فقد خلق إبليس من نار وخلق آدم من تراب، والتراب يطفئ النّار ويخمدها. وسيتبيّن فيما سيأتي سبب عصيان إبليس لأمر ربّه.

- وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (34) :

وأسكن الله آدم الجنّة، ومعه زوجه الّتي خُلقت له صاحبة. وهذه الجنّة هي غير جنّة الجزاء الّتي وعد الله بها عباده المؤمنين العاملين الصالحات نُزُلا يوم القيامة، فعند الله في ملكوته العلوي جنان تكريم كالّتي أُعِدّت لأنبيائه ورسله والشهداء. وأباح الله لهما أن ينعما بجميع خيراتها من أيّ جهة شاءا، وأن يأكلا من الثمار رغدا أي نعيما واسعا طيّبا هنيئا لا عَنَاء فيه. ونهاهما عن أن يقربا شجرة واحدة من كلّ ما هو موجود مباحٌ لهما اختبارا لمدى طاعتهما، وحتى لا يظلما نفسيهما بالأكل ممّا لم يُبَحْ لهما.

- فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (35) :

ورغم ذاك التنبيه المباشر لآدم وزوجه بعدم الاقتراب من شجرة واحدة في كامل ما يوجد في الجنّة من مباح، والتّحذير من ظلم النّفس بالوقوع في المعصية، إلاّ أنّ إبليس استطاع أن يوقعهما في المخالفة والزّلل، وقد علم آدم ما كان من عصيان إبليس لأمر ربّه حين دُعِيَ للسجود له حسدا له. استطاع إبليس أن يوقعهما في المعصية: أكلا من الشجرة فأخرجهما الله ممّا كانا فيه من نعيم ورفاه، وأمرهما ومعهما إبليس بالهبوط إلى الأرض، وحذّرهما من عداوة إبليس لأنّه

سيظلّ عدوّا لهما ولبنيهما من بعدهما، ومن إغراءاته والإيقاع بالمُغَرِّرين في المعصية. وقضى تعالى أن يكون للآدميين والشياطين مستقرّ في الأرض، كلّ على قدر الأجل الّذي حُدِّد له.

وليس الغرض من الآية عرض الظروف الّتي أحاطت بهبوط آدم وزوجه والشياطين إلى الأرض للعلم، ولكنّ القصد أعمق من ذلك، فإنّ من وراء هذا العرض تنبيه الآدميين لضرورة الحذر من تدبير الشيطان وإغراءاته بمعصية الله فيما أمر ونهى عنه كي لا يظلموا أنفسهم، وحتى لا ينتصر عليهم عدوّهم الأزلي. وما أمر الشجرة التي نهى الله آدم وحواء عن قُربها إلاّ لتبيّن أمرين: أحدهما : أنّ المحرّم إزاء المباح الحلال قليل جدا، وأنّ التحريم لم يكن للحرمان لذاته، وإنّما هو للاختبار. فهذا العرض للاعتبار قصدا للالتزام بطاعة الله حتى لا يظلم المرء نفسه بالمعصية.

- فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (36) :

مرّة أخرى يحظى آدم بتكريم ربّاني. فبعد وقوعه في المعصية ألهمه الله كلمات تدلّ على النّدم عمّا فعل، وعلى طلب التّوبة والعفو، وتلقّاها الله منه فتاب عليه، وهذا من رحمته تعالى به حتى لا يظلّ يحمل وزر المعصية وتبعاتها إلى يوم الدّين، فهو سبحانه التوّاب، كثير القبول للتوبة، لا تنقطع توبته عن عبده وإن تكاثرت سيّئاته وزلاّته وكثرت طلباته للتوبة، وهو تعالى كثير الرّحمة بعبده يردّه لرشده بعد زلّته ليتوب حتى يتوب الله عليه.

- قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (37) :

وأمرهم تعالى بالهبوط إلى الأرض للاستقرار فيها، ونَبَّهَ آدم ومن ورائه بَنِيهِ بأنّه سيرسل إليهم رسلا، وعليهم كلّما جاءهم رسول من عنده تعالى أن يؤمنوا به، ويتّبعوا ما يأمرهم به من هُدَى الله: شرعه ومواعظه. فمن تبع هدى الله فلا خوف عليه من عذاب الآخرة، فهو منه آمن، ولن يحزن عند ملاقاة ربّه يوم الحساب.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (38) :

وأمّا الّذين يكذّبون برسله وأوامره ونواهيه ويكفرون بالحساب ولا يتناهون عن المعصية فسيكون مآلهم الخلود في عذاب الحريق بالنّار. هذا نذير تلقّاه آدم من ربّه ليبلّغه لبنيه، وبهذا التذكير لم يَعُدْ لبني آدم عذرٌ في التّمادي في المعصية وكذا ينتهي هذا الفصل من قصة تكريم آدم وقصّة هبوطه إلى الأرض، وفيما سيأتي من ذكره تتمّة لقصّته.

- يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ(39) :

بعد عرض وصيّة الله لآدم وبنيه من وجوب اتباع هدى الله الّذي يأتيهم به رسلُه، ناسب هذا العرضَ تذكيرُ بني يعقوب عليه السّلام بما عاهدوا الله عليه مع بعضٍ من رُسُلِه ثمّ خالفوه، فكانت هذه الآية وما بعدها من الآيات إلى غاية الآية 102.

يا بني إسرائيل هو لقب بني يعقوب عليه السلام. وإسرائيل اسم بالعبرية يعني: عبد الله، يدعوهم الله في هذا الكتاب لأن يشكروا فضل الله عليهم، وسيأتي ذكر جملة من هذه الفضائل فيما سيأتي من الآيات. ويدعوهم الله عزّ وجلّ للوفاء بالعهد الذي اِلتزموا به من قبل، وهو الإيمان برسل الله وبالنّبيّ الخاتم حتى يفي الله بما عاهدهم عليه من إدخالهم الجنّة والرضى عنهم كلّما أوْفَوْا بعهدهم. ودعاهم لتخصيصه تعالى بالخوف منه حتى لا يخافوا غيره من كهنة، أو يخافوا أن يذهب تفوّقهم على غيرهم من العباد لأنّهم أهل كتاب.

- **وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (40) :**

وجاءهم في هذه الآية الأمر بأن يؤمنوا بالقرآن وَحْيًا من عند الله على نَبِيِّهِ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد جاءهم القرآن مصدّقا بالتوراة والألواح ورسلهم وأنبيائهم، وبأن لا يكونوا أوّل فريق كافر به. ونهاهم الله عن المتاجرة بالدّين بإخفاء آيات وأحكام للتستّر عليها، أو إظهار بعضها مقابل الحصول على رشاوٍ، فكلّ ما يحصلون عليه إنّما هو ثمن قليل لما يلاقون من مؤاخذة عليه من بعد. وعليهم أن يخصّوا الله وحده بالتّقوى وبالرّهبة.

- **وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (41) :**

وانْتَهُوا عن خلط الحقّ بالباطل، وعن إخفاء الحقّ الذي جاءكم في كتابكم عن نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعن نصرته قصد الترويج لتكذيبه وأنتم تعلمون أنّه نبيّ صادق وقد جاءكم من الأدلّة ما يدلّ على صدقه.

- **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (42) :**

وجاء الأمر بالصّلاة في هذه الآية لأنّها العبادة الأكثر صلةً بالله، تذكّر العبد بعهده مع ربّه، وتذكّره بآخرته، وترهف حسّه وتُلِينُ قلبه حتى يُسارع للتوبة عند الوقوع في الخطإ أو الزّلل، وهي التي تنهاه عن كلّ منكر وتردعه عن كلّ مخالفة أو محظور، لهذه الغايات وغيرها من الفضائل دُعُوا لإقامة الصلاة حتى ينتهوا عمّا يفعلون من الباطل، ويستقيموا على الحقّ.

وأمّا إيتاء الزكاة فمظهر من مظاهر الإيثار والمؤازرة والتآخي، تؤلّف بين القلوب، وتطهّر المال، وتجعل الإنسان يتحرّى في طلب الحلال والابتعاد عن الكسب غير المشروع.

وأمّا الرّكوع مع الراكعين فغرضه اجتماع المؤمنين على فعل الخيرات، وتوحيد صفوفهم عند الشدائد والتّواصي بالحقّ والتّناصح عند الاختلاف، لذلك فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة.

- أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (43) :

الاستفهام في هذه الآية للتّوبيخ. والآية في طائفة من علماء اليهود: يأمرون أتباعهم بالبرّ الذي هو الإيمان والإحسان وحسن المعاملة. يحضون على طاعة الله وينسون أن يبدؤوا بأنفسهم فيقوموا على طاعة الله وينتهوا عن إتيان المعاصي في خلواتهم. يأمرون أتباعهم بالصدقات وهم يبخلون ولا ينفقون. هم يقولون ما لا يفعلون والحال أنّهم يقرؤون التوراة وفيها ما يدعوهم للإخلاص في الطاعة وفي الأمر بالمعروف. ويعرفون ما في التوراة من أخذ العهد عليهم بأن يؤمنوا بمن يأتيهم من رسل الله وقد عصوه حينما جاءهم عيسى عليه السلام وكفروا من بعده بمحمد صلّى الله عليه وسلّم. يؤمنون بالتوراة منزلا من عند ربّهم، ويكفرون بالقرآن الموحى إلى محمد صلّى الله عليه وسلّم. أفلا يحكّمون عقولهم في ما يؤمنون به وفي ما يكفرون به. في عملهم تناقض كبير، وهذا الاستفهام الثاني هو للتوبيخ أيضا.

- وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ (44) ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (45) :

يأمر تعالى بالصبر على الطاعة، ومسكِ النّفس وحَبْسِها عن مخالفة شرعه، ومقاومة هوى النّفس في اتّباع الشهوات وإتيان المعاصي. ودعا للاستعانة بالصلاة للثبات على الإيمان، وللمداومة في مراقبة الله في كلّ عمل أو قول حتى لا تزيغ النّفس قصد الثبات على الرُّشد والذّكر وعلى العمل الصالح. وقد تجدّد ذكر الصلاة بعد ما جاء في الآية السابقة من الأمر بإقامة الصلاة والركوع مع الرّاكعين، وذلك للتأكيد على أهميتها في تقوية النّفس على الصبر للمحافظة على رباطة الجأش خاصة عند الأزمات والشدائد وحتى تتجلّد وترتاح لما أصابها من القضاء، والصلاة داعمة لنفس الإنسان حتى تجد متنفّسها في رفع شكواها إلى الله وفي اللجوء إلى الله بالدعاء للاستعانة به على تفريج كربه فهو المستعان وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزَع إلى الصلاة. وإنّ الصلاة لكبيرة إلاّ على الخاشعين أي إنّها ثقيلة وشديدة على النّفوس عند الأزمات، لكنّها هي الملجأ والمتنفّس عند المتذلّلين لله في طاعتهم، المؤمنين الموقنين بأنّهم راجعون إلى الله عزّ وجلّ للحساب، وبأنّهم ملاقو ربّهم لنيل ثوابهم وجزائهم على إيمانهم وطاعتهم يوم العرض. والظنّ في هذه الآية لا يعني الشكّ، وإنّما هو بمعنى اليقين.

- يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ (46) :

يا بني يعقوب عليه السلام تذكّروا فضل الله عليكم واشكروا له، قد رفع ذكركم وأنجاكم من فرعون وظلمه واستعبادكم، ولا تنسوا عظيم فضله عليكم إذ ميّزكم على سائر خلقه في زمانكم بأن جعلكم أهل كتاب، واصطفى من نَسْلِكُم أنبياء ورسلاً، وأمّنكم على التوراة والألواح والتّابوت،

ونصركم على أعدائكم. وما هذا التذكير إلاّ ليراجعوا أنفسهم في موقفهم الرّافض للإيمان بالوحي والتصديق بالقرآن وبالنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بعد ما ذكّرهم الله بما عاهدوا الله عليه كما جاء فيما سبق.

- وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (47) :

هذه موعظة عامّة لجميع الآدميين ليحذروا سوء المآل يوم الحساب. هو يوم لا تفدي نفسٌ نفسا أخرى: لا تقبل شفاعة شافع مهما كانت قرابته لتنقذه من العقاب إذا حلّ به، ولا يردّ عن المحكوم عليه بالعذاب تقديم فدية مهما عظمت، ولا ينصره تابع أو مناصر إن كان من أصحاب الجاه. لا ينفع الإنسان يومئذ إلاّ إيمانه وعمله الصالح.

- وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (48) :

واذكروا يا بني إسرائيل فضل الله عليكم حين أنقذكم من آل فرعون. كانوا يذيقونكم أسوأ العذاب، وأليم القهر، إذ كانوا يقتلون الذكور من مواليدكم ذَبْحًا ليذهبوا بنسلكم، ويستبقون الإناث ليخدمن في بيوتهم مسخّرات لأمرهم، وكان هذا كربًا عظيمًا وبلاءً شديدا، ومحنة ابْتُلِيتُم بها فأنقذكم الله منها.

- وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (49) :

واذكروا فضله عليكم لمّا قضى بإخراجكم من مصر، ففرق لكم نهر النيل فرقا جعل فيه طريقا يَبَسًا لتمرّوا منه إلى الضفّة الثانية سالمين، ولمّا أراد آل فرعون اللحاق بكم لردّكم إليهم قهرا وقسْرًا أغرقناهم في اليمّ تحت أنظاركم شِفَاءً لصدوركم.

- وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ (50) :

واذكروا شنيع فعلكم حين غاب عنكم موسى عليه السلام أربعين ليلة لموعدٍ أمرناه به عند طور سيناء، فصنعتم لأنفسكم عجلا اِتّخذتموه معبودا من دون الله، فما كان أبشع ظلمكم لأنفسكم، فبَدَل أن تشكروا ربّكم الذي أنجاكم من عدوّكم اتّخذتم إلاها آخر غيره معبودا !

- ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (51) :

ثمّ أنعم الله عليكم بالعفو عنكم، بالتجاوز عن جُرمكم الكبير وعملكم الشنيع حين أحرق موسى ذاك العجل وأنتم تنظرون عسى أن تشكروا ربّكم بالثّبات على عبادته وطاعته.

- وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (52) :

وتفضّلنا عليكم بأن أنزلنا على موسى الكتاب لتهتدوا به إلى ربّكم والشّرع الذي يفرّق بين الحلال والحرام، وبين الحقّ والباطل إرشادا لكم لتستقيموا على الدّين الحقّ وعلى العمل الصالح.

- وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ **(53) :**

ولمّا رجع موسى إلى قومه من طور سيناء، ووجد بعضهم يقدّس العجل كان له حوار ساخن مع أخيه هارون، ثمّ أحرق العجل تحت أنظار الجميع، وأطرد السّامريّ صاحب التدبير الخاطئ، ثمّ اِلتفت إلى القوم قائلا: لقد أجرمتم في حقّ ربّكم بالشرك، فَلْيَقْتُلْ من لم يَعْبُدْ منكم العجلَ كُلَّ مَنْ عَبَدَه توبةً وطلبًا للعفو، فهذا خير لكم من السّكوت عن معاقبة الظالم لنفسه وخير لكُم عند بارئكم من أن تغمضوا العين عن هذا الجرم الشنيع. والبارئ هو الواحد المبدع من غير مثال. فلمّا فعل بعضُهم ببعض ما أُمِرُوا به تاب الله عنهم، وعفا عنهم لأنّه جلّ وعلا كثير التوبة بعباده المنيبين إليه، ولأنّه كثير الرّحمة بعباده.

- وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ **(54) :**

هذه صورة من صور مجاوزة الحدّ في الطّلب بما يدلّ على عمق الشكّ فيما يبلُغه من علم أو قول. فقد ذكّر تعالى بني إسرائيل الذين نزل فيهم الوحي في عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالشكّ الذي كان عليه أسلافهم السبعون الذين ذهبوا لميقات ربّهم مع موسى عليه السلام. قال هؤلاء لموسى –وهم في الميقات– لا نصدّق بما أوحي إليك حتى نرى ربّنا جهرة عين اليقين فأنزل عليهم ربّهم صاعقة ذات صيحة شديدة مفزعة، فيها نار فأحرقتهم وهم ينظرون لبعضهم وهم يَحْتَرِقُون. وجاءهم هذا التذكير ليزيلوا ما في قلوبهم من تكذيب بالنبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم من شكّ في الوحي الذي ينزل عليه حتى لا يصيبهُم ما أصاب السبعين رجلا الذين كانوا مع نبيهم في الميقات.

- ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ **(55) :**

فلمّا حلّ بهؤلاء ما أهلكهم فَزَعا وحرْقًا خرّ موسى عليه السلام ساجدا لربّه يدعو خاشعا متذلّلا يطلب اللطف بمن كان معه والرحمة فاستجاب له ربّه وهو العفو الرحيم فبعثهم من بعد موتهم أحياء عساهم أن يكونوا بعد العقاب الذي أصابهم والفزع عبادا شاكرين لا يعصون الله ما أمرهم، وحتى لا يتجرّؤوا على الله في طلب ما لا حقّ لهم فيه.

وهذه نعمة أخرى من أجَلِّ النّعم التي أنعم الله بها على قوم من بني إسرائيل رأفةً ورحمةً.

- وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ **(56) :**

في هذه الآية تذكير بفضل آخر على بني إسرائيل حينما كانوا في التِّيه. كانوا في صحراء، لم يكن لهم شجر يستظلّون به، ولا ماء ليشربوا، وما كان لهم طعام ليأكلوا فأظلّهم الله بسحاب

رقيق أبيض طيلة مدّة تواجدهم في ذاك المكان لحمايتهم من حرّ الشمس وحرقتها، وأنزل عليهم (ٱلۡمَن) وهو طعام كالخبز الرّقيق بمثل ما ينزل الطلّ، وسيّر لهم طير (ٱلسَّلۡوَى) بمثل طير السمّان، يسهل عليهم صيده ليطعموه. ودعوا ليأكلوا ممّا أنعم الله عليهم رأفةً ورحمة حتّى لا يهلكوا. وإنّهم لا يظلمون الله إذا ما عَصَوْه ولكنّهم كانوا يُوقعون أنفسهم في المهالك بمعاصيهم ويظلمونها.

من المستفاد من الآية أنّ من أفضل الكسب عند الوقوع في التيه لزمن قد يزيد عن أسبوع أو أكثر توفّر القوت والطعام للتائهين لإنقاذهم من الهلاك جوعا، لا يعادل هذه النّعمة عند الحاجة الضرورية إليها لا مال، ولا جاه، ولا سلطان، ولا قوّة ولا أنصار. ومثل التّيه لزوم البيت في زمن الحجر الصحي الذي يمتدّ لأكثر من شهر للتوقي من العدوى المهلكة المميتة، ومثل ذلك زمن لزوم البيوت بسبب الفزع من الحرب الدائرة في البلاد والمنذرة بالهلاك المحتوم. توفّر الطعام لضمان عيش النّاس في هذه الشدائد من أغلى المكاسب، لا يعادلها كسب وسائل الدمار والتدمير والأسلحة الفتّاكة، ولا يعادلها مال مكتنز لا يقضي الحاجة للطعام والشراب. في هذه الحالات وحتى في زمن السلم والسلام فإنّ الاستثمار في إستخراج خيرات الأرض لقوت النّاس هو خير من الاستثمار في السلاح، وفي وسائل الرّفاه والتجميل، وفي صناعة وسائل اللهو، وإنّ إمتلاك البلدان للثروات المالية، وطعام أقوامهم يأتيهم من وراء البحار، هي بلدان فقيرة لا تنفعها أموالها إذا أُوصِدَت عنها أجواء الاستيراد، ومنافذ جلب الطعام.

لذلك فإنّ الله تعالى حين أنزل الطعام على بني إسرائيل في تيههم لإنقاذهم من الهلاك بالجوع كان من أعظم الرحمات والمِنَن.

وإنّ الّذي يحتكر طعام النّاس – وخاصة طعام الفقراء والمرضى والضعفاء– في تلك الأزمنة هو من أعظم الجرم، أيحتكر مؤمن، في قلبه الرّحمة والشفقة، طعاما من مثل الزيت والدقيق والسميد والحليب الضروري للفقير والعجوز والطفل الصغير ليثرى على حساب مقايضتهم بحياتهم، وتهديدهم بشبح الهلاك جوعا وعطشا؟ لقد صرّح جميع الفقهاء دون إستثناء بحرمة إحتكار طعام الناس وحبسه عنهم إرادة الغلاء لبيعه بأكثر من ثمنه للتضييق مستدلّين بقوله تعالى: (وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ)(الحج الآية 25)، وعلى قوله صلّى الله عليه وسلّم: "إحتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه" (أخرجه أبو داود)، وإستنادا على قوله صلّى الله عليه وسلّم: "من إحتكر طعاما أربعين ليلة فقد برئ من الله، وبرئ الله منه" (رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبراني في الأوسط، وقد ضعّفه ابن معين) (أنظر تفاصيل المسألة في الاحتكار، وعقوبة المحتكر في كتاب: الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف بالكويت ج.2 ص90–95). لا يحتكر طعام الفقراء الذي يضرّ بصحتهم ويهدّدهم في حياتهم، والذي يعمّق الأزمة في البلاد زمن الشدّة إلاّ من سفه نفسه، وكان جَشِعًا، وضعيف الإيمان،

ومنعدم الضمير والإنسانية، وحُقّ عليه التشديد في العقاب، وسحب ما اِحتكره من طعام النّاس من مخازنه.

البلد الغنيّ بخيرات أرضه أغنى وأفضل من كلّ بلد غنيّ بماله يأتيه طعامه من وراء البحار.

- وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ (57) :

هذه مِنَّةٌ أخرى مَنَّ بها الله تعالى على بني إسرائيل إذ أخرجهم من التّيهِ، وعَفَا عنهم، وأباح لهم أن يسكنوا بيت المقدس أو أريحا، وأباح لهم أن يأكلوا من خيرات القرية أكلا طيّبا هنيئا وقد كانت القرية ذات أرض خصبة كثيرة الأشجار المثمرة. وأُمِرُوا أن يدخلوها منحنين ركوعا ومتواضعين يدعون الله بأن يَحُطَّ عنهم خطاياهم التي كانوا عليها حتّى يغفر الله لهم ذنوبهم، ووعدهم أن يزيد المحسنين إحسانا وكرما، وهم الّذين صحّحوا عقيدتهم وأصلحوا أعمالهم وأقلعوا عمّا كانوا يفعلون من معاصٍ وصاروا يحذرونها.

- فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (58) :

لكنّ الذين جُبِلُوا على المعصية حرّفوا ما قيل لهم، فَبَدَلَ أن يطلبوا حَطَّ الخطايا قالوا حنطة فأنزل الله البلاء على هؤلاء المحرّفين لقول الله والمبدِّلين، وهذا هو عين الفسق الّذي يخرج العبد من دائرة الإيمان. والمُستفاد من الآية: يا خيبة من اِبتدع في الشريعة بتحريف مدلول النّصّ.

- وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(59):

واذكروا لمّا أصابكم العطش –وأنتم في التّيه– ولم تجدوا ماءً، وانحبس عنكم القَطرُ، فالتجأتم إلى موسى ليدعو اللهلكم ليسقيكم حتى لا تهلكوا، فلمّا دعا موسى ربّه يطلب السُّقْيَا أوحى إليه بأن يضرب بعصاه الحجر فتَفَتّق بضربته الحجر اثنتا عشرة عَيْنًا من الماءِ العذب على عدد قبائلكم كي لا تختلفوا على السقيا، وحتى يشرب كلّ سبط من العين الّتي عُيِّنت له من غير مزاحمة ولا متاجرة. وقلنا لكم كلوا من المنّ والسلوى واشربوا من العيون. وكلُّ ما جاءكم كان من رزق الله وفضله عليكم، لم يأتكم من جهدكم، لا من زراعة وغرس، ولا من صيد ولا من مشقّة حفر، وقد رأيتم المعجزة وآيةَ الله البَيّنة من قدرته وتقديره، وعرفتم رحمة ربّكم فاستقيموا على العمل، وإيّاكم أن تفسدوا في الأرض فسادا شديدا بالكفر وبالربا والرشاوي وبالكذب. اشكروا ربّكم بطاعته والوفاء بعهده.

- وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (60) :

وأذكروا حين قلتم لموسى، لقد مللنا من تناول طعام واحد ليس فيه تَنَوُّعٌ، وقد كان يأتيكم هذا الطعام رغدا بلا جهد أو مشقّة، وسُقيتم بعد عطشكم حتى لا تهلكوا، وطلبتم من نبيّكم أن يدعو الله لينوّع لكم في الطّعام بأن يخرج لكم من نبات الأرض: البقول والقثّاء والثوم والعدس والبصل. قال لكم موسى يومها: ما أعجب طلبكم! أتطلبون شيئا أقلّ قيمة وشأنا، وأخَسَّ مذاقا ممّا كان يأتيكم من السّماء من غير مشقّة وكُلفة. تطلبون شيئا لا تحصلون عليه إلاّ بالحرث والزرع والكدّ والتعب والكلفة، وفيه بيع وشراء؟ أُخرجوا من هنا إلى بلد كبير فستجدون فيه طلبكم. لم يشكروا الله على نِعَمِه وفضله فأحاطت بهم المذلّة وألصقت بهم، وأُلْحِقت بهم الحاجةُ والفقرُ، وعادوا باستحقاق العناء والتّعب من غضب الله عليهم. لم يكن بنو إسرائيل جاحدين لنِعَم الله فحسب، ولم يكونوا جاحدين للمعجزات والآيات الّتي أنقذتهم من الهلاك وهم ينظرون فقط، بل كانوا يكفرون بهذه الآيات، ويكفرون بالنّبيئين الذين جاؤوهم بالهدى ويكذّبونهم ويقتلون منهم مَنْ قتلوا من أمثال يحيي بغير الحق ومن غير سبب ظاهر. كانوا يُخالفون الطاعة، ويتجاوزون الحدّ في الظلم والمعاصي.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) :

هذه في طوائف من المؤمنين قبل مجيء محمّد صلّى الله عليه وسلّم برسالته. فالذين آمنوا بنُوح، والذين آمنوا بإبراهيم، والذين تهوّدوا ودخلوا في دين اليهوديّة، والنصارى الذين آمنوا بعيسى واتّبعوه وناصروه، والصّابئون: الذين خرجوا من دين إلى آخر، كانوا يعبدون الملائكة والكواكب، أو كانوا على الفطرة. وجميع هؤلاء آمنوا بالله وحده، وبيوم البعث والحساب فلا خشية عليهم من العذاب عمّا فرط منهم من قبل مجيء محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولا هم يحزنون على فوات الثواب عنهم لأنّهم لم يلحقوا بهذا النّبيّ.

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(62) :

وأذكروا –يا بني إسرائيل– ما كان منكم من الأخذ عنكم العهد المؤكّد باليمين على الإخلاص للعمل بأحكام التوراة، ولمّا تَلَكَّأْتُمْ في إعطاء العهد رفعنا فوقكم جبلا بفلسطين حتى صار فوق

رؤوسكم كالسحابة تهديدا وتخويفا فسارعتم عندئذ لإعطاء العهد للعمل بما أمرناكم من شرع والالتزام به بجدّ ومثابرة ومواظبة، وللمداومة على الاتّعاظ بمواعظ التوراة عساكم أن تكونوا من الذين يخافون الله فيحفظون حدوده ولا يتَعَدَّوْنَهَا.

- ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ **(63)** :

ثمّ: أي وبعد برهة من الزمن أعرضتم عن الأوامر وخالفتم ما تعهّدتم به وعاهدتم الله عليه من بعد ما جاءكم من الآيات والرحمات لإنقاذكم من الهلاك وأنتم تنظرون، ومن بعد أخذ الميثاق ورفع الجبل فوق رؤوسكم. ولولا فضل الله عليكم باللطف بكم، ولولا رحمته بإمهالكم عساكم تتوبون لَحَلَّ بكم الهلاك، ولَضَيّعتم عليكم دنياكم بالهلاك، وآخرتكم بالعذاب.

- وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ **(64)** :

ولقد عرفتم بما حلّ بأهل (أَيْلَةَ)، نهاهم الله عن صيد السمك يوم السبت فخالفوا أمره، فعاقبناهم بأن صاروا كالقردة في نزواتها وأعمالها، بلا وعي ولا عقل، بعيدين عن رحمة الله، ثمّ هلكوا بعد ثلاثة أيّام.

- فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ **(65)** :

وبهلاكهم جعلناهم صورة للعقاب والتنكيل لهم، ولمن يعمل عملهم في مخالفة أمرنا من بعدهم، وجعلنا ما حدث لهم من المسخ عبرة لمن يخاف عذاب ربّه وعقابه.

- وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ **(66)** :

كان رجل قد تبنّى ابنَ أخٍ له، فلمّا شبّ الفتى أراد أن يستعجل الإنتفاع برزق عمّه فقتله، ورمى بجثّته على باب دار أحدهم ليبعد عنه الشبهة، فلمّا أصبح القوم ووجدوا جثّة القتيل اتّهم بعضهم بعضا. ولمّا اختلفوا احتكموا إلى موسى فأمرهم نبيّهم أن يذبحوا بقرة، فظنّوا أنّه يهزأ بهم. وحاشا لنبيّ رسول أن يهزأ بأمر فيه جريمة قتل واتّهامات من غير دليل. نفى موسى عن نفسه الهزء بهم، لأنّ الهزء بالدّين وبالقضاء وبالاحتكام هو من الجهل وخفّة العقل.

- قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ **(67)** :

لم يسرع القوم بتنفيذ ما أمروا به، بل تلكّؤوا فسألوا موسى أن يسأل ربّه أن يدلّهم على أمارات مخصوصة للبقرة الّتي عليهم أن يذبحوها، فأجابهم موسى بأنّ البقرة المطلوبة لا يجب أن تكون مُسِنَّةً، ولا صغيرة، يجب أن تكون بين الكبيرة والصغيرة، ودعاهم موسى لينفّذوا ما أمروا به لِفَضِّ المشكلة سريعا.

- قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (68) :

ورغم دعوتهم ليفعلوا ما يؤمرون إلاّ أنّهم تمادوا في السؤال عن صفة أخرى أدقّ لاختيار هذه البقرة، سألوا عن لونها كيف يجب أن يكون. فجاءتهم الإجابة بوجوب اختيار بقرة صفراء اللون، واصفرارها فاقع شديد الصفرة تعجب النّاظرين لحسن لون جلدها وصفائه ولجمالها. وبكثرة أسئلتهم عن التفاصيل والدقائق شدّدوا على أنفسهم، ومع ذلك لم يكتفوا بهذا الحدّ من الأسئلة فعاوَدُوا سؤاله.

- قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ (69) قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ (70) :

سألوا موسى أن يسأل ربّه أن يزدهم تدقيقا في بيان نوع البقرة المطلوب: أهي بقرة سائمة أم هي عاملة؟ وقالوا: لكثرة البقر فإنّنا لم نَهْتَدِ للمطلوب، وإنّنا إن شاء اللهُ لَوَاجِدُونَ الطلب. فجاءهم الرّدّ بأنّ المطلوبَ بقرةٌ غير مسخّرة للعمل لدلالها. لا هي تحرث الأرض للزّراعة، ولا هي تقلبها، وهي غير مسخّرة لريّ الأرض المهيّأة للزراعة، وهي سليمة من العيوب وآثار العمل (ولا شية فيها) أي لا لون فيها غير لون الصُّفرة، فلا وَشْيَ فيها. عندئذ قال السائلون: الآن اتّضحت الصفات، وبان المطلوب.

شدّدوا على أنفسهم في الأسئلة، فضيّقوا على أنفسهم الواسع والعام وشدّد الله عليهم، وراحوا يبحثون عن بقرة بهذه الصفات حتى تعِبُوا من البحث، ثمّ وجدوها عند شاب ورثها عن أبيه فلم يشأ أن يبيعها لهم وغالى في ثمنها، واضطرّوا ليبتاعوها منه بما اشترط من ثمن. وذبحوها، وكادوا أن لا يفعلوا لغلاء ثمنها ولنُدرة وجودها.

- وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ (71) :

وأذكروا حين قتل أحدكم نفسا، ولم تعرفوا القاتل فتخاصمتم وتدافعتم بسبب اتّهاماتكم لبعض، والقاتل مُتخفٍّ، وقضى الله أن يظهر لكم حقيقة الأمر وأن يكشف لكم الفاعل.

- فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (72) :

فأمرناكم بأن تأخذوا عضوا من أعضاء هذه البقرة، وتضربوا به القتيل فسيحييه الله. فلمّا فعلوا ما أُمِرُوا به أحيا الله القتيل فقال: قتلني فلان وكشفه، ثمّ عاد جثّة هامدة، وأراكم الله بهذا الإحياء آية معجزة لتؤمنوا بقدرة الله على إحياء الموتى ولتخشوه، ولعلّكم بهذا تثوبون لرُشْدكم.

- ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ (73) :

وبعدما أراكم الله هذه المعجزة، ورفع عنكم اللُّبْسَ في كشف القاتل وفَضْحِه عدتم سريعا لما كُنتم عليه من ذهاب الرُّشْدِ، ولما كنتم عليه من قلّة الخشية من الله. تحجّرت قلوبكم ولم تَلِنْ للإيمان وللخوف من الله، ومِلْتُم إلى المعاصي، وتثاقلتم عن الطاعة، بل صارت قلوبكم أصلب ممّا كانت عليه بسبب فقدانها الإحساس بالخوف من الله وصارت أشدّ تحجّرا. وإنّ الحجارة لأفضل منها لأنّها أَلْيَنُ. فمن الحجارة ما ينفع النّاس بما يخرج منها من عيون ماء صالح للشراب وهي تتفجّر، وإنّ منها ما يتفتّت وينحدر من أعالي الجبال ويتكسّر من خشية الله والخوف منه تعالى. والله مطّلع على أعمالكم، وعمّا في قلوبكم، وليس غافلا عمّا تصنعون من سيّئات، وسيحاسبكم عنها.

• أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (74) :

هذه في تسلية المسلمين، والاستفهام في الآية كأنّه للتَّيْئِيسِ من إيمان هذه الفرقة من اليهود بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وبما نزل من الوحي، فقد شاقّوا نبيّهم موسى عليه السّلام، ورأوا من الآيات الإعجازية ما رأوا من الآيات كثيرةً، ولكنّهم مع ذلك كانوا يعصون ويتَلَكَّؤُونَ. كانوا يحرّفون كلام الله – كالذي ذُكر سابقا بشأن حِطَّة – وكانوا يغيّرون حقائق كلام الله ويتأوّلونه على غير ما نزل ويبدّلونه –كالذي يفعلونه مع أخذ الرّبا كما سيأتي – وقد عرفوا صدق ما نزل عليهم وعلموا حقيقته وأيقنوا بصحّته.

• وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (75) :

هذه في المنافقين من أهل الكتاب، كانوا يُصَرِّحُون للمسلمين بأنّهم يصدّقون بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولكنّهم حين ينفردون ببعضهم يتلاومون على تصريحات بعضهم بالتصديق بمحمد صلّى الله عليه وسلّم، ويلومون من ذَكَر للمسلمين بما فتح الله عليه من العلم، بأنّ التّوراة قد جاء فيها خبر النبيّ الخاتم وعرّف بصفاته. يعيبون على الذين حدّثوا المسلمين بما علموا من إخبارِ التوراة بدعوى أنّ الحجّة ستقام عليهم يوم القيامة بأنّهم عرفوا صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وتَوَلَّوْا عن اتّباعه، لاموهم عمّا قالوا ووبّخوهم وخوّفوهم من محاسبتهم يوم القيامة عمّا يقولون ما لا يفعلون، وهذه المعاني حملتها الجملة الاستفهامية (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أي أفليس لكم عقول تمنعكم من أن تحدّثوهم بما يكون لهم فيه حجّة عليكم. من التعقّل كتمان ما تعلمون.

• أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76) :

الاستفهام هنا للتّوبيخ والتقريع، فهؤلاء اللاّئمون ضعيفُو الإيمان. ألم يعلموا من رسلهم ومن التّوراة أنّ الله لا يخفى عليه شيء من أمر عباده: ممّا يقولون صراحة، وممّا يخفون في أنفسهم، وما تحدّثهم به خواطرهم.

- **وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ (77) :**

وإنّ طائفة من هؤلاء الذين ينصحون المصرّحين بالحقائق الواردة في كتابهم بشأن النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ورسالته أمّيّون لا يعرفون من الدّين ومن التوراة شيئا إلاّ ما تلقّوهُ عن رؤسائهم وأحبارهم من أكاذيب فاعتمدوها وصدّقوها (وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ) أي وإنّهم يتوهّمون بأنّهم يعلمون ما في التوراة وهم جاهلون أمّيّون لا علم لهم.

- **فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ (78) :**

هذه الآية في الوعيد الشديد للتحذير من التبديل في كتاب الله وشرعه ومن التغيير بالزيادة أو التأويل غير المناسب، ومن الابتداع في دين الله ممّا ليس فيه. فقد كان طائفة من أحبار اليهود يكتبون بأيديهم تمائم وغيرها ويوهمون أتباعهم بأنّها من التوراة، ويحصلون منهم على أموال ومآكل ومنافع فاتّخذوا شرع الله والمحرّف من كلامه للبيع والشراء. وما يكسبون ممّا يفعلون هو كسب حرام لا بركة فيه. عبّر عن هذا المعنى تكرار لفظ الويل في هذه الآية، وهو لفظ يدلّ على التحذير الشّديد وعلى الوعيد بالعذاب وشدّة المكروه ممّا يكتبون وممّا يكسبون.

وتجدر الإشارة هنا لتحذير أولئك الّذين يكتبون التمائم للتكسّب والمتاجرة قصد ضمان الشفاء للمريض أو لتيسير أسباب الكسب المالي أو للنجاح أو لإبعاد العين والحسد، أو لطرد الجانّ. وكلّ هذا من الشبهة لما فيه من الإتجار بكتاب الله، وما هو إلاّ للدجل والتّحيّل على النّاس. الوعيد في هذه الآية بالويل لأولئك العابثين بكتاب الله يشمل هؤلاء الدّجالين.

- **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (79) :**

هذه في دحض مزاعم اليهود. قالوا لن تُصيبنا النار يوم القيامة ولا نُعَذّبُ بها إلاّ مدّة قليلة: مدّة عبادتنا لِلْعجل، فجاءهم الردّ في صيغة استفهام للاستغراب ولدحض مزاعمهم: هل أخذتم على هذا الوعد عهدا من عند الله بذلك؟ والجواب على ذلك : كلاّ. ليس لكم عهد بهذا، وإنّكم تقولون على الله الكذب، ومالا تعلمون ممّا أعدّ لكم ليوم الحساب.

- **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (80) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (81) :**

الآيتان في الوعيد والوعد للردّ على الأوهام والمزاعم الباطلة، فإنّ أمر الحساب ليس كما يتوهّمون. إنّ كلّ من جاء يوم القيامة وفي صحيفته كفرٌ وشركٌ وتكذيب بالرّسل وتدجيل ونفاق، وأحدقت به واستولت عليه معاصيه وذنوبه وآثامه حتى ثقُل بها ميزان سيّئاته مآلُهُ الخلود في جهنّم ليحرق بنارها.



وعلى نقيضهم فإنّ المؤمنيــن العاملين الصالحات مَأواهم الخلود في جنّة النّعيم لا يُحَوَّلُون عنها.

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (82) :

هذه الآية والآيتان من بعدها في أحكام المعاملات التي فرضت على بني إسرائيل وأُخذ عليهم العهد للعمل بها، ولكنّهم أخلفوها.

واذكر إذ أخذنا العهد المؤكّد على بني إسرائيل باليمين المغلظة وبشهادة نبيّهم عليهم بأن لا يشركوا بالله أحدا، فلا يعبدون إلاّ الله. وأُخِذَ عليهم العهد بأن يَبَرُّوا بالوالدين وبأن يحسنوا إليهما إحسانا بالمعاشرة بالمعروف خاصة عند كبرهما، وبالتواضع لهما، وبالدعاء لهما بالمغفرة بعدهما. وأُمروا بالإحسان إلى القرابات بصلة أرحامهم، وأُخِذَ عليهم العهد بكفالة اليتيم، والرأفة به، وحفظ ماله وإرثه. وأُمروا بالإحسان للمساكين: - وهم الذين صاروا بؤساء، فقراء بعد الكَفَافِ، وأقعدتهم صحتهم عن العمل والكسب- ; وبأن يقولوا للنّــاس قولا ليّنًا لطيفا، وقولا يهديهم للصّـواب والرّشاد، ويدعوهم للحقّ، وأُخذ عليهم العهد بأن يحافظوا على أداء صلاتهم في خشوع طاعةً لله، وبأن يؤدّوا زكاة أموالهم لمواساة الفقراء ودعم أواصر الأخوة بين المؤمنين وللتعامل بمبدإ المــؤازرة. ثمّ بعد ما أُخذ عليكم العهد أعرضتم عن الوفاء بما طولب منكم إلاّ القليل من آبائكــم اِلتزموا بما أُمروا به، والقليل منكم حاضرا، وأعرضتم عن الالتزام بما نزل عليكم من تشريع، أعرضتم عن هذا وعن مبادئ الميثاق.

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (83) :

واذكروا أنّه قد أُخذ عليكم العهد المغلّظ باليمين وبشهادة نبيّكم بأنّه يحرُم عليكم أن تقتلوا بعضكم، وبأن لا تستبيحوا سفك دمائكم بالقصاص من تلقاء أنفسكم من غير حكم قضائي عدل ونزيه، وأنّه لا ينبغي لكم أن تنفوا جماعة منكم إلى غير وطنهم وأن تخرجوهم من ديارهم وأرزاقهم، وقد قبلتم بالعمل بهذا العهد والالتزام به، وأنتم تشهدون على الحاضرين بما التزموا به.

- ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (84) :



وبعد زمن من أخذ ذاك الميثاق تناسى القوم ما عاهدوا الله عليه فتقاتلوا حين اختلفوا، وقتل قويّهم ضعيفهم. وأخرج المنتصرون المخالفين لهم ومناصري المهزومين من ديارهم وأموالهم، واِستعانوا عليهم بإخوانهم الذين قاتلوا معهم بتدبير المكائد. كادوا لهم من التدبير ما أوقعوا به أعداءهم في الشَّرَكِ وسوء الموقف فاتّخذوه سببًا للحكم عليهم بالنفي من موطنهم، وهذا من الإثم، وظلموهم فهجّروهم قَسْرًا وعدوانا وهذا من العمل المحرّم عليهم، وطلبوا الفدية في الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم.

فعلتم كلّ ما كان محرّما عليكم وما خالفتم فيه العهد والشرع الذي جاءكم في التوراة إلاّ ما كان من شأن فدية الأسرى. أفتؤمنون بما ترونه صالحا لكم، وبما فيه منافع لكم، وتكفرون بأحكام أخرى حرّمت عليكم في التوراة وفي الميثاق.

كلّ من ينهج هذا المنهج لن ينال في دنياه إلاّ العار والخزي والهوان، ويوم القيامة ينالون من العذاب أَشَدَّهُ، وليس الله بغافل عن أعمالكم القائمة على الظلم ومخالفة أحكام الله، وليس بغافل عن ما تدبّرونه من مكر ودسائس.

وقد مرّ علينا زمنٌ شهدت فيه أوطاننا الإسلامية فِتَنًا كاللّيل المظلم يقتل فيه الأخ أخاه في المواطنة، ويُيَتِّمُ فيه الأطفال، ويُرَمِّلُ النّساء، ويهجّر العائلات من ديارهم وأموالهم إلى مكان مجهول تأويهم فيه منظّمات إنسانية في خيام لا تحميهم من حرّ ولا قَرٍّ، لا يجدون فيها طعاما ولا ماءً، ولا دواءً، ولا سعة أو أمانا. ويستعين المتقاتلون على بعضهم بتجنيد شباب غِرٍّ، مُغَرَّرٍ بهم بدعوى النّفير للجهاد لإقامة شرع الله في حكم دولة إسلاميّة، لردّ ظلم الحكّام وإقام العدل. عناوين سامية لغاية دنيئة لأنّهم يطلبون السلطة، ويسعون لقلب نظام الحكم لفائدتهم، ولفائدة مَن وراءهم من أعداء الإسلام الذين يمدّونهم بأشدّ الأسلحة فتكا ودمارا لإهلاكهم. ولبسط نفوذهم بعد هدوء فتنتهم عليهم لامتلاك خيرات بلادهم وللتمكّن من القضاء على شوكتهم. أزهقوا الأرواح، وسفكوا الدماء وسبَوْا النساء، واغتصبوهنّ، وقتلوا أسراهم، ودمّروا البيوت والمصانع، وخرّبوا المزارع، ونشروا الهلع والفزع، وشوّهوا صورة الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والرحمة ونشر الأمن والأمان وصيانة الأبدان والأرواح وحفظ الحقوق ومنع الظلم. شوّهوا صورة الإسلام حتى صار عند الأجانب دين إرهاب وجهالة. ولو أنّ هؤلاء قد علموا خصائص هذا الدين، وتدبّروا كتابه، وعلموا ما في هذه الآية من توبيخ وتقريع لمن يفعل هذا الفعل فإنّ القاعدة الأصولية في ديننا تقول: "شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا هُوَ شَرْعٌ لَنَا". ولكنّهم قوم يجهلون يفسدون في الأرض ولا يُصلحون.

- أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ **(85)** :

هذا حُكْمٌ عامٌّ في كلّ الذين أتوا كلّ تلك الأفعال المنهي عنها في كتاب الله إلى يوم القيامة. لقد باعوا حسن العاقبة في آخرتهم بما عملوا من أعمال أرادوا بها مكاسب دنيوية ومصالح

سُلطوية. باعوا آخرتهم بدنياهم فسيُشدَّدُ عليهم العذاب حين يقومون للحساب، ولن ينصروا في دنياهم ولا في آخرتهم.

وصدق الله حكمهم في ما نرى في أولئك الذين خرّبوا أوطانهم وروّعوا أهاليهم كيف انقلبت عليهم الدوائر. صاروا مطلبا للعدالة، ومن قُبض عليه حُكم عليه بأشدّ الأحكام قسوة لأنّهم كانوا مفسدين في الأرض، ومن فلت منهم فإنّه صار يعيش منفيا هاربا متخفيّا يلحقه الخزي والعار، ولم ينتصروا في معاركهم بل لحقتهم الهزائم حيثما حلّوا، ولم يُنصروا. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. كذا يفعل الجاهل المغرور بنفسه، هو عدوّ لنفسه، لا يُصيب خيرا هو ومن وراءه من الأنصار، ولا نصير له عند هزيمته.

- وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (86) :

هذه في تسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بكشف شدّة عناد بني إسرائيل، وفي بيان عادتهم في تكذيب رسل الله ومشاقّتهم. والمعنى: لقد جاء بني إسرائيل نبيُّهم موسى وآتاه الله كتابا ليظلّ بين أيديهم ليهتدوا به للرّشاد، وليعرفوا منه أحكام الله فيتعهّدوها بالالتزام بها، وبالحذر من مخالفتها، وحتى لا يضلّوا أو ينحرفوا عنها، تعهّدهم الله ببعث رسل منهم من بعد موسى، ومنهم داود وسليمان وإلياس واليسع وزكرياء ويحيى ليقيموهم على الهدى والعمل الصالح، ولكنّهم كلّما جاءهم رسول بما يردّهم للصواب والرشاد وللعمل بأحكام الله وبما يردّهم عن ضلالهم وغَوايتهم استكبروا عنه بالتكذيب ومشاقّته، وتآمروا عليه. كذّبوا فريقا من هؤلاء الرسل – كما فعلوا مع يونس وزكرياء – وقتلوا فريقا منهم من مثل يحيى ذبحوه على الصخرة، وحاولوا صلب عيسى ولكنّ الله أنجاه منهم.

- وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (87) :

ولقد قالوا لرسلهم لمّا جاؤوهم: قلوبنا محجوبة عن تصديقكم، ولا نجد فيها مَيْلاً لتصديقكم. كلاّ، الأمر ليس كما يقولون، وإنّما أطردهم الله من رحمته ورضوانه بسبب هذا التكذيب الذي هو نمَطٌ من الكفر. إنّهم قوم معاندون، جُبِلُوا على التكذيب بالوحي وبالرسل، ونادرا ما يصدّقون بما يأتيهم.

- وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (88) :

هذه الآية في فضح تناقض اليهود بين ما يقولون وما يفعلون؟ لمّا جاءهم كتاب مصدّق للتوراة الذي هو القرآن الكريم، ولقد كانوا من قبل نزوله حين يطلبون من الله نصرهم على أعدائهم

يقولون: اللّهم بحقّ النّبيّ المبعوث آخر الزّمان انصرنا عليهم، فلمّا جاءهم هذا النّبي على الصفات الّتي عَلِمُوها من التوراة أنكروا نبوّته حسدا من عند أنفسهم لأنّه كان نبيّا عربيّا ولم يكن يهوديا وتناقضا مع ما يدْعُون الله به، فاستحقّ المكذّبون به طردهم من رحمة الله ورضوانه.

- بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ **(89) :**

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم حين كفروا بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي الّذي نزل عليه حسدا من عند أنفسهم، فاشتروا بكفرهم هذا غضب الله عليهم فوق الغضب الّذي استحقّوه من قبل على فعلهم بالأنبياء. وقد حسدوا النّبيّ محمدا على نبوّته لأنّهم أرادوا هذه النّبوّة في واحد منهم كأنّ لهم الخِيَرَةَ في ما يشاؤه الله وفيمن يتخيّر من عباده ويصطفيه لحمل رسالته. وسينال المكذّبون عذابًا يذلّهم يوم القيامة.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ **(90) :**

وإذا قيل لبني إسرائيل الذين عاصروا النّبيّ محمدا: إنّكم أهل كتاب، وهذا القرآن كتاب سماوي أنزل وحيا من عند الله فآمنوا به وصدّقوه أجابوا: نحن نؤمن فقط بما نزل علينا. إنّهم قوم يكفرون بكلّ ما ينزل من بعد التوراة رغم أنّ كلّ ما نزل من بعدها قد صدّق بكتابهم كالإنجيل وهذا الكتاب. فإنْ أبَوْا التّصديق بالقرآن فاسألهم: لِمَ قتل آباؤكم أنبياء الله لو كنتم حريصين على طاعة ربّكم.

- وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ **(91) :**

ولقد جاءكم موسى بالمعجزات الكثيرة الّتي أنقذكم بها من ظلم فرعون وسطوته عليكم، وأنجاكم عبر البحر الذي فلقه لكم أمام أعينكم فلم خالفتموه لمّا ذهب إلى ميقات ربّه وصنعتم لأنفسكم عجلا في غيابه واتّخذتموه معبودا، وأنتم ظالمون لأنفسكم بالرّدّة.

- وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ **(92) :**

واذكروا – يا بني إسرائيل – حين عاهدتم الله على الالتزام بالعمل بما في التوراة من أحكام ومواعظ، ورفعنا فوقكم الجبل لتعرفوا قدرة ربّكم عليكم إذا خالفتم أمره. وأمرناكم بأن تعملوا بما أمرناكم من الطاعات بحزم وجدّ واجتهاد، وأمرناكم بالسمع طاعةً، قلتم بألسنتكم سمعنا وفي قلوبكم كان قولكم سمعنا وعصينا لأنّ قلوبكم قد أُشربت حبّ عبادة العجل كما يخالط الشراب



الجسد. قل لهم يا محمد : بئسما يأمركم به إيمانكم في ما تأتون به من كفر بالأنبياء وتكذيب بكتب الله وبخلاف الوعد والعهد وفي ميلكم إلى المعصية إذا كان هذا هو الإيمان عندكم.

- قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ **(93)** :

هذه لدحض مزاعم اليهود الذين يدّعون أنّهم لن يعذّبوا في الآخرة إلاّ بعدد أيّام عبادتهم للعجل. قل لهم إن كنتم تضمنون النّجاة من العذاب في آخرتكم، وأنّ آخرتكم خالصة عندكم من دون الناس وأنّ الجنّة خاصّة بكم والجزاء، فاطلبوا الموت للفوز بالنّعيم ولا تخافوا منه إن كنتم صادقين في دعواكم.

- وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ **(94)** وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ **(95)** :

إنّ هؤلاء لا يحبّون الموت، ولن يسعوْا إلى طلبه بسبب ما إقترفوه من المعاصي. والله لا يخفى عليه عمل الظالمين أنفسهم بالكفر وإتيان المعصية. وستجدونهم بكلّ تأكيد أشدَّ النّاس شرَهًا، وطلبا للحياة الدنيويّة. وإنّ مشركي العرب يتمنَّوْنَ كذلك طول العمر، وهم أحرص النّاس على الحياة لأنّهم لا يُقِرُّونَ بالبعث. وإنّ الواحد منهم غير مُبْعَدٍ عَنِ ٱلْعَذَابِ، وغير مُتَنَحٍّ عنه مهما عَمَّرَ من السّنين. والله عالم بخفيات الأمور.

- قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ **(96)** :

كان اليهود يكرهون الملك جبريل عليه السّلام، لأنّه عندهم مَلَكٌ ينزل بالحرب والقتال، وعندهم هو الذي رفع فوقهم الطور، فلذلك كانوا يقولون عنه: هو عدوّنا، فلمّا علموا أنّ الوحي الذي جاء نبيّنا محمدا صلّى الله عليه وسلّم قد نزل به جبريل، قالوا: ذاك عدوّنا، لو نزل عليه ميكائيل الّذي ينزل بالقطر والرحمة لاتّبعناهُ، فجاءت هذه الآية للردّ عليهم لِذَمِّ موقفهم من جبريل. قل إنّ الله نزّل جبريل على قلبك. وخصّ الله القلب بالذِّكْرِ لأنّه موضع تلقّي المعارف والعلم. وقد نزل عليك يا محمد بالوحي بإرادة الله وعلمه، والحال أنّه مصدّق للتوراة، وجاء بالهدي وبالبشرى للمؤمنين فكيف يعادونه؟ وفي هذا ذمّ لموقفهم من جبريل عليه السّلام، وفيه تشريف لهذا الملك.

- مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ **(97)** :

هذه في وعيد معادي جبريل، وتتضمّن الآية أنّ عداوة بعض الملائكة تقتضي عداوة الله، لأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي يصطفي من يشاء لما يشاء من أمره. والمعنى: من كان عدوًا لله

بمعصيته ومعاداة أوليائه من الملائكة والرسل وجبريل وميكائيل فإنّ الله عدوّ له، وعداوة الله له تقتضي تعذيبه يوم التّلاَقِي.

- وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (98) :

هذه لتسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يتضايق بموقف أهل الكتاب من نبوّته وممّا يقولون في الوحي وجبريل عليه السلام. والمعنى: لقد أنزلنا إليك القرآن فيه دلائل واضحة بأنّه وحيٌ من عند ربّك وما يكفر بها إلاّ الخارجون عن الدّين من أهل الكتاب والمتمرّدون عن الطّاعة.

- أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (99) :

ما أغرب ما يفعلون: كلّما عاهدوا عهدا نقضه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون بشيء مستقبلا.

- وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (100) :

ولمّا جاءهم محمد صلّى الله عليه وسلّم مصدّقًا للتوراة في الأصول الدينيّة استخفّ فريق من أهل الكتاب بما نزل عليه من الوحي فأعرضوا عنه، وتركوه وراء ظهورهم، ولم يُعِيرُوهُ اِهتماما كأنّهم لا يعلمون بنزوله.. وبأنّه من عند الله.

- وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ(101) :

هذه في فريق من اليهود، كانوا يتتبّعون ما يذكر شياطين الإنس والجنّ على عهد مُلك سليمان عليه السّلام من أعمال السحر. وما كفر سليمان أي ما سحر أحدا، ولم يتعامل بالسحر والشعوذة، ولكنّ الشياطين هم الّذين يتعاملون بالسحر، وهم الذين يعلّمون النّاس لغة الشعوذة والخديعة، ويتعلّمون ما أنزل ببابل، وهي مدينة بالكوفة في أرض العراق، على رجلين هما: هاروت وماروت، أطلق النّاس عليهما صفة ملكين من باب الشَّبَه لأنّهما كانا رجلين صالحين قانتين. ولم يكونا يعلّمان أحدا حتى يقولا: إنّا ظاهرة إبتلاء وإختبار، فحاذِر من عمل السّحر والسّحرة فإنّه من الكفر. ولكنّ بعض النّاس يُصرّون على تعلّم ما يفرّقون به بين الزوج وزوجه، ولكنّهم لا يضرّون أحدا بالسحر إلاّ بما قدّر الله للزوجين. وبهذا الإصرار يتعلّمون ما يضرّهم في دنياهم وآخرتهم، ولا ينتفعون بشيء منه، ولقد عرفوا في كتابهم التوراة أنّ كلّ من اتّبع منهج

السحر فإنّهم سيضرّون أنفسهم به، ولن ينتفعوا به خيرا لأنّهم استبدلوا سبيل الهُدى باتّباع ما تملي عليهم شياطينهم فلن يكون لهم في الآخرة نصيب ولا حَظّ من نعيمها، ولبئس ما فعلوا حينما أطاعوا الشياطين وعصوا ربّهم لو كانوا راشدين.

- وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ **(102)** :

ولو أنّهم تجنّبوا السحر وطريقهم إليه وتمسّكوا بخشية الله وطاعته طلبا لمرضاته لنالوا حسن الثواب من عند الله ولكان لهم هذا الهدى خيرا لهم ممّا أحبّوه لأنفسهم لو حكّموا عقولهم وقلوبهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ **(103)** :

حين كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يتعهّد أصحابه بالموعظة، ويُبيّن لهم شيئا من أحكام الله كان بعض المؤمنين يقاطعه أحيانا ليقول: "راعنا" أي راعنا سمعك يا رسول الله ليسألوا سؤلهم. وِالتقط منهم بعض اليهود هذا اللفظ فصاروا كلّما رأوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمرّ أمامهم يقولون (راعونا) بتحريف في اللفظ بما يفيد في لُغتهم وصف المرء بالرُّعُونَة والجهل والحمق، فجاءت هذه الآية لدعوة المؤمنين باستبدال هذا اللفظ عند طلب السماع لهم بلفظ (انظرنا) أي انتظرنا حتى نفهم منك، وأمهلنا حتى نسألك. ثمّ أمروا بالسمع له والطاعة، وذكّرهم بأنّ الّذي يخرج عن الطاعة إلى المعصية له عذاب موجع.

- مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ **(104)** :

حين نزل الخير على العرب، وهو القرآن (وبلغتهم) على واحد منهم، على محمّد صلّى الله عليه وسلّم ودَّ المشركون لو كان قد نزل هذا الخير على رجل من القريتين عظيم، ولم ينزل على يتيم، لا مالَ له، ويتّبعه الضعفاء. ولمّا هاجر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة حيث تقيم طوائف من اليهود لم يتقبّلوا أن يكون هذا الخير قد نزل في غير واحد منهم، ولم يقبلوا أن ينزل وحي الله بلغة العرب. وجاءهم الرّدّ في هذه الآية بأنّ الله يصطفي لرسالته من يشاء من عباده، ويختصّ الأمّة التي يرتضيها بهديه، فهو تعالى يفعل ما يُريد وما يشاء، وهو تعالى صاحب الفضل العظيم على من يصطفيه من عباده لهداه.

- مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ **(105)** :

النّاسخ والمنسوخ من علوم القرآن، ويأتي لإحدى الغايتين إمّا للتيسير كما تدلّ عليه هذه الآية، أو للتدرّج في الحكم من الترغيب في الامتناع إلى التحريم كما سيأتي بيانه، والمعنى: ما ننسخ من حكم ونَمْحُهُ نُعَوِّضْهُ بِحُكْمٍ أيسَرَ للعباد، وأرفق بهم، وأكثر أجرًا، أو نعوّض الآية بما

يماثلها ويشابهها في الحكم، فالله يفعل ما يشاء، وهو على كلّ شيء قدير، لا يعجزه شيء، ولا يعسر عليه أيُّ أمرٍ.

- ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(106) :

الخطاب في الآية لكلّ مؤمن، وفيها توضيح للاستفهام السابق: "ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير"، فقدرته يُؤكّدها العلم بأنّه صاحب السلطان والنّفوذ على كلّ ما في السماوات وما في الأرض لأنّه تعالى هو المالك لها. فآمنوا بالله وأطيعوه فليس لكم بعد الله من مُتَوَلٍّ لأموركم ولا قائم عليها، وليس لكم من معين سواه.

- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (107) :

أترغبون في أن تطلبوا من رسولكم محمّد صلّى الله عليه وسلّم طلبات كالّذي فعله بنو إسرائيل مع موسى، احذروا من أن تكونوا أمثالهم، فمن يفضّل الكفر على الإيمان يخطئ الطريق السويّ الخالص من العقبات.

- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(108) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(109) :

يتمنّى الكثير من أهل الكتاب لو يُرجعونكم إلى الكفر بعد إيمانكم بسبب الحسد الذي تمكّن من قلوبهم من بعد ما ثبت لديهم أنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم نبيّ حقّا، وأنّ القرآن كتاب الله حقّا. تمنّوا زوال نعمة الإيمان عنكم لمّا ظهر لهم أنّ الإسلام هو دين الله حقّا. فدعوهم لشأنهم، ولا تؤاخذوهم على حسدهم، ولا تلوموهم، وأعرضوا عنهم حتى يأتيكم نصر الله وفَتْحُه، والله على نصركم لقدير. وحافظوا على أداء الصلوات في أوقاتها، وادفعوا صدقاتكم وأدّوها لأصحابها، وإنّ كلّ ما تفعلوه من أعمال البرّ والإحسان ستجدون ثوابه عظيما وأجره مضاعفا عند الله يوم ترجعون إليه. إنّ الله مطّلع على ما تعملون، وشاهده.

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (110) :

هذه في إحدى مزاعم اليهود ليردّوا المسلمين عن دينهم.



قالوا –زاعمين– الجنّة لا يدخلها إلاّ من كان على إحدى الديانتين: اليهودية أو النصرانية، ولا يدخلها غيرهم. وجاء الرّدّ: ما تقولونه زَعْمٌ من تمنّياتكم الزّائفة، بيّنوا لنا حجّتكم ودليلكم الشاهد على صدق ما تقولون.

- بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ **(111)**

كلاّ، الأمر ليس كما تزعمون، فكلّ من أخلص عبادته لله وحده، وأسلم نفسه خوفا وطمعا لله مؤدّيا الطاعات والعبادات على شروطها وواجباتها وعلى الوجه الأكمل والأحسن في الأداء، وهذا هو الإحسان، فله عند ربّه الأجر الكبير والثواب الحسن، وحين يقوم للحساب فسيكون آمنا من الخوف ومن سوء المآل، ولن يكون حزينا على ما فاته في دنياه، بل سيسرّ بما سيلقاه عند ربّه.

- وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ **(112)** :

هذه في بيان التناقض الّذي كان عليه أهل الكتاب. اليهود يقولون عن النّصارى بأنّهم ليسوا على شيء من الدّين الّذي يُعتَدُّ به، لأنّهم يعتبرونهم فرقة قد انفصلت عنهم باتّباعهم المسيح ابن مريم الذي كانوا لا يؤمنون برسالته ولا بكتابه. والنّصارى يقولون عن اليهود بأنّهم ليسوا على شيء من الدّين الّذي يُعْتَدُّ به لأنّهم قتلةٌ للأنبياء، فإنّ اليهود بالنسبة إليهم قد قتلوا نبيّهم صَلْبًا. والحال أنّ كلا الفريقين يقرؤون التوراة والإنجيل. ويقول كفّار العرب مثل قولهم، يقولون هؤلاء وأولئك ليسوا على شيء من الدّين لأنّهم لا يؤمنون بالبعث وبيوم الحساب ولا بالوحي والرّسل. ويوم القيامة يفصل بينهم ويريهم من كان على حقّ ومن كان على باطل حين يدخل من كان على حقّ الجنّة، ويدخل من كان على باطل إلى النّار.

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ **(113)** :

ليس أحد أظلم لنفسه من الّذي يصدّ النّاس عن المسجد لإقامة شعيرة الصلاة لرفع ذكره، كالذي فعله مشركو مكّة حين صدّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الصلاة بالمسجد الحرام، أو سعى في خرابها، كالذي فعله الصليبيون بالمسجد الأقصى حين دخلوه عنوة فانتهكوا حرمته وجعلوه مربطا لخيولهم، وعطّلوا فيه إقام الصلاة.

من عمد إلى فعل كهذا سيُصيبه الخوف والارتباك، وسيلاحقه لآخر حياته الذلّ والهوان، ويوم القيامة يلقى أشدّ أنواع العذاب إيلاما.



- **وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (114) :**

حين ورد الحديث عن المسجد ناسب ذلك ذكر الوجهة التي يجب أن يتوجّه إليها المصلّي إذا صلّى. لقد وسّع الله لعباده في تحديد قبلتهم للصلاة فذكر أنّ كلّ جهة – سواء أكانت مشرقا أم مغربا – لا تغيب عن بصره– يُبصر فيها عبده الطائع العابد، وهو سبحانه عليم بما يحدث في مُلكه: مشرقا ومغربا وفي كلّ جهة غيرهما. وفي هذه الآية توسعة لكلّ من كان مُسافرا أو كان راكبا وقت الصلاة، وأراد أن يصلّي، فلْيَنْوِ الصلاة لأيّ جهة كانت بعد اجتهاده في تحديد القبلة، وإن أخطأ في تعيينها فإنّ الله تعالى يراه ويُثيبه على طاعته. وللفقهاء أقوال في صلاة الراكب، والصلاة في بلاد الغُربة يحسن الرجوع إليها في كتب الفقه لمن شاء التوسّع فيها، من هذه الكتب (حاشية الأحوذي لابن العربي، ورسالة ابن زيد القيرواني، وتفسير ابن عاشور: التحرير والتنوير، والقوانين الفقهيّة لابن جزي).

- **وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (115) :**

قال اليهود: عُزَيْرُ ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله من سَرَواتِ الجنّ. كلّ هذه الادّعاءات باطلة وكاذبة. تنزّه الله عمّا ينسبون إليه، بل له ملك كلّ ما في السماوات والأرض. وكلّ مخلوق لله خاضع ومنقاد لأمره.

- **بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (116) :**

سبحانه وتعالى مبدع الأشياء في ما يوجد في السماوات والأرض، وهو مخترعها بغير مثال سابق، وإذا أراد شيئا أوْجَدَه بقوله للشيء : كن فيُوجد ويُخْلق ويُنَفَّذُ أمْرُهُ.

- **وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (117) :**

وقال الّذين لا يعلمون وهم الأمّيّون المشركون الذين ليس بين أيديهم كتاب سماوي، هلاّ يخاطبنا الله بنبوّتك يا محمد، أو يرسل إلينا مَلَكا من عنده يخبرنا بأمرك، أو تأتينا بمعجزة حسّية نراها تدلّ على صدق دعواك. كذلك قال اليهود من قبلهم لنبيّهم موسى: أرِنَا الله جهرة. لقد تماثلت قلوبهم في التحجّر والعناد للهروب من الإيمان إلى الكفر.

ولقد وضَّحْنَا دلائل صدقك يا محمّد لقوم يؤمنون بالله وبإرسال الرّسل وإنزال الكتاب إيمانا موثوقا لاشكّ فيه.

- **إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ (118) :**

في هذه تسليةٌ للنبيّ حتّى لا يحزن لإعراض قومه عن السماع له، فجاءت لِطَمْأنته وللتأكيد على أنّه نبيّ مرسل بالحقِّ الذي هو القرآن ورسالة الإسلام مبشّرا المؤمنين بالرحمة والرضوان،

ومُنذِر الكافرين والمنافقين من عذاب الله. ولمزيد تسليته فقد قيل له: ولا تهتمّ بإعراض المكذّبين الموعودين بعذاب النّار، فإنّهم سيلقَوْن مصيرا سيّئا.

- وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ **(119)** :

وبالإلتفات لأهل الكتاب فإنّ تسلية النّبيّ جاءت بإنبائه بأنّهم لن يتّبعوه ولن يرضوا بالسماع له حتى يكون على دينهم، وهذا أمر محال: قل إنّ الإسلام هو الهدى الواجب اتّباعه، واِحذر من ملاينتهم فلئن اتّبعت رغباتهم بعد ما جاءك من القرآن فلن يكون الله داعما لك، ومناصرا لدعوتك. والخطاب في الآية لكلّ مسلم حتى يحذر تدبير أعدائه في الدّين، وما يشيرون عليه من توجيهات لأنّه لا يُؤْمَنُ شرُّهم، ولا كيدُهم، وعليه أن ينتصر بالله وحده وبما هداه إليه.

- ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ **(120)** :

والذين يتلون التوراة بتدبّر، ويقرؤونها بإمعان يؤمنون بالقرآن وبما يأتيك من الوحي. ومن يكفر به فأولئك هم الذين فرّطوا في الفوز بنعيم الآخرة.

- يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ **(121)** :

تجديد النّداء لبني إسرائيل بالتخصيص يجعل قلوب المؤمنين تلين وتفرح بتخصيصهم بالنداء، وتجعلهم يُصغُون لما يدعوهم إليه ربّهم. وقد دُعوا لأن يتذكّروا فضائل ربّهم عليهم حين أنقذهم من الاستعباد، وحين أسكنهم بلدا خصبا بعد التّيه، ولأن يذكروا فضله العظيم إذ خَصَّ نسلهم لأن يكون منه جمعٌ من الأنبياء والرسل، ولأنّه تعالى جعلهم أهل كتاب.

- وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ **(122)** :

وأعيدت لهم هذه الموعظة ليذكروا يوم الحساب ويعملوا له. إنّه يوم الجزاء أو المؤاخذة. في ذاك اليوم لا تُؤاخَذُ نفسٌ بذنب نفس أخرى. كلّ نفس مسؤولة عن نفسها. وفي ذاك اليوم لا يُقبل من أيّ نفس يُقضى عليها بالعذاب أيّ فدية مهما عَظُم ثمنها، ولا تنفعها شفاعة شافع للنّجاة ممّا حُكم عليها، ولا تجد لها من ينصرها ويعينها على ما هي عليه من كرب.

وعلى المتّعظ أن يُعِدَّ لهذا اليوم عُدَّتَه من إيمان صادق وعمل صالح ليفوز بالنّعيم وينجُوَ من المؤاخذة.

- وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ **(123)** :

هذه الآية وما والاها إلى الآية 140 في قصّة إبراهيم وبنيه عليهم السلام، ومن أهمّ ما جاء فيها:

- أنّ ملّة إبراهيم وبنيه قائمة على دين الله: الإسلام.
- وأنّ مجيء محمد صلّى الله عليه وسلّم ونبوّته ورسالته كان اِستجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام، وقد كان سابقا في علم الله تعالى بعثة محمد صلّى الله عليه وسلّم.
- وأنّ العرب من ذريّة إسماعيل عليه السّلام.
- وأنّ أغلب أركان حجّ المسلمين كان من تأسيس إبراهيم عليه السّلام بأمر ربّه.
- وأنّ بناء الكعبة المشرّفة من عمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأمرٍ من الله، وهو تعالى الذي حدّد مكانها وجعلها قبلة للمسلمين.
- وأنّ أمن مكة البلد الحرام كان اِستجابة لدعاء إبراهيم عليه السّلام، وكذلك ما يأتيها من رزق من خارجها، وهذا من تقدير الله عزّ وجلّ.

وفي هذه القصة كذلك :

- تركيز عقيدة الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب السماوية.
- التمهيد لمشروعية الحجّ والتأسيس لأركانه.
- الإشارة أنّ إبراهيم وذرّيته عليهم السلام قد كانوا مُوحِّدِين في عقيدتهم، غير مشركين.

واذكر إذ اِختبر الله إبراهيم عليه السلام بأوامر وأفعال فأدّى ما طُلِبَ منه أداءً كاملا على أتَمِّ وجه، فأوحى إليه الله بأنّه جاعله قدوة للنّاس في الدين يتّبعونه ويأخذون عنه الأوامر والنّواهي. قال إبراهيم راجيا ربّه: واجعل القدوة في ذرّيتي من بعدي. قال الله: لا ينال فضلي الظالمون منهم الذين اِختاروا لأنفسهم الكفر والمعصية.

- وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ **(124)** :

واذكر إذ قضينا أن تكون الكعبة المشرّفة (مَثَابَةً لِّلنَّاسِ) مرجعا وملجأ ومكانا يأتونه من كلّ جانب لتحصيل الثّواب (وَأَمْنًا) ومأمنا من الظلم والإغارة والقتل. وجعلنا المكان الّذي أقام فيه إبراهيم حول البيت مكانا للصلاة والعبادة. وكلّفنا إبراهيم وإسماعيل بأن يجعلا الكعبة المشرّفة خالية من الأوثان والأرجاس لتكون مكانا طاهرا خاصّا بالعبادة لله وحده للقصّاد الذين يطوفون بالبيت تعظيما لصاحبها، وللمقيمين فيه على الصلاة والذّكر لله عزّ وجلّ، وللمصلّين العابدين الساجدين لله تقديسا وتعظيما.

- **وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (125) :**

واذكر إذْ دعا إبراهيم ربّه بأن يجعل البلد الذي أقيم فيه البيت بلدًا ينعم بالأمن لا يُسْفَك فيه دم، ولا تُزهق فيه روح، ولا يُغتصب فيه رزق، وأن يغدق على أهله أصنافا من الثمرات المتنوّعة لكلّ المقيمين فيه ممّن آمنوا بالله وحده وصدّقوا بيوم القيامة للحساب، فأجاب الله دعاءه، إلاّ الكافرين فقد قضى الله فيهم أن يمهلهم زمنا قليلا منعمّين بحياتهم، ثمّ يُلجِئهم إلى سوءِ العاقبة وللعذاب بالنّار بسبب كفرهم.

وإنّ دعاء إبراهيم للبلد بالأمن، وإدرار الرزق لَمِنْ دلائل حكمته عليه السلام، ذلك لأنّ الأمن من أهمّ أسس دعم الاستقرار في البلاد، وضمان عمارتها، وانتشار عمرانها، فإذا أضيف لهذه الفضيلة وَفرة الثّمر من كلّ صنف توفّر لسكّانها سعة المال والرّزق، واكتملت عندهم أسباب السعادة، وطاب لهم فيها المقام.

والأمن الحقيقيّ لا يقوم على حدّ السيف، أو بالعصا الغليظة، وبإرهاب السكّان بسلب حرّياتهم، وبفرض الهيمنة بالسلطة المطلقة، وإنّما الأمن الحقيقي هو الذي يؤسّس له العدل النّزيه الذي يحكم بالقسط ليحفظ حقّ كلّ إنسان، ويردّ عنه كلّ ظلم، وهو الذي تدلّ عليه معاملة سكّان البلد لبعضهم بالإحسان، وتقوم علاقتهم على الودّ والمؤازرة والاحترام، ويكون أولو الأمر من أهل العلم والأمانة والصلاح والحرص على توفير المصالح العامّة اللازمة للبلاد.

وأمّا الرّزق فبالعمل وبذل الجهد يُكتسب. وخير ما يصرف النّاس عن اللهو والعبث وعن الانحراف المثابرة على العمل وبذل الجهد للكسب الحلال، وحينئذ يأمن النّاس على طعامهم وعلى حياتهم الاجتماعية وعلى أخلاقهم المدنية وعلى أمنهم.

- **وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (126):**

واذكر إذ كان إبراهيم يبني أساس الكعبة الشّريفة مع ابنه من هاجر: إسماعيل. وإسماعيل هو أبو العرب جميعهم، منه نسلهم. وكان إبراهيم –وهو يبني الأسس– يدعو ربّه بقوله: ربّنا اجعل لنا ثوابا على عملنا، واجعله عملا خالصا لوجهك الكريم، فإنّك تسمع دعاءنا ، وتعْلَمُ ما نفعل ونَرَاه.

- **رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (127) :**

ربّنا اِجعلنا منقادين لك، خاضعين لأمرك، مخلصين لك، واِجعل من ذرّيّتنا أمّة كثيرة العدد مسلمين لأمرك ومنقادين لك، وبيِّنْ لنا شرائع عبادتنا، وشرائع قصدنا لبيتك، وتقبّل رجوعنا إليك بالطاعة، وامحُ ذنوبنا السالفة.

- رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (128) :

وكان من أدعية إبراهيم أن يبعث في سكّان هذا البلد الأمين من ذريّة إسماعيل رسولا من نسلهم يقرأ عليهم كلام الله المنزل، ويعلّمهم دينهم القويم، ويبيّن لهم أسرار الأحكام الدينيّة ومقاصدها الشرعية، ويطهّر نفوسهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي، وتوسّل إلى الله بأسميه: العزيز، أي العظيم، والحكيم، وهو الذي يحسن التدبير، وكان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام أن اِستجاب لدعائه بعد أن كثُر نسلُ اِبنه إسماعيل، وعمّروا البلد فأرسل فيهم نبيّا رسولا هو محمد صلّى الله عليه وسلّم.

- وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (129) :

ومن كره دين إبراهيم وأعرض عنه فقد أذلّ نفسه وأهانها بزجّها في المعصية. ولقد اِختار الله إبراهيم من خيرة خلقه للنّبوّة والرسالة في دنياه، وهو في الآخرة في منزلة الصالحين المكرّمين بنعيمها.

- إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (130) :

هذه كلمة أو هذا أمر من أمر الله اختبر الله به إبراهيم إذ أمره بأن يسلم وجهه لله، أي بأن ينقاد لأمره وبأن يخلص لعبادته وحده، فأطاعه وقال أسلمت نفسي لأمر الله: قضاؤه فيَّ أمرٌ نافذ، وأنا مطيع لكلّ أمر. ومن مظاهر هذا الإسلام أنّه لمّا أُمِر بذبح ابنه همّ بتنفيذ أمره لولا أن فداه الله بذبح عظيم.

تعتبر هذه الآية محوريةً في ذكر قصّة إبراهيم هاهنا وفي هذه السورة الطويلة المتميّزة بكثرة أحكامها ومقْصَدِيَتها. فقد جاء فيها أنّ الله تعالى قد أمر إبراهيم عليه السّلام لأن يكون على الإسلام دينًا، إذن دين الله تعالى، وأنّ ملّة إبراهيم عليه السلام هي ملّة قائمة على دين التّوحيد، مائلة عن الشّرك، وهذه خاصية دين الله تعالى. وحين نقول نحن على ملّة إبراهيم فنحن على ملّة الإسلام، وأوصى بها إبراهيم بنيه: إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وأوصى يعقوب بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأشهدهم على أنفسهم بأن يموتوا على الإسلام، ودعا ابنه يوسف عليه السلام ربّه فاطر السموات والأرض لأن يُميته على الإسلام، وجاء النّبيّ الخاتم محمد صلّى الله عليه وسلّم حفيد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالدعوة للإسلام وللعمل بشرعه وأحكامه. فمن ادّعى أنّه على ملّة إبراهيم وأشرك فقد اِفترى على الله الكذب ومال عن الصواب واِنحرف. الإسلام دين الأنبياء والمرسلين عليهم السلام منذ رسالة إبراهيم حتى جاء النبيّ الخاتم. وهذا من

بعض ما يُفسَّر به قول الله تعالى في سورة آل عمران (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ) وهذا من خير ما يردّ به على المشركين الذين يدّعون أنّهم على ملّة إبراهيم، وما هم عليها بسبب شركهم، وردّ على المكذّبين من طائفتي اليهود والنّصارى.

- وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ(131) :

وأوصى إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن ورائهم أبناءهم قائلا: إنّ الله اختار لكم الإسلام دينا، فاثبتوا على تعاليم الإسلام في حياتكم ولا تموتوا إلاّ ثابتين على الإسلام.

- أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (132) :

وحين شعر يعقوب بدنوّ أجله جمع أبناءه كلّهم فسألهم عمّن سيعبدون بعده، فأجابوه بأنّهم يعبدون الله الذي يعبده، والذي عبده من قبله آباؤه : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهو إلاه واحد لا شريك له، وهم له منقادون وطائعون لأوامره.

- تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (133) :

تلك جماعة قد مضت وصارت سلَفًا. هي مسؤولة عمّا عملت وقدّمت لنفسها. وأنتم مُجْزَوْنَ على أعمالكم. ولا تُسألون عمّا كانوا يفعلون.

- وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (134)

وقال اليهود للمسلمين بالمدينة: تَهَوَّدُوا أوْ تَنَصَّرُوا تكونوا راشدين على الدّين القويم. فجاء الردّ: بل نتّبع دين أبيكم الأوّل: إبراهيم، وشريعته، فقد كان مائلا عن الباطل إلى الدّين الحقّ، ولم يكن إبراهيم مشركا. وفي هذا إشارة لقول بعض اليهود: عزير ابن الله، ولقول النّصارى: الله ثالث ثلاثة. سبحانه عمّا يصفون.

- قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ(135) :

الخطاب في الآية للمسلمين، وفيها تعليم لثلاثة من أصول العقيدة الإسلامية. قولوا آمنّا بالله وحده، وهذا أصل أساسي. وقولوا آمنّا بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل إلى إبراهيم: الصُحُف، وإلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من مبادئ شرعية. والأسباط هم ولد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر ولدا. وُلد لكلّ واحد منهم أمّةٌ من النّاس. والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة. وقولوا: نؤمن بما أوتي موسى: التوراة والألواح، وبما أوتي عيسى: الإنجيل، وبما أوتي

النبيئون من ربّهم شرائع. "شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا هو شرْعٌ لَنَا". هذه قاعدة أُصولية. قولوا: نؤمن بكتبهم جميعها، وهذا أصل من أصول العقيدة السليمة. وقولوا: لا نفرّق بين أحد منهم، أي نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، وهذا أصل ثالث من أصول العقيدة. ونحن لله منقادون وطائعون لأوامره.

- فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ **(136)** :

فإن آمن أهل الكتاب بمثل ما آمنتم به –أيّها المسلمون– فقد إستقاموا على الصراط المستقيم وسبيل الهدى، وإن لم يؤمنوا بمثل ما آمنتم به، وأعرضوا عن الإيمان ببعض ما جاءكم فإنّهم في خلافٍ معكم في الدّين وعداوةٍ. في هذه الحال فإنّ الله كافيكم عداوتهم، ورادُّها عنكم، وهو السميع لقول كلّ قائل، وهو العليم بما يُنَفِّذه في عباده، وبما يجريه عليهم.

- صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ **(137)** :

اِلزموا دين الله: الإسلام الذي فطر النّاس عليه، وخالطوا به قلوبكم كما تخالط الصبائغ الثوب فتلوّنه وتزيّنه حتى تتزيّن به قلوبكم، وتتجمّل به، وتُلَوَّنَ به، فلا تزول منه، وقولوا إنّا لا نعبد إلاّ الله وحده.

- قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ **(138)** :

قُل – أيّها المؤمن المسلم – أتخاصموننا في إختيار الله لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم نبيئا من العرب، والحال أنّ الله هو ربّنا، وهو ربّكم، إلاهنا وإلاهكم واحد. وعمومًا فإنّا سنحاسب على إيماننا وأعمالنا، وستحاسبون على إيمانكم وأعمالكم، ونحن لا نبغي بعبادتنا وأعمالنا غرضا دنيويا أو مرضاة أيّ مخلوق، وإنّما نقصد مرضاة الله وحده.

- أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ **(139)** :

أم يريدون أن يفتخروا بنسبهم إلى ذريّة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهم أنبياء ورسل عليهم السلام، وإلى أولاد يعقوب وأحفاده، أو قبائلهم، ولا يرون نَسَبًا أشرف من نسبهم.

وقولوا للقائلين بهذا القول: هل أنتم تعلمون ما يُرضي الله أم أنّ الله أعلم بما يرضيه وما يتَقَبَّلُهُ؟ فلا أحدَ أشدُّ ظلما ممّن يخفي في نفسه شهادة ثابتة عنده من الله. وفي هذا اِلتفاتٌ لإخفاء اليهود حقيقةَ ما في كتابهم من التبشير بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبصفاته.

وليس بغافل عمّا يعمل هؤلاء المشكّكون في نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وفي رسالته، وفي هذا تهديد لهم على طمس الحقائق وكتمانها.

- ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ **(140) :**

كلّ أمّة مسؤولة عن إيمانها وعملها، ولا أحد يجازى عن غيره، أو يعاقب بدلا عن غيره. ويفيد تكرار هذه الآية التّأكيد على أنّ كلّ أمّة ستحاسب وِفْقَ ما نزل عليها من شرع الله تعالى.

- ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ **(141) :**

هذه الآية من دلائل النّبوّة لأنّ فيها إخبارا بما سيُقَالُ قبل وُقُوعه. والسفهاء هم خِفاف العقول ومضطربوها حسدًا أو كيدًا، أو من سَيّئِي الأخلاق، ويُقصد بهم هنا: اليهود والمشركون والمنافقون. سيقولون عندما تُحَوَّلُ قبلةُ المسلمين في الصلاة: أيّ شيءٍ صرفهم عن قبلتهم، وجَعَلَهم يغيّرونها، وقد كان المسلمون يتوجّهون بصلاتهم عند أوّل عهدهم بالهجرة إلى بيت المقدس. قل لهؤلاء السفهاء: الله يُعبد في كلّ اِتّجاه وفي كلّ مكان لأنّ المشرق والمغرب ملك له سبحانه، ومطّلع على ما يجري فيهما، وفيما حولهما، وهو سبحانه يدلّ من يشاء من عباده الهداية إلى صراطه المستقيم الذي جاء به دينُه الإسلام.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾**(142) :**

يشعر كلّ مسلم حين يقرأ هذه الآية بالاعتزاز بالانتساب إلى الأمّة الإسلاميّة التي شاء الله لها أن تكون أمّة وسطا أي أمّة اعتدال: لا إفراط عندها ولا تفريط في الدين: معتقدا وعبادة وعملا صالحا في المعاملات والأخلاق، وأمّة عدول: يشهدون بالحقّ، ويصدقون في القول والعمل، ولذلك جعلهم الله شهودا على النّاس لصدقهم ولأنّهم أهل عدالة وإنصاف، وإنّ الرّسول الصّادق الأمين شهيد عليهم فيما بلّغهم به عن ربّه وبما وعظهم به، وفيما عملوا معه ومن بعده. فهل يُعقل أن يفرّط مسلم في هاتين الصفتين: الاعتدال والعدالة ليكون من الخِيَرَةِ؟ وأمّا تحويل جهة القبلة فسيكون لكشف السفهاء: فمن ارتدّ عن الإسلام إلى الكفر بسبب تحويل القبلة فإنّه منهم. إنّ هذا التحوّل سيكون شاقّا على بعض النّفوس لأنّه يصعب عليهم إدراك الحكمة من ورائه، إلاّ على الذين هداهم الله وكان الإيمان ثابتا في قلوبهم فإنّهم سيرتضون بما ارتضاه الله لهم. والذين كانوا يصلّون إلى جهة القبلة السابقة وباغتهم أجلهم، فلم يصلّوا على القبلة المحوّلة فلنْ يضيع ثوابهم على صلاتهم التي صلّوها إلى بيت المقدس. إنّ الله رؤوف بالمؤمنين لا يؤاخذهم على ما لم يكونوا يعلمون، ورحيم بهم لا يضيع أجرهم وثوابهم على أعمالهم الصالحة.

- قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ (143) :

هذه في تحديد قبلة المسلمين في الصلاة وجهة المسجد الحرام اِستجابة لرغبة النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم. لقد أبصرنا تَطَلُّعَكَ للسماء بالنّظر، ورأينا تَرَدُّدَ عينيك مرّة بعد مرّةٍ في السماء منتظرا الوحي. فلنجعلنّ قبلتك في صلاتك إلى القبلة التي تريدها، فاجعل قبلتك في صلاتك جهة الكعبة المشرّفة بالمسجد الحرام. فصلّوا جميعا شطر المسجد. وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّ تحويل قبلتك في صلاتك إلى الكعبة أمر ثابت صحيح من الله تعالى. وليس الله بغافل عمّا يقولون وعمّا يدبّرون من مكائد.

- وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (144) :

هذه الآية في بيان عناد أهل الكتاب، وكذا كان الأمر مع مشركي مكّة قبل هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : أصرّوا على الكفر عنادا واِستكبارا وتعطيلا للعقل عن التدبّر. والمعنى: مهما جئت لهؤلاء من حجّة وبرهان للدلالة على صدقك فإنّهم لن يصلّوا صلاتك إلى الكعبة، ولست بتابع لهواهم لتصلّي إلى قبلتهم، وإنّ بعضهم يخالف الآخرين في وجهته عند صلاته. ولئن اتّبعت أهواءهم قصد محاولة اِستمالتهم للإسلام فإنّك ستكون ظالما لنفسك بمحاولاتك إرشادهم لدينك لأنّهم لن يؤمنوا لك.

- ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (145) ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (146) :

إن أهل الكتاب يعرفون من كتابهم أوصاف النّبيّ الخاتم كما يعرفون أوصاف أبنائهم: وإنّ فريقا منهم يخفون ما هو ثابت عندهم من أنّ النّبيّ المبشّر به على ملّة إبراهيم، ويصلّي إلى قبلته حتّى لا يُؤَكِّدوا صدقه لينصروا عليه المكذّبين به.

الخبر الثابت الدالّ على نبوّتك وصدقك عند ربّك، فلا تكوننّ يا محمّد من الشّاكين المرتابين في هذا الفضل الذي تفضّل به عليك الله حقّا.

- وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (147) :



لكلّ أمّة جهة تُولّيها عند الصلاة. اليهود يصلّون مشرقا، والنّصارى يتوجّهون غربا، فبادروا لأعمال البرّ، وسارعوا إلى الطاعات. حيثما تكونوا سيجمعكم الله يوم الجمع ويحضركم إليه، فاتّقوه. إنّ الله لا يعجزه إحضاركم، ولا يعجزه أيّ شيء.

- وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (148) :

حيثما سافرت فاجتهد في التعرّف إلى القبلة للتّوجّه إلى الكعبة المشرّفة بالمسجد الحرام. إنّ هذا الأمر هو التوجّه الصحيح، وهذا أمرٌ من عند الله حقّا، وليس بغافل عن اجتهادكم وعن توجهكم.

- وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (149) :

اجتهدوا في التعرّف إلى قبلتكم إذا سافرتم حتّى لا يكون لليهود والمشركين فرصة لمجادلتكم في تولّيكم إلى قبلة المسجد الحرام إلاّ المعاندين والمجادلين والمصرّين على الكفر فلا تأبهوا بهم وبمجادلاتهم في التولّي إلى المسجد الحرام ومعرفة القبلة، دعوهم لشأنهم وما يقولون وإمتثلوا لأمر الله، ولا تخالفوا ما جاءكم به رسوله حتى تنعموا بنعمة الله عليكم إذ هداكم للإيمان والإسلام.

- كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ (150) فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ(151) :

وبمثل ما أنعمنا عليكم بالهداية والإيمان كذلك أرسلنا فيكم رسولا منكم تعرفون أمانته وصدقه لإتمام نعمتي عليكم. أرسلنا فيكم هذا الرسول ليقرأ عليكم ما أوحينا به إليه، فجعلناكم بهذا أمّة كتاب، وأرسلناه فيكم ليطهّركم من الرّجس وعبادة الأصنام والأوثان، وليخرجكم بالكتاب الذي جاءكم به من أمّيتكم في الدين وليعلّمكم شرائع ربّكم وحدوده وما يجب عليكم من واجبات في الدين والعبادة والمعاملات والأخلاق، ولتهتدوا بسنّته الحكيمة فيكون لكم القدوة الحسنة لعمل الصالحات، وليعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون من أخبار الديانات السالفة، وأخبار العصاة من الأمم الماضية للموعظة، ويوضّح لكم الحجج والبراهين الدالّة على الألوهية والتوحيد، فاذكروا الله بالعبادة والشكر والتسبيح يذكركم ربّكم بالثّواب والنّجاة من العذاب، ولا تكفروا بجحود نِعَم الله عليكم أو بإعراضكم عن طاعته وعبادته.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (152) :

أيّها المؤمنون تَقَوَّوْا على المشاقّ والصعوبات التي تعترضكم بضبط النّفس حتى ينفرج الكرب، وحتى لا تضعفوا عند الشدائد، فلا شدّة مع العزم وسعة البال، وتوجّهوا إلى الله بالدعاء في سجودكم، وعند مواجهة الشدّة حتّى تمرّ الأزمة، واعلموا أنّ الله مع الصابرين مَعِيَةَ شَدِّ الأَزْرِ والعَوْنِ لِتَتَقَوَّوْا على احْتِمال المكاره وتحمّل أذى المنافقين والمكذّبين.

- **وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ (153) :**

وإذا قتل منكم جمع في معركتهم ومواجهتهم للكافرين فلا تقولوا إنّهم أموات، كلاّ فكلّ من قُتل في سبيل الله نصرةً لدينه، وإعلاءً لكلمته، ولردّ الأذى عن المسلمين حمايةً لأرواحهم وممتلكاتهم ودفاعا عن بلادهم هُو حيّ عند ربّه حياة غيبية لا تعرفونها ولا تشعرون بها لأنّها خارجة عن إدْرَاكِكُمْ.

- **وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ(154) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (155) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (156) :**

لمّا دُعِي المؤمنون للاستعانة بأمرين: الصبر والدعاء ناسب هذا تذكيركم بأنّهم في حياتهم الدنيويّة معرّضون لبعض المصائب أو الشدائد ليُعرفَ صدقُ إيمان المؤمن، ورضاه بقضاء الله فيتجلّد بالصبر، ويطلب من الله معافاته ورحمته ولطفه، وإن كان من الغافلين فإنّ الشدّة تذكّره بربّه فيهرع إليه داعيا إيّاه بأن يكشف كربه ويُصَبّره على بلواه، وكم من غافل ردّته المُصيبة لحِمَى ربّه وأصلحته في علاقته بدينه. قد يُصاب القوم بالخوف إذا داهمهم عدوّ فخرّب لهم ديارهم، وقتّل فيهم شبابهم وأهرق دماء من اعترضوه، أو قامت فيهم فتنة فاختلط الحابل بالنابل وكثرت فيهم السرقة والغصب والاغتصاب وهلك الزرع وخُرّبت مؤسسات الدولة ومكتسباتها وأُشعلت فيهم الحرائق، ولم يعد المرءُ آمنا في وطنه لا على نفسه ولا على أهله، ولا على ممتلكاته ورزقه. وقد يُصابون بالقحط والجفاف، وليس لهم في هذه المُصيبة إلا الالتجاء إلى الله لطلب السقيا وللاستغفار. وقد يُصاب الفرد بموت عزيز عليه، أبيه أو أمّه أو ولده، ذكرا أو أنثى فتردّه المصيبة إلى ربّه يدعوه ليخفّف عنه وَطْءَ القضاء وليطلب منه الرّحمة لفقيده، وقد يصاب المرءِ في ثمره أو زرعه بجائحة طبيعيّة من حريق أو فيضان أو هجوم جراد فتّاك فيهلك له حقله أو بستانه. عندئذ يلزمه الصبر، ويلتجئ إلى الله ليدعوه بأن يعوّضه خيرا ممّا خسره. وجاء في الآية تبشير الصابرين بتفريج كرباتهم، وبحسن العاقبة. هؤلاء الصابرون كلّما أصيبوا بمصيبة استرجعوا، أي قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ليدلّوا على عمق إيمانهم بربّهم. إنّهم يُقرّون بهذا القول بأنّ خلقهم ووجودهم كان من تقدير الله وأمره، فهم لله، لأنّه تعالى هو صاحب الفضل

عليهم في وجودهم، وما أصيبوا به كان من قدر الله وقضائه لا يستطيعون له ردًّا، وما كان أصابهم لم يكن ليخطئهم، فليس لهم إلاّ الصبر والالتجاء إلى الله بالدعاء، وهم يؤمنون بأنّهم راجعون إليه تعالى لأنّهم مِلْك لله، هو الذي خلقهم وأوجدهم، ومتى شاء الله ردّهم إليه.

هؤلاء المؤمنون المسترجعون مبشَّرُون بصلوات من ربّهم، وصلواته تعالى عليهم تعني إنزال رحمته عليهم ولطفه وإنزال الصبر على قلوبهم والرضا بقضائه، وهؤلاء هم الذين اهتدوا للإيمان الصادق.

واِستنادا للمبدإ العام في تفسير آي القرآن : "العِبرةُ بعموم اللّفظ، لا بخصوص السّبب، وهو مبدأ متّفّقٌ عليه عند جلّ المفسّرين، فإنّ ممّا يُستفاد من هذه الآية أنّ كلّ أمّة في أيّ مكان من الأرض معرّضة في زمنٍ ما من تاريخها لأن تمرّ بفترة عصيبة، وظروف قاسية فجئية تصيبها بنَكْبَةٍ تثير في سكّانها: الخوف من الموت والهلاك، وذلك حين يرون من حولهم أناسا يتَهَاوَوْن هلكى بأعداد كثيرة في كلّ يوم تطلع فيه الشمس. وما أكثر الشواهد على ذلك! وما أكثر الأسباب! فكم من أمّة تعرّضت في عهد من عهودها لعدوان خارجي أفسد على مواطنيها حياتهم، دمّر القائم فيها من المباني ما دمّر، وخرّب أرضها، وقتل الصغير والكبير، وسلب ما سلب ونهب، وزرع في النّاس الخوف والفزع والهلع، وحبس زمنها النّاس أنفسهم في المغاور والكهوف حتّى رفع الله تعالى عنهم الكرب وكشفه بالفرج، وعرفوا عند خوفهم وحبسهم الجوع، ونقصا من الأموال لأنّ متاجرهم ومشاغلهم قد خرّبت عليهم وضاعت أعمالهم وأرزاقهم، فنقصت أموالهم، وزادت عند أغنياء الحرب المحتكرين الجشعين الذين يثرون عند أزمات النّاس ونقص ثمراتهم. ولمّا عاد القوم لأهليهم وقراهم وجدوا أنفسهم قد فقدوا الكثير من الأنفس من أهليهم وذويهم، وكثرت الأرامل والثكالى والأيتام، وغاب عنهم من هجر البلد هاربا من الموت والهلاك. عرف النّاس ربّهم زمن الخوف والهلع فأكثروا من الدعاء اِستجارة بالله عزّ وجلّ طلبا لنجدته، وحفظه، ولطفه، ولم يجدوا من ملجإ عند خوفهم إلاّ إليه سبحانه. وكانت محنتهم التي أُصيبوا بها اِختبارا لمدى صبرهم، وكان سببا لعودتهم لربّهم بالصلاة والدعاء. وقد لا تكون الأمّة قد أصيبت بعدوان خارجي أفسد على أهليها حياتهم، فأحيانا تكون الفتنة الداخلية مدمّرة تثير في النّاس الخوف والفزع وتصيبهم بما يصاب القوم في حربهم ضدّ أعدائهم خاصة إذا كانت الفئتان المتنازعتان في الفتنة يحتكمون إلى السلاح، وإلى اِقتناص بعضهم، فالأمر في الحالتين سواء. وأسوأ من هذه النكبة وتلك التي فيها عدوان خارجي حين يتفشّى النّزاع إلى بلدان الجوار والبلدان المناصرة لبعض على بعض فتغدوا الحرب عالميّة. إنّها من أكبر النّكبات على سكّان الأرض أجمعين، ويعرف دارسو تاريخ الحربين العالميتين أصناف آثارهما المدمّرة.

وقد لا يتأتّى الخوف أحيانا من أثر السلاح المدمّر للغزاة، أو أهل الفتنة، ناهيك عن سلاح الحرب الكونيّة، وإنّما يتأتّى حينا من شبَحٍ لا يرى لدقّة حجمه، ويكون سريع التفشّي، وعظيم الضّرر في الفتك بالأنفس كالذي أصيب به العالم كلّه في زمننا الحاضر (2021)، ونقصد به جرثومة (الكورونا المستجد، صنف Covid 19). وباءٌ أصاب العالم كلّه بعظيم البلاء. حبس الأصحّاء في بيوتهم في "حَجْرٍ صحّي" لاتّقاء العدوى، وحيّر جَهَابِذَةَ الأطباء في اِبتكار الدواء الذي يفتك بها، ويوقف نشاطها ويوقف تفشّيها، وأمات الكثير من الأنفس بأعداد كبيرة في زمن قصير. أصاب جميع الخلق بالخوف والهلع وعطّل مصالحهم، وأقفر شوارعهم، وعطّل الكثير من المصانع والمصالح والعمّال عن أعمالهم وأنشطتهم، وجوّع من جوّع، وقلّل طعامهم ومؤنتهم، وأبعد الناس عن بعضهم قسرًا لتفادي العدوى إذا تلاقوا، واِمتلأت المشافي والمصحّات بالمرضى حتّى عجّت بهم، وأخرجت الجند من ثكناتهم ليحدّوا من حركة النّاس خارج بيوتهم ولمقاومة جرثومة لا ترى، تنتقل عبر اللّمس والتّنفس إلى الرّئتين، فإذا سكنت فيها أردتْ المصاب ميّتا إذا كان ضعيف المناعة، أصيب النّاس بالخوف والجوع ونقص من الأموال، وفقدوا الكثير من الذين أصيبوا بها من أهليهم وأحبابهم، وأضاعوا ثمرات جهودهم وثمرات الأرض. وكثير منهم لم يجدوا من ملجأ في أزمتهم إلاّ إلى الله تعالى فأكثروا من الدعاء وطلب نجدته وحفظهم بكشف الكرب ورفع الوباء ودفع البلاء. ولا يستفيد من الأزمة إلاّ من كان عديم الضمير وعديم الإنسانيّة وضعيفي الإيمان وهم المستكرشون أثرياء الحرب المحتكرون لطعام النّاس، وتجّار الموت الغشّاشون الذين يبيعون النّاس سلعها منتهية الصلوحية ليردوا الأصحّاء مرضى. ما أسوأ كسبًا يأتي من جائحة عظيمة المصيبة، ومن وباء كان على الناس أشدّ بلاء!

وقد تصاب أمّة بكارثة طبيعيّة من مثل الزّلازل القويّة، أو الفيضانات العارمة، أو المدّ البحري الهائج المعبّر عنه بتسونامي يعرف فيها النّاس خوفا عظيما وهلعا وفزعا على أرواحهم، ويفقدون فيها ديارهم وأرزاقهم، ويذهب بأرواح الأقارب والأحباب، وتخلّف وراءها مآسي كثيرة في المجتمع الإنساني.

وكلّ هذه الابتلاءات تؤثّر على اِقتصاد الأمّة تأثيرا سلبيا يعيقُ نموّها واِزدهارها، وتخلّف فيها الكثير من المآسي الاجتماعية لا تنفرج إلاّ بالاستعانة بالصبر والصلاة، والعمل، وبالتآزر وبالتآلف، وبمراجعة الأنفس للكفّ عن المعاصي، وللكفّ عن الظلم، فإنّ الابتلاء يأتي إذا اِنتشر الظلم في أمّة أو في العالم، وإذا كثرت في النّاس المعاصي والإعراض عن الله تعالى، وعن ذكره، وعن الطاعات. نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

- إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ **(157) :**

الصفا والمروة مكانان مرتفعان بجوار المسجد الحرام، في الحرم، وبينهما المسعى، والسعي بينهما من مناسك الحجّ والعمرة، ومن معالم الدّين الإسلامي. والحجّ شرعا هو القصد لبيت الله الحرام لأداء المناسك المطلوبة، وأما الاعتمار فيعني زيارة بيت الله الحرام، والفروق بينهما عديدة تُعْرَفُ في كتب الفقه. فمن زار بيت الله الحرام للعمرة أو قصدها للحجّ فعليه أن يسعى بين الصفا والمروة. ومن أتى بشيء من النوافل فإنّ الله يثيبه على طاعته لأنّه تعالى شاكر لعبده المُطيع ومطّلع عمّا يفعله.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ **(158) :**

الآية في التحذير من كتم علم من دين الله يحتاج إليه النّاس ليهتدوا به لما ينفعهم في دينهم ودنياهم. الّذين يعلمون شيئا من علم الله ولا يبيّنونه للنّاس قصْدًا لتركهم في حيرتهم أو ضلالهم، وعندهم من النّصوص والحجج ما يرشد به النّاس لهداهم فإنّ الله تعالى يتَبَرَّأُ منهم ويبعدهم عن ثوابه، وهذا من لعنة الله عليهم، ويلعنهم اللاّعنون بالبُعد عنهم والابتعاد، وبسوء الذّكر، وعدم الاحترام، وانتزاع الثقّة منهم.

- إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ **(159) :**

هذا الاستثناء يفيد وجوب تبليغ العلم الحقّ للنّاس وتبيانه لهم على قدر فهمهم لهداهم، فمن كان يكتم علما ثمّ أظهره للنّاس، وأصلح أمره مع من يستحقّ الإرشاد فأرشده لصالح الفعل والعمل، ووضّح له ما يجب عليه فعله وما يجب تَرْكه والحذر منه، فهذا غير ملعون من رحمة ربّه، ولا أحد من النّاس يلعنه، بل إنّ الله تعالى يتوب عليه فيما كان منه سلَفًا وهو سبحانه كثير التوبة والمغفرة لمن أطاعه، وكثير الرحمة به في دنياه وآخرته.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ **(160)** خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ **(161) :**

هذه الآية في بيان جزاء الكفر وتقبيحه، فالذين كفروا بوحدانية الله وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وماتوا على كفرهم هذا فجزاؤهم طردهم من رحمة الله وإبعادهم عن هذه الرّحمة، وعليهم لعنة الملائكة بأخذهم بالشدّة، وأمّا لعنة النّاس أجمعين فتعني التبرّؤ منهم، وابتعادهم عنهم، وسيخلّدون في العذاب ولا يُؤَخَّرُون عن العذاب وقتا من الأوقات، ولا هم يُنْظَرُون أَيْ تستقرّ عليهم اللّعنة، ولا ترتفع عنهم.

- وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ **(162) :**

لمّا حذّر تعالى من كتمان الحقّ، وأمر العلماء بإظهاره ووصل ذلك بذكر البرهان، جاءت هذه الآية في بيان الحقيقة الّتي يجب إظهارها للخروج من دائرة الكفر، والآية في إثبات حقيقة التّوحيد. إلاههم الخالق الذي يجب عبادته وطاعته إلاه واحد لا إلاه إلاّ هو، لإثبات وحدانيته، ولنفي الشريك له في الألوهية، ولنفي الإلحاد، فمن جحد وجود الله فقد كفر، ومن جعل له شريكا فقد كفر. وهو الذي خلق كلّ شيء برحمته لأنّه الرحمان. وهو كثير الرحمة بعباده المؤمنين في دنياهم وآخرتهم.

- إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ **(163) :**

لمّا أخبر تعالى بأنّه هو الإلاه الحقّ الأحد، جاءت هذه الآية لتوجيه عقل الإنسان، ونظره لبعضٍ من دلائل وجوده وألوهيّته ووحدانيته بذكر بعضٍ من آيات خلقه وإبداعه في هذا الكون وهذا الوجود. من هذه الآيات التي يعرف بها العاقل وجود ربّه وعظمته: خلقُه للسماوات والأرض. لا يتصوّر عاقل أنها وُجدت من غير خالق، صانع، مبدع ومدبّر لأمرها في الإنشاء والتسيير. محال أن توجد أو أن تقام صدفة أو باطلا من غير واجد موجود، حكيم الصنع والتدبير، عظيم القدرة في الإنشاء والتكوين، وحَسَنِ الخَلق. ولا يمكن أن تُخلق عبثا لغير حكمة ولغير غاية.

وأمّا اختلاف الليل والنّهار فهو خَلْقٌ للزمن، وآية تدلّ على الحركة والتّسيير. ومحال أن لا يكون لهذه الحركة مدبّر حكيم وقيّوم عليها لتنظيم تكوير الليل على النّهار وتكوير النّهار على اللّيل في دقّة عجيبة تُقَدَّر بالثَّوَانِي على مدى الوجود الزماني. ولولا هذا الاختلاف ما وجد الإنسان لنفسه زمنا لِنَوْمٍ بعد تعب، وما وجد نورًا مضيئا لعمله وسعيه لطعامه وقضاء حاجاته.

وأمّا الفُلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس فمن دلائل الرّحمة. إنّ من فضل الله على عباده أن سخّر البحر بِلُجَجِهِ وعمقه وهول اتّساعه وخطر أمواجه أن يحمل المركب الخشبي الخفيف على سطحه ليبلّغ صاحبه بين ضفافه لتنقلاته ليقضي مصالحه، أو ليبحث به عن رزقه من باطنه لتجارته وقوته.

ويُنزل الله من السماء ماءً لتعرفوا رحمته بكم أيّها العقلاء إذا أصابكم القحط والعطش، فينبت لكم به الزرق، وينتج الثمر، ويحيى الأرض، ويسقيكم ويسقي دوابّكم فاعرفوا فضله ورحمته وأُشكروا له.

ويصرّف الرياح والسحاب بين السماء والأرض فيجعلها لواقح أو يسيّر بها المراكب على سطح البحر فتكون دلائل رحمة وفضلا لشكر الله الذي أرسلها لكم، وأرسل السحب لتسألوا الله

غيثه وملء باطن الأرض لشرابكم، أو يرسل الرياح صرصرا عاتية ليردّ الضالّين منكم ليدعوا الله طالبين الرحمة وسائلين التوبة فيؤمنوا، أو يجعل السحاب منذرا بالسيول والهلاك فتهرعوا إلى الله بالتضرّع لينجيكم من العذاب والهلاك.

إنّ في هذه الآيات دلائل خلق وعظمة، ودلائل تقدير ورحمة، ودلائل إنذار لردّ الضالّ إلى الصواب. وما ينتفع بهذه الدلائل والبراهين إلاّ أصحاب العقول الرشيدة، وأصحاب الوعي والفهم والنظر والتدبّر.

- **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ (164) :**

هذه في طائفة من المشركين يتّخذون الأصنام الحجرية آلهة يعظّمونها ويقدّسونها، ويجعلونها لله نظيرا ومماثلا، وهذا من سفه العقول ومن الجهل، ولكنّ المؤمنين يحبّون الله حبّا أعمق، وأكثر يقينا. ولو ترى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر حين يُلقى بهم في نار جهنّم فيَلْقَوْن أشدّ العذاب، يومئذ يقرّون بأنّ القوّة لله وحده، وأنّ عذابه شديد الوجع والإيلام.

- **إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ (165) :**

ويوم القيامة يتَنَصَّلُ السادة والزّعماء والكهنة من أتباعهم الذين سمعوا لهم فعبدوا ما نصحوهم بعبادته وتقديسه، ويتباعدون عنهم، ويكرهون رؤيتهم وجوارهم حين يشاهدون ما أُعِدَّ لهم للعقاب، فتتقطّع صلاتهم ببعض.

- **وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ (166) :**

في ذلك اليوم يتمنّى الأتباع لو يعودون مرّة أخرى إلى الحياة الدنيويّة فيخلعون زعماءهم ويتصدّون لضلالاتهم ويتنصّلون منهم كما تنصّلوا منهم اليوم. وهكذا يُرِي الله الأتباع الذين عطّلوا عقولهم فكفروا ولم يؤمنوا بما جاءهم رسولهم من الهدى جزاء أعمالهم، ويجعلهم يتحسّرون ويَنْدمون النّدم الشّديد على ما فرط منهم، ويومئذ يلبثون في النّار، ولا يُعْتَقُونَ منها.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (167) :**

الخطاب للنّاس جميعهم لينعموا بما أحلّ الله لهم ممّا تخرجه لهم الأرض من ثمر طيّب وطعام لذيذ نافع مفيد، وليحذروا من السير في الطّريق الذي يزيّنه لهم الشيطان ليُغْوِيَهُمْ ويضلّهم عن الانضباط لشرع الله، إنّ الشيطان عدوّ ظاهر للإنسان لا يحبّ له الخير، ولا يحبّ له الهدى.

- **إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (168) :**



هذه لتحذيرهم من تدبير الشّيطان، فإنّه يزيّن للنّاس القبيح من الأعمال ذات العاقبة السيّئة، ويزيّن لهم ما يستقبحه الشرع ويحرّمه من المعاصي والشهوات الجنسية غير المباحة، وكلّ قولٍ من الكفر كنسبة الشريك له أو الندّ أو الصاحبة والولد، وهذا من الباطل الذي لا أصل له.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ (169) :

هذه في المقلّدين المعطّلين لعقولهم. العقل في الإنسان جوهرته، ونور بصيرته، فمن عطّله ضيّع عن نفسه خيرا كثيرا، وحبسها في ظلمات ليس بخارج منها. إذا قيل لهؤلاء اسمعوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما نزل عليه من الوحي ثمّ انظروا فيه قالوا لا حاجة لنا بذلك، إنّا نقتدي بآثار آبائنا وما وجدناهم عليه. أفيقلّدونهم حتى وإن كانوا جهلة أمّيّين لا يعلمون شيئا من الدّين القويم، وليس لهم هديّ فيما يؤمنون به ويعتقدون؟

- وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (170) :

مَثَل الرّافضين للدعوة وللرّسالة لا يحبّون أن يسمعوا شيئا ممّا جاءهم كمثل الذي يصيح في الغنم والإبل، فلا تسمع منه إلاّ صوتا لا تفهمه ولا تجيبه. هؤلاء اِنسدّت آذانهم عن سماع الحقّ، ولم يقولوا فيما نزل فيهم شيئا كأنّما اِنعقدت ألسنتهم، وأعموا أبصارهم عن رؤية دلائل الحقّ فيما جاءهم، ووجوه الباطل الذين هم عليها، فهم لا يفهمون كمن لا عقل له، فهم بحقّ لا يعقلون شأنهم شأن البهائم.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(171) :

الخطاب في الآية للمؤمنين، وكلّ خطاب موجّه للمؤمنين هو خطاب للإصغاء وللسمع والطّاعة لأنّ ما يأتي بعده شرع حكيم فيه أمر أو نهي، فيه إباحة أو تحريم، أو يكون ما بعده موعظة حسنة. والآية هنا لإباحة أكل كلّ الطيّبات من الرّزق، ويجب مقابلة هذا الإنعام بشكر الله تعالى على فضله إذا كانوا بحقّ من المؤمنين المطيعين الذين لا يقدّسون سواه. بينما كان الخطاب في الآية 167 المماثلة للنّاس جميعهم ولم يحرم عليهم شيئا وإنما فيها دعوة عامة لتجنّب الأعمال الشيطانية، أمّا في هذه وفيما بعدها دعوة للانضباط لشرع الله ولشكره تعالى.

- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (172) :



وجاء بعد الإباحة الّتي شملت كلّ الطيّبات هذا التحريم الّذي خَصَّ الجيفة وشرب دم ما يذبح لما له من ضرر على الأبدان، ولحم الخنزير، وكلّ ما ذُبح للأصنام ولغير الله عموما كالذبيحة التي تذبح قصدا لأحد ما يسمّى بالأولياء فقط. وإذا ألزمت الحاجةُ الإنسان لأكل شيء ممّا نصّ عليه هذا التحريم واُضطرّ لذلك خوفا على نفسه من الهلاك، ولم يكن قد قَصَدَ مخالفة الشرع قصدا فلا حرج عليه من أن يتنـاول منها ما يسُدُّ به رمقَه، والله واسع المغفرة للمضطرّ غير قاصد المعصية.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ **(173)** أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ **(174)** ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ **(175)** :

هذه فيمن ينتسب إلى أهل العلم الشرعي، ويتاجر بالدّين عند ذي السلطان، أو ذي الجاه لينال حظوة، ويكسب مكاسب دنيوية. ومتاجرته بالدّين تكون بالإفتاء بما يحبّ أو يسمعه منه صاحبه، ويكتم عنه النّصّ في كتاب الله الّذي يتعارض مع رغبة صاحب السلطان وصاحب الجاه. وفي هذا طمس لبعض النصوص في كتاب الله، وطمس للحق البيّن، وهذا من الغشّ العلمي والتدليس. وتفيد الآية أنّ كلّ مكاسب المتاجر بالدين حرام وسحت، فكأنّه يأكل في بطنه نارا، وإنّ ما يحصل عليه من مكاسب هي غير ذات شأن، وهي ثمن بخس لما اشتراه لنفسه بعمله هذا من مقابل، إذ قضى الله ألاّ يكلّمه من غضبه تعالى عليه، ولن يطهّر عمله من الخبث، وسيلقى في آخرته عذابا موجعا.

هذا الصنف من العلماء – ومنهم أحبار اليهود الّذين كتموا ما عندهم في كتابهم من الإخبار ببعثة النبيّ الخاتم صلّى الله عليه وسلّم – اشتروا لأنفسهم البعد عن الحقّ، وزهدوا فيما آتاهم الله من شرف الهدى ففرّطوا فيه، واستبدلوا لأنفسهم العذاب بدل المغفرة، فما أصبرهم على النّار كيف يطيقون عذابها؟

وهذا العذاب كان من استحقاقهم لأنّ الله نزّل الكتاب بالعدل والحقّ، وهؤلاء مالوا به عن الحقّ إلى إتّباع أهوائهم، وإنّ الذين تنازعوا في كتاب الله بالإيمان ببعضه، وطمس بعضه الآخر لفي اختلاف ونزاع يبعدهم عن الصواب، ويكشف خبثهم، وهم في شتات من أمرهم.

- لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ **(176)**



هذه الآية في توجيه المؤمنين لحسن المعتقد وحسن الطاعات، البرّ هنا يعني وَجْه الإحسان والخير في الطاعات وصالح الأعمال وفضائل الأخلاق. لا يقتصر البرّ في التوجّه في الصلاة قبل المشرق – وهذه قبلة النصارى – ولا قبل المغرب – وهذه قبلة اليهود – ولكنّ البرّ الحقيقي في الإيمان بالله الإيمان الصّادق الذي يجعلك تطمع في رضوانه وتخشى عقابه، وكذلك في الإيمان بأنّك واقف بين يديه يوم القيامة للحساب عن عملك، وفي الإيمان بوجود الملائكة، وفي التصديق بكتابه، والتصديقُ بكتابه يعني تناوله بالقراءة والتدبّر مع الحرص على العمل بما جاء فيه من تشريع ومواعظ، ومن حسن الإيمان التّصديق بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام. ومن وجوه البرّ الإنفاق صدقةً وإحسانا – رغم حبّك لمالك وحرصك عليه – على قرابتك المحتاجين للعون والمساعدة والدعم، والأوْلَوية للوالدين، والجدّة والجدّ، والأخوة والأخوات والأصهار، والأعمام والعمّات والأخوال والخالات، ومن أعمال الخير الإنفاق على اليتامى من ذوي القرابة أو الجوار، والإنفاق على المساكين الذين أقعدهم المرض أو الإعاقة عن الكسب فألزمتهم بيوتهم، وكذلك على المسافرين المحتاجين الذين انقطعوا عن أهلهم وذويهم وصاروا غرباء بينكم، ومن وجوه البرّ الإنفاق على الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال والطلب من الناس، وأمّا الذين يسألون النّاس من غير ضرورة، يتّخذون التّسوّل مهنة، وتحيّلا على النّاس فهذا من الكسب الحرام، ولا يجب أن يُنفق على هذا المتحيّل المتكاسل عن العمل تربيةً له، ودفعا له للبحث عن عمل الكسب، ومن وجوه الإنفاق تحرير الرّقاب وهذا لم يعد موجودا.

ومن وجوه أعمال البرّ المحافظة على أداء الصلاة في وقتها، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد والوعد يؤدّون ما عليهم ولا يخلفون ما اِلتزموا به شفهيا أو كتابيا. ويُخَصُّ بالذكر في وجوه البرّ المحافظون على جأشهم بالصبر، والذين صبروا على البلاء والبؤس وشدّة الفقر، أو عند فَقْد وَلَدٍ أو مال فلم يجزعوا، بل ثبتوا ورضوْا بقضاء الله حتى يأتي الفرج ورفع الكرب، والذين ثبتوا في ميدان المعركة حين اشتدّ القتال، فهؤلاء الذين صدقوا بحقّ في إيمانهم، وهؤلاء من أهل البرّ وهؤلاء هم المتّقون حقّا كما دلّت عليهم أعمالهم وأخلاقهم وثباتهم زمن الشدائد.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ **(177) :**

هذه الآية في الفقه القضائي، وهو فقه له خصائصه وأحكامه، والآية هنا في حكم عام في التشريع للقصاص، ولكن يجب أن يحكم به قاضٍ عدل.

يا أيّها الذين آمنوا فُرِض على وليّ الأمر، أو القاضي أن يقتصّ من المجرم القاتل بأن ينفّذ فيه بمثل ما فعل في قتيله، وعليه أن يتحرّى العدل حتى لا يتجاوز الحدّ في فرض العقاب المناسب للجرم. ومَنْ قَبِلَ الديّةَ بدلا عن الحكم بالقتل والإعدام من قِبَلِ وَلِيّ المقتول فهذه وَصِيَةٌ من الله للتَّرَاحم، وَلْيَتَلَطَّفْ قَابِلُ الدّية في استخلاصها، فلا يلحّ كثيرا في طلبها، ولا يرهق بطلب دفعها دفعة واحدةً إذا كان هذا يُعجزُ المقتصَّ منه، ولا يطلبنَّ أكثر ممّا ينبغي، وهذا من باب الإحسان، وعلى المُطالَب بدفع الدّية أن يحسن لطالبها وذلك بدفع ما عليه دون مماطلة ودون نقص أو تقصير، وهذا من حُكم الله ليخفّف عنكم ورحمة منه لِحَقْنِ الدماء، والذي لا يرتدع ويستمرّ في الاعتداء على النّاس فإنّ له عذابا موجعا كثيرا يوم لقاء ربّه، وعلى القضاء أن يقاضيه على عدوانه بحسب ما يستحقّ من التعزير.

- **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (178) :**

إنّ في القضاء بالقصاص رَدْعًا للمعتّفين وللذين تحدّثهم أنفسهم بالاعتداء على الغير بالقتل، وفي هذا ضمانٌ ليحيا النّاس في أمان- يا ذوي العقول الواعية- عساكم تخشون ربّكم بعدم التجرّؤ على محارمه.

- **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (179) :**

قَبْلَ أن تنزل آيات المواريث جاءت هذه الآية لحضّ الإنسان إذا أحسّ بدنوّ أجله وكان من أهل اليُسْرِ والأرزاق أن يوصي بشيء من ماله لوالديه وللأقربين: الزوجة والذرّية حتى لا يتركهم من بعده مختلفين في قسمة المكاسب، وهذا من الواجب عليهم من باب التّقوى وحتى لا يُظلم أحد من بعده فيقعد محروما من شيء من ذاك الخير الموروث.

- **فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (180) :**

هذه لحثّ المؤتمن على تبليغ الوصية بعد موت المُوَصِّي بأن يلتزم الصدق في التبليغ، ويتجنّب تحريفها، ويحذر من مخالفتها، فإن فعل فهو آثم، وسيلقى مصيرا سيّئا لأنّه شاهد على الوصية بالسمع، ولأنّه عليم بما فعل فيها الذي غيّر فيها، وسيحاسبه الله عمّا فعل بالأمانة التي عُهِدَتْ إليه.

- **فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (181) :**

ومن تخوّف من مُوصٍ ميلا عن الحقّ خطأً، أو عن جهل، أو عن قصد، كأن تعمّد حرمان البنت من شيء من التركة، أو حرمان الزوجة للخلاف الذي كان بينهما، أو المبالغة في تنفيل أحد الأبناء بالنّصيب الأوفر من الرزق على حساب مستحقّات الوالدين أو الإخوة وهذا من الإثم

لما فيه من تعمّد الظلم والإجحاف، فقام المؤتمن على الوصية بمراجعته في الوصية قصد تعديلها لتكون أقرب إلى العدل والإنصاف فلا إثم عليه فيما يقترحه من تعديل، والله غفور رحيم للاثنين إذا حصل على هذا التعديل حتى لا يؤاخذ الموصي بجنفه وإثمه، وليُثاب المجتهد على اجتهاده.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ (182) أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (183) :

هذه الآية إلى الآية 186 في أحكام الصيام.

يا أيّها الذين آمنوا فُرِضَ عليكم الصيام كما فرض على أمم من قبلكم لتدريبكم على التّقوى بمقاومة الشهوات والِتزام الطاعات لأيّام قليلة. ويجوز لمن كان منكم مريضا بمرض يشقّ عليه الصيام، أو كان مُسافرا سفرا شاقّا بعيدا أن يفطر أيّام مرضه وسفره، ثمّ يعوّضها على قدر الأيّام الّتي أفطرها بأيّام صيام حين يصحّ أو حين يُتِمّ سفره، وهذا يسمّى بأيّام القضاء. ويباح لمن يكلّفه الصيام مشقّة كبيرة بسبب المرض المزمن، أو بسبب شيخوخة بالغةِ العجز كالذي أصابه الخَرَفُ أن يفطر، ويطعم عن كلّ يوم مسكينا ولا قضاء عليه، ومن زاد في الإطعام شيئا فهو من التطوّع الذي فيه خير لمن تطوّع به، والصيام في كلّ الحالات خير من الانتفاع بالرخصة لما له من أجر عظيم وجزاء كبير لو كنتم تعلمون فضله وثوابه.

- شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (184) :

الأيّام المعدودة هي أيّام شهر رمضان بأكمله، أُختير لأن يكون شهر صيام المسلمين لأنّه الشهر الذي أنزل فيه القرآن –كتابهم– ليكون لهم هاديا لمنهج الله المستقيم ودينه القويم، وفيه من الآيات والدلائل والمواعظ والبيان ما يرشدون بها لمعرفة الأحكام وليتبيّنوا منها الحلال والحرام، وليتّعظوا بها، وليعرفوا بها قدرة الله ودلائل وحدانيته ووجوه فضله ورحمته ليشكروا له، وفي هذا القرآن المنزل عليهم في هذا الشهر ما يفرّقون به بين الحقّ والباطل في المعتقد، فمن بلغ سنّ الرشد وعقل وجب عليه صيامه. ومن كان مريضا في بعض أيّام هذا الشهر مرضا عرضيا يشقّ عليه حينها الصوم، أو كان على سفر في سفر طاعة فيجوز له الإفطار على أن يقضي الأيّام

التي أفطرها حين يبرأ من علّته وحين يتمّ سفره ويبلغ موطنه. الله جعل هذا الدين دين يُسْر، يرفع الحرج على غير المستطيع، ولا يحبّ لعباده المشقّة والعسر. فصوموا شهركم كاملا، حتى إذا اِنقضى، ودخل عليه شهر شوال فكبّروا ليلة الفطر إلى أن تنقضي خطبة الإمام من صلاة العيد واحمدوا الله على ما هداكم إليه من طاعته، وعساكم بصيامكم وبطاعتكم تشكرون الله على فضله في إنزال القرآن، وفي إرشادكم لشرعه الذي يجلب لكم الخير والثواب الجزيل.

- وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ **(185) :**

هذه في تبشير المؤمنين بأنّ الله تعالى قريب منهم بالسمع لمناجاتهم وأدعيتهم ومناداتهم، وقريب منهم بالعلم بما يعملون من الطاعات حتى لا يتحيّروا في السؤال عن كيفيّة الدعاء له. وعليهم أن يُقْبلوا على ربّهم بالطاعات والعبادة، وبصدق الإيمان به عساهم يهتدون إلى الصراط السويّ.

- أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ **(186) :**

يباح للصائم من بعد غروب الشمس مباشرة زوجه لطلب الولد الحلال، ويباح له الطعام والشراب حتى مطلع الفجر، فإذا طلع الفجر فيحرم عليه الطعام والشراب والجماع حتى تغرب الشمس.

وإذا نوى الصائم الاعتكاف، وهي الإقامة بالمسجد للعبادة، فإنّه يحرم عليه مباشرة الزوجة وهو معتكف في المسجد. هذه منهيات الله ومحرّماته فاحذروها واجتنبوها، وهكذا يوضّح الله لكم أحكامه لتكونوا من المتقّين العاملين بشرعه.

- وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ **(187) :**

هذه في النهي عن كسب المال من الوجوه غير المشروعة كالقمار أو الغَصْب أو الخداع أو الغدر أو المتاجرة بالبشر أو الجنس أو بالغشّ أو بشهادة الزّور أو بالمال السياسي الفاسد أو المسروق من مال الوطن، كلّ ما جاء من أحد هذه الوجوه أو من وجه آخر غير مشروع كالتهريب المخرّب لاقتصاد البلاد، وكلّ مال لم يحصل عليه صاحبه من جهد بذله ومن عرق جبينه هو كسب حرام لا يجب الانتفاع به لإنفاقه على النّفس وعلى العيال. ولا يجب أن يُنفق من هذا المال

في وجوه الظلم، وفيما يتنافى مع الحقّ، ويعمل على طمسه أو تغيير اتّجاهه. ولا يجب أن يُنْفَقَ المال في الرّشاوي إلى الحكّام لأكل أموال النّاس بالحرام أو كسب منافع من ممتلكات المجموعة الوطنية وهو يعلم حين يدفع ماله إلى الحكّام أنّه سيكسب بها ما لا حقّ له فيه، وما لا يحلّ له.

قد يسأل المرءُ نفسه: لماذا جاء هذا الحكمُ في مسألة من مسائل المعاملات المالية بين آيات أحكام الصيام، وهي من آيات العبادة، وآيات أحكام الحجّ والقتال وهما من العبادات. والجواب: تأتي أحيانا آية أو آيتان فقط ذات أهمية كبيرة في تنظيم المعاملات أو في صدقة التطوّع أو في الدعوة للمحافظة على عبادة ذات شأن بين آيات الأحكام أو قصص الأنبياء، فتأتي كأنّها قطعٌ واضح بين موضوعين، وهي على خلافهما في الموضوع وذلك للفت الانتباه لموضوع الآية، فهو في التحذير من كبيرة يجب البُعد عنها، أو تأتي في الترغيب في المحافظة على عبادة ذات أهمية وذات ثواب جزيل وأجر عظيم، كهذه الآية في التحذير من كبيرة هي الرشوة، وستأتي مثيلتها في آيتي المحافظة على الصلوات الوسطى (229–230) بين آيات الأحوال الشخصية. وما فائدة العبادات العظيمة التي تزكو بها النّفوس المؤمنة إذا لم تَنْتَهِ عن هذه السيّئات والمظالم.

- يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ **(188)**

يسألون عن الحكمة من متابعة الهلال لحساب الشهور، قل هي أزمنة يعرف بها النّاس أوقات صومهم وإفطارهم وحجّهم ومناسكهم وعدّة نسائهم. وليس من الدّين والطّاعة أن تدخلوا بيوتكم من خلفها كما كان يفعل العرب في جاهليتهم إذا حجّوا ورجعوا إلى بيوتهم دخلوها من خلفها، ولكن الدين والطاعة في التّقوى فادخلوا البيوت من أبوابها، ولا تبتدعوا في الدّين ما ليس منه، واِلزموا طاعة ربّكم عساكم تفوزون برضوانه ونعيمه. وللتذكير فإنّ المسلمين قد برعوا في علم الفلك ورصد الهلال بسبب ما شرّع لهم من تنظيم مواسم العبادة بمواقيت الهلال، وقد اختير توقيت العبادات: الصيام والحجّ وزكاة المال، بالهلال حتى تأتي هذه المواسم في فصول مختلفة من العام، فيصوم المؤمن رمضان في ظروف طبيعيّة ومناخية مختلفة وكذلك يحجّ، ويصلّي حسب مواقيت الشمس.

- وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ **(189) :**

ودافعوا عن أنفسكم وعن دينكم من الذين يهاجمونكم، ويبادرونكم بالقتال، ولا تتجاوزوا الحدّ في القتال، فإن جنحوا للسّلْم فأُجنحوا لها، فإنّ الله لا يحبّ الذين يعتدون على مخالفيهم بالعنف.

هذه الآية من خير ما يُستشهد به على أنّ الإسلام ليس دين إرهاب، وإنّما شرّع القتال للدفاع عن الأنفس وعن البلاد ولحماية معتقد النّاس.

- وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ(190) فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (191)

وهذه الآية للمعاملة بالمثل عند الدفاع عن النّفس، ولا يدعو الإسلام للهجوم المباغت دون مبرّر ولغاية الإرهاب كما يدّعي عليه أعداؤه. واِقتلوا المعتدين عليكم والذين يهاجمونكم ويريدون إيذاءكم وصدّكم عن دينكم في أيّ مكان تتمكّنون فيه منهم، وحيثما وجدتموهم، وأطردوهم من الأماكن التي اغتصبوها منكم وأطردوكم منها واستعمروها، وما يفعله الكفّار بالمسلمين من قتل وتعذيب ونفي ليردّوهم للكفر بعد إيمانهم فتنة من أشدّ البلاء. ولا تقاتلوهم في الحرم المكّي كلّه تعظيما لحرمته. وليظلّ دوما مكانا آمنا لا يحلّ فيه القتال ولا تُستباحُ فيه الأرواح إلاّ إذا قاتلوكم فيه واستباحوه، عندئذ قاتلوهم فيه حتى لا يؤذوكم ولتمنعوهم ممّا يمكرون، وهذا جزاء الكافرين. فإن انتهوا عن قتالكم وإيذائكم فإنّ الله غفور رحيم لمن تاب وثاب لرشده ثمّ آمن وعمل صالحا.

- وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (192) :

قاتلوا هؤلاء الذين يعادونكم في الدين حتى لا يفتنوكم في دينكم بالأذى والصدّ عنه، ونصرةً لدين الله حتى تعْلو كلمة لا إلاه إلا الله، فإن كفّوا عن قتالكم وكفرهم فلا عداوة إلاّ مع الذين أصرّوا على الكفر والشّرك، ومحاولة زرع الفتنة فيكم.

- ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ (193) :

يجوز اِنتهاك الشهر الحرام الذي يحرم فيه سفك الدماء إذا بادركم أعداؤكم بقتالكم في زمنه. والحرمات الّتي منها حرمة الشهر، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام، وحرمة قتل النّفس البريئة إذا أُنتهكت وجب القصاص ممن اِنتهكها بقتاله لإيقاف ظلمه وردعًا لمن وراءه. يُقابلُ الاعتداء باعتداء مماثل. واتّقوا الله فلا تتجاوزوا الحدّ في مقاومة الاعتداء، واحذروا، وأُذكروا أنّ الله مع المتّقين بالعون والنّصرة.

- وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (194) :

وساهموا بنفقاتكم في بناء جيشكم وصناعة أسلحتكم وشراء خيلكم لبناء قوتكم الرادعة حتى يهابكم عدوّكم، ولصدّ عدوانه، وكفّ الأذى، ومنع الفتنة، وهذا من الإنفاق في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة إذا اِنشغلتم بأموالكم وتركتم الجهاد وبناء قوّتكم حمايةً لأنفسكم ودينكم، وأحسنوا الظنّ بالله، وأحسنوا أعمالكم بالإنفاق في الطاعات فإنّ الله يحبّ المحسنين.

- وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ **(195) :**

هذه الآية إلى الآية 201 في أحكام الحجّ والعمرة.

إذا هَمَمْتُم بالقصد إلى بيت الله الحرام، ونَوَيْتُمْ الحجّ أو العمرة، ولَبِسْتُمْ لباس الإحرام، وصلّيتم ركعتي الإحرام، ولَبَّيْتُمْ، فلا تنزعوا عنكم لباس الإحرام حتى تتمّوا المناسك المطلوبة، فإن مُنِعْتُم من إتمامها ومن بلوغ بيت الله الحرام لسبب قاهر، فعليكم أن تهدوا ذبائح من الأنعام ممّا كان سينحر بالمنحر يوم النّحر إهداءً للبيت وطعاما للفقراء. ولا يجب حلق الرأس لتتحلّوا من الإحرام حتى يصل الهديُ إلى المكان الذي شُرِّعَ فيه ذبحُ الهدي، أو حيث أُحْصِرْتُم. ومن كان مريضا أو وجد في رأسه من الهَوَامِّ ما تأذّى به فاضطرّ لحلق رأسه قبل حلول الموعد، فعليه أن يدفع فديةً، من صوم، أو صدقة مالية أو ذبح شاة. والذي يحجّ بالتّمتّع وذلك بتقديم العمرة على الإحرام بالحجّ، أو يحجّ بالقِرَانِ ليجمع بينهما فعليه أن يقدّم هَدْيًا، فمن لم يجد ما يقدّمه من الهدي فعليه أن يصوم ثلاثة أيّام في الحجّ، وسبعة أيّام عندما يعود لموطنه لمن لم يكن من سكّان الحرم ومحيطه، واتّقوا الله وذلك بالعمل بشرعه، واحذروا مخالفة أمره فإنّ الله شديد العقاب لمن يعصيه.

ولمسائل الحجّ والعمرة الكثير من الأحكام التي يجب الرّجوع فيها إلى كتب الفقه للتفقّه فيها.

- ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ **(196):**

تأهّبوا للحجّ في أشهر: شوال وذي القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجّة، فمن نواه وأوجبه على نفسه بالشروع فيه فلا يجوز له الإفحاش في الكلام وذكر أخبار الجماع في الكلام، ولا يحقّ له الخصام ورفع الصوت والمغاضبة للمسافرين معه والمقيمين معه والمصاحبين لأنّ هذا ممّا يتنافى مع خُلق العبادة ومع لباس الإحرام ومع مكان تزكية النفس، وأكثروا من فعل الخيرات من مثل الصدقات والدعاء للغير بكلّ خير فإنّ الله تعالى عليم بما تفعلون من مقدّمات الحجّ وأثناءه. وأعدّوا الزّاد للسفر، وتزوّدوا لآخرتكم بالطاعات والأعمال الصالحة، والتقوى لأنّها خير الزّاد ليوم الحساب، واخشوا ربّكم بالامتثال لطاعاته وباجتناب نواهيه يا أصحاب العقول الواعية والقلوب المدركة.

ليس عليكم حرج أن تتاجروا في الحجّ : بيْعًا وشراءً طلبا للرزق، ثمّ إذا أتممتم وقوفكم بعرفات فتوقّفوا بمزدلفة للصلاة والذكر، وشكرا لله على ما هداكم إليه من الإيمان بعدما كنتم عليه من الضلالة.

- ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (197) :

ثمّ انزلوا جميعا وبكثرة بعد الغروب من عرفات، وأكثروا من الدعاء بالمغفرة والرّحمة إنّ الله غفور رحيم لمن دعاه واستغفره وأطاعه.

- فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ (198) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (199) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (200) :

فإذا ذبحتم ذبائحكم وأهرقتم دماءها، وأتممتم شعائر الحجّ فاذكروا الله كثيرا بالصلاة والدعاء والذِكر أكثر ممّا تذكرون آباءكم بالفخر والمديح، فمِنَ النّاس مَنْ يطلب خير الدنيا، وليس له نصيب من الخير والفضل في الآخرة، ومنهم من يدعو ربّه بأن يُنْعِم عليه في الدنيا بالعافية والتوفيق والرزق الحلال والرفاه والذريّة الصالحة وكلّ ما فيه صلاح حاله، ويطلب لآخرته الرّحمة والغفران والرضوان ونعيم الجنان والنجاة من العذاب والنّار، ويطلب من الله أن يصرف عنه وعن أهله وذويه عذاب جهنّم. هؤلاء الحجّاج المعتمرون الذاكرون الطائعون العابدون الطالبون لخيري الدنيا والآخرة لهم حظّهم الحسن والطيّب ممّا قدّموا من أعمال الطاعات وأعمال البرّ، والله يمدّهم بخيره وفضله في زمن قصير.

- وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (201) :

واذكروا الله أيّام التّشريق وهي ثلاثة أيّام بعد يوم النّحر، فمن نفر من (مِنَى) بعد يومين من أيّام التّشريق فلا حرج عليه في تعجّله، ومن بقي فيها لليوم الثالث ليخرج منها صبيحة اليوم الرابع فلا حرج عليه لمن اتّقى الله في حجّه بأداء المناسك على الوجه الأفضل. وحافظوا على خشيتكم من الله عزّ وجلّ وحافظوا على الاستغفار وطلب رضوانه، وتذكّروا دوما أنّكم ستُرجعون إليه فأطيعوه لتَلْقَوْا رضاه يوم لقائه.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ (202) :

هذه الآية والآيتان من بعدها في موعظة المؤمنين للحذر من مثل هذا السلوك لبعض النّاس. مِن النّاس مَنْ إذا تكلّم أعجبك كلامه بما دلّ على حسن فهمه لأسرار الحياة الدنيوية، وكيفيّة

التعامل مع طوائف من الناس، وفي نقده لمجريات الأحداث وتحليلها، وفي إظهار ذكائه وفطنته وحزمه، ويقسم بالأيمان المغلّظة على ما في قلبه من طيبة وصفاء ومحبّة للغير، وهو في واقع الأمر شديد الخصومة في الباطل من عناده وكبريائه وطغيانه، وما كان قسمه بالله على ما في قلبه إلاّ للمغالطة.

- وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ **(203)** :

وإذا خاصم فجر، يتحيّن الفرصة في غريمه فيحرق زرعه أو يتلفه انتقاما أو تأديبا لخصمه، وكذا يفعل بعضهم في تخريب مكاسب الوطن تشفّيا وانِتقاما لنفسه، وهذا من الجهل وسوء الطبع. وربّما يقتل ولد خصمه، أو يهدّده فيه، أو يقتل الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال في الفتن كما يفعل الإرهابيون إذا تصيّد نفرًا من أعوان الأمن ببلده أو من جنده، والله لا يرضى عن مثل هذا الفساد، ومن الفساد قطع الطريق على المُسافرين فيعطّل مصالحهم ويضرّ بإخوانه المواطنين للفت الانتباه لمطلب اجتماعي أو إقتصادي. كلّ ما يضرّ بمصلحة أو مكسب عام للمواطن أو الوطن هو من الفساد في الأرض، وكلّ إضرار باقتصاد البلاد ومعاش أهله هو من الفساد.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ **(204)** :

من صفات أهل الفساد الكبرياء والغطرسة والظلم، وأنّه إذا ذكّر بالله وبخشيته إزداد عنفا وحمله طغيانه على فعل ما يؤثمه، وإن كان من أهل السلطان بَطَشَ بمن ذكّره بالله وحسابه وأخذته الحمية، وإن كان من أهل الفجور إزداد جَوْرًا. كفى كل واحد من هؤلاء أن يحشر في آخرته في جهنّم ويظلّ فيها مستقرّا ومقيما.

فهذه الآية مع الآيتين السابقتين للحذر من أهل الفتنة الذين لا يخلو منهم زمن ولا بلد، وغالبا ما يبرزون ويتكاثرون عند الاختلافات المذهبية الفكريّة أو الدينية أو السياسية أو العشائرية قصد فرض الرأي أو المذهب أو التربّع على عرش السلطة وفرض الهيمنة أو لغصب البلد كالذي كان في عهد الاستعمار. ولنا في تاريخنا وكذلك في حاضرنا، الكثير من الأمثلة على فعل هؤلاء في تأجيج الصراع إلى حدّ إراقة الدماء، أو التآمر والكيد بالعباد وفي فرض الرأي أو المذهب بحدّ السيف وبإرهاب القوم. ويعمدون إلى نشر الأكاذيب وإلحاق التّهم بالشبهة بالأبرياء، وكثيرا ما يتظاهرون بالحكمة وخدمة المصلحة العامة وما هم كذلك، وإنما هم من الانتهازيين ومن أهل الطمع في السلطة، وإرضاء كبريائهم. كان هذا في زمن الفتنة الكبرى إثر عهد الخلافة الراشدة. وعمّت الفوضى وعظمت الفتنة زمن الدولة العباسية بسبب عقيدة خلق القرآن وفرضها بالقوّة، وظهرت هذه الفتنة بسبب الوشايات زمن ضعف الحكم في الدول الإسلامية فاستعمرتها الدول الاستعماريّة. ويظهر هؤلاء في زمننا عند الصراع على السلطة. وأُنظر في أسباب كلّ فتنة

فستجد من ورائها أمثال هؤلاء النّاس الذين يكذبون ويثيرون حمية بعض النّاس والذين يطمعون في السلطة، وجميعهم من أهل الفساد والافتراء.

- وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ **(205) :**

وعلى نقيض هؤلاء فهناك قوم يبيعون بشيء من أموالهم، وبشيء من نومهم، وبشيء من جهدهم في طاعة الله لإعانة مُعْوِزٍ، أو لقيامٍ لصلاةٍ، أو لبناء مشروع نافع للأمّة من مثل مدرسة أو مستشفى أو محلّ لإيواء من لا سند له، رغبة في الحصول على رضوان الله عليه، فليستبشروا بأنّ الله سيكون رفيقا بهم وشفيقا.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ **(206) :**

موعظة من الله تعالى لجميع المؤمنين ليدخلوا في السّلم الاجتماعي كافّة دون اِستثناء لأحد عن قناعة، وذلك للمحافظة على المبادئ الأخلاقيّة العامّة للإسلام من مثل التعاون والتآزر خاصّة في الشدائد، ولتجسيم مبدإ التآخي بين المسلمين، والتسامح الدينيّ مع الطوائف غير المسلمة لتأليف قلوبهم، وضمانا للأمن والأمان في البلاد على الأرواح والممتلكات العموميّة، ولضمان العدل والعدالة بين الجميع في اِستحقاقات التعليم والصحة وتوفير الشغل وتحقيق الرفاه، وضمان غذاء النّاس وما إلى ذلك من المصالح العامّة لتحقيق النفع للبلاد والعباد، ولضمان حقّ الجميع في ممارسة شعائر دينهم الإسلامي بلا تخويف ولا تخوين، ولضمان حقّ العمل والإنتاج وحق التنقّل والسفر دون تعطيل، أو إضراب غير مشروع.

وتحذّر الآية من تدبير شيطان الجنّ وشيطان الإنس الذي لا يحبّ الخير للبلاد والعباد ولا يحبّ لهم الاستقامة على الدين والخُلق النبيل وعلى الطاعات والعمل الصالح لأنّ الشيطان عدوّ للإنسان لا يحبّ له الخير، وعداوته ظاهرة لأنّه لا يأمر إلاّ بكلّ ما فيه فساد أو إضرار بالنّفس وبالغير.

- فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(207) :**

ومن انحرف عن الحقّ، ومال إلى الشّرك والظلم، وأذى النّاس، والإفساد عليهم في حياتهم بعد ما جاءته المواعظ فليعلم – وهذا تهديد – أنّ الله لا يُغلب هو قادر عليه وحكيم في تدبيره لينال منه أو يكشف أمره.

- هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ **(208) :**

ماذا ينتظر هؤلاء المفسدون في الأرض والكافرون حتى يستقيموا ويرجعوا عن غيّهم؟

أينتظرون أن يظهر الله تعالى لهم في طبقات من السحاب الأبيض ليؤمنوا ويتوبوا؟ أم يُريدون أن تظهر لهم الملائكة في صورهم؟ إذا ظهروا فإن الملائكة لا تنزل إلاّ بهلاكهم وينتهي عندئذ أمرهم، وترجع إلى الله أمورهم ليحسم فيهم بما يشاءُ.

- سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (209) :

اسأل – أيّها المؤمن – بني إسرائيل عن عِدَّةِ ما جاءهم من المعجزات الظاهرة ليعرفوا فضل ربّهم عليهم ليؤمنوا ويشكروا له، وليستقيموا على دينه: وكلّ من يغيّر دينه من بعد ما جاءه من العلم به، وبأحكامه، ويتولّى عنه إلى الكفر أو الضلالة فإنّ الله سيعاقبه العقاب الموجع الذي يؤلمه.

- زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (210) :

إنّ الّذين كفروا يزهدون في الآخرة وينغمسون في حياتهم الدنيويّة يتّبعون أهواءهم وشهواتهم. وحين يرون اِنضباط المؤمنين لأحكام الدّين، واِبتعادهم عن لذائذ الدنيا المحرّمة يضحكون عليهم، ويتندّرون على زهدهم في الملاهي المحرّمة، ولكنّ المتّقين أفضل منهم خُلُقًا، وأفضل منهم قدرا ومكانةً لاستقامتهم، والرّزق من تقدير الله يرزق من كتب له السَّعَة في الرّزق رزقا واسعا بلا انقطاع، ومن غير تحديد.

- كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ (211) :

كان النّاس سابقا صنفا واحدا في الكفر، وعلى منهج واحد في الضلال وعبادة الأصنام، فبعث الله النّبيئين لإرشادهم للهدى يبشّرون المستقيمين على دين الله وأحكامه وهداه بالنّعيم وبالرحمة، وينذرون المعاندين والمصرّين على الكفر، والرّافضين للهدى بالهلاك والعذاب، وأنزل مع النّبيئين كتبا بالحقّ، كتبا مشتملة على العقائد السليمة الصحيحة والأحكام الواضحة لتفصل بين النّاس في الذين يختلفون فيه من عقائدهم وعباداتهم. ولم يختلف على كتاب الله الموضّح للحقّ إلاّ الذين جاءهم هذا الكتاب الّذي يوضّح لهم الأحكام بيّنةً عنادًا، وظلما لأنفسهم وأتباعهم بسبب عنادهم، وإصرارهم على اِتّباع أهوائهم وبسبب تكالبهم على الدنيا وعلى سيادتهم لأقوامهم، ولكنّ الله هدى من شاء من عباده الاهتداء الحقّ، ووضّح لهم – بفتح بصائرهم – دلائل الحقّ، والله سبحانه يهدي من يحب هُدَى الله إلى سبيله الواضح المستقيم الذي لا يضلّ به عن الحقّ.

• أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ **(212) :**

هذه في بيان أنّ كلّ مؤمن مهما علا في درجة صدق إيمانه وإن كان رسولا فإنّه معرّض للابتلاء، وما عليه إلاّ أن يرضى بقضاء الله ويجاهد مع ذلك للخروج من الشدّة الّتي هو فيها حتى يأتيه الفرج أو يزول عنه الكرب بالاستعانة بالصبر على البلاء. والمعنى: أتظنّون أنّكم داخلون الجنّة دون أن تُبتَلَوْا بمثل ما أُبتليَ به المؤمنون الصادقون من قبلكم في الأمم السابقة أصابتهم (البأساء) أي الشدّة، وهي كلّ ما يُصيب الإنسان في غير نفسه كفَقْدِ الولد أو المال، و(الضرّاء) وهي كلّ ما يصيب الإنسان في ذاته من مرض وإعياء وخوف وكمد وحزن: و(زلزلوا) أي اضطربوا حتّى الرسولُ نفسه والمؤمنون الذين كانوا معه تعرّضوا لشدائد وبأساء في مواجهاتهم لأعدائهم إلى درجة أنّهم كانوا يستعجلون نصر الله بسبب ما أصابهم من التعب، ويستعجلون تأييده لتفريج كروبهم، وجاءهم النّصر لأنّ نصر الله لعباده المؤمنين قريب منهم.

• يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ **(213) :**

يسألك المؤمنون –يا محمد– عن أفضل وجوه الإنفاق في البرّ فأجبهم: خير ما تنفقون من مال أو رزق أو طعام يكون للوالدين لأنّهما أولى النّاس بأعمال البرّ، ثم للأقربين من الأعمام والعمّات والأخوال والخالات والأصهار، وكذلك اليتامى من أهليكم وذويكم والمساكين الذين أقعدهم المرض أو العجز أو الإعاقة أو الحوادث عن الكسب والذين هاجروا من بلدانهم وانقطعت بهم السُّبُل عن الرجوع إليها ولم تتوفّر لهم مواطن شغل وعمل، وكلّ ما تنفقونه في وجوه البرّ من مال، فإنّ الله مطّلع عليه، ومُثيبُكم عليه. والإنفاق على الوالدين أمر واجب من أعمال البرّ، وأمّا الإنفاق على الآخرين فمن صدقة التطوّع، وهي من أعمال البرّ وصلة الأقارب ومن باب التراحم والتآزر.

• كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ **(214) :**

فُرض عليكم الجهاد في سبيل الله، وهو فرض ثقيل عليكم وشاقّ تكرهونه، وربّما تكرهون شيئا وفيه منفعة لكم، وربّما أحببتم شيئا – كالقعود عن الجهاد – وفيه ضرر لكم لما فيه من اِستعماركم أو إيذائكم في دينكم أو أنفسكم أو ممتلكاتكم أو أمنكم أو سَبْيِ نسائكم، والله أدرى بما يصلح لكم وبما فيه حسن العاقبة التي تغيب عنكم في وقت الفريضة.

ويخضع الجهاد لأحكام تعرف من كتب الفقه، وتحدّث عن بعضها القرطبي في تفسيره، وابن رشد في (بداية المجتهد ونهاية المقتصد). فلا يجب على الشاب الذي يعيل والديه الخروج

للجهاد، ولا على العلماء والمفتين، وفيه أحكام أخرى في الإنفاق على الذين خرجوا له وتركوا من ورائهم عيالهم تعرف بالرجوع لمراجعه لمن يشاء أن يتوسّع فيها. ويضرب بقوله تعالى (وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ) المثل للتصبّر حتّى لا يتحسّر المؤمن على ما فاته من كسب أو عمل أو منصب كان يشاؤه أو يرجوه، وليرضى بما قسمه الله تعالى، فكم من إنسان أحبّ منصبا سياسيا رفيعا أو زواجا بامرأة أو الانتساب لفئة فلمّا رأى المنقلب الذي صار إليه مَنْ حَصل على ما كان يرجوه من فتنة أو سوء حال حمد الله تعالى على ما أنقذه من مهلكة كان يجهل عاقبتها. وخير ما يُقال في هذا : (وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ).

- يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ **(215)** :

يسألونك – يا نبي الله – عن حكم الله في القتال في الشهر الحرام؟ فأجبهم بأنّ القتال في الشهر الحرام مأْثَمٌ كبير، ومعصية عظيمة، ومثله كذلك منع النّاس عن الإيمان بالله وطاعته وعن اتّباع دينه الإسلام، وكذلك دَوْسُ حرمة المسجد الحرام، ومنع إقام الصلاة فيه، وطرد سكّان الحرم المسلمين من دخوله ونفيهم من ديارهم وأرزاقهم وأعمالهم من موطنهم إثم عظيم ووِزْرٌ كبير. وافتتان النّاس عن دينهم، وفي أرواحهم، وإيذاؤهم بالتعذيب أعظم من ذاك الإثم والوزر وأعظم جُرْمًا من القتل، ولا يزالون يُناصِبُونكم العداء، ويتربّصون بكم لقتالكم محاولة منهم لردّكم عن دينكم للكفر والشرك إن اِستطاعوا، واحذروا منهم، واحذروا من الارتداد عن دينكم إلى الكفر، فمن يرتدد ثم يموت وهو كافر مشرك مرتد فأولئك الذين أفسدوا ما كانوا عليه من الهدى وأضاعوا أجرهم، وأبطلوا ثوابهم في آخرتهم، وضيّعوا مكانتهم التي كانوا عليها عند المسلمين في دنياهم، وسيكون مستقرّهم في النّار أبدا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ **(216)** :

هذه في الثناء على الذين آمنوا بالله، وعلى المهاجرين حفاظا على دينهم من الفتنة، وعلى المجاهدين الذين بذلوا أنفسهم نُصرة لدين الله، كلّ هؤلاء الذين رَجَوْا بأعمالهم هذه أن ينالوا رحمة ربّهم، فإنّ الله تعالى يُبشّرهم بمغفرته ورحمته الواسعة، فهنيئا لهم بهذه البشرى.

• يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ(217) فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (218) :

الآيتان في بيان حكم الله في ثلاثة أسئلة، حكم الله في الخمر والميسر، وحكمه تعالى في ما يحسن الإنفاق منه، والسؤال الثالث في كيفية التعامل مع أموال اليتامى.

وجاءت الإجابة في مسألة الخمر والقمار بأنّ فيهما وِزْرًا عظيما ومعصية وإن ظهر للنّاس أنّ فيهما منافع. المنافع التي يرجوها النّاس من الخمرة هي في الاتّجار بها، ويرجو من الميسر الربح السريع من غير جهد ومن غير تعب، والحكم فيهما أنّ في تناول النّاس الخمر معصية، وفي التعامل بالميسر ذنبا وكسبا حراما في الاثنين لما في الخمر من إفساد في الأخلاق، وضياع عقولهم، وإهمال عيالهم، ولما في الميسر من خسائر كبيرة لجمع كثير من النّاس، وأكل أموالهم بالتّغرير والمخادعة.

وأمّا الإنفاق فيكون ممّا فضل على حاجة الإنسان وعائلته، فكلّ ما لا حاجة له عنهُ، ومُسْتغنٍ عنه فيحسن به له أن ينفع به غيره من المحتاجين، وهذا ما يسمّى بإنفاق العفو لأنّه يسهل على النفس إخراجه ولا يثقل عليه.

وفي هذا بيان للأحكام لمن يتفكّر في صالحه وصالح العامّة من النّاس في الدّنيا والآخرة.

وأمّا ما يجب فعله مع أموال اليتامى فإصلاحها، وإصلاحها يكون باستثمارها لتنميتها وهذا خير من تركها بورًا، وإن كان إرثه أرضا فيجب خدمتها خير من تركها بورا مهملة تضيع قيمتها ولا يستفاد من إنتاجها بالغرس والزرع، وإن (تُخَالِطُوهُم) أي تشاركوهم في تنميتها فيجب التعامل مع اليتامى تعامل الأخوة المتناصحين لا يخْدعون في أموالهم، ولا يُغدر بهم، والله يعلم المفسد فيها باستغلال ما يملكون لصالحه ويحرمهم من ثمرات خيراتهم، ويعلم المصلح الذي يحفظ الأمانة وينفعهم بما تُرِك لهم من الخيرات. وهذا من الأحكام الميسّرة ولو شاء الله لكلّفكم بما يشقّ عليكم، وبما لا تطيقون فاشكروا الله على فضله وِالزموا حدوده فإنّ الله عزيز لا يُغلب. وحكيم فيما يقدّر وفيما يقضي به.

• وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (219) :

وحرّم الله على المسلمين الزواج بالمشركات – غير الكتابيات – إلاّ إذا آمنَّ وتطهّرن من الشرك. وتُفَضَّلُ الأَمَةُ المؤمنة على المشركة، ولو كانت المشركة خيرًا منها نَسَبًا وجمالا. وحرّم

عليهم كذلك أن يزوّجوا بناتهم المؤمنات للمشركين. ويُفَضَّلُ العبدُ المؤمنُ على المشرك، ولو كان المشرك خيرا منه مكانةً لأنّه غير مستعبد، وخير منه نسبا ومالا. وعِلَّةُ التّحريم أنّ المشرك يقود بشركه نفسه وبنيه وزوجه إلى النّار بما يفعل من تقديس لغير الله وبما يأكل أو يشرب من طعام وشراب محرّمَيْن على المسلمين، وعند الله الجنّة والمغفرة إذا قضى لعبده بهما.

وهكذا يبيّن الله أحكامه للنّاس عساهم يعرفون ما ينبغي لهم عمله لصالحهم في دنياهم وآخرتهم.

- وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ (220) نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (221) :

ويسألونك عن مباشرة الزوجة وهي حائض. أخبرهم بأنّ الحيض يُتأذّى منه لما فيه من قذارة ونجاسة فاعتزلوا النساء في فترة الحيض ولا تباشروهنّ حتى ينقطع عنهنّ دم الحيض، فإذا إغتسلن منه اِغتسال التطهّر الذي يبيح لهنّ الصلاة فباشروهنّ في المكان المباح لكم ولا تأتوهنّ من الدُبُرِ، واذكروا أنّ الله يحبّ الذي يُداوم على الاستغفار، ويحبّ الّذي يُداوم على الاغتسال ليظلّ دومًا على الطهارة التي تُبيح له الصلاة وأداء الطاعات.

نساؤكم عون لكم لإنجاب الذريّة فاطلبوا الذرية في مكان الإنجاب، (وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ) أي وتخيّروا لأنفسكم الصالحات لإنجاب الذريّة الصالحة. واتّقوا الله في نسائكم وأولادكم، واذكروا أنّكم ملاقون ربّكم فلا تأتوه بالمعاصي، وأذكروا أنّ الله يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالخير والنّعيم.

- وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (222) :

واحفظوا أيمانكم، ولا تتهاونوا باليمين، ولا تجعلوا حلفكم بالله مانعا لكم عن فعل الخير (بل يجب نكث هذا اليمين ثمّ التكفير على ذلك بما وقع النص عليه في الآية 89 من سورة المائدة) كأن يحلف المرء بألاّ يكلّم أخاه أو زوجة أخيه أو صهره أو أحدًا من أقربائه، أو يحلف بألاّ يتصدّق على أحد كان يحسن إليه لسبب ما، لا تحلفوا بالله على اِنقطاع عن فعل شيء من أعمال البرّ والإحسان. اِتقوا الله في أيمانكم، واطلبوا رضوانه بفعل الخيرات، وأصلحوا بين النّاس ولا تعينوا على قطع أواصر الأخوة والصلة. والله سميع لما تقولون وعليم بما تفعلون من أعمال البرّ أو من اِنقطاع عنه.

- لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (223) :

اليمين الّتي تَجري على اللسان، ولا يُقصد بها الحَلَفُ، وليس فيها نِيَة القَسَم معْفُوٌّ عنها أمّا التي قُصِدَ بها القسم والحلف وتعَمَّدتموها فليس فيها عفو. هذه يمينٌ يلزم الوفاء بها، والله غفور لما كان يجري على اللسان، وحليم لا يؤاخذكم عليه، والأفضل حفظ اللسان عن القَسَمِ بالله.

- لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ **(224)** وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(225)** :

(الإيلاء) هو أن يحلف الرجل ألاّ يجامع زوجه إضرارا بها وهجرا. فمن حلف بهذا فله أربعة أشهر ليراجع نفسه فإمّا أن يتوب ويرجع إلى زوجته دون إضرار فيغفر الله له ويرحمه من المؤاخذة بعد أن يُكفِّر عن يمينه الذي حنث فيه، وإن لم يرجع فعليه أن يطلّقها حتى لا يضرّ بها لأنّ الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المعاشرة بالمعروف وعلى التّوادد والتراحم والتآلف، والله عليم بما يجري بين الزوجين وسميع لما يجري بينهما من كلام وحلف.

- وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(226)** :

والمطلّقة يجب أن تنتظر مدّة ثلاثة أطهار من الحيض صابرة على نفسها، ويجب عليها إن أحسّت بوقوع حملٍ أن تُعْلِمَ عن حملها إن كانت مؤمنة بالله وبيوم الحساب والقصد من هذا الشرط منع الجحُود بما في رحمها. وللزوج الحقّ في إرجاعها إلى عصمته ما لم تَنْتَهِ العِدَّةُ إن كان ينوي حسن العشرة، وينوي تربية المولود حين يولد في رعاية أبويه. للزوجة حقّ حسن العشرة، وللرجل منزلة أرفع في العشرة لأنّه مكلّف بالإنفاق عليها وبالرعاية، وله فضيلة حمل المسؤولية عنها وعن ذريّتهما. والله عزيز المقام، حكيم في تدبير أحكامه.

- ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ **(227)** :

يجوز للرجل إن طلّق زوجته طلقة أولى أن يراجعها، فإذا طلّقها بعد مراجعتها ثانية له أن يراجعها للمرّة الثانية، لكن إذا طلّقها للمرّة الثالثة حرّمت عليه، ولم يَعُدْ له الحقّ في أن يراجعها. والرجل حين يراجع زوجته في الأولى أو في الثانية فعليه أن يمسكها بمعروف مراجعةً حسنةً ثابتةً، أو أن يتركها دون رجعة حتى تنتهي عدّتها دون إضرار، لابدّ من التعامل مع الزوجة حتى عند طلاقها بالإحسان الذي يفرض على طليقها ألاّ يذكرها بأيّ سوء، وأن يستر ما كان بينهما من علاقة متوتّرة وعليه أن يعطيها حقّها من النّفقة والمتعة دون مضارّة. ولا يجوز للرجل إذا طلّق زوجته أن يأخذ من مهرها شيئا إلاّ إذا كانت هي التي طلبت الخُلْع، وفي حال أنّ أهل



الطرفين يئسوا من الصلح بينهما، في هذه الحال جاز للمرأة أن تفتدي نفسها لتتحلّل من اِرتباطها بزوجها بشيء من مهرها. هذه من المسائل الّتي شرعها الله لكم فلا تتجاوزوها، ولا تخالفوها، ومن خالفها وقع في الظلم، والله لا يحبّ الظالمين.

- فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ **(228) :**

فإن طلّقها للمرة الثالثة لم تعد تحُلّ له مراجعتها، وتحرم عليه، حتى تتزوّج بآخر غيره ويباشرها، لا يكفي أن يعقد عليها، لابدّ من وقوع الجماع، فإن طلقها الزوج الثاني بعد الوَطْءِ، في هذه الحال يُباح للزّوج الأوّل أن يرجعها بعد اِنقضاء عدّتها بزواج جديد، وهذه الإباحة مشروطة بأن يحسن كلاهما عشرة صاحبه بأداء الحقوق الزوجيّة، وهذه الأحكام يبيّنها الله للعلماء الذين يعرفون أحكام الأحوال الشخصية.

- وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ **(229) :**

وإذا طلّقتم النّساء طلاقا رجعيا، وقارين اِنقضاء العدّة فأرجعوهن إرجاعا حسنا وعاملوهنّ بإحسان وبما يليق بكرامتهنّ، أو فارقوهنّ مع تمتيعهنّ بما يستحِققْن من نفقة، ولا تتركوهنّ معلّقات، لا هنّ مطلّقات، ولا راجعات قصد الإضرار بهنّ والانتقام منهنّ قهرا وظلما وعدوانا، ومن راجعهنّ لغاية إذلالهنّ وإيذائهنّ فقد أساء لنفسه بظلمه وسيحاسب على هذا الظلم، ولا تتهاونوا بأحكام الله اِستخفافا، وأذكروا نعمة الله إذ هداكم للإيمان وللإسلام وللعمل بأحكام التنزيل التي شرعت لكم حكمةً لتنظيم أحوالكم الشخصية في عدلٍ. يعظكم الله لأن تعملوا بأحكامه، ولا تخالفوها، واخشوا ربّكم في ما أمّنكم عليهنّ، واعلموا أن الله مطّلع على أحوالكم وعلى أعمالكم وما تدبّرون في خفاء.

- وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ **(230) :**

وإذا طلقتم النّساء طلاقا رجعيا، وقارين اِنقضاء عدّتهنّ، ورغب الزوجان في المراجعة، فعلى وليّ أمر المرأة ألاّ يُمانع في إرجاعها لزوجها أو يضيّق عليها لِيَمنعها من الرّجوع إليه. هذا أنفع للزوجين ووليّ أمر المطلّقة بالرجعة، وأجلب للبركة، وأنظف للسمعة وأبعد للشّبهة عن المطلّقة،

والله أعلم بما يصلح لكم وأعلم بما ينفع لكم وبما لا تعلمون ممّا يمكن أن يحصل من سوء ومكروه وإذا اِمتنع الوليّ من إرجاع وليته لزوجها.

- ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(231) :

وإذا وقع فراق بين الرجل وزوجه، وكانت المرأة حاملا ووضعت مولودا وهي مفارقة بفعل الطلاق، فعلى الوالدة أن ترضع وليدها سنتين كاملتين إذا رضي الاثنان بهذا –الوالدة ووالد المولود– واِتّفقا عليه، وعلى والد المولود الإنفاق على الأمّ ورضيعها للطعام والكسوة وما يلزمهما مدة الرضاع على قدر الحاجة وعلى قدر الإمكان وعلى قدر وِسْع والد المولود، لا يجب الإضرار بالوالدة ولا بالمولود، ولا بوالد المولود، وإذا كان والد المولود ميّتا فيجب على وارث الوالد – وربّما يكون الصبيّ نفسه هو الوارث – الإنفاق على اليتيم وأمّه. وإن أراد الإثنان – الوالد وأمّ الطفل – فطام الولد قبل الحولين بالتّراضي وبعد التشاور فلا حرج عليهما في ما تراضيا به، وإذا أراد أحدهما أو كلاهما الوالد أو الأم، أن يتّخذ للوليد مرضعة فلا حرج شريطة إعطاء المرضعة حقّها من الأجر على الرّضاع لمدّة سنتين كاملتين بالقدر المتعارف عليه بين الناس لأمثالها في القدر والمكانة الاجتماعية، واتّقوا الله في أولادكم وأصحاب الحقّ عليكم، وتذكّروا أنّ الله مطّلع على ما تعملون، وعلى تصرّفاتكم فاحذروا معصية ربّكم.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (232) :

والزوجة التي يُتَوَفَّى عنها زوجها يجب عليها أن تَعْتَدَّ أربعة أشهر وعشرة أيّام دون زواج، فإذا أتمّت عدّتها فليس عليكم حرج فيما فعلت في نفسها من تزيُّنٍ بالمتعارف عليه عند أهل المروءة دون تجاوز الحدّ. والله مطّلع على نواياكم في أعمالكم.

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (233) :

ولا حرج عليكم فيما أشرتم إليه من غير تصريح برغبتكم بالزواج بالأرملة التي توفّي عنها زوجها وهي في زمن عدّتها، ويجب أن تكون هذه الإشارة تلميحا، لا تصريحا. الله يعلم ما

تُسِرُّون به في أنفسكم وما تخفون فلا تأخذوا على الأرامل المعتدّات عهدا في إشارتكم أن لا تتزوّج غيركم، وقولوا القول المتعارف عليه بين النّاس الذي فيه التّعريض برغبتكم. ولا تصمّموا على عقد الزّواج ولا توجبوه حتى تنقضي العدّة وتكتمل المدّة. وأُذكروا أنّ الله تعالى يعلم خفايا صدوركم، ونواياكم فاحذروا مخالفة أحكامه، وأُذكروا أنّ الله غفور لمن تاب وأصلح عمله، وحليم لا يؤاخذكم عن الخطإ العفويّ إذا أصلحتموه.

- **لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ (234) :**

إذا طلبتم للزواج نساء من أوليائهن وأُجِبْتُم لطلبكم، فتمّ عقد الزواج ولم يقع الدخول بالزوجة بعد، ثم قررتم طلاقهنّ للتحلّل من هذا العقد، ولم تكونوا قد دفعتم لهنّ صداقهنّ فريضة، ولم تدخلوا بهنّ للبناء، فلا إثم عليكم فيما فعلتم، واعطوهنّ ما يتمتّعن به من أموالكم جبرا لخاطرهنّ، على الغنيّ وذي مال نصيب، وعلى الفقير المقلّ نصيب متعة على الوجه المتعارف عليه، وهذا حقّ لهنّ على ذوي الخُلُق والإحسان.

- **وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (235) :**

وإن تحلّلتم من رباط الزّواج بعد عقده بالقبول والإيجاب وتسمية الصداق تحلّلاً قبل البناء والدخول بهنّ فادفعوا لهنّ نصف ما أوجبتم على أنفسكم من المهر، إلاّ إذا رفضت الفتاة المخطوبة قبول مهره حفاظا على كرامتها وتعبيرا منها على حسن التخلّص من التزوّج به، أو يعفو الزوج عن أخذ النّصف فيترك لهنّ الصداق كاملا، وهذا التّصرّف أفضل لأنّه أقرب للتّقوى، ولا تنسوْا ما كان بينكم من الودّ والتقارب. والله تعالى مطّلع على إحسان المحسن، وإساءة المسيء.

- **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ (236) فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ (237) :**

هذه موعظة من الله تعالى للمؤمنين، يأمرهم بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها من غير تفريط أو إهمال لأركانها وشروطها، مع التأكيد على أداء الصلاة الوسطى في وقتها دون تكاسل. هذه الصلاة غير معلومة، وإخفاؤها مقصود للمحافظة على أداء كلّ الصلوات في أوقاتها. ويأمرهم أن يؤدّوا هذه الصلوات في خشوع وطاعة طيّعة. وأباح تعالى لمن خاف من عدوّ عند القتال وخاف من مهاجمة حيوان مفترس أن يصلّي صلاة الخوف، له أن يصلّيها وهو يمشي



على رجليه، أو راكبا على دابّته. فإذا زال عنه الخوف فليصلّ المرء صلاته آمنا بحسب موجباتها، وليحافظ على الذكر على النحو الذي أنزل الله وعلّمه ما كان يجهله من حسن العبادة لله الذي خلقه (انظر التعليق على الآية 187).

- وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **(238) :**

وللزّوجة الأرملة وصية بما يحقّ لها أن تمتّع بالإقامة في مسكن الزوجيّة مدّة سنة ومتعة بالنّفقة عليها غير مُخْرجة من مسكنها مكرهة، فإذا فارقت من نفسها بيت الزوجية قبل نهاية العام وباختيارها فلا إثم على الورثة في قطع النّفقة عنها، ولا إثم عليها إذا تشوّقت إلى الزّواج على ما يوافق الشرع، والله سبحانه عزيز قاهر لا يُغلب عن عقاب من أخرج المرأة كارهة وهي لا تُريد الخروج، وهو حكيم في تنظيم شرعه لما يريد لعباده.

- وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ **(239) :**

وللمطلّقات نفقة العدّة حقٌّ واجبٌ لهنّ مفروض على الذين يخافون الله تعالى.

- كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ **(240) :**

هكذا يوضّح الله لكم أحكامه ويوضّحها لكم، وعساكم تدركون فضائل هذه الأحكام في تنظيم حياتكم الاجتماعية والأسريّة بما ترشدكم إليه عقولكم.

- أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ **(241) :**

ألم تأتك أخبار قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء فخرجوا من ديارهم وموطنهم خائفين هاربين من الموت وكانوا كثيرين، ونزلوا واديا فأماتهم الله تعالى، ثمّ أحياهم ليعلموا أنّ الموت والحياة بأمر الله. وبعد عودة الحياة لهم نَسُوا فضل الله عليهم ولم يشكروه غفلة وجحودا، وأكثر الناس أمثالهم في الجحود ونسيان فضل ربّهم عليهم. وقد أورد هذا الخبر للاتّعاظ حتى يعلم المؤمنون أنّ الموت بالأجل، كي لا يتخلّفوا عن الجهاد، أو عن التّغلّب على المصاعب العارضة في بلادهم.

- وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(242) :**

الخطاب هنا للمسلمين حتى لا يتخلّفوا عن الجهاد نصرة لدين الله وصدّا لأذى المشركين، وليحذروا ممّا يقولون من أسباب الرّفض والله عليم بما في نفوسهم وعليم بأحوالهم.

- مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ **(243) :**



في هذه حضّ على الإنفاق على الجيش الخارج للجهاد، اعتبر الله كلّ نفقة قرضا حسنا ووعد الله بردّها لصاحبها مضاعفة أضعافا كثيرة، والله تعالى هو الرّزاق: قبضا وتوسعة ثمّ يجازي صاحب القرض حين يرجع إليه بحسن الثواب.

- أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ **(244) :**

هذه الآية وما بعدها في الحضّ على القتال. فقد حدث أن كان قومٌ في عهد "شمويل بن بال بن علقمة" ويقال له "شمعون"، وكان نبيّا عند بني إسرائيل من بعد وفاة موسى عليه السلام، نَالَتْهُم ذِلّةٌ وغلبهم عدوٌّ، فطلبوا من نبيّهم أن يأذن لهم في الجهاد، وأن يؤمروا به، وأن يطلب الله لهم ليبعث لهم قائدا يتزعمهم في قتالهم لعدوّهم. قال لهم نبيّهم – وهو يعرف جُبْنَهُمْ – لعلّكم تتخلّفون عن القتال وتنفرون منه إذا فُرِض عليكم؟ فأجابوا: كيف لنا أن نتخلّف عن قتال عدوّنا وقد أطردنا من ديارنا، وأُوذِينَا في أبنائنا؟ ولمّا فُرض عليهم القتال اضطربت نواياهم، وفترت عزائمهم إلاّ القليل منهم، والله عليم بالذين قعدوا عن القتال وجبنوا خوفا على حياتهم.

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ **(245) :**

وأخبرهم نبيّهم بأنّ الله قد أرسل إليكم طالوت (هو شاول بن قيس من سبط بنيامين بن يعقوب) ملكا عليكم في قتالكم لعدوّكم. وكان شاول شابّا جميلا عالما وطويل القامة، وكان راعيا فقيرا، فلم يرضَ به بنو إسرائيل قائدا لهم لأنّه لم يكن من سُلالة الملوك عندهم، ولأنه فقير. أخبرهم نبيّهم بأنّ الله اِختاره لهم لأنّه تعالى قد أعطاه من الفطنة وقوّة البدن ما فضّله بهما على أهل زمانه، والله يعطي ملكه لمن يشاء من عباده، وهو تعالى كثير الفضل والإنعام بمن يختاره للأشياء العظيمة والاستحقاقات المهمّة.

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ **(246) :**

وأخبرهم نبيّهم بأنّ علامة سلطانه وبرهان اِختياره للزّعامة والقيادة أن يعود إليكم صندوق التوراة الّذي اغتصبه منكم أعداؤكم عُنوةً، فيه سكون لأنفسكم وطمأنينة لقلوبكم والأشياء الباقية

من قطع ألواح التوراة التي تركها فيكم آل موسى وآل هارون، توجهّه إليكم الملائكة، وكان أعداؤهم قد تشاءموا من التوراة فوضعوها في عربة يجرّها ثوران ودفعوهما إلى حيث نفي بنو إسرائيل. وكان هذا من تدبير الله للانضباط لطالوت وللعمل بأمره إن كانوا صادقين في إيمانهم.

- فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (247) :

فلمّا خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس لقتال العمالقة، وكان الحرّ شديدا، وطلبوا منه الماء. قال لهم طالوت : إنّ الله مُخْتَبِرٌ صدقَ إيمانكم بمروركم على نهر، فمن شرب منه فليس من المطيعين، وليس من أتباعي وأنصاري، ومن لم يذق ماءه، وأخذ بيده مِلْأهَا لشربه وليس أكثر فلا حرج عليه، فشرب الجميع من النّهر إلاّ قليلا منهم. ولمّا جاوز طالوت والذين أطاعوا أمره ممن لم يشرب من النّهر، قالوا لا قدرة لنا، ولا قوّة لنا على قتال جالوت وجنده. جالوت هو أمير العمالقة، كان طاغيا، فظّا، ومن أشدّ النّاس عداوة لبني إسرائيل. وقال الّذين يَستَيْقِنُون أنّهم راجعون إلى الله تعالى للحساب: لا تخافوا، ولا تجبنوا، ولا تتخلّفوا عن مواجهة أعدائكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة العدد بفضل عون الله ونصره، والله في عون الصابرين الذين يُلاقون أعداء هم بثبات.

- وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (248) :

وحين تقابل الجيشان دعا المؤمنون ربّهم بأن يعينهم بالصبر على بلواهم، وبأن يقوّيهم على قتال أعدائهم بالثبات في مواجهتهم دون خوف، ودعوا لأنفسهم بالنّصر على الكافرين.

- فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (249) :

وهزم جند طالوت جند جالوت وقتل داود قائد العمالقة وزعيمهم: جالوت. وداود هو بن يسي، كان راعي غنم، وكان في جند طالوت، آتاه الله السلطان على قومه بعد موت شامويل، وأضفى عليه الحكمة، فجعله نبيّا، وآتاه الزّبور فيه التسبيح للذكر، وأسرار الشريعة، وزاده من الفضل فعلّمه صنعة الدروع وغيرها ممّا يُصنع من الحديد. ولولا أن قضى الله بتسخير بعض من عباده للقضاء على الطغاة لفسدت الحياة على الأرض بالظلم والكفر والطغيان وهذا من فضله تعالى على سكّانها.

- تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (250) :

هذه أخبار نقصّها عليك يا محمّد بالصدق تأييدا لك وتثبيتا، وليعلم النّاس أنّك رسول الله، وأنّ ما نزل عليك هو وحي من عند ربّك، إذ لم يكن لك ولقومك علم بأخبار الأنبياء والمرسلين من قبل هذا.

- تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (251) :

لقد خصّصنا بعض الرّسل بخصائص مميّزة. منهم كليم الله موسى عليه السلام. ورفع بعضهم درجات، وهم أولو العزم من الرسل منهم نوح وإبراهيم عليهما السلام، ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم. وآتى عيسى عليه السلام معجزات واضحة تدلّ على صدقه، منها إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، وأيّده بجبريل عليه السّلام. ومن بعد الرّسل اختلف النّاس في دينهم واقتتلوا كالذي حدث في اِقتتال اليهود والنّصارى رغم وجود الكتب بين أيديهم، ولكنّهم اِختلفوا على الزعامات، فمنهم من ثبت على إيمانه، ومنهم من ارتدّوا عنه طلبا لحطام الدنيا، واتّباعا لأهوائهم، وكلّ ذلك بقدر الله وقضائه ليمحّص الذين آمنوا، ويكشف الكافرين.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (252) :

هذه في الزكاة المفروضة وصدقة التطوّع، يرغّب الله في الإنفاق في وجوه الخير ممّا رزقهم الله من مال أو من خيرات الأرض والأنعام بما ينفع البلاد لقضاء المصالح العامّة في الجهاد أو الصحة أو التعليم أو دور العبادة والمشاريع النافعة لاقتصادها، وبما ينفع المستضعفين لتتيسّر لهم أسباب الحياة قبل أن يأتي يوم الحساب فيحاسب المرء على شحّه وإمساكه إذا شحّ وأمسك فيعاقب ولا يجد يومئذ ما ينتفع به لينجو من عذاب الله. والكافرون الذين يشاقّون المسلمين فيدفعونهم للإنفاق على السلاح والجهاد هم الظالمون حقّا لأنّهم حوّلوا ما كان يجب أن ينفق على المستضعفين والمصالح العامّة للبلاد إلى صناعة الأسلحة.

- ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ(253) :

هذه آية الكرسي، سيّدة آي القرآن، وهي من أعظم الآيات. هي آية في العقيدة: عقيدة التّوحيد، وجاء فيها من أسماء الله الحسنى، وصفاته العُلا ما يعجز كلّ عقل أن يبلغ معانيها، ولذلك نقف عند فهمها لغويا، ونُقِرُّ بأنّا لا ندرك كُنْهها وحقَّ مدلولها. "الله لا إلاه إلاّ هو"، هي كلمة التوحيد، إذا قال أحدهم: "لا إلاه" كفر وألحد وجحد وظلم الله في وجوده، وإذا قال: "إلا هو" صدّق بوجود الله، وأقرّ بوحدانيته. "الحيّ" صفة قوّة، فهو لا ينام ولا يموت، وصفة للبقاء الدائم لا يعتريه مرض ولا عجز وحياته أبدية أزلية. "القيّوم" هو القائم بتدبير ما خلق، ولو لم يكن قيّوما لاضطرب الكون كلّه، سيرا وقياما ووجودا وكلّ المخلوقات محتاجة في وجودها إليه. "لا تأخذه سنة ولا نوم" لا يغلبه ولا يستولي عليه نعاسٌ ولا فتور ولا غفلة. وهذا للتأكيد على حسن القيامة على الوجود. "له ما في السماوات وما في الأرض" أيّ أنّه مالك حقيقي لكلّ الوجود في الكون بكلّ ما فيه، وهو المتصرّف فيه، ووارثه. "من ذا الّذي يشفع عنده إلاّ بإذنه" أي أنّه هو الشافع الحقيقي للعصاة والمذنبين، لأنّه لا تقبل شفاعة نبيّ ولا رسول، ولا مَلك، ولا رجل صالح ولا وليّ إلاّ إذا أذِنَ الله له بالشفاعة، فإذا تشفّع شافع في أحد بعد أن أذن الله له بذلك شفّعه فيه تكريما للمشفّع. "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم" ومن سعة علم الله أنّه لا تخفى عليه خافية من أمر خلقه، إنسهم وجنّهم، ممّا تقدّموا به لأنفسهم، وبكلّ ما يأتي بعدهم، علمه تامّ بحاضرهم، وبمستقبلهم، وبمآلهم. "ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء" أي لا يحيط أحد: ملكًا كان، أو بشرا، أو جنّا، بشيء من معلوماته، فلا علم لأحد بمعلوم عند الله إلاّ بما يعلّمه ربّه. "وسع كرسيه السماوات والأرض" الكرسيّ لا يعرف معناه أحد، قيل: هو العرش، وقيل هو القدرة، هو شيء يدلّ على العظمة، وعموما نؤمن به، ولا نعرفه سوى أنّه يدلّ على عظمة المُلك والعرش والسلطان والتقدير. "ولا يؤوده حفظهما" أي لا يثقله، ولا يشقّ عليه حفظ السماوات والأرض، وهذا ممّا يدلّ على عظيم القدرة. "وهو العليّ" المتعالي الذي لا يصل إليه أحد من مخلوقاته، ويُراد به علوّ القدرة والمنزلة، وهو القاهر الغالب للأشياء. "العظيم" صفة بمعنى عظيم القدر والخطر والشرف. هذا ما بلغ به الجهدُ من الفهم، ونسأل الله المغفرة عن التّقصير في إدراك حقائق الأمور، فهو العليم والعليّ العظيم سبحانه.

- لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(254) :**

هذه الآية تحمّل كلّ إنسان مسؤوليته في اِختيار الدّين الذي يحبّ أن يكون عليه، فلا يُكره الإنسان بالقوّة والجبر على اتّباع دين مخصوص. قد تبيّن طريق الهدى والإيمان فمن اِتّبعه تخيّر الرشاد في العقل، وتبيّن بالوحي والدلائل طريق الضلالة والكفر، فكلّ من تجنّب تقديس المعبود

الباطل، وتمسّك بعقيدة التوحيد، فقد تمسّك بالعقيدة المحكمة المتينة الّتي لا يعتريها اِنحلال، ولا اِختلال، لا اِنقطاع لها ولا زوال، والله سبحانه سميع لما تدعون به، وعليم، بنواياكم واختياراتكم.

- ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ (255) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ(256) :

الله نصير المؤمنين ينقلهم بهديه وفضله وإرشاده من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلى نور الإيمان، والكافرون نصيرهم أهل الطغيان وزعماء الكفر والشرك وأهل الكهانة وكلّ معبود سوى الله تعالى ينقلونهم بضلالاتهم من نور الفطرة السليمة إلى ظلمات الكفر والشرك، وهم أهل النّار يستقرّون فيها إلى الأبد لا يخرجون منها.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (257) :

أَلَمْ يَأْتِكَ خبرُ الّذي واجه إبراهيم بالاحتجاج – هو نمرود بن كنعان الجبّار الذي ادّعى الربوبيّة – يجادل إبراهيم فيما جاءه به من دعوته لعبادة الله وحده. سأله: من ربّك؟ فأجاب إبراهيم: هو الله الذي يحيي ويُميت. قال نمرود: –في قياس باطل – أنا أُحيي حين أعفو على من أحكم عليه بالإعدام والقتل فيكون عفوي عليه إحياء له، ويكون العبد حيّا فإذا حكمت عليه بالإعدام أَمَتُّهُ. قال إبراهيم: فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب. حينئذ لم يجد نمرود ما يحاجُّ به إبراهيم. بُهت: دهش وغُلب وتحيّر وانِقطعت حجّته. والله لا يهدي القوم الكافرين للصواب والرّشاد.

- أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (258) :

هذه في خبر أحد الأنبياء، قيل هو عُزير، وقيل هو إرْمياء، والقرية هي بيت المقدس. مرّ عليها زمن خلت من السكّان، هجرها أهلها، وخُرِّبت البنيان: سقطت سقُوفها على حيطانها. لمّا مرّ بها ذاك النّبيّ سأل نفسه: كيف يحيي الله هذه المدينة الخاوية، الخربة؟ أو متى يحييها بعد هذا الخراب، والأرض بوار، ومتى ستعمّر بالسكّان؟ فأماته الله مائة عام، وهذه الميتة لا نعرف هيأتها ولا كيفيتها، والله لا يعجزه شيء، هذا أمر خارج على الإدراك البشري. ثمّ بعثه الله بعد

موته، وسئل: كم لبثت في رُقادك؟ تحيّر النّبيّ وظنّ أنّه لم يمض عليه سوى يوم أو بعض يوم، فأوحيَ إليه بأنّه قد لبث مائة عام، وليتأكّد من طول الزمن الّذي قضّاه في مَوته قيل له انظر إلى حمارك فرآه عظاما نخرة تدلّ آثاره على طول الزمن الذي مرّ عليه هالكا، وليعرف فضل ربّه عليه وحسن تقديره قيل له: انظر إلى زادك من الطعام فوجده على حاله لم تغيّره السنوات الطّوال التي انقضت عليه، وذلك ليجد غذاءً له حين يستفيق، وهذا من التناقض الواضح بين حمار هالك صار عظاما نخرة وطعام يسرع إليه الفساد لم يفسد، ثمّ قيل له: أُنظر إلى عظام حمارك لترى ما يج ري فيها، كيف يعاد تركيبها، وكيف تكسى باللحم، وكيف يقوم بعد ذلك حمارك حيّا لتركبه وتواصل سفرك. وبهذا نجعل خبرك قصّة حقيقيّة للنّاس ليعرفوا شيئا من قدرة الله. قال النبيّ عليه السلام: أنا موقنٌ بأنّ الله تعالى قادر على إحياء الموتى وأنّه لا يعجزه أيّ شيء. والمستفاد من الآية أنّ الزمن عند الله شيء مطلق لا يُقدّر إلاّ بتقديره، وأنّه لا يعجزه إحياء الموتى: بشرا كان أو حيوانا أو أرضا أو بلدا.

- **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (259) :**

هذه في التأكيد على مسألة كان يجادل فيها المشركون، ولا يصدّقون بها، وهي مسألة إحياء الموتى. وهذه المسألة تتعلّق بالقدرة، ولو اتّسعت مفاهيم المشركين لعلموا أنّ من خصائص الألوهيّة: نفي العجز عنه، واذكر أنّ إبراهيم سأل ربّه أن يريه كيف يحيى الموتى فسُئل: ألست مؤمنا بأنّ الله قادر على أن يحيى الموتى، فأجاب بأنّه مؤمن بقدرته على إحياء الموتى ولكن يحبّ أن يعرف كيف يتمّ ذلك. فجاءه الأمر بأن يأخذ أربعة من الطير فيقطعها ويمزّقها ثمّ يوزّع أجزاءها متفرّقة على رؤوس الجبال، ثمّ يناديها فتأتيه الطيّور حيّة مشيا على أرجلها مسرعة. ودُعِي لأن يوقن بأنّ الله لا يغلبه أمر، وهو حكيم في تدبيره، يضع كلّ أمر في موضعه.

- **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (260) :**

هذه في الترغيب في الصدقة والإحسان للجهاد، وفي أعمال البرّ، وقد شبّهت الصدقة بحبّة تزرع في أرض خصبة تنتج سبع سنابل وفي كلّ سنبلة مائة حبّة، وبذا تضاعفت الحبّة إلى سبع مائة ضعف، وهذا خير كثير وفير وما عند الله أكثر لأنّه واسع العطاء، وعليم بما يستحقّ عبده من العطاء.

- **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (261) :**

وهذه للتحذير من الحديث بالصدقة حتى لا يضيع الأجر عنها، وحديث المرء بصدقته للنّاس لإشهارها هو المَنُّ الذي يمحق الأجر، ولا يحبّ الله من المرء المتصدّق أن يذكّر الّذي أحسن إليه بإحسانه لأنّ هذا من الأذى المُمْحق للأجر والثواب، ولذا فإنّ الآية في وعظ المحسن بأن لا يَمُنَّ بصدقته وبأن لا يؤذي المتصدّق عليه بفضحه عند الناس تفاخرا وهذا لينالوا أجرهم وثوابهم عند ربّهم، ويبشّر المحسنين على هذا النحو بالأمان من الخوف والحزن يوم الحساب.

- قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (262) :

وإن الردّ بالجميل لطالب الإحسان، مع الدعاء له بالتوسعة وبأن يفتح الله عليه بالخير أفضل من صدقة يتبعها أذى بتذكير المحسن إليه بما أعطاه وتصدّق به عليه، والله غنيّ عنه وعن صدقاته ويرزق عبده الفقير دون الحاجة لهذا المنّان، والله حليم رؤوف بعبده المحتاج.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (263) :

وهذه للتأكيد على التّحذير من المنّ والأذى في الصدقات لما فيه من محقٍ للأجر والثّواب، يا أيّها المؤمنون لا تضيّعوا ثواب صدقاتكم بالحديث بها، أو بتذكير المحسن إليه بها، فيكون شأنكم شأن الذي أنفق ماله للتّظاهر بها أمام النّاس ليثنوا عليه، ولا يريد بصدقته وجه الله، مثلُه في هذا مثَلُ حجر أملس عليه تراب زُرِع فيه زرع فأصابه مطر غزير ذهب بالتراب والزرع، وتركه صلبا لا نبات عليه، وتركه أجرد خاليا من كلّ أثر لزرع، فضاع الزرع والجهد والمال فلم يكسب الزارع شيئا، والله لا يهدي القوم الذين كفروا بنِعَمِه ولم يشكروا له بالطاعة.

- وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (264)

وهذه في الترغيب بأن يُبْتَغَى بالصدقة وجه الله، من غير مَنٍّ ولا أذى. والذين ينفقون أموالهم صدقةً وإحسانا يطلبون بها رضوان الله، وتصديقا من أنفسهم ويقينا بأنّ الله تعالى يُثيب على الإنفاق فمَثَلُهم في الحصول على الأجر والثواب بوَفْرةٍ مثل بستان في مرتفع من الأرض لا يتعرّض لسيل جارف، وسُقِي بماء السماء سقيا غزيرا فأنتج ثمرا طيّبا مضاعفا، فإن لم يُسْقَ بالمطر الغزير فقد مرّ عليه رذاذ خفيف سقاه فأخصب الأرض وأنتج الثّمر. والله سبحانه يعلم ما تفعلون فأخلصوا له العمل، وأصدُقوا في نواياكم، وتجنّبوا الرّياء في نفقاتكم.

- أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (265) :



هذه للتحذير من صدقة الرّياء. مثل من يُنفق ماله رياء الناس كمثل من عنده بستان فيه نخيل وأشجار العنب المعروشة، وبجوار البستان يجري نهر يُسْقَى منه سقيا دائمًا، وفي البستان أشجار مثمرة متنوّعة، وصاحب البستان رجل مسنّ أعجزه تقدّم سنّه عن خدمته وله أطفال صغار لا قدرة لهم على خدمة الأرض أو إصلاحها وسقيها، فمرّت بالبستان ريح عاصفة مدمّرة، وزوبعة قويّة أقلعت الشجر، وأذهبت الثّمر، وأفسدت الأرض وأهلكتها، وليس لأحد من أصحاب البستان قدرة على إصلاح ما فسد. كذا يضرب لكم المثل عساكم تنتبهون لما يجب عليكم فعله، ولما يجب عليكم الحذر منه.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ **(266) :**

يا أيّها الّذين آمنوا تصدّقوا من المال الحلال، من أجود ما كسبتم من الطرق المشروعة. الله طيّب يحبّ الطيّب من الرزق. والذي يبتغي وجه الله ورضوانه بصدقته لا يقدّم نفقة وصدقة جاءت من كسب نهى الله عن فعله وحرّمه. وأنفقوا من رزق الأرض ومن ثمارها الواجب فيها الزكاة، فما جاءكم من الأرض وشجرها هو من رزق الله الذي وافاكم به. ولا تقصدوا المال الحرام أو الإنتاج الرّديء من الأرض تنفقون منه. إلاّ إذا كنتم متساهلين في أخذ المال الخبيث، وأغمضتم أعينكم عن وجوه كسبه، وتذكّروا أن الله غنيّ عنكم، وأنّكم أنتم المحتاجون لفضله ورزقه وعونه وغيثه، وهو الحميد على جميع نِعَمِهِ.

- ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ **(267) :**

الشيطان يخوّفكم من الفقر لئلاّ تنفقوا، ويزيّن لكم المعاصي لتؤتوها، والله يعدكم بالمغفرة إذا تبتم وانتهيتم عن المعاصي، ويعدكم بالخير والفضل والجزاء إذا أنفقتم وعملتم صالحا، والله كثير الفضل، وعليم بحاجاتكم وبما يصلح لكم.

- يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ **(268) :**

يعطي الله، لمن يشاء من عباده، الهدى والمعرفة بدين الله والفقه فيه والاتّباع له، ويهديه لحسن القول والعمل، وحسن الفهم، ومن أعطي هذا فقدْ أُعْطِي أفضل ما يعطى للإنسان بما يرفع قدره ومنزلته عنده، فيُسمع لقوله ويُتَّبَعُ في نصحه وإرشاده. وما يعرف هذا الفضل إلاّ من كان له عقل واعٍ، وقلب لبيب، وبصيرة نافذة.

- وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ **(269) :**

وكلّ ما أنفقتم من أموالكم في سبيل الله أو في وجوه البرّ والإحسان، وكلّ ما أوجبتم على أنفسكم من صدقة أو أيّ عمل من أعمال البرّ تقرّبا إلى الله تعالى وتبتغون به فضله فإنّ الله يعلمه ويحفظ لكم الأجر عليه، وليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر وبالشحّ من نصير إذا وقعوا في أزمة.

- إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (270) :

وإذا تصدّقتم بصدقة الفرض التي هي الزكاة، أو تصدّقتم في سبيل الله على رؤوس الملإ لحفز النّاس على أن يفعلوا فعلكم فنِعْمَ ما فعلتم، وإن أخفيتموها خوفا من الرياء، أو رغبة في ستر ذي الحاجة من ذوي الأنفة ممن كان في يُسْر ثمّ اِفتقر فهو خير لكم من إظهارها، والله يستر عليكم سيّئاتكم فلا يؤاخذكم عليها، والله عليم بما تفعلون، ويعرف نواياكم، وخبير بما في نفوسكم.

- لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (271) :

هذه الآية في صدقة التطوّع، وليست في صدقة الفرض، وتشير الآية على رأي أغلب المفسّرين والفقهاء، أنّه يجوز إعطاء الصدقة لغير المسلمين إذا كانوا فقراء ومساكين تأليفا لقلوبهم، وإظهارا لتميّز المسلمين بأخلاقهم الإنسانيّة، كما يفعل بعضنا حاليا مع الأفارقة المهاجرين، أو المهجّرين من بلدانهم بسبب الحرب، أو يتامى الحروب في البلدان الأجنبية، وسكّان الخيام الهاربين من الفتنة أو المُصابين بكارثة مهلكة، هؤلاء وإن كانوا غير مسلمين فإنّ المسلم ليس مسؤولا عن هداهم، فالهدي هدى الله، وما ينفق المسلم من خير عليهم فلفائدتهم وسينتفعون بإحسانهم خيرا من رضى الله ورضى النّفس الرحيمة في حال أنْ تكون نفقته قد رجا بها وجه الله. وكلّ من ينفق نفقة من خير يثاب عليها خيرا منها ولا يظلم في ثوابه وأجره وتعويضها بما هو خير منها.

- لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ (272) :

ومن أحسن النفقات ما يُنفق على المرابطين الذين حبسوا أنفسهم عن الكسب للتفرّغ للجهاد أو للعسس لحماية البلاد من غزو العدوّ المفاجئ، لا يقدرون على السفر في الأرض للاتّجار والكسب. الذي لا يعرف حالهم عن قرب يحسبهم أغنياء لأنّهم يتنزّهون عن السؤال لأَنَفَتِهِم ويترفّعون عن إذلال أنفسهم، تعرف بِرَثِّ حالهم وهيأتهم فاقتَهم وفقرَهم، لا يطلبون عطاءً، ولا يسألون الناس بإلحاح. كلّ ما يدفع لهؤلاء من مال أو طعام أو أيّ نفع يُعَدُّ نفقة خير، والله مطّلع على ما تفعلون.

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (273) :

الذين ينفقون أموالهم في كلّ وقت بالسرّ أو علانية فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على متاع الدنيا، فإنّ الله سيعطيهم من النّعيم ما ينسيهم خير الدنيا.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(274) ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (275) :

الآية في تحريم التعامل بالرّبا الذي هو إقراض المال بفرض فائدة معلومة ترجع مع أصل الدين لفائدة صاحب المال، هذا كسب غير مشروع، والآية صريحة في تحريمه (وحرّم الربّا)، وما أُعِدَّ لآكل الربا من الوعيد يزيد في التّحذير من الانتفاع به، آكل الرّبا يقوم يوم القيامة يتخبّط كالصريع كأنّ شيطانا يصرعه ويضربه على الأرض ضربا شديدا، ويهتزّ كاهتزاز المعتوه والذي أصابه الخَبَلُ، وذلك لأنّهم قاسوا عملهم في التعامل بالرّبا قياسا باطلا، فقالوا: إنّما البيع مثل الرّبا، والأمر ليس على هذا النحو لأنّ التجارة معاملة حلال، وأمّا الرّبا فمحرّم لما فيه من اِستغلال بَشِعٍ لذي الحاجة الاضطراريّة عند الاقتراض ممّا يزيده فاقة وعجزا عند تسديد ما عليه من دَيْنٍ. فمن اِنتهى عن التعامل به عفا الله عما سلف منه، وأمره يوم الحساب إلى الله إن شاء عفا عنه وغفر له، وإن شاء آخذه على ما فعل، لكنّ الذي أصرّ على التعامل به بعد أن جاءه هذا التحريم فسيخلّد في النّار عقابا له على تماديه في اِنتهاك المحرّم وإتيانه. ولن يستفيد المرابي بما يحصل عليه من الرّبا لأنّ الله قضى أن يمحقه محقا مُهْلِكًا، وأمّا الصّدقات فينمّيها الله تعالى لصاحبها، والله لا يحبّ من أصرّ على كفره وعصيانه لأمر ربّه، ولا يحبّ من يأثم بإتيان المعاصي والمحرّم من الأعمال.

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (276) :

جاءت هذه الآية وسط آيات تحريم الربا والتحذير منه بالوعيد ترغيبا في عمل الصالحات التي تردع المؤمن عن اِرتكاب الآثام بعد أن جاء قبلها بأنّ الله لا يحبّ الآثم. وأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فيبشّرهم ربّهم بأن يحفظ لهم أجرهم على طاعاتهم ويُؤَمِّنُهُمْ على أنفسهم من الخوف من عذابه يوم القيامة، ومن الحزن على ما فاتهم من خير الدنيا لأنّهم سيجدون عنده تعالى خيرا ممّا كان عندهم من الخيرات، وفي هذا الوصف ترغيب لهم على التمسّك بهذه الطاعات.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (277) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (278) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (279) :

الخطاب للمؤمنين ليخشوا ربّهم في المستضعفين وفي معاملاتهم المالية، وجاءهم الأمر بأن يعفوا عن كلّ ربا فرضوه على المقترضين قبل نزول هذه الآيات، وأن لا يُطالبوهم بالفوائد إن كانوا صادقين في إيمانهم، لهم رؤوس أموالهم يأخذونها كما دفعوها للمقترضين دون أن يُظْلموا فيها، وليس لهم أن يأخذوا عنها فوائد حتى لا يظلموا المقترضين، فإن لم يفعلوا كما أمرهم الله، فإنّه سبحانه يشهر عليهم حربه وحرب رسوله بسبب عصيانهم، ومن حاربه الله تعالى هلك، ومن حاربه رسوله أبعده عن حضرته وشفاعته. وإن كان المقترض عاجزا عن سداد دينه في الزمن المحدّد، فإنّ الله تعالى يوصي صاحب المال المؤمن بأن يصبر عليه حتى تتيسّر أموره فيسدّد ما عليه، فإن علم عجزه عن الوفاء بدينه فليعتبر ما أقرضه صدقة، والله يقبل الصدقات ويحبّ أن يكون تعامل المؤمنين بالإحسان والتآزر زمن العسر والشدّة، ولو علم المؤمنون كيف يقبل هذه الصدقات منهم لتصدّقوا بمالهم على المعسرين منهم.

- وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (280) :

هذا آخر ما نزل من القرآن الكريم. وفي هذه الآية موعظة من ربّنا لنتذكر دوما يوم الحساب بالإعداد له بالتزوّد بالتقوى، وحاصل التقوى هو الامتثال لأمر الله، وإجتناب نواهيه، في ذاك اليوم تعطى كلّ نفس من الأجر والثواب وافيا أكثر ممّا ترجو وما تستحقّ فضلا من الله ورحمة، ولا يُظلمون في شيء من الأجر ولو كان بمثل مثقال من ذرّة.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (281) :

هذه أطول آية في القرآن، وتسمّى آية التّداين لأنّ فيها أحكام توثيق الدَّيْنِ. أيّها المؤمنون إذا تداينتم بدين فعليكم واجب توثيقه محافظة على أموالكم، وتثبيته، وأدعى للوفاء به في أجله. ويوثّق كاتب بالعدل كتْبَ الدّيْن، وليكون بينكم شاهد الحقّ. ولا يجب أن يمتنع الكاتب عن كتابته كما علمّه الله من وجوب تثبيت الحقوق، وذكر دقائقها وتفاصيلها. عليه أن يكتب، وعلى المَدِينِ أن يملّ على الكاتب ما عليه من واجب لصاحب الدّيْن، وما لصاحب الدَّيْنِ من حقّ عليه، وليخش ربّه في حقوق النّاس عليه، وليخش ربّه فيما يُضْمِر في نفسه أو في الكتب من ثغرات للتّحيّل على صاحب الحقّ عليه، ولا يجب أن ينقص من حقّ صاحبه عليه شيئا. وإن كان الذي عليه الديْن سيّئ التّصرّف ومبذّرا، أو كان صبيا، أو رجلا لا يفهم ما يقول، أو لا يستطيع أن يملّ على الكاتب لجهله فليملل وَلِيُّه نيابة عنه، ولْيَتَحَرَّ العدل فيما يُمليه على الكاتب. وليشهد على الكَتْبِ شاهدان من العدول الذكور، فإن لم يكونا ذكرَيْن فليشهد رجل واِمرأتانِ على الكتب مخافة أن تخطئ واحدة منهما فتذكّر الشاهدة الثانية صاحبتها بما كان حفاظا على الحقّ لصاحب الديْن. ولا يجب أن يتهرّب الشهداء من الإدلاء بشهادتهم إذا دعوا إليها وطولبوا للحضور للسماع منهم إظهارا للحقّ ونصرةً للعدل. ولا تَمَلُّوا من كتابة الدّيْن صغيرا كان أو كبيرا مع تحديد آجال التسديد وقضائه. هذا التوثيق أعدل عند الله وأقرب للصواب، وأثبت للشهادة وأعون لها، وأدنى شيء تقومون به حتى لا تشكّوا في التفاصيل والآجال. أمّا ما تتداولون من تجارة تتعاطونها بانتظام فيما بينكم فليس عليكم حرج في أن لا تكتبوها، واكتفوا في المعاملات التجارية المتداولة بينكم بإشهاد من تثقون به من أهل التجارة على آجال الدفع والتسليم، وعندما تتبايعون. ولا يجب أن يكتب كاتب ما لم يُمْلَ عليه، أو يشهد بغير الحقّ، فإذا حدث هذا فإنّه خروج عن الدِّين وفسوق، واخشوا الله في حقوق النّاس فلا تعبثوا بها ولا تتحيّلوا عليهم. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا وعد من الله تعالى ليعلّم أهل العدالة والقضاء كيف يفصل بين الحقّ والباطل بما يُلْهِمُه من أسباب الرّشاد والفطنة لإظهار حقّ صاحب الحقّ، ويكشف المتحيّل.

- وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ **(282) :**

هذه في الرّهْن تتمّة لأحكام الدّيْن. فإذا تداينتم وكنتم على سفر، ولم تجدوا كاتبا ليوثّق دَينكم فلْيُسلِّمْ المدينُ لصاحب الدَّيْن شيئا يرهنه عنده حتى يقضي ما عليه، فإن وَثِقَ بعضُكم ببعض فليسلّم المؤتمن الأمانة لصاحبها عندما يستلم دينه عند الأجل بلا مُماطلة، وليخش ربّه في ما أؤتمن عليه، وعند الأداء. وبالعودة للشهادة فإنّه لا يجوز كتم الشهادة ومن يسكت عنها –وهو شاهد– فإنّه يتحمّل إثما كبيرا، وقلبه أثيم لأنّه لم يدفعه للإدلاء بها، فضيّع حقّ صاحب الحقّ

بسكوته، وقلب المؤمن لا يرتضي بهذا، قلب المؤمن حيّ لا يسكت عن الحقّ. والله عليم ومطّلع على ما تعملون في معاملاتكم المالية ومحاسبكم عليها إن ظلمتم فيها.

- لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (283) :

لله مُلك كلّ ما في السماوات وما في الأرض من الخلق، وإن تظهروا ما في أنفسكم أو تكتموه يحاسبكم الله على نواياكم وعمّا تضمرون من خير أو شرّ فيغفر لمن يشاء المغفرة بتوبته وطاعته لله، ويعذّب من يشاء من عباده الذين اِختاروا المعصية، والله كبير القدرة يفعل ما يشاء.

- ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (284):

عوْدٌ علَى بدْءٍ في هذه الآية الّتي تذكّرنا بمقدمة السورة التي جاء فيها تحديد عناصر الإيمان، وبهذا يحتكم الربط بين مقدمة السورة وخاتمتها.

بدأت الآية بالإشارة إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وما آمن به، وذلك لحفز الهمم للاقتداء به في إيمانه باعتباره قدوة للمؤمنين، ولأنّه الأقرب إلى معرفة حقائق الأمور لأنّه حامل الرسالة الربانية. الرسول صلّى الله عليه وسلّم آمن بالوحي من ربّه، وعلينا جميعا أن نصدّق بالوحي. والرسول والمؤمنون السابقون، والمؤمنون الصادقون من بعده جميعهم يؤمنون بـ : 1- وجود الله ووحدانيته، 2- وبالملائكة، 3- وبالكتب، 4- وبالرسل جميعهم دون تمييز بين هذا وذاك، 5- وبالمصير إليه، أي بالرجوع إليه للحساب، وهذه العناصر الخمسة هي أسس العقيدة السليمة في الإسلام. وبين هذه القواعد الأساسية فالمؤمنون يسمعون لما ينزل من الوحي فيطيعون ما أمرهم الله به، ولا يعصونه فيما نهاهم عنه وحرّمه عليهم، وبين هذا وذاك يطلبون مغفرة ربّهم.

- لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (285) :

واختتمت السورة بالدعاء في هذه الآية، والدعاء مخ العبادة، والصلاة في معناها اللّغوي هي الدعاء، والمؤمن في سروره يتوجّه لربّه بالحمد والشكر، وهو دعاء، وفي كربه يطلب الفرج وهو دعاء، وعند الفراغ من الطاعة يدعو بقبول العمل وهو دعاء، وعندما يفتتح يومه أو عمله يطلب الفتح والرزق والتوفيق وهو دعاء، وفي كلّ أمره يتوجّه لربّه بالدعاء. ويعلّمنا الله في هذه الآية ما يحتاج إليه المؤمنون في دعائهم، وقد جاء في مفتتح الآية بأنّ الله حليم بعباده لا يكلّفهم بما لا يُطيقون، لا يكلّفهم إلاّ بما يستطيعون أداءه، ويخبرهم بأنّ كلّ نفس مسؤولة عن عملها، خيرا كان



أو شرًا، وعلى المؤمنين أن يدعوا ربّهم بأن يتجاوز عن أخطائهم وعمّا يكون من نسيانهم عن غير عمد، وبأن لا يكلّفهم بتكاليف شاقّة يعجزون عن أدائها فيعصون الله فيما أمرهم من مثل ما حدث مع أمم سالفة رحمةً بهم، ويطلب المؤمنون من ربّهم العفو، أي مسح آثار أخطائهم وزلاّتهم حتى لا يُحاسبوا عليها، ويطلبون مغفرته بعد العفو، ويطلبون رحمته التي يُدخلهم بها جنان رضوانه، ويحفظهم بها من عقابه، ويتوسّلون إليه بأنّه تعالى هو وليّهم ونصيرهم حتى يعزّهم إذا واجهوا الكافرين وينصرهم عليهم.

آياتها	ســــورة آل عمـــران	رقمها
200	ــــــ مدنيّة ــــــ	3

عن أبي أمامة الباهلي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نعت "البقرة" و"آل عمران" بالزهراويْن. والزّهراوان عند أهل اللّغة هما النيّرتان، وعند بعض المفسّرين: هما الزّهراوان لأنّ فيهما اسم الله الأعظم (ٱلله لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ).

في السورة تركيز على عناصر تثبيت الإيمان للمسارعة إلى المغفرة من الله تعالى ومن أهمّ ركائزها عرض ما أصاب آل عمران خصوصا، والنبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين يوم أُحد من اِبتلاءات لا يحتملها إلاّ من كان جَلْدًا، صبورًا محتسبا لا يستطيعه إلاّ من كان قدوةً في قوّة إيمانه وفي ثقته بربّه، وحسن التوكّل عليه. وفي السورة حضّ على الجهاد، وعرضت المكارم والفضائل الّتي أعدّها الله للشهداء. وفيها دعوة لأهل الكتاب ليكونوا مع المسلمين على كلمة سواء إشارة لوحدة الأديان السماوية، ومن أهمّ عناصرها بيان معالم طريق المسارعة إلى المغفرة من الله تعالى، وصفات أولي الألباب. وحذّرت من موالاة المنافقين من أهل الكتاب والمشركين. ودعت لوحدة صف المسلمين وتجنّب التّفرقة والخلاف والاختلاف. واختتمت بالدعوة للصبر والمصابرة والمرابطة للمحافظة على الدين والأهل والبلد. وتخلّل كلّ هذا جملة من المواعظ للاعتبار مع ما جاء فيها من الوعد والوعيد.

- الٓمٓ (1) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (2) :

جاء بعد الحروف المقطّعة الّتي لا يعرف مدلولها الحقيقي إلاّ الله تعالى، ذكر اِسم الله الأعظم على ما جاء في الحديث النبويّ الشريف. والآية تفيد التوحيد لله الموجود والواجد للوجود وهو حيّ باقٍ لا يموت ولا تأخذه غفلة ولا غفوة نوم، وهو تعالى القائم على تسيير الوجود بما فيه من كائنات حيّة أو جامدة، متحرّكة أو ساكنة في السماوات أو في الأرض أو في ما بينهما.

- نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (3) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (4) :

في الآية تأكيد على أنّ القرآن منزل من عند الله بالحقّ، لا شكّ في ذلك ولا ريب.

والقرآن يؤكّد صدق ما نزل على النبيئين من قبله: موسى عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة، وعيسى عليه السّلام الّذي أنزل عليه الإنجيل، وأنزل تعالى شرعه الذي يفرّق بين الحقّ والباطل. والذين كفروا بالنبوة والوحي ودلائل الله على وحدانيته وصحيح المعتقد وصحيح الأحكام



والأخبار موعودون بالعذاب الموجع القويّ، والله سبحانه قادر على أخذ الكافرين وهو ذو اِنتقام لمن ظلموا أنفسهم في وجوده ووحدانيته وخالف أحكامه وتولّى عن ذكره وكذّب بوحيه وبرسله وباليوم الآخر.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (5) :

هذه في بيان سَعةِ علم الله وسعة اِطلاعه، فهو لا يفوته شيء ممّا يجري في الأرض ولا في السماء من خير أو شرّ وفساد وإخلال بعمل.

- هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (6) :

في هذه الآية تذكير للعباد بأنّ الله تعالى هو الذي صوّرهم في أرحام أمّهاتهم كيفما قضى هو لَهُ من حسن أو بياض أو سمرة أو طول أو قصر، وسلامة أو به عاهة حتّى لا يستكبر على الله تعالى خالقه ومصوّره ليكون عبدًا شاكرا على ما تفضّل عليه من نعمة أو يصبر على ما أوتي فينال خيرا عن رضاه بقضاء الله واِبتلائه. سبحانه هو الله الأحد الذي لا يُغْلَبُ على أمره والذي بحسن التدبير يضع كلّ شيء في موضعه بحسب إرادته.

- هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (7) :

هذه في بيان تباين مواقف النّاس من تلقّيهم الوحي وفي فهم التنزيل بين مؤمن ورافض ومن يُؤَوّلُ الآيات بحسب ما يريد فهمه منها. هو الله سبحانه الّذي أنزل القرآن منه آيات لا احتمال فيها ولا اشْتبَاه كقوله تعالى: (هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) وكقوله تعالى (وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ) فهذه آيات محكمات فيها تعاليم العقيدة الصحيحة السليمة، وفيها الحدود والأحكام الواضحة (هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ) أي هي الأصل في الإيمان والعبادة التي لا يُرْجِعُ إلى غيرها. وفي القرآن آيات متشابهات وهي من الآيات التي لا تتّضح إلاّ بنظر دقيق وتوسّع في العلم العقلي والمنظور، وهذا لأهل العلم خاصّة كما جاء في دلائل التوحيد، أو في الآيات الّتي تحضّ على النظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الخلق في الكائنات الصغيرة الدقيقة غير المنظورة أو الكائنات العظيمة في الحجم وفي التأثير في حياة الإنسان، وهناك آيات خفيات لا يعلمها إلاّ الله ومن ذلك آيات الغيبيات كآيات إحياء الموتى وقيام الساعة ويوم الحساب. فأمّا الذين في قلوبهم ميل عن الحقّ وانحراف عنه إلى الأهواء والشهوات فيتّبعون التأويلات للآيات المتشابهة لاحتماله المعاني المختلفة كالذين يقولون في قوله تعالى (يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ) فالذين يبتغون الفتنة في المؤمنين لينحرفوا بهم عن دينهم قالوا بالتجسيم، وتعالى الله عن المِثل والشّبه، والصواب أنّ

المعنى يُفيد المباركة لعهد المؤمنين، هؤلاء المشبّهة والمجّسمة للذات الإلاهية يريدون التلبيس على الناس ليفسدوا عليهم دينهم، وهؤلاء يؤوّلون الآيات بما يوافق هواهم. أمّا العلماء الثابتون في إيمانهم وعلمهم فإنّهم يُرجعون كلّ ما تشابه عليهم فهمه إلى الله ويصرّحون بأنّ علمه عند الله تعالى. ويقولون كلّ التنزيل من عند الله: محكمه ومتشابهه، ولا يمكن أن يخالف بعضه بعضا، كلّه من عند ربّنا. وما يقف عند حدّ علمه إلاّ أصحاب العقول الواعية.

- رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ **(8)** رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ **(9)** :

هذا دعاء للتثبيت على الإيمان: هو من عند الله تفضّلا وتعليما، وقد جاء على لسان العلماء الراسخين في العلم، والمعنى: ربّنا لا تجعل قلوبنا تميل عن الحقّ والهدى إلى الباطل، وامنحنا من عندك رحمة هبة فإنّك يا ربّنا كثير الهبات. ربّنا إنّك جامعُ الناس يوم القيامة للحساب، وهو يوم آت لا شكّ في وُقوعه، والموعد الذي وعدت به واقع بكلّ تأكيد فارحمنا برحمتك يا وهّاب بتثبيتنا على الحقّ دون زيغ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ**(10)** كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ **(11)** :

هاتان للتحذير من عاقبة الكفر. لن تنفع الكافرين يوم القيامة أموالهم التي امتلكوها مهما بلغت ولا أولادهم مهما كانت وجاهتهم وكثرتهم من الشفاعة لهم يوم القيامة من العذاب، ولن تدفع عنهم العقاب ولو اِفتدوا أنفسهم بهم جميعا، وسيكونون وقودا لنار جهنّم، كالذي حدث مع آل فرعون والذين من قبلهم من الكافرين الطغاة الأثرياء لأنّهم كذّبوا بكلّ ما جاءهم من دلائل الحقّ، فأهلكهم الله باستئصالهم من دنياهم بسبب طغيانهم وكفرهم وسيأتيهم في آخرتهم ما هو أشدّ والله شديد العقاب.

- قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ **(12)** :

أخبر – يا محمد – الذي يشاقّونكم من أهل الكفر بأنّهم سيغلبون ويُقهرون في دنياهم، وسيكون مآلهم في آخرتهم في جهنّم الّتي ستكون لهم أسوأ فراش ومضجع.

- قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ **(13)** :

لقد رأيتم بأعينكم ما حدث للجماعتين اللتين اِلتقتا يوم بدر: جماعة مع رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم يقاتلون في سبيل الله، وجماعة المشركين يقاتلون نصرة للكفر وقد كانوا يومها



كُثْرًا، عددهم يضاعف عدد المسلمين، وكانوا تحت أبصاركم، فأيّد الله المسلمين على قلّتهم ونصرهم على أعدائهم، وفي هذا عظة وعبرة لمن يعتبر من أهل البصِيرة.

- زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ(14) :

ما بال النّاس لا يفكّرون في آخرتهم، وفي يوم العودة إلى الله تعالى، انغمسوا في حبّ الزينة من كثرة المال والولد والجاه وكلّ ما تشتهيه النّفس وتفخر بملكيته ويحبّون النساء شهوة والمال الكثير المضاعف، والخيل المُعَلّمة بعلامة تدلّ على ملكية صاحبها لها ويحبّون الأنعام وامتلاك الأراضي الواسعة ذات الزروع المتنوّعة من نبات وشجر، وكلّ هذا من مكاسب الدنيا الفانية، والله عنده حسن المرجع والخير الوفير الدائم فليطلبوا ما عند الله من خيرٍ بطاعته.

- قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (15) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (16) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (17) :

قل هل أخبركم بخير من متاع الدنيا الذي تفخرون به؟ إنّ الله تعالى يهب لعباده المتّقين بساتين فيها من كلّ الثّمرات والأنهار من تحتها ترويها وتزيّنها، وهم فيها منعمّون لا يخرجون منها أبدا وعندهم أزواج سليمات من كلّ العيوب، ولهم من ربّهم رضوانه، والله عليم بما يفعل عباده وبما يحبّون ويشتهون. هؤلاء المتّقون هم الذين كانوا في دنياهم يقرّون بإيمانهم بربّهم، وكانوا في صلواتهم وأدعيتهم يطلبون مغفرته عن ذنوبهم، ويطلبون الوقاية من عذاب النّار. هم الصابرون على الشدائد والبلوى، وهم الصادقون في إيمانهم وطاعتهم لا ينافقون، وهم الخاضعون لأوامر الله، ولا يعصون، وهم المحسنون والمزكّون، وهم الذين يحافظون على الصلاة إبّان الفجر يطلبون مغفرة ربّهم.

- شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (18) :

(شَهِدَ ٱللَّهُ) أي إنّ الله قد خلق في فطرتنا، في أنفسنا وفي وَعْينا، وفي الكون كلّه دلائلَ كثيرةً متنوّعةً تدلّ على وجوده ووحدانيته. والملائكة وحملةُ العلم وأهله يشهدون بما أوتوا من علم ونَظر، أنّ الله تعالى موجود، وهو أحد، وهو قائم بالعدل والميزان، لا إلاه غيره، وهو العظيم الذي لا يُغلب على أمرِه، أمرُه يُطاع، وهو يحسن التدبير، يضع كلّ أمر في موضعه.



- إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (19) :

الدين الإسلامي هو الدين الحقّ عند الله. والإسلام دين قائم على الإقرار بالتوحيد، والتّصديق به يتمثّل في العمل بشرائعه، هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لأنبيائه ورسله والصالحين من عباده، وهو الدين المهيمن. وإنّ أهل الكتاب يعلمون هذه الحقيقة لكن حينما جاءهم هذا الدين عن طريق نبيّ عربي اِختلفوا عليه حسدا وتجاوزا للحدّ في الإنصاف، ومن ينكرون الحقائق فإنّ الله سيحاسبهم على إنكارهم سريعا. وقد عرف هؤلاء المنكرون الحاسدون في غزوة الأحزاب حساب ربّهم السريع.

- فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (20) :

فإن جادلك أهل الكتاب –يا محمّد– في الدّين فقل أخلصت نفسي وعبادتي لله واِنقدت لأمره خاضعا مخلصا له ظاهري وباطني، أنا وأصحابي وكلّ من اِتبعني. وقل –يا محمّد– لأهل الكتاب وللمشركين: أُدخلوا في الإسلام كافّة، فإن أسلموا فقد اهتدوا للدّين القويم السويّ وإن أعرضوا عن الإيمان والإسلام فلا تحزن عليهم فإنّما عليك إبلاغهم برسالتك، والله عليم بما يفعل عباده.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (22) :

إنّ الّذين يكفرون بالتنزيل وشرائع الله ويشاقّون الرّسل بالتكذيب، وأحيانا بالقتل كما جرى مع يحيى الذي ذبح على الصخرة في القدس وحاولوا قتل عيسى فأنقذه الله منهم، ويقتلون الذين يدعون للعدل والعمل به سينالهم عذاب موجع، أولئك الذين فسدت أعمالهم في الدنيا، ولا ينالون عن عمل صالح إذا عملوا صالحا أجرا ولا ثوابا. ولن يجدوا في آخرتهم من ينقذهم من العذاب ومن ينصرهم لينجوا منه.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ (23) :

ألم تلاحظ العجب في سلوك زعماء اليهود الذين يعلمون شيئا من كتابهم التوراة يُدْعَوْن للاحتكام إلى ما جاء في القرآن من شرع الله ومن دلائله على صدق نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ثمّ يهرب فريق منهم من المواجهة والاحتكام خوفا على أنفسهم من أن تقوم عليهم الحجّة وأداروا ظهورهم للحقائق البارزة.



- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ(24) :

تصرّفوا ذاك التّصرّف لدعواهم بأنّهم إذا أخطؤوا فإنّهم لا يعذّبون بنار جهنّم إلاّ أيّاما معدودات، وخدعهم كذبهم على الله وطمعهم.

- فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)

هذا لإبطال زعمهم، فكيف إذا وقفوا للحساب يوم القيامة وحوسبوا على اِفترائهم، وقضي عليهم بالحقّ ونالت كلّ نفس ما تستحقّ على ما قدّمت من عمل دون ظلم؟

- قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (26) :

هذه في الإقرار لله تعالى بالقدرة، قل يا الله سبحانك كلّ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما هو لك، الملكُ لك، تعزّ من تشاء إذا آتيته سلطانا، وتنزع السلطان من صاحبه حين تشاء، وترفع قدر من تشاء من عبادك بالعلم أو الجاه أو العمل الصالح، وتحطّ منزلة من تشاء ممن اِرتفع قدره عند الناس بماله أو طغيانه حين تقدّر له ذلك. بيدك الخيرُ كلّه، وإليك يرجع الأمر كلّه، لا يعجزك شيء إنّك قادر مقتدر تفعل ما تشاء.

- تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27) :

وهذه في مظهر من مظاهر الحكمة في التقدير العظيم، من حكمة تقديره سبحانه أن جعل لنا في حياتنا النّهار للعمل والنشاط والليل للرّاحة والسكن. لو جعل الحياة كلّها في ظلام من يأتينا بالنّهار، ولو جعلها نهارًا دون ليل من يأتينا بليل لنرتاح فيه. وهو الذي يخرج الحيّ من نطفة ميّتة بلا روح أو بيضة، ويُميت الحيّ ويردّه جيفة، فإذا أمات حيّا فمن يستطيع أن يردّ إليه الحياة؟ لا أحد. وبيده رزق العباد يوزّعه بينهم بحسب تقديره، ومن النّاس من يرزقهم رزقا واسعا لا يُحصى.

- لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (28) :

لا يحْسُنُ بالمؤمنين أن يتّخذوا الكافرين دون المؤمنين بطانةً وأعوانًا لهم وأنصارا يطلعونهم على أسرارهم، فإنّه لا يؤمَنُ لهم، ولا يُؤمَنُ جانبُهم. هذا التّصرّف لا يدلّ على الإخلاص في دين الله تعالى، وليس من العمل الذي يرتضيه إلاّ ما كان من التكلّم باللّسان دون النيّة أو إذا خفتم من جهتهم أمرا يجب الحذر منه. ويخوّفكم الله من عقابه واِنتقامه، ومصيركم إلى الله بعد مماتكم لمحاسبتكم على مخالفتكم لأمره إن خالفتموه.



- قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (29) :

وهذه تدلّ على دقّة علم الله وسعته، قل إنّ الله يعلم دقائق ما تحدّثكم به أنفسكم ويعلم ما تفصحون عنه وتظهرون، والله سبحانه لا يخفى عليه شيء ممّا يحدث في السماوات وما في الأرض، وهو تعالى قادر على التّصرّف في كلّ ما يجري ويؤثّر فيه.

- يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ (30) :

ويوم الحساب تجد كلّ نفس جزاءها عمّا قدّمت من عمل صالح مُقَدّمًا لها في صحيفة أعمالها. ومن عمل سوءًا وشرّا في حياته تراه يتبرّأ مما يجده في صحيفة عمله، ويومئذ يودّ لو كان بينه وبين تقديم الصحيفة مسافة بعيدة حتى لا يتلقّاها ولا يأخذها، ويخوّفكم الله من حسابه وعقابه على عمل السيّئات والله رؤوف بعباده الصالحين.

- قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (31) :

هذه في فتح باب الرّجاء وطريقه، قل – يا محمد – إن كنتم تحبّون وعد الله وفضله فأطيعوا أمري، واعملوا بسنّتي، وافعلوا ما تؤمرون به يرْضَ عنكم الله تعالى ويُثِبْكُم على أعمالكم وطاعاتكم ولا يؤاخذكم عن ذنوبكم بمغفرته، والله سبحانه غفور لعباده المؤمنين الطائعين ورحيم بهم لا يعذّبهم. وفي هذه الآية تشريف كبير للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم لأنّ العبد بالعمل بسنّة رسوله يتقرّب من ربّه زُلْفَى.

- قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ (32) :

جعل الله تعالى في هذه الآية طاعة الرسول من طاعته وهذا لمزيد تشريفه، ومن جمع بين طاعة الله فيما أمر به ونهى عنه وطاعة الرسول أحبّه الله، ومن أعرض عن هذه الطاعة جعل نفسه في خانة الكافرين، والله لا يحبّ الكافرين.

- إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (33) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) :

إنّ الله اِختار آدم ليكون أول خلقه للإنسان، ومن ذريته يكون البشر، واِختار للرسالة نوحا وهو من أولي العزم من الرسل، واختار من الآل: آل إبراهيم ومن ذرّيته الرسل والأنبياء: إسماعيل ومن ذرّيته: محمد صلّى الله عليه وسلّم، وإسحاق ومن ذرّيته: يعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وهارون عليهم السلام، ومن آل عمران وهو من ولد سليمان زكرياء ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام جميعا، اِختار الله تعالى بعضهم للنبوّة والرسالـة، وآخرين للرّسالة فقط، وقد اُفتتنوا في دينهم وفي أنفسهم وصبروا الصبر الجميل، صبر المؤمن الواثق بفضل الله عليه.



- إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (35) :

وأُذكر إذ نذرت زوجة عمران بأن تهب وليدها الذي حملت به لدار العبادة لخدمة بيت الصلاة، وللتفرّغ للعبادة دون مقابل، ودعت بأن يتقبّل منها صدقتها لبيت المقدس، فقد قدّمت له أعزّ ما تملك، وتوسّلت إليه لقبول صدقتها بأنّه السميع لما نذرت له به، والعليم بما في نفسها من رجاء للقبول بنذرها، ومنحها رضوانه.

- فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (36) :

ولمّا وضعت امرأة عمران الوليد فوجئت بأنّ ما كان في بطنها أنثى ولم يكن ذكرا، وكان عندهم في زمنها لا يخدم بيت المقدس إلاّ الذكر، ويحرّمون على الأنثى دخوله لأنّ المرأة عندهم نَجِسة – وجاءت الجملة (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) من كلام الله عزّ وجلّ ليدلّ على تقديره سبحانه بأن يجعل مولودها أنثى. وأردفت المرأة بأنّ الذكر ليس كالأنثى في النّذر لخدمة البيت فأفضت بهذا القول أمرها إلى الله عزّ وجلّ، ولم تتراجع عن نذرها. وسمّت المولودة: مريم. ولفظ (مريم) في لغتهم يعني: خادم الربّ، ودعت الله تعالى أن يحفظها من نخس الشيطان اللّعين بأمره وأن يجيرها منه هي وذرّيتها حتى يكونوا مؤمنين طائعين لله، لا يقربهم الشيطان بوساوسه.

- فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37) :

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا) بالتكفّل في التربية، والقيام بشأنها (وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) وسوّى خِلقتها وخُلُقها وضمّها إليه زكرياء عليه السّلام، وزكرياء وعمران تزوّجا أختين، فهو زوج خالة مريم، وبهذا فإنّ يحيى ومريم أم عيسى عليهما السلام ابنا خالتين. وكلّما دخل زكرياء على مريم – وهي في غرفة عبادتها ومصلاّها – وجد عندها رزقا لم يأتها به، فأخذه العجب وسألها: من أين لك هذا الطعام وهذه الفاكهة؟ فأجابت هو من عند الله الرّزاق الذي يعطي من فضله من يشاء من عباده رزقا واسعا فضلا منه ومِنّةً.

- هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (38) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (39) :



في ذلك المكان الذي رأى فيه زكرياء الكرامات الإلهية وتجلّى الرحمان بفضله ورحمته على مريم دعا ربّه أن يهب له من لدنه، أي على غير الأسباب العادية للإنجاب، ذرية صالحة متوسّلا إليه بأنّه سميع الدعاء، ولا يردّ دعوة الداعي إذا دعاه، فسمع لحينه صوتا من الملائكة يناديه وهو مستغرق في صلاته ودعائه في ذاك المكان المقدّس، مصلّى مريم، وبشّروه بمولود له اسمه يحيى وهذا المولود سيكون شريفا في قومه وفقيها عالما و(حَصُورًا) أي لا يأتي النساء زهدا وتعففا، لا عن عجز، وسيكون نبيئا في قومه ومن الصالحين في عبادته وعمله وسلوكه. وسيُبَشِّرُ يحيى بمولودٍ سيأتي من بعده سيُولد بكلمة الله : "كن"، وسيكون يحيى مصدّقا به نبيّا (هذا النّبيّ الّذي يبشّر به يحيى هو عيسى ابن مريم الذي ولِد بكلمة من الله ولم يكن له أب).

- قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ(40) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ (41) :

اِندهش زكرياء بما سمعه من تبشيره بولادة غُلام وهو يعلم أنّه قد تقدّم في السنّ وأنّ اِمرأته عاقر لا تخصب، فهما في حالين يستحيل فيهما الإنجاب، فجاءه صوت من الملائكة بأنّ الله تعالى لا يعجزه شيء. عندئذ سأل زكرياء أن يرى علامة واضحة يعرف منها وقوع الحمل، فجاءه الخبر بأنّ علامة ذلك أن يعجز مدّة ثلاثة أيّام عن الكلام، فلا يتفاهم مع النّاس إلاّ بالإشارة، والإيماء بالشفتين واليدين والحاجبين، وعليه أن يقابل هذا الفضل بالمداومة على التسبيح بحمد الله لشكره في صلاته عند المساء وعند الصباح الباكر.

- وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (42) يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (43) :

وأذكر إذ أخبرت الملائكة مريم بأنّ الله تعالى قد اختارها لمُهِمَّةٍ هَامَّةٍ وأنّه تعالى قد طهّرها من دنس الشرك والمعاصي وأنّه سبحانه قد فضلها على نساء أهل زمانها.

- ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) :

هذه في إخبار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومن ورائه المسلمين بما حدث من أخبار مريم ممّا لا يعلمه أحد غير ما كان سابقا من الحضور. اِختلف القوم في كفالتها حين قدّمت للدّيْر بعد ولادتها فاحتكموا إلى أن يطرح كلّ كاهن سهمه في النّهر، فمن بقي سهمه على سطح الماء ولم يجرفه التيار حظي بكفالتها، وكان هذا الاحتكام الذي رَضُوا به هو الذي أنهى خصومتهم على كفالتها.



- إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ (46)

وأذكر إذ نزلت الملائكة إلى مريم لتبلّغها ببشارة ربّها، بشّرتها بمولود منها يحصل بمُجرَّدِ أمر الله تعالى بكلمة : "كُنْ" وسيكون المولود (مسيحا) أي ممسوحا بالبركة الرّبانية وإسمه عيسى منسوب لأمه: ابن مريم، وسيكون ذا وجاهة وقدر ومنزلة عالية في الدنيا عند النّاس، وفي الآخرة عند الله تعالى، ويكون من المقرّبين عند الله لصلاحه وتقواه وطاعته لربّه. وحين يولد هذا المولود سيكلّم النّاس في مهده بأمر الله قبل أوان الكلام، وهذه معجزة من عند الله للدلالة على صدقه ومباركته، وسيدعوهم لأمر ربّهم زمن اكتمال عقله ونضجه، يكلّمهم بالرّسالة وبما يوحى إليه، ويكون من أهل الصلاح والتّقوى.

- قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (47) :

قالت مريم للمَلَك الذي بشّرها بالخبر: يا سيّدي كيف يكون لي ولد ولم يتزوّجني أحد من البشر. قال الملَك: كذا سيكون الأمر، يولد لك ولد بدون زواج من أحد من البشر لأنّ الله تعالى شاء أن يُخلَق منك ولد من غير أن يكون له أب، وهو سبحانه إذا قضى أن يخلق شيئا يقول له: كُنْ، فيكونُ ما أراد بكلمته هذه : كُنْ.

- وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (48) وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ(49) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (50) :

وأخبرت الملائكة مريم في ما جاءتها به من البشرى بأنّ هذا المولود سيكون حاملا لكتاب، وسينطق بالحكمة، التي تعني أنّه سيتكلّم بالفقه والتشريع وما يجب لله من حقّ في العبوديّة والذكر والطاعة، وسينطق بما فيه الرشاد في القول والإصابة في العمل، ويحمل التوراة والإنجيل في صدره ويعرف ما فيهما من أحكام ومواعظ، وسيكون رسولا إلى بني إسرائيل لحملهم على دين الله تعالى.

ثمّ إنتقل الكلام ممّا جاء في تبشير الملائكة لمريم إلى ما نطق به عيسى عليه السلام في قومه حينما كُلِّفَ بالرسالة، وجاء هذا الانتقال في ربطٍ سَلِسٍ بليغ لا يمكن أن يكون إلاّ من كلامٍ حكيم يُوجِزُ ولا يُخِلُّ. قال عيسى في قومه، إنّي جئتكم برسالة من عند ربّي وعلامة صدقي من

ربّكم أنّي أصنع لكم بيديّ من الطين جسما على هيأة الطير فأنفخ فيه فيصبح طيرا بإذن الله وأمره وتقديره لِيَدُلَّ عَلى صدقي فإنّه هو وحده الخالق من الطين جسما حيّا على غير الأسباب المعهودة والمعلومة. ومن دلائل صدقي على أنّي رسول إليكم بأمر ربّي أنّي أبرئ الأكمه وهو الذي وُلِدَ مضموم العينين لا يرى فيصبح مبصرًا، وأُشْفِي الأبرص المريض بالمرض الجلدي الذي يتمثّل في بُقَعٍ صفراء بمسح يدي على جلده، وأُعيد الحياة لمن مات حينًا إذا قلت له قُم ومسحت عليه، وكلّ هذا بأمر ربّي إثباتًا لصدقي وتدعيما لرسالتي إليكم، وإنّي أخبركم بما تأكلون وبما تخفونه لأكلكم في مخازنكم داخل بيوتكم وبما يطلعني الله عليه لأنّه لا أحد يعلم بما يظهر وما يخفى إلاّ هو سبحانه، وكلّ هذه الظواهر دلائلُ على صدق نبوّتي ورسالتي إليكم إن كنتم صادقين في إيمانكم بصفات ربّكم القادر على كلّ شيء.

ولقد جئتكم مصدّقا بكتابكم التوراة الذي هو بين يديّ، أعرف ما فيه من شرع وأحكام، وقد جئتكم بأحكام ترفع عنكم ما جاء في بعضها من التشديد عليكم تيسيرا ورحمة بكم للتخفيف عنكم، وقد جئتكم بدلائل من عند الله تعالى تثبت صدقي وصدق رسالتي إليكم فاخشوا الله جلّ وعلا ولا تعصوه، وأطيعوا أمره وأخلصوا له في الإيمان والعبادة.

إنّ الله تعالى هو ربّي وربّكم فأدّوا له ما عليكم من الطاعة والإيمان والعبادة، هذا هو السبيل القويم لنيل مرضاته وللاستقامة على دينه.

- فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ **(51) :**

بداية هذه الآية تختزل الكثير من الأحداث التي جرت بين عيسى عليه السلام وقومه. وكلّ عاقل متدبّر يفهم من سياقها أنّ القوم قد جابهوه بالتكذيب رغم ما جاءهم به من المعجزات الباهرة البيّنة، وأنّ دعوته قد لاقت معارضة شديدة، ورفضا قاطعا إلى حدّ أنّ عيسى عليه السّلام قد رأى منهم من الكفر ما يهدّد حياته ووجوده فاستدعى مناصريه ومؤيّديه ودعاهم إلى نصرة دين الله. أجاب دعوته (الحواريون) وهم أتباعه المخلصون وأنصاره وأصحابه، سُمُّوا بهذا الاسم لبياض ثيابهم، وقالوا له (نحن أنصار الله) أي نحن المخلصون لله ولنبيّه. وسمّي أتباع المسيح عيسى عليه السلام بعد ذلك بالنّصارى، شهدوا أنّهم آمنوا بالله، وشهدوا لنبيّه عيسى عليه السلام بأنّهم (مسلمون) أي منقادون لأمر الله وأمر رسوله ومستسلمون لقضاء الله تعالى وراضون به.

- رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ **(52) :**

ويُفهم من سياق الآية أنّ عيسى عليه السلام كلّفهم بالهجرة إلى أقاصي البلدان للتّبشير بهذا الدين المسيحي ونشره في النّاس وتعليم المريدين تعاليمه وتكاليفه، فما كان منهم إلاّ أن أشهدوا

الله على أنفسهم بين يدي رسوله بأنّهم صدّقوا بما أنزل على عيسى. وبأنّهم منفّذون لأمر نبيّهم لنشره والدعوة له وعاملون بوصيته، ودعوا الله جلّ وعلا بأن يجعلهم في زمرة الذين يشهدون بين يدي الله تعالى للرّسل بأنّهم بلّغوا رسائلهم، وبأنّهم أدّوا الأمانة، وهذه مرتبة عظيمة للمقرّبين عند الله لا ينالها إلاّ العدول الثقات والمخلصون لله والرّسول.

- وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (53) :

وأمّا زعماء الذين كفروا من بني إسرائيل فقد دبّروا في الخفاء أن يقتلوا المسيح ليستريحوا من دعوته التي رأوْا فيها خطرا على مصالحهم، ودبّر الله تعالى تدبيرا محكما لإبطال مؤامرتهم وتدبيرهم، والله أحسن تدبيرا، وتدبيره هو النّافذ.

- إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (54) :

من تكريم الله تعالى وتشريفه لهذا النّبيّ عليه السّلام أنّه لم يرسل إليه ملك الموت ليخبره بحضور أجله، وإنّما كان الإخبار من الله تعالى وحيًا، وليعلمه بأنّه مرفوع إليه روحا وَبَدَنًا، لذلك لم يحضُرهُ ملك الموت لأنّه ليس بميّت، وأخبره تعالى وحيًا بأنّه مخرجه من زمرة الكافرين، ومنزّهه من أن يفعلوا به ما مكروا. وبَشَّرَهُ بنصرة أتباعه على الكافرين وأنّه مظهرهم عليهم إلى يوم القيامة، وسيرجع إليه جميعهم ويقومون للمناصفة بينهم فيما كانوا فيه غير متّفقين عليه في العقيدة والتّصديق.

- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (55) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (56) :

وكذا سيكون الحكم فيما اِختلفوا فأمّا الذين أنكروا بعثة عيسى عليه السلام وكذّبوه وشاقّوه وتآمروا على قتله فسيعذّبون عذابا شديدا في دنياهم بما سيلحقهم من خزي وأوجاع بدنية ونفسية، وعذابهم في الآخرة سيكون أشدّ إيلاما، ولن يجدوا أنصارا لهم ليدافعوا عنهم، أو ليخفّفوا عنهم ما سيحيط بهم من عذاب.

وأمّا أتباع عيسى من الحواريين والأنصار الذين آمنوا به وبرسالته وناصروه وعملوا صالحا في عبادتهم وفي دعوتهم لاتباع ما أنزل على عيسى فسيثيبهم الله على إيمانهم وعملهم الصالح ثوابا مُوَفًّى ومضاعفا، والله لا يحبّ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر به وبرسله ورسالاتهم.

- ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ (57) :

هذا خبر ميلاد عيسى عليه السلام، وخبره مع قومه حينما جاءهم برسالته ننزّله عليك يا محمد ليردّد المؤمن ذكره للتدبّر والاعتبار، وهو ذكر فيه الحكمة التي يرشد بها العقل، ويلين به القلب، والذكر الحكيم هو القرآن الكريم.

- إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (58) :

هذه في الردّ على القائلين كَذِبًا وافتراءً بأنّ عيسى ابن الله من سروات الجنّ، سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّا كبيرا. بيّنت الآية أنّ خلقه جاء كخلق آدم من قبلُ – وهو أول خلق الله في جنس الإنسان – كان خلقا خارجا عن ناموس الخلق، كان خلقا بإرادة من الله عزّ وجلّ، قال له كُنْ فكان خلقا سويا من غير حاجة للأسباب التي خُلق على نحوها البشر.

- ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (59) :

هذه هي الحقيقة الثابتة والخبر اليقين في خلقه ذكرها لك ربّك – كما هي – أيّها المؤمن فلا تكن من الشاكّين في أنّ عيسى عبدُ الله من خَلقِه.

- فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (60) :

في هذه الآية اِلتفاتة لأهل الكتاب بالمدينة المنورة في عهد نزول الوحي، والمعنى: فمن ناقشك – يا محمد – في مسألة نسبة عيسى، ولم يقتنع بما جاءك من الوحي وكذّبك فقل لهم تعالوا للمباهلة، أحضروا أبناءكم ونحضر نحن أبناءنا، وأحضروا نساءكم ونحضر نساءنا واحضروا جميعا ولنحضر معكم ثمّ لندعو جميعا كلاّ بلسانه وبما يستحضر من الأدعية لله تعالى لنسأله أن يلعن الكاذب ليكشف كذبه، وهذا التّلاعن هو المسمّى بالمباهلة. ولم يحضر أهل الكتاب هذه المباهلة، وخشوا أن يحضروها، ومن يومها أمسكوا عن الكلام في نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وتصديقه لأنّهم يعلمون أنّ لعنة الأنبياء مهلكة ومدمّرة وماحقة للذين يكفرون بهم ويكذّبونهم.

- إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (61) فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ (62) :

إنّ هذا الخبر الّذي أخبر به الله عزّ وجلّ هو الخبر الصادق الثابت، وليس من إلاه إلاّ الله وحده، لا شريك له، ولا ندّ، ولم يتّخذ ولدا، وإنّ الله هو الغالب الذي لا يغلب، وهو الحكيم الذي يحسن تدبير كلّ أمر، فإن أعرض أهل الكتاب عن الإيمان بك – يا محمد – وأعرضوا عن التّصديق برسالتك وبما جاءك من الوحي فلا تنزعج والله مطّلع على عمل المفسدين ومكرهم ويسمع لما يقولون، فلا تأْبَهْ بهم.

- قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (63) :

في هذه دعوة لتجسيم وحدة الأديان على وجه الأرض، وللاجتماع على كلمة واحدة هي كلمة لا إلاه إلاّ الله وحده لا شريك له، ولا ندّ له، ولا ولد، وهذه هي الكلمة السويّة الحقّ، والاجتماع



عليها بين المسلمين وأهل الكتاب هو الاجتماع على الاتفاق على كلمة سواء. لا يعبد المسلمون وأهل الكتاب إلاّ الله وحده، ولا يشركون به شيئا، ولا يتّخذ بعضهم بعضا أربابًا في منزلة الربّ المشرّع في التحريم والتحليل. فإن رفضوا منكم هذه الدعوة ورفضوا الاتفاق معكم على هذا فقولوا لهم اشهدوا بأنّا على دين الله الحقّ: دين التوحيد، دين الإسلام والانقياد والطاعة لله الواحد الأحد.

- يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (64) :

لمّا اِنتسب محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام قام بعضٌ من أهل الكتاب يناقشون الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في نسبتهِ (أي إبراهيم) للديانة اليهودية أو النصرانية لأنهما ديانتان قد جاء بهما أحفاد ذريّة إبراهيم عليه السلام فنزلت هذه الآية لإبطال نقاشهم وحجّتهم على محمد في نسبتهِ لإحدى هاتين الديانتين ببيان أنّ التوراة والإنجيل إنّما نزلا بعد إبراهيم بقرون، وبهذا فإن إبراهيم عليه السّلام نفسه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا لأنّ الديانتين قد جاءتا بعده، فحجّتهم باطلة عقلانيا لمن كان له عقل.

- هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (65) :

ها أنتم يا أهل الكتاب – تجادلون فيما تعلمون من أخبار الأنبياء والمرسلين فَلِمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم من أخبار اِصطفاء محمد صلّى الله عليه وسلّم بالرسالة وبالوحي، والله يعلم من يختار ومن يصطفي لتبليغ رسالته، وأنتم لا تعلمون سرّ ذلك الاصطفاء.

- مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (66) :

جاءت هذه الآية قاطعة في إبطال مزاعم أهل الكتاب في نسبة إبراهيم إلى إحدى ديانتيهم، نفت عنه انتسابه إليهما وأكّدت بذاك الاستدراك (وَلَٰكِن) بأنّه كان على الإسلام في توحيده لله تعالى وفي انقياده لأمره تعالى وطاعته له، وكان (حَنِيفًا) أي مائلا عن الباطل، لا يتّبع الباطل، بل كان على الدين الحقّ ولم يكن مشركا بالله، وفي هذا ردّ على اليهود القائلين بأنّ (عزير) بن الله، وعلى النصارى القائلين بأنّ المسيح بن الله، تعالى الله عمّا يشركون.

- إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ(67) :

وجاءت هذه الآية لتشريف أتباع إبراهيم والنّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين به بأنّهم أحقّ النّاس بنسبتهم إلى إبراهيم عليه السلام لأنّهم على ملّته في التوحيد، وعلى العمل بوصيته لأبنائه وأهل ملّته بأن لا يموتوا إلاّ وهم مسلمون – كما جاء ذلك فيما سبق في سورة البقرة – والله سبحانه نصير المؤمنين الصادقين ومتولّي أمورهم.

- وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (68) :

ويريد فئة من خبثاء اليهود ويتمنّون لو يجعلونكم – أيّها المسلمون – تحيدون عن الصواب، وعن الطريق المستقيم، وعن دين الله، وبعملهم هذا يزدادون ضلالا وضياعا عن الهدى ويهلكون به أنفسهم وهم لا يشعرون بخطر ما يريدون وما يتمنّون.

- يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ (69) :

الاستفهام في هذه الآية لتوبيخ أهل الكتاب الذين لا يصدّقون بنبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وبما أنزل عليه وهم يعلمون علم اليقين بأنّ محمدا حقّ وأنّ القرآن لا ريب فيه من ربّ العالمين والدلائل على صدقه وصدق الوحي واضحة وبيّنة.

- يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (70) :

يا أهل الكتاب لماذا تخلطون الحقّ بالباطل للمغالطة، وذلك بإخفاء ما نزل عليكم في التوراة من أمر العلم بمجيء النّبيّ الخاتم وصفاته، وتنكرون ما جاءكم نصرةً للتكذيب فيه وأنتم تعلمون أنّكم تكذبون وتتعمّدون المغالطة.

- وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (71) :

ونصحت فئة من أهل الكتاب جمعا من أتباعهم بأن يتظاهروا بالانتماء للإسلام أول النّهار رياءً ونفاقا ليسايروا أمورهم ويقضوا مصالحهم، وليندسّوا في صفوف المسلمين ويدسُّوا في صفوفهم سمومهم، وفي آخر النّهار يعودون لدينهم، وعساهم بهذا التصرّف يشكّكون المسلمين في دينهم فيرتدّوا عن دينهم الجديد إلى ما كانوا عليه من الشّرك.

- وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ (72) يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ (73) :

ونبّهوهم بأن لا يصدّقوا أحدا في أمور الدين إلاّ إذا كان على ملّتهم اليهوديّة. أخبر هؤلاء أنّ إتيان النّبوّة والرسالة من أمر الله، يؤتيها من يشاء من عباده مثل ما أوتيتم من قبل، وأخبرهم أنّ التكريم بالفضائل من عطاء الله وتقديره يَمُنّ به على من يشاء من عباده والله واسع الفضل والعطاء، وعليم بمن يستحقّه من عباده. والله وحده هو الذي يخصّ برحمته وفضله من يشاء من عباده ويؤثره بهما والله صاحب الفضل العظيم والعطاء التكريمي الذي يرفع به منزلة المكرّم.

- وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (74) :



هذه في مظهر من مظاهر كذب اليهود على الله تعالى في شرعه الخاصّ بالمعاملات الماليّة مع غير اليهود. فِيهم الأَمِينُ في معاملته مع جميع النّاس، إذا أؤتمن على مال كثير وجاءه صاحبه ليسترده منه ردّه إليه كاملا وعلى هيأته، ومنهم من يؤتمن على دينار وهو مبلغ صغير، إذا طُلِبَ منه استرداده لا يردّه لصاحبه إلاّ إذا ألحّ في الطلب ولازمه لزوما لصيقا لحدّ إحراجه، أو إذا قاضاه في شأنه، ذلك بأنّهم يدّعون أنّه ليس عليهم لوم ولا عتاب ولا إثم ولا حرج إذا أخذوا شيئا من (ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ) وهم العرب، سمَّوْهم أميّين لأنّهم ليسوا أمّة كتاب، فأباحوا لأنفسهم استحلال أموالهم، وهذا من كذبهم على شرع الله تعالى وهم يعلمون أنّ الله تعالى حرّم عليهم أكل أموال النّاس بالباطل، وأنّه أمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، ويعلمون أنّهم يكذبون على الله فيما يدّعون.

- بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (75) :

إنّ الأمر ليس كما يدّعون، فإنّ الله يحبّ الذين يخشون ربّهم فيما يعاهدونه عليه فيوفون به ولا يخلفونه، والذين يخافون معصية ربّهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ (76) :

هذه في الوعيد البليغ لمن يخلف عهد الله الذي عاهده على نفسه وأكّده بالأيمان من أجل ربح مال قليل – وإن كثر مبلغه – لأنّه لن يكون له نصيب من الخير في آخرته ولا يلتفت إليه ربّه، ولا يعطف عليه ولو بنظرة يوم القيامة، ولا يطهّره من دنس ذنوبه وكفره وريائه ومكره وخداعه للناس بالعهد وبالأيمان الكاذبة، وسيناله عذاب موجع.

- وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (77) :

ومن أهل الكتاب طائفة اختصّوا في تحريف كلام الله لتحقيق مصالح ذاتيّة خاصّة، هؤلاء يُميلُون ألسنتهم في الكلام ويَلْوُونَها عند نطقهم بكلام الله تعالى فينحرف المعنى الصحيح عن البيان والظهور، ويميل إلى المراد المنحرف الذي قصدوه، وفي واقع الأمر أنّ ما ذكر لم يكن من كتاب الله تعالى وإنّما هو من تحريفهم بما فعلت ألسنتهم وبما قصدت نواياهم وأغراضهم، ويكتبون بأيديهم نصوصا على أنها من كتابهم لإيهام النّاس بأنّها من التوراة، وما كتبوه ليس من التوراة في شيء، وإنّما هو من اِختلاقهم، وهم يعلمون علم اليقين أنّهم يكذبون على الله عمدا، وليس عن جهل.

- مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ (78) وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ (79) :



بعد أن بيّن تعالى اِفتراء طائفة من أهل الكتاب الكذب على شرع الله، ثمّ على ما جاء في كتابه للمغالطة جاءت هذه في بيان اِفترائهم على رسله عليهم السلام. والمعنى لم يكن لإنسانٍ تفضّل عليه ربّه بأن آتاه الإنجيل، وآتاه الحكمة والفهم والعلم بشرع الله والعقيدة السليمة، وآتاه النّبوّة ثمّ يقول للنّاس أنا ربّكم فاعبدوني من دون الله. هذا أمر لا يُعْقَلُ ولا يكون، ولكن كان يقول لهم كونوا (رَبَّٰنِيِّـۧنَ) أي حكماء علماء منسوبين لعبادة ربّهم الذي يصلح أمورهم ويهديهم، يعبدون ربّهم ويطيعونه فيما أمرهم به على نحو ما علموا وعرفوا من كتابهم، وعلى نحو ما عرفوا من تدارسهم لأحكامه وفهموه. ولا يعقل أن يأمركم هذا النّبيّ بعد ما آتاه الله من فضائله باتخاذ الملائكة والنبيئين آلهة. أيُعقل أن يأمركم بالكفر بعد أن صرتم مسلمين منقادين لعبادة الله وحده؟

- **وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (80) :**

وأُذكروا إذ أخذ الله العهد الموثوق المؤكّد باليمين عن النبيئين ليبلّغوا أقوامهم أنّه إذا جاءكم رسول من بعدكم يصدّق بما جاءكم من عند الله من كتاب: التوراة والإنجيل ومن شرع وعلم فعليكم وجوبا أن تؤمنوا به، وهذا أمر مؤكّد (يفهم هذا التأكيد من لام التوكيد في فعلي: لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ مع نون التوكيد الثقيلة في آخر الفعلين)، وعليكم أن تؤيّدوه وأن تمتثلوا لأمره. وقد أخذ عليهم هذا العهد الموثوق حينما أوتوا كتبهم وكلّفوا بالرسالة بتبليغ أقوامهم شرع ربّهم. ولمّا كان محمد صلّى الله عليه وسلّم النّبيّ الخاتم الذي جاء بعد نزول الكتب السماوية : صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، فإنّ المعنيين بالأمر هُم أهل الكتاب، عليهم أن ينفّذوا ما أبلغوا به من أنبيائهم السابقين. والنّبيّ المعنيّ بالإيمان به وبنصرته هو محمد صلّى الله عليه وسلّم، ففي هذه الآية تشريف كبير للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم بالمنزلة الأرفع عند الله تعالى لأنّه قد أُخذ له العهد للإيمان به قبل ولادته وقبل مجيئه بالرسالة بقرون عديدة. فهنيئا لهذا النّبيّ الذي آمن به الأنبياء قبل بعثته.

وقال لهم الله: أاعترفتم بالميثاق الذي أخذتموه على أنفسكم، وأخذتم عليه وصيتي المؤكّدة للعمل بها بتبليغها لأقوامكم. قالوا : قد أقررنا. قال الله: فاشهدوا بذلك وعلى ذلك يوم القيامة على أقوامكم. والله تعالى من الشاهدين على هذا العهد، وعلى ما بلّغتم به لأقوامكم.

هذه الآية من أشدّ الآيات ثِقَلاً على أهل الكتاب إن لم يؤمنوا بمحمد وخالفوا ما أوصاهم به رسلهم من وجوب الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلّم ونُصرته وقد أخذوا العهد على ذلك، وهذه كذلك من أعظم الآيات تشريفا للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وتكريمًا لمن أدرك معناها وفهمها جيّدا.

- فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (81) :

فمن تحلّل من هذا العهد المؤكّد ولم يلتزم به فأولئك هم الخارجون عن الدين والمخلفون للعهود.

- أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ (82) :

إِستفهام للتّوبيخ والتّقريع وللتّعجّب من تصرّف هؤلاء الفاسقين الذين يريدون دينًا على مقاسهم، غير دين الله: الإسلام الذي انقاد له كلّ من في السموات والأرض إِنقيادًا بسهولة، ومن تلقاء أنفسهم، وخوفا من العقاب، وأُذكروا أنّكم إلى الله تعالى عائدون لمحاسبتكم على إيمانكم وأعمالكم، فتزوّدوا لهذا اليوم بما ينجيكم من العقاب.

- قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (83) :

(قُل) هذا الأمر لتعليم المؤمنين جميعهم بما يجب عليهم من مبادئ الإيمان الأساسية ليكونوا على الدين القويم، أول المبادئ: الإيمان بالله وحده لا شريك له، وثانيها الإيمان بالكتاب، وهو القرآن الكريم، أنزل وحيا على محمد صلّى الله عليه وسلّم، والإيمان بكلّ الكتب السماوية السابقة التي أنزلت على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاد يعقوب الإثني عشر أو أحفاده، وكتاب موسى: التوراة، وكتاب عيسى: الإنجيل. وما أوتي النّبيئون جميعهم من شرائع– شَرْعُ مَنْ قبلنا هو شرْعٌ لنا– ومن مبادئ الإيمان القويم: الإيمان بجميع الأنبياء دون تمييز بينهم، لا يجب أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ونحن لله مسلمون، عابدون له، منقادون لأمره، طائعون غير عاصين.

- وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (84) :

ومن يطلبْ ويرغب غير دين التوحيد، وهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وهو الدين الذي جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبيّن شريعته، فلن يكون مؤمنا ولا متديّنا بالدين القويم، وليس هو على الصراط المستقيم، وسيفرّط في نعيم الآخرة باتّباعه دينًا آخر غير دين الله.

- كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (85) أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ(86) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ (87) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (88) :

هذه في الوعيد الشديد لأهل الكتاب – خاصّة اليهود – كانوا مؤمنين قبل بعثة النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا جاءهم برسالته كفروا به وأعرضوا عنه، وأخلفوا بهذا وعدهم مع

أنبيائهم الذي عاهدوا الله عليه عنادا وكبرياء، فأصبحوا بهذا كافرين والحال أنّهم يوقنون في قرارة أنفسهم أنّ محمدًا صلّى الله عليه وسلّم رسول من عند الله تعالى بحقّ، واتّضحت لهم الدلائل والشواهد والأمارات الدّالة على صدقه، فكيف يهديهم الله وهم مصرّون على الكفر والخُلف بالعهد ومصرّون على التكذيب برسوله؟ فالله لا يحبّ الظالمين لأنفسهم بالكفر وخلف الوعد ومعصيته بعد طاعته.

أولئك (وهو اسم إشارة للاستبعاد) مُبْعَدُونَ عن رحمة الله تعالى وإحسانه ومطرودون منها، ولا تشفع لهم الملائكة، والناس جميعهم يتبرّؤون منهم يوم القيامة، وهذا جزاؤهم على ما كفروا به عنادا، ومن أبعد عن رحمة الله ألقي به في العذاب، وسيخلّدون فيه دون تخفيف، ولن يُؤَخّروا عن العذاب لحظة.

ويُفتح باب الرجاء لمن أقلع عن كفره بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وآمن به وأُتّبعه، وأصلح عمله بأداء الطاعات، والإخلاص لله ورسوله، فهؤلاء ينعمون بمغفرة الله تعالى ورحمته فيُنقذون من العذاب ويُثابون بنعيمه المخلّد.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَـٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ (89) :

وهذا وعيد أشدّ لمن كفر بعد إيمانه، ولم يتب، بل أصرّ على التمادي في الكفر بالتآمر على الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومشاقّته: فاليهود لمّا جاءهم عيسى عليه السلام كفروا به بعد إيمانهم بموسى عليه السلام، ثمّ اِزدادوا كفرًا بكفرهم بمحمد صلّى الله عليه وسلّم لمّا جاءهم وصدّوا النّاس عن الإيمان به ومكروا به، هؤلاء لن تقبل توبتهم لأنّهم على ضلالة بيّنة.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ (90) :

والذين كفروا من هؤلاء وماتوا وهم مصرّون على الكفر فلن تنفعهم فدية مهما غلت لينجوا بأنفسهم من العذاب، وسينالون عذابا موجعا شديد الإيلام، ولن يجدوا من يشفع لهم منه، ولا من ينقذهم منه.

- لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ (91) :

(ٱلۡبِرَّ) هنا بمعنى العمل الصالح، وشرف الدّين، والمعنى: لن تنالوا شرف الدّين والتقوى حتى تتصدّقوا ممّا تحبّون في سبيل الخير. ومن سُبُل الخير بناء المساجد والمدارس والمصحّات العموميّة والتبرّع بالتجهيزات للمدارس وبالأدوية ووسائل العلاج وكثيرة هي أبواب الخير، من ذلك دعم الجمعيات الخيرية للإنفاق على فاقدي السند أو ذوي الحاجات والخصاصة. وكلّ ما تنفقونه في وجوه الخير يطّلع عليه الله تعالى ويثيب عليه.

- كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (92) فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (93) :

كل الطعام كان أكله على بني إسرائيل حلالا، إلاّ ما حرّم يعقوب عليه السلام على نفسه أكله، وقد أخبرنا النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم أنّ يعقوب حرّم على نفسه أكل لحوم الإبل وألبانها، وهذا باجتهاد منه ولم ينزل في التوراة تحريمهما. ويُستشهد بقوله تعالى (قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) على صدق نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم فهو لم يقرأ التوراة ولا يعرفها فكيف يتحدّى بني إسرائيل في أن يأتوا بالتوراة للاستظهار بنصّ التحريم لو لم ينزل عليه الوحي بهذا.

فمن ادّعى على الله في شرعه كذبا فقد ظلم نفسه لأنّه سيُعاقب عن اِفترائه.

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (94) :

قل يا محمد لمن يحاجّك في تشريع الله: ما أحلّ فيه وما حرّم، قد صدق الله فيما أنزله، إنّ ما تذكرون من التحريم لم تنزل به التوراة. ومادام قد تبيّن لكم صدق الوحي فاتّبعوا دين إبراهيم في ميله عن الشّرك إلى التوحيد.

- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (95) فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ (96) وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (97) :

إنّ أوّل بيت وضع للعبادة هو المسجد الحرام الذي بمكّة، (بِبَكَّةَ) موضع البيت، ومكة الحرم كلّه، واِسم البلد الذي فيه بكّة. وجعله ربّي مباركا لأنّ عمل الطاعات فيه يُضاعف أضعافا كثيرة، وجعله تعالى (هُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ) فكم من إنسان زار مكة ولمّا طاف بالبيت وصلّى في المقام ثاب إلى رُشده فأجهش بالبكاء واهتدى بعد أن كان زائغا، فزيارة البيت تشحن القلب والجوارح بالإيمان.

في البيت دلائل واضحة على فضائل الله تعالى، من ذلك بئر زمزم، والصفا والمروة اللذان يذكّران بما كان في المكان في زمن هاجر وإسماعيل من قفار وجفاف ونضب الماء، وفيه مقام إبراهيم حين كان يبني البيت. ومن دخل البيت أمن على نفسه وماله لأنّ الله تعالى حرّم الاعتداء فيه، وحرّم لُقَطَتَهُ، وحرّم فيه الاقتصاص والقتل حتى للطير والحيوان.

(وَلِلَّهِ) اللاّم هنا تفيد الإلزام والوجوب، فواجب على الإنسان نحو ربّه أن يزور البيت للحجّ، إن كان قادرا على السفر إليه مادّيّا وصحّيّا، وتوفّرت الأسباب الميسّرة له للقصد إليه فإنّ القصد



إلى بيت الحرام صار مضبوطا بعمل القرعة والحصول على التأشيرة، وصار خاضعا لأمور تنظيميّة معيّنة، مع ضرورة معرفة كلّ ما يجب معرفته من علمٍ بالمناسك ومواقيتها حتى يكون الحاجّ على بيّنة ممّا يجب عليه من واجبات وإلاّ تاهَ أو ضيّع على نفسه أداء ما يجب عليه فعلُه، وهذا ما يعبّر عنه بالاستطاعة العلمية. ويستحسن للراغب في معرفة مناسك الحجّ أن يراجع "الجامع لأحكام القرطبي" في جزئه الرابع، و"شرح رسالة ابن زيد القيرواني" للنفراوي و"المنتقى" للإمام الباجي. وكتب الحجّ والعمرة.

ومن اِستخف بهذا الواجب الذي يُعَدُّ ركنا أساسيا من الأركان الخمسة للإسلام وكفر بوجوبه فإنّ الله غنيّ عنه وعن طاعته.

- قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ **(98)** قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**(99)** :

الاستفهام في الآيتين للتّعجّب من تصرّف فريق من أهل الكتاب مع آيات الله ومع المسلمين. يكفرون بالدلائل الواضحة على صدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويدبّرون له مع ذلك المكائد وما الله بغافل عمّا يقولون وعمّا يعملون وهو شاهد عليهم، ويحاول بعضهم صرف من أسلم عن دين الله حتى يميل ويزيغ عن طريق الاستواء على الدين، وهم شهداء على أنفسهم فيما يدبّرون. ويذكّرهم الله تعالى بأنّه مطّلع على أعمالهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ **(100)** :

قيل قد نزلت هذه الآية في يهوديّ سَعَى بين الأوس والخزرج حتى همّت الطائفتان أن يحملوا السلاح على بعض للاقتتال فيموتوا على العصيان، فنزلت الآية لتحذّر المؤمنين من كيد الكائدين بهم للتّفرقة بينهم، ولدفعهم للاقتتال فيما بينهم فيضرّوا بأنفسهم: دينا ودنيا، وهذه من المواعظ التي كثيرا ما يغفل عنها المسلمون في سالف عصرهم وإلى يومنا هذا، يكيد لهم أعداؤهم كيدا فيتّخذ بعضهم الأعداء أنصارا لهم ويبتاعون منهم بأموالهم أسلحة دمار ليقتلوا بها إخوانهم وليدمّروا بها البيوت والمصانع وليدمّروا اِقتصاد البلاد، وأعداؤهم ينظرون إليهم بشماتة وينتظرون فيهم الفرصة لاغتصاب خيرات أرضهم وينهبون ما يستخرجون منها من ثروات ويفقّرون شعوبهم ويجهّلونهم ويزرعون فيهم الفتن ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم فوجب الحذر كما جاء في الآية حتى لا يردّوهم بعد إيمانهم كافرين بسبب ظلمهم لبعض وقتلهم لبعض.

- وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ **(101)** :



هذه لعتاب المؤمنين الذين يصغون لوشاية أعدائهم لإثارة حميتهم على إخوانهم المسلمين. والاستفهام للعتاب وللتعجّب، والمعنى: لا يستقيم أن تكونوا من الكافرين بعملكم في قتال إخوانكم المسلمين والحال أنّ القرآن يقرأ عليكم لتبصيركم بالحقّ والهدى ويكشف لكم كيد الكائدين من أعدائكم، وبين ظهرانيكم محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسول الله إلى النّاس أجمعين، وإذا كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم غائبا عنّا حاليا وفي مستقبل الأيّام بحكم اِنتقاله إلى الرفيق الأعلى. وعموما فمن يتمسّك بدين الله فقد اِحتمى به ليكون دوما على الصراط السويّ الذي لا يضلّ من يسير عليه عن الصواب.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ (102) وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (103) :

هذه في موعظة المؤمنين بما يجنّبهم الوقوع في مكائد أعدائهم. وقد جاء في السيرة النبويّة أنّ يهوديّا قد رأى من اِجتماع الأوس والخزرج ما أساءه، فعمد إلى شاب وأغراه بالمال ليندسّ وسطهم وينشد فيهم بعضا ممّا قالوا من أشعارهم في جاهليتهم حينما كانوا يقتتلون حميةً حتى يثير فيهم النَّعْرَةَ الجاهلية، ويعيد إليهم أضغانهم، وسار الأمر على ما رغب فيه اليهودي حتى تنادوا للسلاح، فهرع أحد المسلمين إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأخبره الخبر فخرج الرّسول إليهم مسرعا فوجدهم منقسمين صفين متواجهين يتنادون إلى السلاح، فسار في وسطهم وقرأ فيهم هذه الآيات ورفع صوته، حتى فرغ، فلمّا فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون (اُنظر كتابنا: رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسالة نور وهدى وحوار). والمعنى: أيّها المؤمنون حافظوا على خشيتكم من الله تعالى ومن معصيته حقّ خشيته، وحافظوا على هداكم لدين الله: الإسلام، ولا تخالفوا تعاليمه وشرعه ومواعظه حتى تموتوا على ذلك. وتمسّكوا جيّدا (بِحَبۡلِ ٱللَّهِ) حبل الله هو القرآن الكريم لقوله صلّى الله عليه وسلّم "إنّ هذا القرآن هو حبل الله" (رواه عليّ وأبو سعيد الخدري) وفي القرآن الكريم: معالم دينه، وشرعه: أمرا ونهيًا، ومواعظه، وهديُه، ومن تمسّك بها فلن يزيغ عن طريقه، ولا يضلّ. وفي الآية أمر بالمحافظة على الائتلاف، وبالحذر من الخروج عن وحدة المجتمع. واذكروا فضل ربّكم عليكم في توحيد صفوفكم وقلوبكم وفي تليين قلوبكم للتآخي بعد ما كنتم عليه من عداوة، ونزع الأحقاد والضغائن من قلوبكم وألّف بينها فأصبحتم بمِنَّةٍ من الله وفضله إخوانا. وكنتم على طرف هاوية من الهلاك وعلى حرفها باقتتالكم وخصوماتكم وعداوتكم لبعض، فأنجاكم الله منها وخلّصكم بالمؤاخاة من سوء عاقبتها. تذكّروا ما

كنتم عليه سابقا وما أنتم عليه اليوم لتعرفوا آيات الله من فضله عليكم عساكم تهتدون لشكره تعالى، وعساكم تحافظون على هذه المؤاخاة التي كانت بفضل هدايته.

- وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (104) :

واحرصوا على تكوين جماعة منكم يتأهّلون للإرشاد للحقّ والصواب ولأعمال البرّ والصلاح، يدلّون على وجوه العمل الصالح لفائدة الفرد، ولفائدة المجموعة، ولفائدة الناس عموما ولصالح البلاد وأهلها، ويكونون قادرين على النهي عن فعل المنكرات بما عرفوا من اِستقامتهم، ووَجاهتهم في علوم التربية والإرشاد بالكلمة الطيّبة وبالحجّة والتأثير الأدبي. وأولئك هم المفلحون: والمفلحون هم الذين زرعوا في أرض خدموها ورعوا خصوبتها وإنتاجها فأخصبت الأرض وأنتجت.

مسؤولية هذه الطائفة جسيمة، وهي ضرورية في كلّ مجتمع، ولابدّ أن تُسند لأهلها بالعلم والتكوين، وما نلاحظه في مجتمعاتنا العربية أنّ بعضا من النّاس يُنَصِّبُون أنفسهم للدعوة، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر كما يرون بأنفسهم وهم من غير أهل الاختصاص، بل إنّ بعضهم لم يتجاوز في تعلّمه مرحلة الثانويّة، ولم ينجح في تعلّمه، وهو من أحوج الناس للوعظ حتى يعرف قدره ويقف عند حدوده، وضرر هؤلاء على طائفة من الشباب المهمّش خطير عليهم أحيانا لأنّهم يوجّهونهم غالبا نحو التطرّف والتّعصّب، ولا يجب أن يكون هذا الأمر بدون ضوابط علميّة محددّة.

- وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (105) يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ (106) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ(107) :

ويحذّرنا الله تعالى من التّفرقة والاختلاف في الدين من بعد ما جاءنا من الأمر بالتّمسك بالطاعات وبالمؤاخاة والتأليف بين القلوب ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ عاقبة التّفرقة والاختلاف مهلكة ومؤدّية للعذاب الكبير، وهذا كشأن جماعة من أهل الكتاب تفرّقوا بدينهم إلى مذاهب مختلفة فاختلفوا في الرأي واِنقسموا إلى طوائف: كُلٌّ متعصّب لمذهب فتنازعوا وتشرذموا، وهجر من هجر داره وماله وأهله. وقد أعدّ الله تعالى لمن يفرّقون الدين إلى طوائف ومذاهب – بعد أن جاءهم نقيا واضحا وسطيا معتدلا – عذابا عظيما في آخرتهم وسيعرفون يومئذ باسوداد وجوههم. المؤمنون يقومون للحساب وَوُجُوههم نضرة بيضاء، وهؤلاء يقومون بوجوه مسودّة فيُعرفون بعملهم هذا في الدّين فيقال لهم: أهكذا كفرتم بعد إيمانكم بسبب آرائكم الخاصّة التي لم ينزّل بها من سلطان، فذوقوا اليوم العذاب بما كنتم تعملون من عمل الكفر، تشرّعون

للنّاس مذاهب، وتقسّمونهم طوائف. وأمّا المؤمنون المتمسكون بكتاب الله وبالمحافظة على وحدة صفّ المؤمنين فينعمون يومئذ برحمة الله الخالدة.

- **تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ (108) :**

هذه مواعظ جليلة وقيّمة نقرؤها عليك بالصدق، وكلّ إنسان يجازى على عمله الصالح خيرا، وعلى عصيانه شرّا، ولا يريد الله ظلما لعباده فقد بيّن لهم سُبُلَ الزّيغ وحذّرهم منه، وبيّن لهم عاقبة ذلك، فقامت عليهم الحجّة.

- **وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (109) :**

كلّ ما في السماوات وما في الأرض لله وحده، وإليه سبحانه يرجع كلّ أمر للمحاسبة: للجزاء أو للعقاب.

- **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (110) :**

هذه الآية في الصفة المرجوة من أمّة القرآن وأمّة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، الصالحين منهم وأهل الفضل. ومعنى (كُنتُم) كذا أنتم في اللوح المحفوظ على الشروط المذكورة في الآية، وقيل بمعنى: كنتم عند من تَقَدَّمَكُمْ من أهل الكتاب خير أمّة، وقيل: المعنى: خُلقتم ووُجدتم خير أمّة (أنظر كتاب محمد الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير"، وكتاب القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"). وهذه الخِيرَةُ تنتفي إذا اِنحرف القوم في عقيدتهم القائمة على التّوحيد، وإذا اِنحرفوا عن العمل بما يفرضه الإيمان من صدق في الطاعات والمعاملات، وإذا اِنتهوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تقتضيه الحاجة لردّ الضالّ للجادّة. ولو آمن أهل الكتاب بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبما أنزل إليه لازدادوا بإيمانهم فضلا ولكان خيرا لهم في عاقبتهم، فمن أهل الكتاب جماعة من المؤمنين الصادقين، وأكثرهم خرجوا من الإيمان بكفرهم بمحمد صلّى الله عليه وسلّم لأنّ من لوازم الإيمان: التصديق بجميع الأنبياء والمرسلين.

- **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (112) :**

في الآيتين طمأنة للمؤمنين بأنّ المتآمرين عليهم من أهل الكتاب لن يصلوا إليهم بمكروه إلاّ بالأذى. لن يضرّوا المؤمنين إلاّ بما يصدر عنهم من تهديد وأكاذيب. ولو حملوا عليهم السلاح فلن يصمدوا في مواجهتهم بل سيفرّون من ميدان القتال، ولن ينصروا ولن يفلحوا. لقد وُسِمُوا



بالمهانة والمذلّة حيثما وُجدوا إلاّ من كان متمسّكا منهم بدينه وبعهد الله، أو حين يعقدون عهدا مع من يتَقَوَّوْن بهم في القتال، وهؤلاء انتقم الله منهم ولَزِمَهم غضبه، ونزلت عليهم مظاهر الفقر والضعف وذلك بسبب كفرهم بما جاء سيدنا محمدا من الوحي، وبسبب ما فعل أسلافهم من قتل أنبيائهم ظلما وحسدا وكراهة للهدى ليتمادوا في الباطل، واستحقّوا المذلّة والمسكنة لتماديهم في المعاصي، والاعتداء على المؤمنين.

- لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ (113) يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (114) :

لا يجوز تعميم تلك الصفات على جميع أهل الكتاب، ليسوا جميعا سيّئين. من أهل الكتاب –اليهود والنّصارى– جماعة مُستقيمة ثابتة على الحقّ، محبّة للعدل ومطيعة لله، يقرؤون كتابهم ساعات من الليل، ويصلّون ويعبدون ويدعون. يؤمنون بالله وحده ولا يشركون به أحدا، ويؤمنون بيوم الحساب، ويأمرون بفعل الصالحات وينهون عن المحرّمات والمفاسد والمنكرات، ويتسابقون في الطاعات وأعمال البرّ، وهؤلاء من عباد الله الصالحين المقرّبين الفائزين.

لذا لا يجب معاداة جميع اليهود والنّصارى، ففيهم من هم أهل صلاح وأهل تقوى.

- وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ (115) :

الخطاب هنا للمسلمين لحضّهم على تقديم العون لكلّ مستحقّ، وللتّعامل بالحسنى مع جميع النّاس وإن لم يكونوا مسلمين، ويَعِدُهم الله تعالى بأن لا يحرمهم من الجزاء والثواب عن كلّ فعل من أفعال الخير قدّموه للأفراد أو للبلاد وللمصالح العامّة، والله مطّلع على ما يفعله عباده المطيعون من أعمال البرّ، ويعرف عباده المتّقين صادقي النوايا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (116) :

والذين كفروا بالله وعصوا رسوله لن تنقذهم أموالهم ووَجاهة أبنائهم من وقوعهم في نار جهنّم مخلّدين فيها، ولن تدفعهم عنها ولو افتدوا بها جميعا أنفسهم.

- مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ (117) :

على نقيض نفقة المؤمنين في أعمال البرّ الّتي تضاعف بالأجر والثواب يوم القيامة فإنّ نفقات الكافرين تذهب هباءً منثورا لا يثابون عليها ولا يجازَوْن. والمعنى: مَثَل نفقة الكافرين من صدقة وإحسان لصالح فرد أو مجموعة أو لصالح البلد كمثل ريح فيها برد شديد، أو ريح هوجاء



ذات سموم حارّة مرّت على حرث قوم حان زمن حصاده فأقلعته وأضرّت به فخسره أصحابه وذهبت جهودهم في الحرث والزرع سَبَهْلَلاَ. لم يظلمهم الله برفض إحسانهم ولكنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله وبيوم الحساب فكيف يجازيهم وهم لا يصدّقون به، ولا يتبعون دينه؟

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ **(118) :**

هذه في إرشاد المسلمين ليحسنوا اِختيار قرنائهم ونُصَحَائهم وخلاّنهم حتى لا يتأذّوا من جهتهم، وحتى لا يغرّر بهم. والمعنى: إنّ الله ينهاكم أن تتّخذوا من الكفّار واليهود وأهل الأهواء خلاّنا ونصحاء تستشيرونهم، أو تسندون إليهم بعضا من أموركم، أو تحادثونهم في خصائص أموركم ويكونون مُقرّبين منكم كثيرا، فكلّ قَرِينٍ بالمقارن يقتدي، لأنّ هؤلاء لا يتركون جهدا في إفسادكم بالمكر والخديعة، وفي إيقاع الفتنة بينكم وبين ذويكم. (وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ) يحبّون لكم المشقّة الشديدة وكلّ ما يتعبكم. وحين تقعون في الشدائد يجهرون وقتئذ بما كانوا يضمرون لكم من البغض والكره الشديد. وإنّهم يخفون في صدورهم من البغضاء أكثر ممّا يظهرون بأفواههم. قد وضّح الله لكم – أيّها المؤمنون – ما يجب الحذر منه عساكم تدركون ما ينفعكم وما يضرّكم، وتكونون عقلانيين في اِختيار خلاّنكم.

- هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ **(119) :**

أنتم – أيّها المسلمون– تصافونهـم ولا يصافونكم لنفاقهـم ولما تحمله قلوبهم من غيظ عليكم. وأنتم تؤمنون بجميع الكتب المنزلة، وحينما يلاقونكم يدّعون بأنّهم أمثالكم في الإيمان ولكنّهم حينما ينفردون ببعض يعضون أطراف أصابعهم بسبب ما يحملون من حنق عليكم لما يرون من ائتلافكم وتحاببكم لبعض، فادعوا عليهم بالزيادة فيما هم عليه من الغيظ والكمد والحنق حتى يموتوا حسرة. إنّ الله لا يخفى عليه ما في صدور العباد.

- إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ **(120) :**

حينما تنالون خيرا أو تأتيكم نعمة يحسدونكم عليها، وإذا حصلت لكم مُصيبة شمتوا وسُرّوا بما أصابكم من مكروهٍ من بغضهم لكم. وإنّكم حينما تصبرون على المكروه وتستعينون بالله على ما نالكم لا يلحقكم ضرر مَكْرِهم بِكم ولا يفسدون عليكم دينكم وتآلفكم. إنّ الله مطّلع عليهم، ومحيط بأعمالهم فلا يصيبكم من كيدهم شيءٌ.

- وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(121) :**

هذه الآية والآيات السبع الموالية في غزوة أحد (أُنظر كتابنا في السيرة النبويّة لمعرفة الأحداث الخاصة بهذه الغزوة: عنوانه "رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم: رسالة نور ورحمة وحوار").

وأذكر إذ خرجت – يا محمد – أوّل النّهار من بيتك إلى جبل أحد تتّخذ المواضع لتنظيم صفوف الجند المؤمنين، وتحدّد مواطن القتال ومواقف الدّفاع، والله يسمع أدعيتكم، وعليم بما يجري من حولكم.

- إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (122) :

وكاد بنو سلمة وبنو حارثة أن يهمّا بالتّراجع عن القتال بتأثير من المنافقين الذين خوّفوهم، وأغروهم بالرّجوع، ولكنّ الله ثبّتهم فلم يرجعوا، والله نصِيرهم وناصِرهم ومُدافع عنهم، وعلى الله فليعتمد المؤمنون لتحقيق نصرهم.

- وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (123) :

ولقد نصركم الله يوم بدر، وقد كنتم يؤمئذ في قلّة عددٍ وعُدَّةٍ، فثقوا في الله وثابروا على طاعته من باب شكره على فضله.

- إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ (124) :

واذكر إذ قلت للمؤمنين لتقويهم وترفع معنوياتهم: ألا يكفيكم أن يساندكم ربّكم بإمدادكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء ليعينوكم على قتال أعدائكم.

- بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) :

حقّا إن تثبتوا في ميدان المعركة صابرين محتسبين، وتتّقوا معصية الله بالفرار من المواجهة حين يأتيكم المشركون على الفور وقد غضبوا ممّا أصابهم يوم بدر من مهانة وقهر وغلبة، يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة معلّمين بعلامات خاصّة بهم.

- وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ(126) لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ (127) :

وما جعل الله هذا الوعد بالإمداد إلاّ بشرى لكم ولتسكين قلوبكم، ولقد نصرتُمْ بخذلانهم، وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في حسن التدبير، ليقطع طائفة من الذين كفروا بالقتل أو بإذلالهم بشعورهم بالخزي والحزن المكبوت فيعودون لديارهم دون أن ينالوا ما كانوا يريدونه في خيبة.

- لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (129) :



دع شأنهم – يا محمد – ﷺ، ولا تنشغل بأمرهم فقد يتوب الله على بعضهم ممن تُرْجَى توبتُه فيأتيك ليعلن شهادته وإسلامه، أو يعذّب من يصرّ على الكفر ولا ترجى توبته. والله هو المتصرّف في خلقه وفي ملكه يغفر لمن يشاء من عباده الذين ثابوا لرشدهم وتابوا، ويعذّب من أصرّ على كفره والله كثير المغفرة وكثير الرحمة بعباده المؤمنين الطائعين.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ **(130)** وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ **(131)** وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ **(132)** :

قال القرطبي: "هذا النهي عن أكل الربا اِعتراض بين ثنايا قصّة أحد"[1]. قال ابن عطية: "ولا أحفظ في ذلك شيئا مرويا". ومعنى هذا أن لا أحد يعرف سرّ وضع هذه الآي أثناء عرض قصّة أُحد.

وقد لاحظتُ أنّ مثال هذا الذي سمّاه القرطبي: "اعتراض" موجود في ثنايا بعض السور من ذلك الآية 188 في سورة البقرة في تحريم الرّشوة التي جاءت بين أحكام العبادتين: الصيام والحجّ، والآيتان 238 و239 في الحضّ على أداء الصلاة الوسطى في وقتها وعلى المواظبة عليها قد وردتا في ثنايا أحكام الأحوال الشخصيّة بين أحكام متعة المطلّقة ومتعة المتوفَّى عنها زوجها. وما أظنّ إلاّ أنّ هذا الأمر مقصود قصد لفت الانتباه لأمرٍ ذي بَالٍ وأهمية.

وفعلا فإنّ ما جاء في ما يسمّى اِعتراضًا فيه حضّ على فضيلة ذات أهمية، أو فيه نهي عن فعل كبيرة كهذه الآيات في تغليظ النّهي عن أكل الرّبا، أو كآيتي البقرة في تغليظ النّهي عن أكل أموال النّاس بالباطل، والإدلاء بها إلى الحكّام.

قد كان من فعل الجاهلية في الاقتراض أن يقول الذي عليه المال للمرابي الذي أقرضه إذا حان أجل خلاص دينه: أخِّرني وأزيدك على مالك، فيفعلان فيتضاعف الرّبح وتزيد الفوائد، وتثقل على المدين. ومعنى الآيات، والخطاب فيها للمؤمنين: انتهوا عن أكل الربا بالزيادة فيه زيادات مضاعفة تثقل كاهل المدين. والربا هو الربح المالي المتأتّي من الاقتراض، والمقترض إنسان محتاج، والدائن رجل ميسور، والإسلام دين التآخي والمؤازرة والتعاون، ودين المواساة وإغاثة الملهوف، ومثل هذا التعامل وجْه من وجوه الاستغلال البشع للظرف الطارئ الذي ضيّق على المحتاج أسباب قضاء حاجته، وهذا ما يتعارض معارضة كلية مع مبادئ الإسلام وقِيَمِهِ، فلذلك حرّمه تعالى تحريما قطعيا. وقال العلماء: أكل الرّبا حرام قليله وكثيره.

وجاء الأمر بتقوى الله بعد التحريم للتأكيد على أنّ أكل الربا يتنافى مع مظاهر تقوى الله، وعسى أن يفوز برضوان الله ومغفرته من انتهى عن هذا الفعل وخشي معصية ربّه.

1- القرطبي : "الجامع لأحكام القرآن" ج4 ص 202 ط بيروت 1957.



وآية (وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ) لمزيد التحذير من أكل الرّبا، ولبيان سوء عاقبة من لَم يَنْتَهِ عنه.

وجاءت الآية الثالثة في الحضّ على طاعة الله والرّسول لنيل رحمة الله للحضّ على الانتهاء عن هذه المعاملة، وبذاك التحذير وهذا الترغيب عُدَّ أكلُ الرّبا من الكبائر.

- وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ (133) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ(134) وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (135) أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ(136) :

بادروا بسرعة إلى أسباب نيل المغفرة بالتّوبة وبالطاعات، وأسباب الفوز بدخول جنّة سعتها في النّشأة الآخرة كعرض السماوات والأرض في النّشأة الأولى، خلقت وهُيِّئت لِتَأْوِيَ المتّقين المتّصفين بالصفات التّالية : - هم المحسنون الذين يبذلون ممّا آتاهم الله من فضله على أهليهم وذوي قرابتهم وعلى من يعرفون من ذوي الفاقة والحاجة في مجتمعهم في حال رخاء العيش وحال اليسر، وحتى في حال الضيق والعسر والجَهد من أجل إغاثة الملهوف من باب التّعاون في الشدائد. وهم أهل الحِلم والعفو يحبسون غضبهم ويمسكون أعصابهم، ولا يثورون مستعينين بالصبر والاستعاذة من الشيطان إذا حضر ومن دماثة أخلاقهم وسموّها. وهم المتسامحون، يتجاوزون عن أخطاء من أخطأَ في حقّهم، وهذا من النُّبلِ ومن الكرم، وما يزيدهم عفوُهم عن من أخطأ في حقّهم إلاّ رِفعة في القدر. (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) هؤلاء هم المحسنون الذين يحبّهم الله، وهنيئا لمن أحبّه الله، فمن أحبّه الله أكرمه، ولم يعذّبه، ولن يتركه للمهانة. والمستفاد من الآية أنّ الإحسان لا يعني فقط مدّ يد العون بالنفقة، وإنّما هو في كلّ عمل من نُبْل الأخلاق وكلّ تعامل بالحسنى وباللطف، وفي كل مظهر من مظاهر ضبط النّفس عن مقابلة الإساءة بالإساءة، أو بالتعامل بالعنف اللفظي أو البدني. على هذا الخُلُق يكون المؤمن المتقي المحسن الذي يحبّه الله.

ومن أخلاق المتّقين المسارعة إلى التوبة والإقلاع عن إتيان الفواحش إذا زلّت بها أقدامهم فوقعوا فيها من مثل المعاصي القبيحة، أو ظلموا أنفسهم بإتيان المنكرات من مثل شرب الخمر، أو تعاطي المخدّرات، أو التحرّش في النّساء، أو إشاعة الأكاذيب، أو الغيبة والنّميمة، وإثارة حمية البعض فقطع صلاتهم ببعض، فسارعوا لطلب مغفرة ربّهم على ما أتوا من الذنوب والخطايا والمعاصي، وأقلعوا عمّا كانوا يعملون، ولا يغفر الذنوب إلاّ الله تعالى فوجب التّوجّه إليه وحده لطلب مغفرته.

المتصفّون بهذه الصفات يعدهم الله تعالى بمغفرته، وبالإنعام عليهم بإيوائهم بجنّات زاهية يجدون فيها كلّ ما يشتهون من الخيرات يخلّدون فيها جزاء على طاعاتهم وحسن أخلاقهم، وجزاء لهم عن التوبة والإقلاع عن كلّ معصية.

- قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (137) هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138) :

قد مضت واِنقضت سِيَرٌ للأمم عاشت من قبلكم، وسافروا في أرجاء الأرض فسترون آثارا مدمّرة لأقوام عاشوا فيها وسعوْا فيها فسادًا فدمّرها الله عليهم، وتلك آثارهم تدلّ على عاقبة المفسدين والعصاة المذنبين. هذا إيضاح لجميع النّاس ليتّعظ به المتّقون الذين يخشون عذاب ربّهم، وليعرفوا به طريق الهدى والنجاة والصلاح.

- وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (139) :

بعد ذاك النّهي البليغ عن أكل الرّبا أضعافا مضاعفة، وبعد هذه الموعظة الحسنة التي ترغّب في جملة من القيم والأخلاق في تعامل المتّقين مع النّاس، وفي وجوه التدارك عند الوقوع في الزّلاّت، مع الدعوة للاعتبار بآثار الأمم السالفة بسبب إعراضهم عن العمل بشرع الله تعالى بعد كلّ ذلك يعود مع هذه الآية عرضُ أحداث مرّت بأُحُد. والآية في شدّ أزر المؤمنين المجاهدين حتّى لا يضعفوا عند مواجهة أعدائهم المشركين الذين جاؤوهم قاصدين الانتقام منهم ثأرا لهزيمتهم ببدر، وكان عددهم كبيرا وكان المسلمون في قلّة. وقد نهوا عن الحزن عمن قُتِل في صفوفهم من إخوانهم الجنود، وبشّرهم بأنّهم الأعلون فلن يهزموا بعد أُحد، وسيُنصرون عليهم شريطة تمسّكهم بصدق الإيمان.

- إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ (140) :

إذا جرحتم في كرامتكم اليوم في أحد فقد مُسّ أعداؤكم في كرامتهم بمثل ما أصبتم به يوم بدر، والأيّام دُوَلٌ، يوم سرور ويوم سوء، وفي هذه المداولة يمتحن الناس في إيمانهم، وليُكرَمَ بعضهم بالشهادة في ميدان الجهاد، والله لا يحبّ الذين يظلمون المؤمنين بالاعتداء عليهم، وبافْتِنانهم.

- وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ (141) :

وبالشدائد يختبر صدق المؤمنين، ويُطهّرون من الذنوب، وأمّا الكافرون فيُنقَصون بها ويُفْنَوْنَ.

- أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (142) :

أمْ تظنّون أنّ دخول الجنّة سيكون بغير اِختبار لمواقفكم من الجهاد، وبدون اِختبار لمدى تحمّلكم للشدائد والأذى بدون جزع ولا شكوى.

- وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ (143) :

ولقد كنتم تتمنّون الشهادة في سبيل الله قبل أن تفرض عليكم فريضة الجهاد، وقد حضرتم الآن شدّة الحرب، ورأيتم بأعينكم بأسها.

- وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (144) :

لمّا رمي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أُحُد بسهم فأصاب وجهه الشريف وأدماه وكسر رباعيته صاح في القوم صائح أنّ محمدا قد قُتل فاضطرب المسلمون، ونادى بعضهم للصلح ولكن ظهر لهم الرّسول ونادى فيهم للقتال والصمود. ونزلت الآية بعد ذلك في عتاب المنهزمين ليعلموا أنّما الجهادُ في سبيل الله نصرةٌ لدينه، وليعلم المؤمنون أنّ الرّسل غير باقين في أقوامهم أبدا، وأنّ عليهم أن يتمسكوا بدين الله وبما جاءهم به رسلهم. والمعنى: وما محمد صلّى الله عليه وسلّم، إلا رسول مثله مثل الرسل السابقين، فإن فُقد الرسول بانتقاله للرفيق الأعلى أو قتل أيصحّ أن يرتدّ المؤمنون إلى الكفر بعد إيمانهم. ومن يرتد فإنّما يضرّ نفسه، والله تعالى لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية، وسيجزي الله الذين صبروا وجاهدوا وثبتوا على دينهم.

وقد اِستشْهد أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية يوم اِنتقل الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الرفيق الأعلى واِضطرب المسلمون فردّهم إلى الجادّة وصاروا يسترجعون حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا سمعها من أبي بكر "فلكأنّي لم أقرأها إلاّ يومئذ".

- وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ (145) :

لا يموت أحد إلاّ حين يحضر أجله، فليس في الهروب من الجهاد حياة ونجاة من الموت، وليس القاعد في بيته أو في فراشه بِنَاجٍ من أجله إذا حضر. ومن يرغب أن يقتصر جزاؤه على عمله في دنياه يَنَلْ جزاؤه فيها (ولا يكون له نصيب منه في آخرته). ومن أراد بعمله ثواب الآخرة آتيناه أجره وثوابه، وسيجزي الله المؤمنين الطائعين الذين يرجون ثوابه عنده في الآخرة خيرا كثيرا.

- وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (147) فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (148) :

الاستفهام في الآية يدلّ على الكثرة، فكم من نبيٍّ قُتل قبل محمد صلّى الله عليه وسلّم ومعه علماء وفقهاء وقادة وأتباع فلم يضعفوا ولم يجبنوا في القتال، وما خضعوا ولا ذَلُّوا لأعدائهم، والله يحبّ الثابتين في مواجهة الكافرين والصابرين على البأساء. وحينما اشتدّ عليهم الأمر والقتال لم يجزعوا ولم يفرّوا بل اِستعانوا بالتوجّه إلى الله بالدعاء ليغفر لهم ذنوبهم، وليتجاوز عن إفراطهم وتجاوزهم لحدود شرع الله، وطلبوا تثبيت أقدامهم في ساحة المعركة والمواجهة ودعوا بالنصر على أعدائهم. فآتاهم الله النصر على الأعداء والعزّة والمنعة في دنياهم، وسيلقون في آخرتهم ثوابا وجزاءً مضاعفا، والله يحبّ المحسنين الذين أحسنوا في طاعتهم، وأحسنوا في ثباتهم في الجهاد، وأحسنوا حين صبروا على البأساء، وأحسنوا في إخلاصهم لطاعة الله وفي الدعاء.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ(149) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ (150) :

بعد الإشادة بأصحاب الأنبياء وبثباتهم في نصرة الرسل جاءت هذه الآية لتحذير المؤمنين من صحبة الكافرين، ذلك لأنّهم لا يدعون إلاّ للكفر وللارتداد عن الدين الحقّ، ومن يُطِعْهُم يرجعْ للكفر، ويصبحْ مغبونا، ويخسرْ آخرته، بل الله هو الذي يتولّى نصرتكم – أيّها المؤمنون – فأطيعوا الله مولاكم ونَاصِرَكم، ولا أحد ينصركم غيره.

- سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ (151) :

وهذا وعد من الله تعالى للمؤمنين الصادقين بأن يقذف في قلوب أعدائهم الكافرين الخوفَ منهم والفزعَ، وهذا عامل نفساني مهم في تحطيم معنويات الكافرين ممّا يجعلهم مُرْبَكين عند المواجهة، وذلك لأنّهم جعلوا لله شريكا من غير حجّة ولا برهان، وستكون إقامتهم في نار جهنّم يوم القيامة وساءت إقامتهم فيها بسبب ظلمهم لله في وحدانيته وادّعائهم الشريك له كذبا واِفتراءً.

- وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (152) :

ولقد تبيّن لكم صدق وعد الله لكم إذ اِنتفضتم عليهم فجعلتم تقتلونهم تقتيلا وتستأصلونهم بتيسير من الله، حتى إذا أصابكم الجبن عن لقاء عدوّكم وفزعتم منهم، وحين اختلفتم في الرأي وفي الموقف من الأعداء – وفي هذا إشارة للرماة في أُحد – إذ قال بعضهم نلحق بالغنائم، وقال آخرون: نثبت على ما أمرنا به الرسول بأن لا نغادر موقعنا – (وَعَصَيْتُم) وخالفتم أمر الرسول (مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ) حين أراكم الغلبة على المشركين وفرارهم من المواجهة تاركين



وراءهم أسلحتهم ورماحهم. منكم من أراد جمع الغنائم فسارع إليها، ومنكم من ثبت في مكانه اِمتثالا لأمر الرسول، ثم شغلكم عن قتالكم ليختبركم، ولقد عفا الله عنكم، والله كثير الفضل والإنعام على المؤمنين بالتجاوز عن أخطائهم وبالمغفرة.

- إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ **(153) :**

لمّا غادر الرّماة الجبل الذي أوصاهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بلزومه مهما رأوْا من ساحة القتال طمعا في الغنائم وجد المشركون الذين كانوا يترصدونهم من ورائهم فرصة: لمهاجمة المسلمين من خلفهم، ورأى المشركون الذين كانوا قد فرّوا من المهاجمة هجوم مددهم بقيادة خالد ابن الوليد وكان يومئذ قائد كتيبة المشركين الذين كانوا من وراء الجبل، أعادُوا الكَرَّ على المسلمين، ووجد المسلمون أنفسهم محاصرين من كلّ جانب ومن خلفهم ففرّ عدد كبير منهم من ساحة القتال، وقُتِل حمزة رضي الله عنه، ورُمِي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بسهم أصاب وجهه الشريف ووجد نفسه في قلّة من المؤمنين فجعل ينادي الجُند بأن يثبتوا وبأن لا يهربوا. وهذه الآية في وصف هذا الكرب الذي أصاب المسلمين يومئذ.

وأُذكروا إذ كنتم تذهبون بعيدا في الأرض فرارا من القتال، ولا تلتفتون إلى أحد، ولا تطلبون أحدا لمساعدتكم، والرّسول وقتئذ كان يناديكم لترجعوا للميدان، وأنتم هاربون وتركتموه خلف ظهوركم يواجه الأعداء صحبة قلّة من أصحابه، فجازاكم الله غمًّا وهمّا بالهزيمة بسبب الغمّ الذي تسببتم فيه للرّسول حين خالفتم أمره لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنائم ولا على ما أصابكم من جروح وقتل، والله مطلّع على ما تعملون، وهذه الجملة للوعيد وللتحذير.

- ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ **(154) :**

ثم أخذ أهلَ اليقين والإيمان سكونٌ وهدوء يقارب النّوم ليستريحوا من الغمّ – وهذا من رحمة الله تعالى بهم – وأمّا الطائفة الثانية: طائفة الذين لا تهمّهم إلاّ مصالحهم فقد ملأ أنفسهم الهَمُّ، وأخذهم الشكّ في صدق إخبار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الله تعالى فيما يعدهم به من نصر على الأعداء بمثل شكّ أهل الجاهلية، أهل الشّرك، يقولون: ما فائدتنا من هذا القتال. قل لهؤلاء: إنَّ القَدَرَ، خَيرَه وشرَّه من الله يخفون في أنفسهم الكفر والتكذيب، ولا يريدون إلا مصالح

أنفسهم، هذه حقيقتهم التي لا يظهرونها. يقولون: لو كان لنا عقلٌ وإدْراك ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ولمَا قُتِل بعضٌ من أصحابنا. ورُدَّ عليهم بأنّه لو كنتم في بيوتكم مطمئنّين لخرج الذي حضره الأجل إلى المكان الذي كُتب عليه في اللوح المحفوظ أن يُقتلَ فيه ليُقتل وليُصرعَ تنفيذا لقضاء الله تعالى. ولو تخلّفتم – أيّها المنافقون – عن أُحُد لخرجتم إلى مواطن أخرى لتختبروا في صبركم وفي إيمانكم، وليُكشف أمرُكم عند المسلمين ويظهر ما تخفون في صدوركم وقلوبكم واضحا، والله عليم بما في صدوركم.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) :**

هذه في الذين هربوا من المواجهة إلى المدينة، وتحصّنوا فيها وكرهوا الثبوت خوفا من أن يُقتلوا، فهؤلاء أوقعهم الشيطان في الزّلّة والخطيئة، لأنّ الهروب من الزّحف يوم الاقتتال يُعَدُّ خيانةً، ومُرْبِكًا لصفوف المقاتلين. ولقد عفا الله عنهم لأنّهم لمّا سمعوا بأنّ النّبيّ قد قُتِل تحصّنوا بالمدينة لحمايتها من هجوم المشركين، والله غفور لأصحاب النوايا السليمة وحليم بالمؤمنين لا يؤاخذهم سريعا عمّا أخطؤوا فيه حتى يثوبوا لرشدهم.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (156) :**

هذه في بيان أنّ الموت أو القتل إنّما بالأجل الذي حدّده الله، فلا يقولنّ المؤمن كقول الكافر إذا علم بموت أخيه في سفر أو في تجارة أو في عمل، فمات في أرض غير أرضه، أو علم بأحد منهم مات في معركة وقُتل لو بقي معنا ما مات هناك أو ما قُتل في تلك المعركة، وذلك لأنّ الكافر لا يعلم أنّ الله هو الذي يحيي ويُميت، لذلك يتحسّر الكافر على موت أخيه أو قتله في غير أرضه، وأمّا المؤمن فيعلم أنّ لكلّ أجل كتابا، وأنّ الحياة والممات من قضاء الله وتقديره. (وَٱلله بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ) أي إذا قتلتم في سبيل الله أو متّم في سعي على أنفسكم وعيالكم يعلمه الله وفيه خيرٌ لكم عند ربّكم.

- **وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (157) وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ (158) :**

وإذا قتلتم في سبيل الله، ومتّم في أهلكم على الإيمان ليغفرنّ الله لكم ذنوبكم وليرحمنّكم برحمته الواسعة يوم لقائه في آخرتكم، ومغفرة الله ورحمته خير لكم ممّا تجمعون من مال الدنيا ومتاعها.

ففرّوا إلى الله تعالى بطاعته ولا تفرّوا من القتال، فرُّوا من عقابه إلى مغفرته ورحمته فكلّ إنسان هالك إمّا ميّتٌ بين أهله، أو قتيلٌ في معركة، وكلّكم راجع إلى الله لمحاسبته عن عمله.

بهذه الموعظة الربّانية يختم عرض بعض أحداث معركة أُحد. وحين يتمثّل المؤمن ما جرى للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأصحابه المخلصين المحيطين به من مشاقّ، وحين يتمثّل ما تقدّم في قصّة آل عمران: النبيئين منهم والمخلصين لهم من أتباعهم تحصل له قناعة بأنّ حياته في دنياه هي محطة اختبار لمدى صدق إيمانه زمن الشدائد التي يمرّ بها، ويعرف أنّ حلَّ جُلِّ أزماته يكون بالتّجمّل بالصبر حتى ينكشف الكرب، ويكون بصدق توجّهه إلى الله ليعينه على كشف كربه، ولابدّ له من المثابرة على الجهاد في عمله وسعيه فإنّ الحياة جهاد وعمل، وأنّ الجزاء من جنس العمل.

- فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (159):

هذه في تحديد المعالم السياسية التي يجب على الرسول السير على منهجها مع أتباعه: وعسى أن ينتفع بها كلّ وليّ أمر مع شعبه ومواطنيه لبناء جسور الثقة والمحبّة والتناصح بينهم جميعا لبلوغ مقاصدهم ومراميهم في تنظيم حياتهم.

فبفضل رحمة قذفها الله في قلبك صِرْتَ لَيِّنًا معهم، ورفيقا ورقيقا ولطيفا: ولو كنت جافّا في المعاملة والقول، وجافيا في الطبع، قاسي القلب بلا شفقة ولا رحمة، ولا رأفة ولا حنوّ لتفرّقوا من حولك، ونفروا منك، وانصرفوا عنك، فتعامل بالعفو مع من أخطأ وزلّ ثمّ ندم وتاب وأصلح عمله، وادعُ لهم الله بالمغفرة والهداية، وشرّكهم في اتّخاذ القرار، واسمع لهم ولآرائهم، وخذ منهم الرأي والمقترح ليكونوا معك في التنفيذ وحتى لا يخرجوا عن طاعتك، فإذا قررت أمرا رأيت فيه الصواب والخير، وعقدت العزم على المضي في تنفيذه وإنجازه، فامض فيه مستعينا بالله، إنّ الله يحبّ الذي يستعين به ويطلب توفيقه.

- إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (160) :

هذه في الدعوة للإخلاص في التوكّل على الله مع وجوب الأخذ بالأسباب، إذا كتب الله لكم النّصر فلا قاهر لكم، ولا خاذل لكم، وإذا قضى ألاّ يكون لكم نصر فهل لكم غير الله لينصركم، لذا فليتوكّل المؤمنون على الله حقّ التوكّل.

- وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161) :

المفروض أن تُجْمعَ جميعُ الغنائم بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو الذي يتولّى تقسيمها. ولما كانت معركة أحد كان الذين هرعوا لغنائم المشركين من سيوفهم ورماحهم يظنّون أنّ كلّ من يلتقط شيئا منها يتَمَلَّكهُ، وهذا الظنّ هو الذي جرّهم للنزول من الجبل الذي كان يحمي ظهور المسلمين لمّا رأوا المشركين ينهزمون ويهربون من المواجهة فأوقعهم هذا الطمع في مخالفة أمر الرسول وأوقعهم بعد ذلك في هجوم أعدائهم عليهم من ورائهم وفي هزيمتهم.

حاشا للنّبيّ أن يخون في تقسيم الغنائم. ومن يغنم شيئا ويستأثر به لنفسه، ولا يردّه للرسول يأتِ به يوم القيامة مغلولا به، مُعَذَّبًا به، وكلّ نفس ستُحاسب يوم القيامة عمّا عملت، إن كان خيرا فستلقى خيرا، وإن عملت سوءًا فستعاقب.

واستنبط العلماء من هذه الآية أنّ الغلول من الكبائر، وقالوا: ومن الغلول هدايا العمّال على الزكاة، أي جامعيها (لا يحقّ لمن يجمع الزكاة أن يأخذ هدية لفائدته من صاحب المال)، وحكمه في الآخرة حكم الغالّ (أُنظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي ج4 ص251).

- أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (162) :

هذه في حضّ المؤمنين على اِتِّبَاعِ رضوان الله، فإنّ الذي يتّبع رضوان الله ليس كالذي رجع بغضب شديد من الله تعالى. هذا مأواه جهنّم وبئس مأواه وقراره ومسكنه ومقرّه، وأمّا الآخر فيلقى النّعيم المخلّد، فهل يستويان في الاختيار؟ الاستفهام في الآية يدلّ على عدم الاستواء، أحدهما في النّعيم، والآخر في العذاب والجحيم.

- هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (163) :

المؤمنون الذين يتّبعون رضوان الله ذوو مراتب مميّزة في التّكريم، والله عليم بأعمالهم وسلوكهم.

- لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (164) :

لقد تفضّل الله على المؤمنين حين أرسل فيهم رسولا منهم، من قومهم يعرفون أصله ومكانته وهو يعرفُهم يقرأ عليهم ما أُنزل عليه من ربّهم لإرشادهم للصراط السويّ ويطهّر أنفسهم من دَنَس الشِّرك والضلالة وخُلق الجاهلية، ويعلّمهم كلام الله وشرعه القويم وهُداه، ويعلّمهم (ٱلْحِكْمَةَ) وهي العلم اليقيني والرّشاد والخلق القويم ومعالم العمل الصالح ليخرجوا من ضلالهم الواضح ودين الشرك.

- أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (165) :

وحين أصابتكم مصيبة قتل جمع منكم في أُحُد، ألم تذكروا أنّكم قد قتلتم منهم جمعا وأسرتم آخرين يوم بدر، وكانوا ضعف قتلاكم، وقلتم: من أين أصابتنا الهزيمة؟ لقد كانت بسبب مخالفتكم لأمر الرّسول وخروجكم عن طاعته. وإنّ الله لا يُعجزه شيء، ولقد كنتم أنتم المسؤولون على هزيمتكم بسوء تصرّفكم.

- وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (166) وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ (167) :

ما أصابكم من قتل وجرح يوم أُحد حين اِلتقى الجمعان (فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ) فإنّ الله يعلمه، وهو من قضائه وقدَرِه، وليميّز المؤمنين ويظهر صمودهم وثباتهم وطاعتهم لرسولهم وحمايتهم له، وليكشف المنافقين الذين قيل لهم تعالوا قاتلوا معنا أو رابطوا معنا وساندونا بحماية المدينة وظهورنا، فاعتذرتم واِمتنعتم عن تقديم أية مساندة بدعوى أنّكم لا تعرفون فنون حمل السلاح والقتال. وفي حقيقة الأمر هم يميلون إلى الكفر أكثر من ميلهم للإيمان. اعتذروا لكم عن الخروج للقتال بدعوى أنّهم لم يتمرّسوا من قبلُ فنون القتال ولكنّهم يضمرون للمسلمين في أنفسهم شرّا، ولا يريدون لهم النّصر : والله عليم بما كانوا يضمرون في أنفسهم وعليم بما في صدورهم.

- ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (168) :

وهذه تكشف ما كان يفعل بعض المنافقين في الخفاء في إحباط عزائم جمع من أصحابهم كانوا قد خرجوا في جند المسلمين لأُحُد، قعدوا عن القتال ونصحوا إخوانهم بألاّ يخرجوا، ولمّا قُتل بعض هؤلاء قالوا لبعض: لو سمعوا نُصحنا وامتنعُوا عن الخروج ما قتلوا. فجاءهم الرّدّ: فادفعوا عن أنفسكم الموت حين يحضركم الأجل إن كانت لكم قدرة على الهروب من الموت إن كنتم صادقين في أنّ الذي لا يخرج للقتال لا يموت.

- وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (170) :

هاتان في تكريم القتلى في سبيل الله تعالى. هم عند الله عزَّ وجلّ أحياء غير أموات كرامة لهم. هذه الحياة هي من الغيبيات التي لا يعلمها إلاّ هو سبحانه، نؤمن بها، ولا نعرف كيفيتها. هم عند ربّهم يرزقون رزقا حسنا في ملكوته، يَحْيَوْنَ مسرورين بما أحسن الله به إليهم ويفرحون



ويسّرون بمن يأتي من بعدهم ويلحق بهم، ولا خوف عليهم من هول يوم الحساب حين تقوم القيامة، ولا يحزنون على ما فاتهم في دنياهم لأنّهم يلقون عند ربّهم ما هو خير منه.

- يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (171) ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ (172) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (173) فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (174) :

وعلى وجوه هؤلاء آثار الفرح والسرور (بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ) بجنّة من الله تعالى، (وَفَضۡل) وهو الزيادة في الخير والتكريم، والله يحفظ أجر المؤمنين وثوابهم، ولا ينقص لهم منه شيئا. هؤلاء هم الذين أجابوا دعوة الرّسول للخروج للجهاد من بعد ما أصابهم من الجروح. وهذا حينما غادر المشركون المدينة عائدين إلى مكة بعد أُحد، دعا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أصحابه للخروج إلى مشارف المدينة حِيطَةً خوفا من أن تحدّث المشركين أنفسُهم بالكرّ على المسلمين حتى لا يُؤْخَذُوا على غِرَّةٍ. وفعلا خرج هؤلاء لملاقاة أعدائهم رغم ما نالهم من إعياء ورغم جراحهم، ومن فضل الله عليهم لم يحدث شيء من عودة المشركين إلى المدينة. وقد وعد الله تعالى هؤلاء بالأجر العظيم، وعَدَّهُم من المحسنين ومن المتّقين.

وقد حاول المنافقون ثَبْط عزائمهم وخوّفوهم من الخروج مع الرّسول وادّعوا أنّ المشركين قد جمعوا إليهم عددا من أنصارهم، وأنّهم عائدون إليهم بعدد كبير منهم، ونصحوهم بالحذر منهم، وعدم الخروج، فما كان من هؤلاء المحسنين المتّقين إلاّ أن ازدادوا حماسة لملاقاة أعدائهم نصرةً لدين الله وقالوا للاستعانة بالله: الله كافينا شرّهم وأذاهم، هو وكيلنا ومولانا وكافلنا، وَنِعْمَ المعتَمَدُ عليه.

فعادوا بعد ذلك لمدينتهم وديارهم وأهليهم بعافية، ورضوان من الله لم ينَلْهُم أذًى من جرح أو أسرٍ أو إجهاد كبير، ومنحهم الله رضاه، وقدَّرَ لهم فضلا عظيما من لدنه وهو صاحب الفضل العظيم.

- إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (175) :

إنّما هو الشيطان الذي يثبّط العزائم ويخوّف الذين يستمعون لوساوسه من لقاء الأعداء، ويخوّفهم من القتل أو الأسر أو إلحاق الأذى ليجبنُوا ويقعدوا عن القتال. فجاءت الموعظة للمؤمنين بأن لا يخافوا من لقاء الأعداء وإنّما عليهم أن يخافوا معصية الله جلّ وعلا.

- وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176) :

لا تأسف عن الذين اِرتدّوا بعد إيمانهم خوفا من سطوة المشركين، إنّ الله تعالى لا تضرّه معصية عاصٍ، هم الذين خَسِروا آخرتهم، ليس لهم فيها نصيب طيّب من الفضل والنّعيم، وسينالون عذابا فوق طاقتهم.

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (177) :**

إنّ الذين اِستبدلوا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله بكفرهم ولكنّهم هم الذين أضرّوا بأنفسهم لأنّهم اِستحقّوا بكفرهم عذابا موجعا.

- **وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (178) :**

ولا يظنّ الذين كفروا حين لم نعجّل لهم بالعذاب، أنّ إمهالهم هو لفائدتهم، إنّما نمهلهم لتكثر معاصيهم وذنوبهم حتّى يشتدّ عليهم العذاب في الآخرة، وهو عذاب يذلّهم ويحطّم كبرياءهم.

- **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ (179) :**

كان يحيط بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جمع من المؤمنين، واِندسّ فيهم منافقون حفاظا على مصالحهم التجاريّة أو قيمتهم المعنويّة، فجاءت حادثة أُحُد لكشف حقائق نفوس البعض، ورُبَّ ضَارَّة نافعة. والمعنى: لا يترك الله المؤمنين ولا يدعهم على ما هم عليه من حسن النية بالجميع حتى يظهر لهم المخلص فيهم والمنافق والجبان، والله لا يطلعكم على الغيب ولكن يجري لكم الأحداث على ما يريده دون علمكم ليحصل الاختبار على الوجه المطلوب، ويصطفي ويختار من يشاء ليكون رسولا من عنده لعباده، فآمنوا بالله ورسله. والمؤمنون المتّقون المخلصون له في الدين يلقون عند ربّهم أجرا عظيما، وثوابا جزيلا.

- **وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (180) :**

هذه في الذين بخلوا بشيء ممّا عندهم من الخيرات التي وهبها الله لهم على الذين خرجوا للجهاد لتجهيزهم بالسلاح أو بالطعام لرباطهم وقعودهم عن السعي والرزق. هذا الشحّ الذي منعهم عن الإنفاق في سبيل الله يحسبونه خيرا لهم من باب المحافظة على أموالهم لأنفسهم، لكنّه في واقع الأمر سيكون وَبَالاً عليهم. سيكون هذا الّذي بخلوا به يوم القيامة كهيئة الأطواق تُطَوَّقُ به أعناقهم فتضيّق عليهم أنفاسهم وتحبسها عليهم وتضايقهم. وستنتقل كلّ الأملاك في السماوات وفي الأرض إلى سيّدها وصاحبها الحقيقي فهو الله تعالى، فكلّ ما فيهما صائر إليه تعالى. والله مطلّع على أعمال عباده جميعها.

- لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (181) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (182) :

حين نزل قوله تعالى (مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ) (البقرة الآية 245) للترغيب في الإنفاق في سبيل الله، قال بعض اليهود: ليس يقترض إلاّ الفقير من الغنيّ. وجاء في الرّدّ على هذا القول الذي يدلّ على ضعف الإيمان، وعدم الاستحياء من الله تعالى، بأنّ قولهم مُسَجَّلٌ عليهم، وسيعرفون عاقبته وعاقبة قتلهم للأنبياء عدوانا وظلما حين يحشرون في جهنّم، ويقال لهم: ذوقوا عذاب الحريق بما كنتم تقولون على الله، وبما كنتم تفعلون بأنبيائه. وهذا جزاء ما فعلتم، وما ظلمكم الله بهذا العقاب لأنّ الله لا يظلم أحدا.

- ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (183) :

وقال فريق من اليهود لمحمد صلّى الله عليه وسلّم حينما دعاهم للإسلام: إنّ الله أمرنا وأوصانا في التوراة، وأخذ علينا عهدا بأن لا نؤمن لأيّ رسول حتّى يتقرّب بين أيدينا بقربان من صدقة أو ذبيحة فتنزل نار من السماء تُفْنِي ما تقرّب به إلى الله تعالى وتحرقه – كما كان يفعل معنا للدلالة على أنّه تُقُبِّلَ منّا – قل لهم يا محمد : قد جاءكم رسل من قبلي بالمعجزات المؤيّدة له والظاهرة، وبالذي قلتم من تقديم القربان، فلماذا خالفتم العهد بعد ذلك، وقتلتموهم إن كنتم بحقّ صادقين بالتزامكم بالعهد وبما جاءكم في التوراة من أمر ووصية.

- فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (184) :

هذه لتسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فإن كذّبوك – يا محمد – فلا تحزن، فقد إعتادوا على تكذيب الرّسل، وهذا من طبعهم مع جميع من تقدّمك من الرّسل، وكلّهم قد جاؤوهم بالمعجزات المؤيّدة لهم، وجاؤوهم بكتب المواعظ والزَّوَاجِر، والكتاب السماوي الذي يُنير لهم سبيل الهدى والحقّ، ومع ذلك كذّبوهم، وشاقّوهم.

- كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (185) :

لا تهربوا من الجهاد، ولا تخشوا الموت في سبيل الله، فكلّ نفس ميّتة إذا حضر أجلها ولو كان صاحبها على فراشه وفي بيته ومن حوله أهله. وستجزون بحسب أعمالكم يوم القيامة، إن كان خيرا فخير، وإن كان العمل فاسدا وقائما على الظلم والشرور فسيكون جزاؤه من جنس عمله. ومن أُبعد عن النار، وأدخل الجنّة فقد فاز بالنّعيم المقيم. ولا تغرّنّكم الحياة الدنيا فإنّ متاعها زائل وقصير المدّة، فلا تنخدعوا بها، واطلبوا الآخرة ذات النّعيم الدائم.



• لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ **(186) :**

ستختبرون بالمحن في أموالكم بضياعها، أو بالخسارة فيها، أو بضعف دخلها وكسادها، وتختبرون في أنفسكم بالمرض أو العجز أو فقد العزيز أو بالجراح، وستسمعون ما تكرهون، وما يستفزّكم من طائفة من أهل الكتاب ومن المشركين، وسيؤذونكم بألسنتهم وبغمزهم ولمزهم وبسخريتهم ما يؤلمكم كثيرا، فعليكم بالصبر حتّى لا يُسَرُّوا برؤية غضبكم، وحتى يروا عدم مبالاتكم بما يقولون فيكم، ولا تأبهوا بهم اِحتقارا لعملهم. وحين تثبتون على أخلاق إيمانكم: أن تدفعوا السيّئة بالحسنة، فإنّ هذا من العزائم ومن الأمور التي ينبغي الثبات عليها.

• وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ **(187) :**

وإذ أخذ الله ميثاق أهل الكتاب وعهدهم المؤكّد أن إذا جاءهم محمد أن يظهروا للنّاس ما جاء في التّوراة والإنجيل بشأنه ليصدّقوه وينصروه ويتّبعوا ما أنزل عليه من الوحي، وأخذ الله عليهم العهد المؤكّد بأن لا يخفوا ممّا عندهم في كتابهم من شيء خاصّ بأمره، فطرحوا العهد، وضيّعوه وخالفوا أمر الله، وجحدوا أمر محمد وسكتوا عمّا عندهم في كتابهم ليأخذوا منافع قليلة لفائدتهم: فويل لهم ممّا باعوا به أنفسهم، وبئس ما أخذوا.

• لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ **(188) :**

نزلت في علماء بني إسرائيل من الذين يكتمون الحقّ بين أيدي سلاطينهم ووُجهائهم، ويفيدونهم من العلم، أو الفتاوى بما يوافق أهواء عظمائهم رغبة في الحُصول على مكانة كبيرة وحظوة عندهم، أو للاستفادة من عطاياهم. وهؤلاء يحبّون شكر ملوكهم لهم، ويودّون لو اِتّخذوهم قرناء أو نصحاء لهم. هؤلاء يتوعّدهم الله – بسبب عبثهم بشرع الله وبنصوص الكتاب– بشرّ العذاب المؤلم الموجع، وليسوا بفائزين بالنّجاة منه.

• وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ **(189) :**

تشعرنا هذه الآية بأنّها خاتمة لكلّ ما سبق من عرض لأساليب طوائف من أهل الكتاب ومن المشركين في صدّهم عن سبيل الله يبغونها عوجا، ولأساليبهم في مشاقّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وإيذاء أتباعه، وفي هذه الآية الخاتمة لهذا الفصل كلمة وعيد. والمعنى: لا يظنّنّ الذين يؤذون الرسول وأتباعه، ويصدّون عن سبيل الله أنّهم ناجون من العذاب. لله ملك كلّ ما في السماوات وما في الأرض، وهم في قبضته، هم غير ناجين من عذابه، قادر على اِستئصالهم، وقادر على أخذهم متى شاء، فهو القدير الذي لا يعجزه أن يسترجع ما يملكه.

- إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (190) ٱلَّذِينَ
يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (191) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (192) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا
فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ
وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (194) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ
عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى
سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ (195) لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ (196) مَتَٰعٌ
قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ (197) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ (198) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (199) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200) :

هذه خاتمة للسورة، فيها تذكير بما جاء في مقدّمتها من عناصر الإيمان، وبهذا يكون الربط بين المقدمة والخاتمة مُحْكَمًا، وَتَتَّحِدَانِ في الموضوع.

وهي خاتمة تنشرح لها الصدور، فيها تعريف بصفات أولي الألباب، وفيها تبشير فريق من المؤمنين بإدخالهم جنّات النّعيم ثوابا من عند الله بدون حساب، وفيها إنصاف لفريق من أهل الكتاب بمنحهم أجرهم، وختمت بموعظة جَزلَةِ اللّفظ، وعظيمة الأثر.

والمعنى: إنّ النّاظر في خلق السماوات والأرض بعين البصيرة وبالتدبّر العقلاني والتفكّر، والمتبّع لتعاقب الليل والنّهار يَبْلُغُ بتفكّره معرفة قدرة الخالق وعظمة خلقه، وعظيم التدبير ودقّته، ويرى فيها دلائل على أنّ كلّ هذا لم يوجد عبثا، وإنّما يجب أن يكون له واجدٌ عظيم هو الله، وهذه الدلائل لا تغيب على أولي الألباب، اللبُّ عند بعضهم هو العقل، وعند غيرهم هو القلب، والمتتبّع لهذه الصفّة في القرآن الكريم يدرك أنّ أولي الألباب هم الذين ملكوا عقلا واعيا، وقلبا لَيّنًا خاشعا مُرْهَفَ الحسّ، وبصيرة نافذة.

وأولو الألباب تُبلّغهم عقولُهم الواعية، وقلوبهم الخاشعة، وبصائرهم النافذة لأن يحافظوا على ذكر الله في حراكِهم وإذا قعدوا، وإذا اِضطجعوا على جنوبهم، ويتأمّلون في السماء، أو فيما حولهم في الأرض فتنطلق ألسنتُهم وجوارحهم بتسبيح الله مدركين بأنّه هو الخالق والمدبّر،

يسبّحونه تسبيح التّعظيم والتّقديس، ويدعونه بأن يَقِيَهُم عذاب النّار في جهنّم، وبأن يجيرهم منها، ذلك بأنّ دخول النّار خِزْيٌ وعارٌ، وعلموا أنّ النّار مأوى الظالمين أنفسهم بمعصية ربّهم، وأن ليس للظالمين من أنصار وأولياء لينقذوهم من عذاب الله.

ويُقِرُّ أولو الألباب أنّهم سمعوا محمدًا صلّى الله عليه وسلّم يدعو لتوحيد الله عزّ وجلّ وللتّصديق بوحيه، وأنّه دعاهم للإيمان بربّهم، فأجابوا دعوته وآمنوا بربّهم الأحد، ودعوه جلّ جلاله بأن يغفر لهم كبائر معاصيهم السالفة، وأن يستر عنهم صغائر ذنوبهم، وأن يُميتهم على الإسلام، ويعاملهم عند ملاقاته تعالى معاملة الأبرار الذين برّوا الله بطاعتهم إيّاه، وأخلصوا له في التوحيد والتوكّل عليه حتى رضي عنهم. ودعوه أن يؤتيهم من الأجر والثواب على نحو ما وعد به المؤمنين الصادقين المستغفرين على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة بإدخالهم النّار فإنّه تعالى لا يخلف وعده.

وقد بشّر الله تعالى هؤلاء الذين ساروا على هذا النهج من تسبيح الله وتنزيهه عن النّقص ومن الثبات على ذكره وطاعته ودعائه لينعم عليهم بنعيمه ويجيرهم من الخزي يوم القيامة بأنّه قد اِستجاب لدعائهم، وفي هذا تحفيز للمؤمنين ليكونوا على هذا المنهج في علاقتهم بربّهم ليفوزوا بهذا الفضل من الاستجابة. ووعدهم الله بأن لا يضيع أجر كلّ عامل منهم، ذكرا كان أو أنثى، فلا فرق بين الجنسين، كلاهما سواء.

وأضفى على هؤلاء درجات في التكريم حظي بها الذين هاجروا بدينهم لموطن غير موطنهم حتى لا يفتتنوا في دينهم، وتركوا وراء ظهورهم ديارهم وأموالهم طلبا لوجه الله، وكانوا قد أوذوا بسبب إيمانهم، فهربوا من الإيذاء، وفيهم من قاتل دفاعا عن الدين وجهادا في سبيل الله. ومنهم من قُتل في ميدان القتال، فهؤلاء يُبشّرهم ربّهم بجنّات النّعيم وبحسن الثواب، يدخلون الجنّة بغير حساب لأنّهم موعودون في دنياهم بهذا الثواب وهذا التكريم.

ثمّ توجّه تعالى لنبيّه وللمؤمنين من ورائه بأن لا ينخدعوا بإمهال الكافرين الذين آذوْا المؤمنين وشاقّوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فإنّهم سيتمتّعون قليلا بحياتهم الدنيوية ثمّ ينقلبون إلى يوم الحساب فيُدخلون جهنّم مأوى العذاب ومستقرّهم الأبدي.

وأمّا الذين آمنوا وكانوا يخشون ربّهم ويخافون عذابه، وكانوا يرجون رحمته فإنّ الله تعالى يبشّرهم بإيوائهم في جنّات الضيافة يجدون فيها كلّ تكريم من عند الله، وكلّ ما عند الله من خير هو لفائدة الأبرار الذين برّوا في طاعتهم وأحسنوا في عبادتهم لله.

ويوم القيامة لا يحرم الفريق من أهل الكتاب الذين كانوا يؤمنون بوحدانية الله، وكانوا يؤمنون بالكتاب الذي أنزل على محمد: القرآن وكانوا يؤمنون بكتبهم، وكانوا يعبدون الله على منهجهم خاشعين

لله تعالى، لا يتحيّلون على شرع الله، ولا يبيعون ذِممهم ودينهم مقابل المال، فهؤلاء لا يضيع أجرهم عند ربّهم، والله عَدْلٌ في حسابه، ولا يؤخّر على صاحب الحقّ حقّه من الأجر والثواب.

وفي الأخير يعظ الله تعالى المؤمنين بالثبات على الصبر لتجاوز المحن والشدائد وعند البأس، وعليهم بالمصابرة، وهي أن يتناصحوا بالتزام الصبر إذا اِشتدّ الأمر على بعضهم، وعليهم بالرّباط للمحافظة على بلادهم من غزو أعدائهم الكافرين، وليكونوا متأهبين للجهاد ولحماية أنفسهم وأهليهم من أذى الأعداء والغازين، ودُعوا لمُلازمة خشية الله ليفوزوا بالنعيم، وبالنجاة من العذاب، وهذا هو الفلاح الحقيقي.

آياتها	ســــورة **النســـاء**	رقمها
175	ـــــ مدنيّة ـــــ	**4**

من خصائص هذه السورة أنّها اِهتمّت بمسائل عديدة من الأحوال الشخصية: من ذلك تحديد أحكام المواريث، وتنظيم طرق التعامل مع الأيتام عند الوصية عليهم، ووجوب حفظ مواريثهم وحقوقهم وردّها إليهم، وأحكام الزواج بيتامى النّساء، وبيّنت ما يحرم من الزيجات من القرابات من النّساء، وفيما يجب من الصلح بين الأزواج عند الخلاف.

وفي مسائل الدّين، وردت فيها آيات عديدة في وجوب طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وتحدّثت عن الوحي، وعن فضيلة رسالته وكتابه. وجاءت في السورة آيات فيما يجب على المؤمن إذا أراد الصلاة من طهارة بالماء أو بالصعيد الطيّب. وجاء فيها كيفية التقصير في صلاة الخوف، ومن خصائص هذه السورة عرض أصناف المنافقين، فهم في نفاقهم أنواع. وفي المسائل الاجتماعية: ركّزت على الأمر بالعدل، والقيام بالقسط، وكيفيّة التعامل مع المعاهدين في حالتي السلم والحرب، وبيّنت أحكام القتل عن خطأ. وجاء فيها عرض للكثير من عادات الجاهلية السيّئة في زواجهم وفي معاملاتهم للأنثى. وفي عرض هذه الأحكام تخلّلت آيات كثيرة في الحضّ على الجهاد، وعلى الإخلاص في الدين، والحذر من المنافقين من أهل الكتاب، والأعداء المشركين، مع الوعد والوعيد.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا **(1)** :

تشعرنا الآية الّتي أُفتتحت بها السورة بالرّهبة لأنّ فيها التّأكيد على الأمر بالتّقوى الذي ذُكر فيها مرّتين، وأُختتمت بالتّحذير بأنّ الله علينا رقيب. والمعنى والخطاب لجميع النّاس: مؤمنين وغيرهم. اِخشوا ربّكم في تعاملكم مع بعض، فلقد خلقكم الله من أصل واحد، من آدم، وآدم من تراب، وخلق من هذه النّفس البشرية الأنثى، ونشر من الذكر والأنثى عددا كبيرا من جنسهما بالتّناسل، فاخشوا ربّكم في علاقتكم بهذا فليس أحدكم بأفضل من الآخر، أو أكرم منه جنسا وأصلا وتكوينا، اخشوا ربّكم الّذي تحلفون به تعظيما، وتحلفون بأرحامكم حفاظا على عهودكم وتعاقدكم للالتزام بها، واحذروا قطع الرّحم، وصِلُوا أقاربكم، ولا تستعلوا عليهم تكبّرا وتعاظما. إنّ الله مطّلع على أعمالكم ومتابع لتعاملاتكم مع بعض، ورقيب يعرف من كان منكم محافظا على رحمه، ومن يقطعها، فاخشوا الرقيب الذي يحاسبكم على أعمالكم.

- وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا **(2) :**

وسلّموا اليتامى الذين كنتم أوصياء عليهم أموالهم كاملة غير منقوصة، وغير مهدورة إذا بلغوا رشدهم. واحذروا أن تأخذوا الجيّد منها إذا شاركتموهم في اِستثمار أرزاقهم، وتعوّضوها لهم بالرّديء، إنّ هذا الفعل من الإثم العظيم ومن الذنب الكبير لأنّه من الخيانة، وتضييع الأمانة.

- وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ **(3) :**

كان من سوء طبع البعض من أهل الجاهلية أن يكون وَصِيًّا على يتيمة تكون في بيته تأكل من طعامه، فيعجبه جمالها فيتزوّجها من غير أن يعطيها صداقها كما يعطي لغيرها فيظلمها فجاءهم النّهي عن الزواج بها إلاّ أن يمنحها صداقها على نحو ما يعطى لمثلها وأمروا أن يتزوّجوا ما طاب لهم من النّساء سواها. روى الأئمة (على ما ذكره القرطبي في تفسيره الجامع ج5. ص11) واللفظ لمسلم عن عروة بن الزبير عن عائشة في هذه الآية، قالت: "يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وَلِيِّهَا تشاركه في ماله فيعجبه مالُها وجمالُها فيريد وليّها أن يتزوّجها من غير أن يَقسط في صداقها. هذا أمرٌ مَنْهِيٌ عنه. يجب أن يُعْطَى لليتيمة حقُّها من الصداق على حسب العُرْفِ مثل غيرها من النساء. فنُهوا أن ينكحوهنّ إلاّ أن يُقسطوا لهنّ ويبلُغوا بهنّ أعلى سنّتهنّ من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طالب لهم من النّساء سواهنّ".

وأبيح للرجل أن يتزوّج أكثر من واحدة، يجوز له – من باب الإباحة – وليس من باب الواجب – أن يتزوّج اثنتين أو ثلاثا أو أربع، وقوله تعالى (فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً) يحدّد شرط هذا التعدّد. قال العلماء: وإذا خاف الرجل أن لا يعدل بين زوجاته في الميْل، والمحبّة، والجِما ع، والعِشرة، والقَسْم بينهنّ، فعليه بواحدة، والزّيادة ممنوعة إذا ترك العدل فِي القَسْم، وحُسن العشرة (المرجع السابق)، وإنّ بعضهم يعمد إلى الزيادة ليغيض الأولى أو الثانية أو لقهرهما، أو يزيد الغنية ليستغلّ مالها ورزقها من مثل المسكن أو المتجر، فكلّ ما قام على سوء نية يُبطل الإباحة.

(أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ) هنّ الإماء، وقد اِنتهى عهد العبيد والإماء في كلّ القوانين الدوليّة، ولا يجوز القياس عليه في اللواتي يشتغلن عاملات في بيوت الأثرياء.

(ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ) حافظوا على التزوّج بواحدة، فذلك أقرب إلى أن لا تميلوا عن الحقّ، وتجوروا، ولتكون لكم القدرة على النفقة على العيال. والعاقل هو الّذي يقدّم مصلحة أبنائه الذين أنجبهم ليقوم على حاجتهم من طعام ولباس وتعليم وعناية على إطفاء غريزته الشهوانية التي



تضرّ بسعادته في بيته وتوقعه في ظلم نسائه وظلم عياله بالإهمال، أو بالتفقير، أو بالتكثير منهم فيضيق بهم المحلّ، ويضيق بالرجل الحال ويفقر بعد يسره، وتكثر مشاكله وشواغله.

ذكر ابن الموّاز أنّ ابن وهب روى عن مالك أنّ العبد لا يتزوّج إلاّ اِثنتين، قال وهو قول الليث. قال أبو عمر: قال الشافعيّ وأبو حنيفة وأصحابهما والثوري والليث بن سعد، لا يتزوّج العبد أكثر من اِثنتين، وبه قال أحمد وإسحاق.. (المرجع السابق ص 22-23 ج.5، وأنظر كتابنا في التفسير: تنوير المستنير في بيان معاني البيان).

- وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا **(4)** :

الأمر في الآية أن تعطى المرأة صداقها عطيةً عن طيب نفسٍ، وطيب خاطرٍ من غير طمع في اِسترداده منها. هذا الأمر للزوج، وكذلك لوليها، فقد كان الوليّ يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئا، وجاءت الآية للنّهي عن هذا. فإذا طابت نفس المرأة لأن تعطي حقّها المشروع في صداقها لزوجها أو لوليّها من غير أن تكون مدفوعة لذلك إجباريا، فيجوز للآخذ أن ينتفع به. وفي كتب الفقه تفاصيل في هذا الموضوع (انظر: "المنتقى" للباجي).

- وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا **(5)** :

هذه للوصيّ على مال الأيتام والكفيل لهم. أُمِرُوا بالمحافظة على أموالهم، فلا يدفعون إليهم أموالهم الموروثة إذا كانوا أولادا صغارا حتى لا يُفْسدوها، أو إذا كانوا لا يحسنون التّعامل معها كأن يكون الموروث مزرعة أو حقلا وهم لا يعرفون الفلاحة، ولا يدركون قيمة ما تنتجه أرضهم، أو كان الوريث محجّرا عليه لضعف عقله. فعلى الوصِي أن يستثمر لهم مالهم، ويدفع لهم من إنتاج الأرض، ومن ربح التجارة ما يلزم نفقتهم وكسوتهم وحاجاتهم، وعليه أن يعاملهم بالمعروف: يُلين لهم القول، ويرشدهم، ويدعو لهم، ويَعِدُهم بردّ الأمانة إليهم حين يكبرون.

- وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا **(6)** :

واختبروا حسن تصرّف الأيتام وحسن تدبيرهم حتى إذا بلغوا سنّ التأهّل للزّواج، وتحمّل المسؤولية، ورأيتم فيهم صلاحا في العقل وحفظ المال، وحسن التصرّف في تعاملهم مع الناس، فأرجعوا إليهم أموالهم كاملة. واحذروا أن تأكلوا أموالهم فإنّه إسراف، واحذروا أن تبادروا بأكلها قبل أن يكبروا. ومن كان غنيا فليتعفّف، ولا يأكل من أموالهم شيئا، وإذا كان الوصيّ فقيرا، وكان قائما على أموالهم من مثل عمل الزراعة والحرث والسقي، أو كان قائما على تجارتهم فعليه أن

يأكل بالمعروف بمثل ما يأخذ الأجير في تلك الحال من أجر عن عمله ذاك. فإذا أرجعتم إليهم أموالهم فلابدّ من إشهاد الشهود على ذلك تحسّبا للطعن في ردّ الأمانة على الوجه المطلوب، وليعرف الناس مدى أمانة الوصيّ ويقيّموها. وجملة (وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا) للوعيد، ذلك لأنّ الله تعالى عليم بالخفيات، فهو تعالى المحاسب على تصرّف الوصي في أموال اليتامى، وشاهد عليه في ما أعلنه أو أخفاه، وهو تعالى كافي الأيتام إذا ظلموا في أموالهم. وكم من وصيّ عبث بأموال الأيتام فويل له من هذا التحذير الشديد، وويل له من خيانة الأمانة.

- لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (7) :

كانت الوراثة في الجاهلية للذكور دون الإناث، وكانت بالرجولة والقوّة، فالصغار لا يرثون، فأبطل الله تعالى بأحكام المواريث كلّ ما كان في الجاهلية من تعامل فيه ظلم كثير. والمعنى: للذكور من أولاد الميّت، وللإناث كذلك نصيب من الإرث من تركة الميّت من الوالدين والأقربين –سواء أكان قليلا أم كثيرا– ولكلّ طرف نصيب معيّن مفروض له فرضا لا يجوز العمل بخلافه، ولا يجوز –عملا بهذه الآية– حرمان الأنثى من نصيبها في التركة، ولا يجوز تغيير النّصيب المحدّد لكلّ طرف.

- وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا(8) :

وإذا حضر قسمتكم للتركة الضعفاء من أهل قرابتكم الذين لا نصيب لهم من التركة، والذين لا حقّ لهم فيها، وكانوا يعيشون معكم ومع صاحب التركة – الخادمة أو الخادم مثلا، والمسكين من الجوار الذي كان يتردّد على المتوفّى لمصاحبته أو لصحبتهما القديمة – فأعطوهم شيئا ممّا ورثتم على وجه الإحسان، والصلة، والصدقة على الميّت، ومن باب البرّ بالصاحب، ثمّ ادعوا لهم بالخير وبالرزق لأنّهم سينقطعون عنكم بوفاة صاحب التركة.

- وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (9) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10) :

هاتان للتّحذير من أكل أموال اليتامى. والمعنى: وليحذر الوصيّ من الظلم، فإنّه لا يضمن طول البقاء، فقد يموت ويخلّف من بعده ذرية ضعافا، فحتّى لا يصير معهم ما يكرهه، فليتق الله تعالى في الأيتام، وذلك بمعاملتهم بمثل ما يحبّ أن يُعامل أبناؤه الصغار من بعده لو تركهم يتامى، وليتلطّف معهم، وليعاملهم بالإحسان، وبما يخفّف عنهم وَطْأَة اليُتْم، وبما يجبر خاطرهم.



إنّ الّذين يحوزون أموال اليتامى، ويأخذونها بغير حقّ، ويتصرّفون فيها لمصالحهم ولمنافعهم الشخصية إنّما يأكلون مالا حراما يؤدّى بهم إلى أن يأكلوا جَمْرًا ونارًا تضطرم في أجوافهم، ولن يذوقوا نعيما، وإنما سيحشرون في جهنّم ليُصْلَوْا فيها صُليًا كَيًّا بنار هادئة تلُفُّهم لَفًّا من كلّ جانب.

- **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (11) :**

هذه الآية والتي تليها في تحديد أنصبة المواريث، وهو ما يُعرف في كتب الفقه بعلم الفرائض. (يُوصِيكُم) أي يأمركم أمرا يُؤَمِّنُكم عليه لتراعوه، وحتى لا تخالفوه، وهو أمر إذا حافظتم عليه نظمتم به حياتكم، وإذا خالفتموه تفرّقتم فيه وتنازعتم عليه، وأفسدتم عليكم علاقاتكم الأسرية وقطعتم به أرحامكم، وعصيتم أمر ربّكم، فاُحفظوه وحافظوا عليه. ومعنى الآية: حافظوا على علاقة الأُخُوّة بين أبنائكم من بعدكم، فورّثوا أولادكم الذكور نصيبا ضعف ما تأخذه الأنثى، ولترض الأنثى بما قُسم لها، وعلى الأخ الذكر ألاّ يظلم أخته في نصيبها. وليس في نصيب الأنثى انتقاص لشأنها، ولكن قضى الله أن يكون الرجل مطالبا بالإنفاق على زوجه وعياله، وأمّا الأنثى فإنّ ما ترثه هو لها خالصٌ، ليس عليها ممّا ترثه إنفاق. فهو مال مُودَعٌ على ذمّتها خاصٌّ بها، غير مطالبة بالإنفاق منه. وفي بلادنا قام بعضهم بالدعوة للتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث خلافًا لِمَا جاء في نصّ هذه الآية، وهذا أمر يحتاج للاجتهاد في النّظر فيه، ولإجماع الأمّة كي لا يختلفوا، وللخروج من الخلاف فهناك العمل بالوصية إذا كان لها أسبابها.

فإن لم يكن للهالك ولد ذكر، وترك من ورائه ابنتين اِثْنَتَيْنِ فلهما ثلثا التركة. وإن كان له بنت واحدة فلها نصف التركة، والباقي في الحالتين لأخوة الهالك وأخواته.

وإذا كان للهالك أبوان حيّان غير متوفَّيَيْن، فيأخذ كلّ واحد منهما سدسا من تركة ابنهما الهالك، إذا كان له وَلَدٌ وريث – سواءٌ أكان ذكرا أم أنثى.

فإن لم يكن للولد الهالك ولد – ذكرا كان أو أنثى – وورثه أبواه، فللأمّ الثُلثُ، والباقي فالثلثان للأب.

وإذا كان للهالك أخوة فإنّهم يحجبون الأمّ عن الثلث إلى السدس، وهذا حَجْبُ نقصان، وتجري قسمة التركة بعد تنفيذ وصية الهالك، وبعد قضاء دَيْنه، وقضاءُ الدّين يجب تقديمه على

تنفيذ الوصية، وقال الشافعي: يُقَدَّمُ دَيْنُ الزّكاة والحجّ على الميراث، فإذا فرّط الهالك في زكاته أخذت الزكاة من رأس المال. والوصية لا يجب أن تزيد عن ثلث التركة، ولا وصيةَ لوارث – كذا جاء في الحديث الشريف الذي رواه الدارقطني عن جابر (انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، مجلده ص 440 حديث عدد 9933).

آباؤكم أعطوكم أموالهم إرثا حلالا طيّبا، والأبناء: قُسِم عليهم الرّزق، ولا يدري أحد أيّهم أنفع للآخر، هؤلاء ينفعون آباءهم بالدعاء، ففي الحديث الصحيح: "إذا مات الرجل اِنقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفعُ به، أو ولد صالح يدعو له". وقيل : النّفع يكون في الآخرة، فقد يكون الابن أفضل فيشفع في أبيه، وقد يكون العكس. والأب ينفع اِبنه بنفقاته وبتركته، فلا أحد يعرف أيّهما أنفع للثاني.

هذه القسمة مفروضة عليكم فرضا، وليست موكلة للاجتهاد أو للعُرف. إنّ الله عليم بما يجب فعلُه في قسمة الميراث، وحكيم في توزيعه، وفي تنظيم القسمة.

- وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ **(12) :**

وللزوج نصف تركة زوجته إذا توفّيت ولم يكن لها ولد، لكن إذا كان لها ولد فللزّوج الربع بعد تسديد الدّيْن الذي عليها، وبعد تنفيذ وصِيَتِها فيما وصّت به من مالها، والباقي يرثه الولد. وللمرأة الرّبع من تركة زوجها إن لم يكن له ولد، أمّا إذا كان له ولد فليس لها إلاّ الثّمن من بعد تنفيذ وصيته في ماله، وتسديد الدَّيْن الذي عليه إن كان عليه دين أو أوصى بوصية لغير ورثته.

وإذا مات الرجل ولم يكن له وَلَدٌ، ولا والد ولا أخ شقيق فورثته كلالة، وكذلك المرأة إن لم يكن لها ولد ولا والد، ولا أخ شقيق، فورثتها كلالة.

والورثة الكلالة هم الأخوة والأخوات للأم. في هذه الحالة يتساوى الذكر مع الأنثى في نصيبيهما من تركة الذي يورث بالكلالة، فيأخذ الذكر السدس، وتأخذ الأنثى السدس، وإن كانوا أخوة أكثر من اثنين فهم شركاء في الثّلث وقسمة الثّلث بينهم تكون بالسَّويةِ من بعد سداد ديْن المتوفّى وتنفيذ وصيته التي لا تضرّ بالورثة، فإذا أوصى بماله كلّه مثلا فإنّ الوصية تردّ بطلب



من الورثة لأنّ في هذا غَصْبًا لحقّهم الذي فرضه الله لهم، إلاّ إذا أجازوها فيكون ما زاد على الثلث صدقة على الورثة. قال ابن عبّاس: الإضرار في الوصية من الكبائر.

يوصيكم الله للعمل بأحكامه، والله عليم بما يصلح لكم، حليم على أهل الجهل منكم إن أخطأ عن حسن نيّة في الوصية، ولم يكن يعلم ما فرضه الله لقرابته من بعده في تركته.

ولهذا الباب: باب الميراث أو أحكام الفريضة الكثير من المسائل والأحكام يحسن فيها الرجوع إلى كتب الفقه، منها: المنتهى للإمام الباجي، رسالة بن زيد القيرواني، القوانين الفقهية لابن جزي، الخلاصة الفقهية للقروي، وكتاب محمد الطاهر بن عاشور في التفسير: التحرير والتنوير، وكتاب القرطبي الجامع وكتاب وهبة الزحيلي، وغيرها كثير، وهناك كتب مختصّة في علم الفرائض.

- **تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (13) :**

هذه شرائع الله وأحكامه المفروضة، فمن يطع الله في ما أمر، وانتهى عمّا نهى عنه، ويطع رسوله فيما يعظ به يكرمه ربّه بإدخاله جنّات النّعيم يخلّد فيها مكرّما، وهذا هو الفوز الكبير لما فيه من تكريم، ونجاة من العذاب في يوم ليس فيه إلاّ الجزاء أو العقاب.

- **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ (14) :**

بعد الوعد جاء هذا الوعيد للتحذير من العبث بشرع الله وأحكامه كالّذي يتحيّل على أموال اليتيم. أو نصيب الأخت، أو نصيب الأخوة ليستأثر بالنصيب الأوفر أو الأفضل بتعمّد التعطيل أو بأيّ نمط من أنماط الضغط، فإنّ ما يستأثر خارج إطار حقّه إنّما هو من أكل المال بالباطل، وهو من التعدّي على حدود الله، وما أبشع ظلم الأخ لأخيه أو لأخته. ومن يتعمّد هذا يدخلْ في هذا الوعيد.

ومن يتعمّد معصية الله، وما نصح به رسوله من اتّقاء محارم الله، ويتجاوز شرائع الله، ولا يعمل بها، ويفرض فرائض من أحكامه من عند نفسه لاغتصاب حقّ غيره يُؤْوِهِ الله نارا يخلّد فيها، ويَتَلَقَّ عذابا يذلّه ويخزيه لاعتماده غصب حقّ غيره، وتعمّده معصية الله تعالى.

- **وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15) :**

لمّا ذكر الله الإحسان إلى النّساء بإعطائهنّ حقوقهنّ من الميراث، جاءت هذه في التّغليظ عليهنّ في حال إتيان الفاحشة، وذلك قصد المحافظة على التّعفّف (إقرأ في هذا الباب كتاب محمد الطاهر بن عاشور "مقاصد الشريعة الإسلامية").

واللاتي يزنين من النّساء، وقامت عليهنّ التّهمة بشهادة أربعة من الرّجال، وتعليل الشهادة بالأربعة في الزنا حكم ثابت ورد في التوراة والإنجيل والقرآن (على ما ذكره القرطبي) فإنّهنّ يُسجنَّ في بيوتهنّ ولا يخرجن منها إلاّ إلى الموت، أو يقدّر لهنّ تقديرٌ آخر: وكان هذا الحكم في صدر الإسلام، ثمّ نسخ الحكم (قال ابن العربي في تفسيره: أحكام القرآن) نسخ هذا الحكم بالآية الثانية من سورة النور.

- وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (16) :

واللذان يأتيان الفاحشة المثلية (رجل مع رجل) (قاله مجاهد وغيره) : فعقوبتهما التوبيخ والتعزير، والجفاء. عقوبة النّساء في الآية السابقة: الحبس، وفي هذه: التعيير والتعزير. فإن تابا عن الفاحشة، وأصلحا سلوكهما، فاتركوا أذاهما وتعييرهما، إنّ الله يتوب على العبد الراجع عن المعصية ورحيم به لهدايته لسواء السبيل. الحكم في هذه الآية لا يتعلّق بالزّنى بين الذكر والأنثى فحكم الزنى غير هذا الحكم.

- إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (17) وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا (18) :

هذه لكلّ من عمل ذنبا عن جهل أو عن طيش وحمق. والذنب عن جهل قد يكون كفرا، وقد يكون معصية. ثمّ لمّا علم بذنبه سارع إلى التوبة، ولم يتأخّر، وهذا معنى (يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ) فهذا يَعِدُه الله بقبول توبته، وهو العليم بما في صدر عبده وبنِيَّتِهِ، وحكيم في توجيهه للعمل الصالح. (وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ) أي ولا تقبلُ توبةُ تائب حين يحضره الأجل، وقد أمضى حياته في المعاصي والغفلة والاستهتار بالوعيد، وتمادى فيها رغم المواعظ. ولمّا أحسّ بقرب موته وأنّه عائد إلى ربّه حتما قال إنّي تبتُ الآن، وهو في الغرغرة الأخيرة، مَثَلُه مَثَلُ الذي ماتَ على الكفر. هؤلاء أُعِدَّ لهم لآخرتهم عذابٌ موجعٌ.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا (19) :

هذه الآية في إبطال عمل من أعمال الجاهلية تكريما للمرأة المسلمة. روى البخاري عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية: كانوا (أي أهل الجاهلية) إذا مات الرّجل كان أولياؤه أحقّ



بامرأته. إن شاء بعضهم تزوّجَها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، فهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية. وأخرجه أبوداود بمعناه، وقاله السدّي وغيره.

وعموما ففي الآية تحريم صريح وقطعي على المؤمنين أن يرثوا النّساء غصبا عنهنّ، وقهرا لهنّ، وهنّ مكرهات على ذلك. (وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ) ويحرم عليكم العضل. والعضل هو مسك المرأة ومنعها من الزواج حتى تموت فيرثها وارثها. وفي هذا إضرار لها. والآية تحرّمه تحريما قطعيا. وكان القصد من عضلهنّ الانتفاع بصداقها أو لدفعها لأن تفتدي نفسها منه بما تملك، (إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ) الفاحشة هنا ليست بمعنى الزنا، وإنما هي الأذى بالكلام البذيء الفاحش.

والمطلوب معاملة المرأة بالحسنى، وبالمعروف بين النّاس في المعاشرة، فإذا كره المرء زوجته لدمامةٍ، أو سوء خلق فيُندب إحتمالها عسى أن يأتي منها أولاد صالحون، وأن تكون عاقبتها صالحة، ويرى في آخر حياته ما يريحه.

- وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا (20) وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا (21) :

تحدّثت الآية السابقة عن كره الزوج لزوجته، ودُعي الكاره لاحتمالها. وجاءت هذه الآية في حكم الّذي قرّر أن يُفارق زوجته، ويتزوّج غيرها. والمعنى: إذا أراد الزوج أن يفارق زوجته لسوء العِشرة، جاز له ذلك شريطة أن لا يسترجع منها ما دفعه لها صداقا ومهرا، ولو كان الذي دفعه ذا قيمة بليغة عبّر عنه بالقنطار. وزن القنطار 100 كيلو غرام، لأنّ المهر الذي قُدّم لها سابقا هو من خالص مالها، وخالص حقّها. يحرم إسترجاعه منها، فإنّ إسترجاعه عمل باطل، فيه ظلم، وذنب واضح.

والاستفهام في الآية الثانية للإنكار، وتقبيح الفعل للتأكيد على عدم إباحة إسترجاع المهر، فقد باشرا بعضيهما، وكان بينهما جماع استحلاّه بدفع المهر، وصار بينهما طلبٌ للزواج وقبول، وأحضرا الشهود على ذلك فارتبط بها بالميثاق الغليظ بهذه المقدّمات التي جمعت بينهما للجماع.

- وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا (22) :

كان النّاس في الجاهلية يجيزون الزواج بامرأة الأب برضاها، فجاءت هذه الآية بتحريم هذه الزيجة. الزواج بامرأة الأب زواج فاسد مخالف لدين الله، فلا يجب عقده إلاّ ما تقدّم ومضى قبل نزول هذا الحكم. إنّه عمل قبيح فاحش لا تستسيغه النّفس، وهو عمل مبغوض ومحتقر، وبئس الاختيار. وبهذا الاستقباح يحرم الزواج بامرأة الأب سواءً أكان الأب حيّا أو ميّتا.

• ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ **(23)** :

هذه في المحرّم من النّساء، حُرّم من النسب سَبْعٌ، ومن الرّضاع والمصاهرة سِتٌّ، وحرّمت السُنَّة المتواترة واحدة: الجمع بين المرأة وعمّتها.

فأمّا المحرّمات السبع من النسب: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

المحرّمات السّتّة من الرّضاع والمصاهرة : الأمّ من الرضاع، والأخوات من الرّضاعة كلّهنّ، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين. وما قد سلف من الجمع بين الأختين قبل نزول هذه الآية فَمَعْفُوٌّ عنه. والله سبحانه غفور رحيم لمن سمع وأطاع، وحذر معصيته (وفي المدوّنة للإمام سحنون تفصيل مطوّل لهذا التحريم).

• ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ **(24)**:

حُرِّمت المحصنات وأُبيحت السبيات في الحرب ذوات الأزواج، والعفيفات من أهل الكتاب. يحرم على المؤمن المسلم الزواج بهنّ، وهذا في التّشريع الدوليّ حاليا صار محرّما دوليّا، ويُعدّ عملا إجراميّا واغْتصابا. وَلِوَلِيّ الأمر حقٌّ من أن يمنع المباحَ إذا رأى في ذلك جَلْبَ مصلحةٍ، ودَفْعَ مفسدة. (كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ) أي هذا التّحريم فرضُ الله عليكم. وأحلّ الله لكم الزّواج بغير ما حرّمه عليكم (مُّحۡصِنِينَ) أي متعفّفين عن الزّنى (غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ) غير زانين، وهو نكاح السرّ على غير الأصول الشرعية، والولد الذي يأتي من السفاح هو ولد الزّنى. ومعنى (بِأَمۡوَٰلِكُم) هو المهر والصداق، ومن فهم غير هذا فقد اِنحرف بفهمه، وعليه أن يراجع كتب الفقه وكتب التفسير في هذا ليصحّح الفهم الذي فهمه المنحرفون. (فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أي إذا دخلتم بهنّ فعليكم أن تدفعوا إليهنّ صداقهنّ، فقد صار من حقهنّ مهورهنّ (فَرِيضَةٗ) أي واجبا. ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نهى عن نكاح المتعة وحرّمه، لأنّ الله تعالى قال: (فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ)(النساء الآية 25) ونكاح المتعة ليس كذلك، ولأنّ الله قال: (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ)(الحشر الآية 7) وليست المتعة

نكاحا ولا ملك يمين (راجع الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وكتابنا: تنوير المستنير).

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِ) أي لا جُناح عليكم الزيادة أو النقصان في المهر عند التّراضي. إنّ الله كان عليما بما يصلح لكم، وحكيما في تنظيم علاقاتكم الاجتماعية والأسريّة.

- وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ **(25)** :

ومن لم يجد مالاً وَسَعَةً للزواج بالحرائر المؤمنات فَلَهُ أن يتزوّج بالإماء المؤمنات، والله عليم ببَوَاطِن الأمور: أنتم مؤمنون فقراء، وهنّ سبيّات مملوكات ومؤمنات، فتزوجوهنّ بإذن أولياء أمورهنّ المالكين لهنّ، وامنحوهنّ مهورهنّ بالشّرع والسنّة، وليس للسيّد أن يأخذ مهورهنّ. تزوّجوا بهنّ عفيفات، غير زانيات، ليس لهنّ أصدقاء على الفاحشة. فإذا تزوّجت الأَمَةُ بالمؤمن، ثمّ أتت بفاحشة وزَنَتْ جُلِدَت نصف جلد الحرّة. وهذا الحكم لمن خشي على نفسه أن يقع في الزّنى، وخاف على نفسه من الضرر في دينه وبدنه، والأفضل له أن يصبر عن نكاح الإماء، والله غفور ورحيم بعباده الطائعين لأحكامه.

- يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ **(26)** :

يريد الله أن يوضّح لكم ما يحلّ لكم وما يُحرّم عليكم، وما هو خير لكم ولذرّيتكم، وللمحافظة على عفّتكم وشرفكم، وحسن علاقاتكم داخل بيوتكم، ومع أنسابكم، ويوضّح لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الصلاح لترشدوا، ويوضّح لكم ما لا يليق بكم من عمل أهل الباطل وأهل الجاهلية السيّئ لتحذروه، ويريد الله أن يتوب عليكم من عمل السيّئات والله عليم بما يصلح لكم، وحكيم فيما يهديكم إليه من عمل الرّشاد.

- وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا **(27)** يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا **(28)** :

هذا من فضل الله العظيم على عباده المؤمنين ومن رحمته الواسعة وكرمه وجوده، يريد أن يتوب عليهم، فسارعوا إلى طلبها فقد وعدكم بأن يقبلها منكم، ويريد أن يتجاوز عن سيّئاتكم لتلقوا تكريمه يوم لقائه، فهل يتأخّر عاقل عن طلبها، وهو موعود بالاستجابة له؟ ويا أيّها الّذين آمنوا لا



تصاحبوا أهل الشهوات المحرّمة فإنّهم لا يدلّونكم إلاّ على المفاسد، ويغرونكم بها، وإنّهم يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق الهداية والحقّ لتكونوا من أهل الفساد وأهل الباطل.

يحبّ الله أن يخفّف عنكم من الأوزار والذنوب لتلقوا رضوانه يوم لقائه، ويحبّ لكم الصلاح والعفّة، فلا تميلوا لشهواتكم الضارّة المضرّة، وتحكّموا في ميولكم وأهوائكم حتى لا تضعفوا إزاءه، فقد خلق الإنسان ضعيفا أمام أهوائه وشهوات نفسه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا (29) وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (30) :

مواصلة في بيان ما حرّم على المسلمين الانتفاع به، وما أُحلَّ، جاءت هذه في بيان ما أُحلّ، وما حرّم في المعاملات، حرّم الله على المؤمنين أن يأخذ أحدهم مال أخيه بطرق غير مشروعة، بالرّبا، والقمار، والتّطفيف، وجميع أشكال التّغرير كالذي يروّج في الأوساط الاجتماعية حاليا من الترويج للمساهمة في شركات مالية وهمية تغري في دعاياتها بأرباح مالية كبيرة، ثمّ يستفيق المساهمون فيها بمبالغ طائلة أنّهم قد وقعوا في شرك جماعة يفتقدون آثارهم، وغادروا المكتب الّذي كان يجمعهم، هذا أكل مالٍ بالباطل، ومنه التّهريب الذي يضرّ باقتصاد البلاد ويبيّض الأموال ويضرّ بخزينة الدولة. ويحلّ للمؤمنين المعاملات التجارية القائمة على التفاهم والتراضي شريطة ألاّ يكون فيها غشّ في السِّلع المتفق عليها.

وحُرّم على المؤمنين قتل أنفسهم بالانتحار، أو بالمغامرة التي تلقي بالنّفس إلى التّهلكة، أو أن يقتل أحدهم الآخر، ويدخل في مجال الانتحار تعاطي المخدّرات المضرّة بالأبدان والذاهبة بالعقل والمفقدة للوعي، والدافعة للعنف، ومن ذلك كذلك الانخراط في الفرق الإجرامية، أو الطوائف المقاتلة المتصارعة على السلطة والمخرّبة للأوطان، وعصابات السطو على ممتلكات الغير، أو المكاسب الوطنية، كلّ هذا من الأعمال المحرّمة لأنّ فيها أكل مال بالباطل، وفيها قتلاً للأنفس.

حرّم هذا على المؤمنين رحمةً بهم حتى يعيشوا في أمان في أوطانهم، وعلى ممتلكاتهم. ومن يفعل هذه المحرّمات عن عمد وعن قصد فهو عدواني وظالم، ويتوعده الله بِصَلْيِهِ في جهنّم يتقلّب في نارها تقلّبا من كلّ جانب، وليس هذا العقاب الذي وُعد به المخالفون عن أمره ونهيه بعسير عليه.

- إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا (31) :

بعد عرض هذه الأحكام بما فيها من نهي وتحريم، وما هو مباح وحلال، وبعد الوعيد السابق جاءت هذه في الترغيب في الطاعة والعمل بشرع الله، وجاءت بوعد العاملين بها بالتّكريم،



والمعنى: إن تحذروا ما نهاكم الله عنه من المعاصي الهالكة، والكبائر المذكورة: كالإشراك بالله، وقتل النّفس، والاعتداء على المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل المال بالباطل، نُغَطِّ عنكم سيّئاتكم حتى لا نؤاخذكم عليها، وندخلكم مدخل التّكريم والنّعيم ومأوى الضيافة.

- **وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (32) :**

لمّا جاء تمييز الذكور على الإناث بالنّصيب المضاعف في التّركة جاءت هذه الآية بالحضّ على تجنّب الحسد على إيتاء الرجال نصيبا أوفر في الإرث، فللرجال نصيب ممّا اِكتسبوا من الرزق ومن الثواب والعقاب في الآخرة على النفقة وأداء الواجب إزاء مسؤولياتهم، وللنساء نصيب كذلك فيما آتاهنّ الله من الرّزق ولهنّ الأجر والثواب على أداء الواجب، وعليهنّ العقاب إذا أتين ما نُهينَ عنه. واِسألوا الله جميعا ليؤتيكم من فضله. إنّ الله عليم بحالكم وبما تستحقّون، وعليم بما في قلوبكم.

- **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (33) :**

لجميعكم –أيّها النّاس– جعلنا لكم ميراثا من قرابة أو عصبة (يسمّى إرثا بالتّعصيب)، وفي الجاهلية كانوا يورّثون الابن بالتبنّي، وكانوا يورّثون بالحِلْف والمعاهدة التي يتعاهدون عليها، ولمّا هاجر المسلمون إلى المدينة، قاسم بعض الأنصار بعض المهاجرين شيئا من تجارتهم، وأوصوا لهم بنصيب من الإرث، وجاءت هذه الآية باحترام المعاهدة، لكن نزل بعد ذلك نسخُ هذا الحكم، ولم يعُد لهؤلاء نصيب من الإرث، ولم يعد للابن بالتبنّي نصيب من التركة، لكن يوصَى له بنصيب منها على ألاّ يتجاوز ثلث التركة. والله على ما تعملون شهيد ليعطي كلّ ذي حقّ حقّه إذا أغتصب منه في آخرته، ويعوّض له خيرا في دنياه. والله أعلم.

- **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34) :**

الرجال قائمون على شؤون أسرهم ومصالح الأبناء في التربية والتعليم واللباس والعلاج والتكوين والإرشاد ومسؤولون عن نسائهم وأبنائهم وعلى إيوائهم والإنفاق عليهم، وجُعل الرجال في خلقهم متفوّقين في تكوينهم البدني والنفسي والعاطفي على جنس الإناث ليمتلكوا أسباب القوّة لتحمّل مشاقّ العمل ومشاقّ الكفاح للدفاع عنهنّ، وعدم التفريط فيهنّ، ولتحمّل مهام الأمور في

الشدائد في إقدام دون خوف أو ضعف. وهم قائمون على أسرهم بما يكسبون من أموالهم لأنّهم مطالبون في كلّ شريعة بالإنفاق على أفراد الأسرة، والتّكفّل بكفاية مؤونتهم. والصالحات من النساء يكنّ مطيعات لله تعالى فيما أمرهنّ من أداء الواجب نحو أزواجهنّ وأبنائهنّ، صائنات ما ينبغي صونُه من أموال أزواجهنّ، وعرضهم في غيابهم بما أوصى الله تعالى به.

والّلاتي تخافون اِستعلاءهنّ عنكم وترفعهنّ عن طاعتكم فيما لم يكن فيه حقّ اِستهتارا أو اِحتقارا فعظوهنّ بالكلمة الطيّبة، وذكّروهنّ بتقوى الله فيما خلقهنّ له، وفيما أمرهنّ به، فإن لم يطعنكم فأعرضوا عن قربهنّ عساهنّ يدركن خطأهنّ فيراجعن أنفسهنّ ويَعُدْن للاستقامة على طاعة الله فيكم، (وَٱضۡرِبُوهُنَّ) اِنقطعوا عن تشريكهنّ في مهام الأمر، وأمّا الضرب باليد الجارحة فلا يجوز إذا كان تشريع البلاد يمنعه ولا يُبيحه، وإذا كان عرفُ البلد لا يُبيحه ولا يجيزه حتى لا تشتكي به المرأة للقضاء فيصبح الزوج جانيا، وحتى لا يُهان قضائيا، وتزداد الزوجة عليه نشوزا بفعل الحقّ المدني. فإن أطاعت الزوجة فلا يجوز ظلمها واِستغلال ضعفها وجملة (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا) للوعيد ولتهديد الزوج فإنّ الله أعلى منه وأكبر وقادر على إذلاله.

- **وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا (35) :**

وإن خفتم اِستمرار الخلاف بين الزوج والزوجة، وتواصل توتّر العلاقة بينهما فحاولوا الإصلاح بينهما باختيار حكمين: أحدهما من أهل الزوج يكون قادرا على التأثير فيه وله مكانة عند الزوجة، وتثق برأيه، والثاني من أهل الزوجة يكون قادرا على الدفاع عنها، وقادرا على التأثير فيها إن كانت مخطئة، وقادرا على إرجاعها للجادة، ويحظى بثقة الزوج، والإثنان عدلان وحكيمان في التوجيه والتأثير، فإن أراد هذان الإثنان الإصلاح بينهما بلغا المُراد، ووفّقهما الله لإزالة التّوتر والخلاف بين الزوجين. إنّ الله كان عليما بما يجري بين المتخاصمين، والحكميْن، وكان خبيرا بالوسائل التي تدفع للصلح بين المخالفين، لأنّ الصلح خير في كلّ حال.

- **وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا (36) :**

بعد التّوجيه للمحافظة على روابط متينة داخل الأسرة، جاءت هذه الآية في فرض التعامل بالإحسان في علاقة الفرد بمجتمعه ومحيطه، سواءٌ أكان مع الرّحِم أم كان مع الجوار. بدأت الآية بالأمر بعبادة الله وحده، لأنّ الإيمان بالله شرط لقبول العمل، والعبادة هي العمل الذي يدلّ على صدق الإيمان، والتّأكيد على وجوب نفي الشّرك عن الله تعالى هو لإقرار مبدإ التّوحيد، والشرك مُحْبِطٌ للعمل، وضلالة تستوجب المؤاخذة والعقاب.

ودعت الآية للإحسان في معاملة الفرد لمحيطه الاجتماعي، وأولى النّاس بالإحسان: الوالدان اللذان كانا أصلا لوجود هذا الفرد، وكانا قد شقيا في حمله وولادته وتربيته والقيام على شؤونه، فلابدّ من مقابلة إحسانهما بإحسان أفضل منه خاصة عند كبرهما ومرضهما وعجزهما –وكما تدين تُدان– ويجب أن يحسن المرء لذوي قرابته، الأعمام والأخوال، والأخوة والأخوات، والعمّات والخالات، والأصهار بعد ذلك، وذرّيّاتهم. ولا يجب أن يعيش يتيمٌ في المجتمع الإسلامي في خصاصة أو بدون رعاية وعطف وإحسان، وكذلك المسكين الذي أصابه العجز بسبب كبر السنّ أو بسبب الإعاقة أو بسبب الفقر والوحدة لا يجوز أن يجوع أو يعرى أو يشقى في مجتمع فرض الله عليه الإحسان إلى ذوي الحاجة والخصاصة.

والجيران في المجتمع الإسلامي يجب أن يحسنوا لبعض في تعاملاتهم وفي أفراحهم وأحزانهم. عليهم أن يؤازروا بعضهم في الشدّة، وعليهم بالسّؤال عن بعض، وبستر عوراتهم. لا يحقّ لهم أن يكشفوا عورات جيرانهم، وإذا تخاصم الجيران وفسدت علاقتهم ببعض فذلك لأنّهم لم يعملوا بأمر الله تعالى بالإحسان، وهذا من ضعف الإيمان، ومن الزيغ عن أمره تعالى.

وسواء أكان هذا الجار من ذوي القربى، أو كان بعيدا في القرابة والنّسب، ومن الجوار (وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ) وهو الرّفيق في السّفر، أو في الغُربة، ومعه المسافر المجتاز للمكان، كلّ هؤلاء من حقّهم على المسلمين أن يُحسنوا إليهم في التعامل معهم بما يمليه عليهم خُلقهم من كرمٍ، أو إغاثة، أو تقديم مساعدة، ويستحقّ إحسانهم العبيد والإماء، وهؤلاء لا يوجدون اليوم بحكم منع الاسترقاق والاستعباد.

إنّ الله تعالى لا يحبّ المتعالي المتكبّر الّذي لا يرى النّاس فضله وإحسانه وتواضعه، وإنّما يرون فخره بنفسه وإعجابه بها.

- ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (37) :

الّذين لا ينفقون في وجوه الإحسان للمؤازرة والمساعدة على قضاء الحاجة لطعام أو لدواء أو لغطاء في شتاء بارد، وهم أغنياء ولكنّهم ذَوُو شحّ ولُؤْم، ولا يحضّون أهل الخير على الإنفاق، بل يَدْعُونَهُمْ للإمساك لإكراه فقراء المسلمين على الكفر، ويدّعون أنّهم لا يملكون ما يُتصدّق به، فهؤلاء سيلقون عذابا يُهينهم. ويجوز أن تفهم الآية على النحو التالي: أيّها المسلمون أحسنوا لبعضكم، وأمّا الذين يبخلون بأموالهم، ويمتنعون عن أداء ما أوجبه الله عليهم من الإنفاق، ويأمرون أصحابهم بأن يكونوا أمثالهم في الإمساك عن أداء ما وجب عليهم، ويكتمون ما جاءهم في التوراة بشأن الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبمؤازرته، فهؤلاء أعدّ الله لهم لكفرهم

ولشحّهم عذابا يذلّهم ويهينهم، وتكون الآية بهذا المعنى في اليهود. وأنا أذهب للمعنى السابق للتعميم حتى لا تكون الآية خاصّة باليهود، ونحن نعلم أنّ فينا من يشحّ بماله ولا يبْذله في وجوه البرّ والإحسان، وحين ترى هيأته في لباسه، وحين تسمع جحوده تظنّه معدما حتى إذا مات وظهرت تركته بَانَ غنيا، وترك لمن بعده ثروة طائلة.

- وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا **(38) :**

هذه في نفقة الرّياء، والله لا يحبّ الصدقة التي يتبعها مَنٌّ أو أذًى، وكذلك الّتي لا تكون خالصة لوجه الله تعالى، ولا يراد بها طاعةٌ لله، وإنما يُراد بها الفخر والكبرياء، وقد جاء فيما سبق أنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور، وهذه الآية في مظهر من مظاهر هذا الاختيال والفخر، أضف إلى ذلك كفره بالله وباليوم الآخر، فهذه نفقة لا تقبل، ولا يُثاب عليها صاحبها، وتذهب سَرَابًا. والذي يتصرّف هكذا إنّما اِتّخذ له شيطانا قرينًا، ومن اِتّخذ الشيطان له قرينا فساء مآلُه وخاب مسعاه.

والرّياء هو حبّ التّظاهر أمام النّاس بالعمل الخيري طلبا للسّمعة والشهرة وحسن الذّكر، وهو العمل الذي لا يُراد منه وجه الله تعالى أو نيل ثوابه.

- وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا **(39) :**

وأيّ أمر يثقل عليهم ولا يطيقونه إذا آمنوا بالله وحده، وآمنوا بيوم الحساب ليعملوا صالحا، وبذلوا ممّا آتاهم الله من خير ورزق في أعمال البرّ، وكان الله بعملهم عليما ليثيبهم عليها؟

- إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا **(40) :**

وهذه للحضّ على الإيمان بالله واليوم الآخر، ولإثبات علمه بعمل عباده. والمعنى: إنّ الله لا يُضيّع أجر قدر ثقل وزن ذرّة. والذرّة جمعها ذَرٌّ وهي النملة الصغيرة، أو هي الهباء المنتشر في الجوّ من الغُبار. فمن كان له حسنة من إيمان وعمل صالح يُضاعف له الأجر، ويزيده الله من لدنه الجنّة التي لا يدخلها إلاّ من حظيَ بأجر عظيم من الله تعالى.

- فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا **(41) :**

هذه الآية أبكت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين قرئت عليه إشفاقا على أمّته من هول يوم الحساب لمن يموت منهم على المعصية، ويؤتى بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم ليشهد عليه بالتّصديق أو التّكذيب، ولا يجد فرصة ليشفع فيه. الاستفهام يدلّ على سوء حال من يشهد عليه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأنّه كان مشركا أو كان كافرا ورفض التصديق به وطاعته.

- يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا **(42) :**



في ذلك اليوم، وفي ذلك الموقف الرّهيب أمام أحكم الحاكمين، وأمام الشاهد الصادق الأمين، يودُّ الكافرون والعصاة الّذين كذّبوا بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وشاقّوه في فزع يومئذ، وقد عاينوا جهنّم وسمعوا حسيسها لو اِبتلعتهم الأرض حينما ماتوا، وصاروا ترابا، ولم يبعثوا، ولم يظهروا، ولم يقفوا هذا الموقف، وصُحُفُهم بشمائلهم فيها سجّل أعمالهم الّتي تورّطهم فلا يستطيعون نكران ما فيها، ولا يقدرون على كتمانها، فيا لَفَضِيحتَهم!

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا **(43) :**

هذه أحكام مقدّمات الصلاة. جاء فيها الأمر بالامتناع عن الصلاة في حالة السّكْر، لأنّ السُّكْر من المنكر، فلا يقابلنّ أحدٌ ربّه بطاعة وهو على معصية حتّى يكون على صحو من السّكر. وكانت هذه الآية تمهيدا لتحريم شرب الخمر الذي جاء في سورة المائدة، فمن حكمة الله تعالى أنّ تحريمها كان بالتّدرّج. ولا تجوز الصلاة لمن كان على جنابة ولم يغتسل من جنابته إلاّ إذا كان في حالة سفر وفقد الماء، وإذا كان المرءُ مريضا مرضًا لا يستطيع معه اِستعمال الماء خوفا من اِزدياد مرضه، وتأخّر بُرْئِه، أو كان مُسافرا خارج بلده وبيته ولم يجد ماءً للاغتسال أو للوضوء للصلاة، أو خرج منه عند قضاء حاجته البشريّة ما يُلزمه الوضوء للصلاة، أو باشر زوجته وجامعها وفقد الماء ولم يجده فعليه بالتيمّم بالصعيد الطيّب، والصعيد الطّيب هو وجه الأرض، ووجهُها هو الرّمل أو الحجارة أو التراب أو الثلج. وعليه – فرضا- مسح الوجه واليدين بهذا الصعيد. إنّ الله كان عفوا على الذي لم يجد ماءً لاغتساله أو وضوئه، وأجاز له الصلاة بالتيمّم تخفيفا وتيسيرا حتى لا يفرّط في صلاته، وكان غفورا لما حافظ على صلاته ولم يفرّط فيها.

وفي كتب الفقه تفاصيل واضحة على شروط التيمّم وكيفيته: واجباته وسننه وشروطه (انظر رسالة بن أبي زيد القيروان، والقوانين الفقهية وغيرهما من كتب الفقه الكثيرة التي كتبت عن الصلاة والطهارة).

- أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ **(44)** وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا **(45) :**

هذه في طائفة من أهل الكتاب ينسبون أنفسهم لأهل العلم، وليس لهم من العلم بما في التّوراة إلاّ القليل، يقلبون الحقائق، يغيّرون الهدى بالضلالة، ويريدون للمسلمين الذين يسمعون لهم أن يضلّوا الطريق: طريق الحقّ بما يشيعون فيهم من معلومات زائفة وأخبار كاذبة حسدًا من عند أنفسهم.

والله أعلم بالذين يكيدون لكم في الخفاء لإيذائكم. وحسبكم الله حفيظا لكم، وناصرا لكم فلا يصلون إليكم بشيء ممّا يريدون لكم.

- مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46) :

ومن اليهود فريق يبدّلون معنى كلام التّوراة، ويؤوّلونه ليصرفوا النّاس عن الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلّم. ويقولون في مجالس النّبي صلّى الله عليه وسلّم إذا حدّثهم للإيمان به ولدعوتهم للإسلام: سمعنا منكم ما قلت، ولكنّا لا نفهم قولك، ولا نستطيع أن نطيعك، ولا نأتمر بأمرك. ويقولون : اِسمع منّا، وفي أنفسهم يقولون: لا سمعتَ. ويقصدون الدعاء عليه بأن لا يسمع – ويقولون للرّسول صلّى الله عليه وسلّم : راعنا – يفهمه العربيّ بمعنى المراعاة – وهي كلمة في اللّغة العبرية تفيد الشّتم. فكانوا يقولونها مع اللّوك بها بألسنتهم لتدلّ على المعنى السيّئ الذي قصدوه، وطعنا في صدق النّبي صلّى الله عليه وسلّم لأنّهم كانوا يقولون لبعضهم: لو كان نبيًّا لعَلِم أنّا نشتمه ونسبّه، فأظهر الله لنبيّه هذا الطعن، فكان هذا الإظهار دليلا على صدق نبوّته. ولو كانوا يقولون: سمعنا منك وأطعناك، واِسمع منا وانظرنا قليلا حتى نرى أمرنا لكان خيرا لهم وأصوب لهم في الدين، ولكنّهم طُردوا من رحمة الله بكفرهم بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبطعنهم في الدّين، فلا يؤمنون إلاّ إيمانا لا يستحقّ الذكر.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (47) :

في هذه دعوة لجميع الكتابيين ليؤمنوا بالقرآن وتنزيله على محمد صلّى الله عليه وسلّم وهو كتاب يصدّق لما معهم من التوراة والألواح والإنجيل قبل أن يحلّ بهم عذاب الله بالطمس على وجوههم بالنّار فيجعلها مشوّهة، أو ينزل عليهم عقاب المسخ كما حدث لأصحاب السبت الذين عصوا أمر ربّهم بالامتناع عن الصيد يوم السبت فجعلهم في عملهم وحركاتهم كالقردة، وفي رائحتهم كرائحة الخنازير نتنة، وأمر الله فيهم إذا حلّ نفذ فيهم، ولا يردّه رادّ، ولا تنفعهم حينذاك توبة.

- إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا (48) :

هذه من آيات الرّجاء، وهي موجّهة للمشركين تدعوهم للإقلاع عن الشرك فإنّها معصية لا تغتفر لما فيها من اِفتراء على الله وكذب عليه سبحانه وتعالى في حقّه الوحدانية: والقائل بالشرك



مفترٍ وآثم الإثم العظيم الذي لا يغتفر. وما دون هذا الإثم فإنّ الله تعالى واسع المغفرة يغفر لمن يشاء ما لم يأت بالكبائر، على قول المتكلّمين في الكبائر، ولكنّ الله تعالى فعّال لما يريد، قد يغفر لصاحب الكبائر إذا صدق في توبته والله أعلم.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا (49) ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا (50) :

عجبا لأمر اليهود، يقولون للنّاس نحن أبناء الله وأحبّاؤه، لا نعذّب، كلاّ الأمر ليس كما يقولون فإنّ الله هو الذي يطهّر من يشاء من الرّجس ويكرمه ولا يعذّب، وكلّ الناس محاسبون على أعمالهم، ولا يُظلم أحدٌ في حقّه ولو كان بحجم الخيط الّذي في شقّ نواة التمرة الذي لا يزن ولا يساوي شيئا من القيمة. عجبا لأمرهم كيف يدّعون على الله الكذب، حسبهم هذا الذنب الواضح ليعاقبوا عليه.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا (51) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا (52) :

هؤلاء أحبار اليهود وعلماؤهم، من عجيب أمرهم يؤمنون بالسحر ونفاذه وقوّة تأثيره في تغيير القضاء والقدر، ويصدّقون بالكهنة ويطيعونهم طاعة المعبود، ويقولون لكفّار قريش أنتم أكثر هدى من أتباع محمد. (أُوْلَٰٓئِكَ) إسم إشارة للبعيد، لبيان بعدهم عن الحقّ والهدى أطردهم الله من رحمته، ولن يجدوا يوم القيامة من ينصرهم لينقذهم من العذاب.

- أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا (53) :

ليس لهؤلاء حظّ من الملك من شيء. ولو كان لهم منه شيء لبخلوا به عن النّاس وشحّوا، ولم ينفقوا ممّا عندهم ولو بحجم تلك الدائرة الصغيرة في نواة التمرة لأنّهم يمنعون حقوق الناس حسدا.

- أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا (54) فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55) :

وتراهم يحسدون النّبيّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم خاصّة على ما آتاه الله من النّبوّة، وأصحابه على ما آتاهم من الهدى وصدق الإيمان ونصرة الرّسول، وقد آتينا من قبله إبراهيم وداود وسليمان الكتاب، وجعلناهم قدوة حسنة في إيمانهم وعبادتهم وخلقهم ووسّعنا لهم في الملك والحُكم، ومع ذلك فمن اليهود من آمن بهم، ومنهم من صدّ عنهم، فالصدّ عن سبيل الله من طبع أغلبهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا (56) :



إنّ الذين كفروا بدلائل صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم وبالوحي الّذي أنزل عليه، وبوحدانية الله سوف يلقون عذابا بنار تحرق جلودهم، فإذا إحترقت واشتوت وأكلتها النّيران ولقي صاحبها عذاب إحتراقها وشوائها جعلنا لهم جلودا أخرى وعوّضناها لهم ليعاد لهم نفس العذاب. إنّ الله تعالى عزيز لا يُغلب، حكيم في موعظة النّاس وبيان حُكْمِهِ قبل وقوعه ليحذَرَه العاقلُ منهم.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا (57) :

وأمّا المؤمنون العابدون الطائعون فموعدهم في آخرتهم مع الجنّة يدخلونها آمنين مخلّدين فيها أبدا، ويلقون فيها الأزواج العفيفات الطاهرات، والكِنَّ الذي يحميهم من حرّ الشمس ويمنحهم الرّاحة والرطوبة والنّعيم.

- إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا (58) :

هذه الآية من أمّهات الأحكام، وهي موجّهة لولاة الأمور، وللقضاة بالخصوص، إنّ الله يأمركم أن تعطوا النّاس حقوقهم من حرية ممارسة أعمالهم، وفي التعليم، وفي توفير الأمن والأمان، وفي ردّ المظالم لأصحابها، وحفظ ممتلكاتهم وأعراضهم، وفي حمايتهم من كلّ ضرر، وإذا حكمتم بين المتنازعين منهم فاحكموا بينهم بالعدل، فليس في القضاء شريف ووضيع، وليس لذي الجاه سلطان على العدل. إنّ هذه من الموعظة الحسنة التي يعظكم الله بها، والله سميع لما تحكمون به، وبصير بما تفعلون بالأمانات. وهذه الجملة للتحذير من مخالفة أمره.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (59) :

بعد أن أُمِرَ وليّ الأمر والقاضي التابع له بأداء الأمانات للمحكومين والحكم بينهم بالعدل جاءت هذه الآية بأمر المؤمنين بطاعته بعد طاعة الله فيما أمر وفيما نهى عنه، وفيما حضّ عليه، وطاعة الرّسول فيما بلّغ به عن أمره، وفيما نصح به الأمّة.

فإن تنازعوا في شيء واختلفوا في حكمه الشرعي، فالأمر هنا يردّ لأولي الأمر: الفقهاء والعلماء في الدين لينظروا في كتاب الله وفي سنن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليستنبطوا منه الحكم بالحجّة والدليل النّصّي أو الدليل العقلي القائم على احترام الكليات للمقاصد الشرعية، وهذا من خاصية العلماء المجتهدين المؤمنين الصادقين المتّقين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، وهذا الردّ لأهل العلم خير من التّنازع، أو التّمادي في الباطل، وهذا خير مرجع يرجع إليه، وإليهم يؤُول الأمر.



- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا **(60)** :

وهذه لتنبيه المؤمنين حتى لا يفعلوا فعل المنافقين في تنازعهم واِختلافاتهم. والمعنى: ومن عجيب أمر المنافقين الذين يزعمون أنّهم يؤمنون بكتابهم وبالقرآن يريدون في قضاياهم ومنازعتهم أن يتحاكموا إلى الكهنة. جاء في أسباب النزول أنّ خصومة وقعت بين يهودي ومنافق، وأراد المنافق أن يعرض المسألة على الكاهن ويحتكمه لعلمه أنّ الكاهن مُرْتَشٍ، وأحبّ اليهودي أن يحتكم إلى الشرع الإسلامي لعلمه بأنّه ينصف المظلوم صاحب الحقّ. ومن غريب أمر المنافقين أنّهم أمروا بأن لا يصدّقوا الكهنة، وبأن لا يطمئنّوا إليهم، ولكنّهم يتمسّكون بهم لأنّ الشيطان زيّن لهم ذلك يريد أن يوقعهم في الضلالات المهلكة.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا **(61)** فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا **(62)** أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا **(63)** :

هذه في وجه تعامل المنافقين مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وفي توجيه الرسول صلّى الله عليه وسلّم للكيفيّة الّتي يجب أن يعاملهم بها. والمعنى: إذا قيل للمنافقين تعالوا نتحاكم إلى الرّسول وإلى ما ينزل عليه من الوحي تراهم لا يرحبّون بالمقترح، وتجدهم لا يرغبون في أن يذهبوا إليه ليحكم بينهم، ويعرضون عنه صدًّا. فكيف إذا حلّت بهم مصيبة عند اِشتداد اِختلافهم بسبب عنادهم وإعراضهم عن التحاكم للرسول عندئذ سيأتون إليك، وتراهم يقسمون بالله أنّهم لم يريدوا التحاكم إليك لأنّهم كانوا يرجون الصلح فيما بينهم دون الوصول للتقاضي والاحتكام إليك. أولئك الذين يعلم الله نفاقهم لأنّه لا تُخفى عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلا تعاتبهم –يا محمد– ولا تأبه بهم، وعظهم بأن يكونوا صادقين في إيمانهم وأقوالهم، وشدّد عليهم في القول حتى لا يعودوا لمثله، وعسى أن يترك قولك فيهم أثرًا في أنفسهم لشدّة وقعه، ولكشفك لهم حقيقة أمرهم.

- وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا **(64)** :

هذه في فضيلة الرّسل، فقد قضى الله تعالى إذا أرسل رسولا إلى قومه أن يسمعوا له، وأن يطيعوه لأنّ إرادة الله تعالى شاءت لهم الهداية، وقد جاء في قصص الأنبياء والرّسل أنّ الأقوام الذين كذّبوا رسلهم وشاقّوهم قد تعرّضوا لعذاب الاستئصال كقوم نوح وعاد وثمود إلاّ من اتّبع



الرسل. فهذه الآية لتحذير المشركين من مشاقّة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم بالتكذيب والعصيان، وفي الآن ذاته فيها وعد لهم بأنّهم إذا جاؤوا الرسول محمدا صلّى الله عليه وسلّم مؤمنين ومصدّقين وتائبين من الشّرك وطلبوا مغفرة ربّهم، ودعا لهم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ربّه بأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم من الشرك والمعاصي وتكذيب الرّسل لاسْتجابَ لهم ربّهم لأنّه كثير التوبة على عباده الراجعين إليه بالتوبة والطاعة، وكثير الرحمة بهم يوم جمعهم يوم القيامة.

- فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65) :

هذه في الذين كانوا يريدون أن يتحاكموا إلى الكهنة ثمّ جاؤوا إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأدّعوا كذبا أنّهم كانوا يريدون الصلح، وكانوا يزعمون أنّهم يؤمنون بالتّنزيل فجاء هنا خبرهم مؤكّدا بالقسم، والقَسَمُ بربّ محمد، وهذا تشريف كبير للنّبيّ محمد لرفع مكانته في قومه، وعند الذين يعادونه، وعند المنافقين. والمعنى: ليس الأمر كما يدّعون، فوربّك لا يكون إيمانهم صادقا وقويما حتى يحكموك فيما اِختلفوا فيه، وفيما تشاجروا عليه وتخاصموا، وأشكل عليهم أمره، ثمّ إذا قضيت فيهم وحكمت فإنّهم يرضون بما حكمت فيهم، ولا يجدون في تحكيمك ضِيقًا ولا كراهة، وينقادون إليه طواعية ويسلّمون به وينفّذونه، حينئذ يَصْدُقُون في إيمانهم.

- وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (68) :

ولو أنّا فرضنا على هؤلاء المنافقين من الذين يريدون التوبة أن اُقتلوا الكافرين منكم والمشركين، أو هاجروا من بلادكم ودياركم إلى أرض آمنة لا تلقَوْن فيها أذى، ما قَتَلوا وما خَرَجُوا إلاّ القليل منهم. ولو أنّهم فعلوا ذلك لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة، ولأثبتوا به قوّة إيمانهم وحُسنه، ولأثبتوا به رسوخ عقيدتِهم. وعندئذ ينالون في آخرتهم ثوابا عظيما وتكريما، ويكونون بهُدَى الله لهم، على صراطه المستقيم الذي ليس فيه زَيْغٌ.

- وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (69) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (70) :

هذه في عِظم ثواب من أطاع الله ورسوله، وهي خاتمة يتمنّاها ويسألها كلّ مؤمن ربَّه. والمعنى: من يطع الله فيما أمر، وفيما نهى عنه، ومن يطع الرّسول فيما يَعِظ به ويرغّب فيه، وفيما يحذّر منه، فإنّ الله سبحانه يُنعم عليه في آخرته بأن يجمعه مع النبيئين وأتباعهم



المخلصين، والقتلى في سبيل الله، والعاملين الصالحات في عباداتهم ومعاملاتهم ليكون في رفقتهم، وما أحسن رفقتهم في جنّات النعيم، ونزل التكريم والضيافة، يستمتع برؤيتهم، وحضور مجالسهم، ينال هذه المنزلة، وهذا القدر بفضل من الله تعالى وتكريمه. هذه الآية تدلّ على أنّ هذه المرتبة لَمْ يَنَلْهَا بعمله وإنّما نالها بفضل من الله (انظر التفسير الكبير لفخر الدين الرّازي) والله عليم بما يفعل أولياؤه وبما يطلبون، وما يرجون.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا **(71) :**

هذه في أخذ الحيطة للحذر من الأخذ على غرّة من الأعادي تجنّبا لأذاهم، وللمحافظة على أمن البلاد، وأرواح العباد وسلامة ممتلكاتهم وأرزاقهم من الغصب والتخريب، وللمحافظة على الدّين، في زمن كانت فيه غارات أهل السطو، والقراصنة، وأعداء الدين، وذوي الأطماع في السلطان الواسع على البلدان المجاورة مُتَفَشِّيَّةً، لذلك بُنِيَت الرباطات للمراقبة في جهات كثيرة ليلا، وأقيمت الأسوار والأبراج لحماية المدن الآهلة بالسكّان.

ودُعِيَ المؤمنون في هذه الآية لإعداد العدّة من السلاح ووسائل الحماية والدفاع، وجميع أسباب القوة لحماية أنفسهم وتأمين بلادهم وأرزاقهم، ولصدّ عدوان المعتدي، ودُعوا للتحفّز للنّفير جماعات إثر جماعات، أو للهَبَّةِ التامّة عند وجود خطر داهم من الخارج، أو للخروج للجهاد دون جُبْن.

ولقد تغيّرت وسائل إعداد العدّة في زمننا هذا للحذر من الخطر المداهم – سواء أكان من داخل البلاد أم من خارجها – نتيجة تطوّر وسائل الدفاع وتنوّعها، وبسبب تعدّد وسائل الهجوم وتنوّعها، ونتيجة تطوّر تقنيات الأسلحة وفنّيات إستعمالاتها وتنوّع أنماطها وأخطارها، وبحسب بُعد المكان أو قربه، أو بسبب توجّهها للآليات أو للعناصر البشرية أو للبنيان.

وسائل الحذر والحيطة أو وسائل الهجوم لها كليّات حربية مختصّة تعتمد الدراسات، ودقّة التكوين، لها أهلها المختصّون، ولها آلياتها المتنوّعة والمتعدّدة، يجب على كلّ دولة أن يكون لها من يمتلك ناصية العلم في هذا الميدان، والإمكانات المادية القوية للصناعة والابتكار، لتمتلك الترسانة الدفاعيّة والهجوميّة اللازمة لهذا المبدإ – مبدإ أخذ الحيطة والحذر لحماية البلاد وساكنيها وممتلكاتها من العدوان الخارجي، ويكون كذلك بإعداد العنصر البشري المختصّ الذي يمتلك القدرة على إستباق العدوّ بكشف مواقعه ونقط إهتماماته، وهذا من عمل الاستخبارات، وبامتلاك وسائل القدرة على تخطيط خطط الحماية قبل المواجهة وعندها وفيما يجب أن يكون بعدها حيث يُبعد عن البلد الخطر، ويضاف إلى كلّ ذلك حسن الاستعداد الطبيّ للإسعاف وللعلاج، وإعداد جمعيات المجتمع المدني لأداء الواجب عند حدوث الضرر أو حتى لا يكون هناك فزع وهلع، وهروب، وما إلى ذلك ممّا يعرفه أهل الاختصاص.

- وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدًا (72) وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا (73) :

الآيتان في الانتهازيين والمنافقين، إنّ منهم من يتباطأ في الخروج مع المُجاهدين، أو يتعمّده تهرّبا منه، فإذا أصاب المسلمين تقتيل وأذًى، قال في نفسه: قد أنعم الله عليّ حين لم أخرج معهم، وإلاّ لكنت الآن في عِدَادِ القتلى شهيدا. وإذا أصابوا غنائم وقتئذ يقول: يا ليتني كنت معهم فأحصل على نصيب كبير منها.

- فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا (74) :

الأمر في الآية للمؤمنين الصادقين كي لا يتخلّفوا عن الجهاد في سبيل الله، فالجهاد بيع النّفس في سبيل الله للفوز بنعيم الآخرة. ومن يُقتل في ساحة المعركة أو ينتصرْ ويَعُدْ غانما فسوف يَهَبُه الله تعالى أجرا عظيما كريما وكبيرا.

- وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (75) :

هذه الآية في بيان السبب الداعي للجهاد والغاية منه، إنّه في سبيل الله والرجال والنّساء كبار السنّ والضعفاء والولدان الصّغار الذين بقُوا بمكّة عند المشركين وغلبتهم عشائرهم فحبسوهم عن الهجرة للمدينة. وهم مسلمون يدعون ربّهم ويتضرّعون إليه ليهيّئ لهم الأسباب للخروج من مكّة ويطلبون حفظ الله ونصرته. فلا ينقذهم من هذا القهر غير هؤلاء المجاهدين المخلصين لدين الله.

- ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا (76) :

الذين آمنوا بالله يقاتلون في سبيل الله نصرةً لدينه، والمشركون يقاتلون في سبيل الأصنام نصرة لشياطينهم، فقاتلوا – أيّها المسلمون أنصار الشيطان والصنم وأعوانهما – إنّ كيد هؤلاء المشركين عبدة الشيطان والصنم ضعيف، فلا تخشوهم.

- أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا (77) :



هذه في أوائل المسلمين قبل فريضة الجهاد. أُمروا بالصلاة والإنفاق، وبتحمّل أذى المشركين، ولم يُؤْذَنْ لهم بقتالهم، فلمّا أمروا بالجهاد، والقتال شقّ عليهم الأمر، وصاروا يخافون مواجهة المشركين وبطشهم بمثل ما يخافون ربّهم وعقابه، بل إنّ خوفهم من المشركين أقوى وأشدّ من خوفهم من الله عزّ وجلّ، وقالوا: ربّنا لِمَ كتبت علينا القتال والجهاد، لو أخّرت إنزال هذه الفريضة إلى زمن آخر. والقائلون بهذا هم ضعاف الإيمان الذي لم يترسّخ بعدُ في قلوبهم، ولم يوقنوا بعد بأنّ الموت بالأجل. أخبر هؤلاء أنّ متاع الدنيا زائل، والانتفاع به قليل، والآخرة خير لأنّ متاعها دائم ولا ينقطع، وهذا من نصيب المتّقين، ولا يُظلم أحد في ثوابه وأجره، ولو كان بحجم الخيط في نواة التمرة.

- أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا **(78)** مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا **(79)** :

هذه في الردّ على الذين يخافون من القتل إذا خرجوا للجهاد. أينما تكونوا يلحقكم الموت إذا حان أجله، ولو كنتم في حُصون منيعة أو قصور محصّنة، أو في قلعة مرتفعة محكمة البناء، وفي بيوتكم وفرشكم، فلا مفرّ لكم منه إذا جاء أجله، فَلِمَ الخوفُ منه. هؤلاء إذا أصابوا غنائم فرحوا بها وعلموا أنّها من فضل الله عليهم ومن كرمه، وإذا أُصيبوا بهزيمة، أو بشدّة قالوا هذا الرّسول قد أساء التدبير والنّظر. أخبرهم بأنّ كلّ أمر من تقدير الله تعالى، ما بال هؤلاء لا يفهمون ما يقولون، ولا يَزِنُونَ ما يتحدّثون به، ولا يدركون ثِقَل كلامهم. أيّها الإنسان ما جاءك من فضل فمن نِعمة الله عليك، وما نالك من شدّة فمن نفسك، ومن سوء تدبيرك، ومن تعجّلك. وأرسلناك –يا محمد– للنّاس رسولا لتبلّغهم رسالة ربّك وشرعه ومواعظه، وحسبك الله شاهدا على صدقك.

- مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا **(80)** :

تؤكّد هذه الآية أنّ طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من طاعة الله عزّ وجلّ، ومن طاعة أوامره، ومن أعرض عن طاعته فأمره إلى الله، وما أرسلناك – يا محمد– إلاّ لتكون عليهم حافظا ومحاسبا.

- وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا **(81)** :

الآية في جبن طائفة من المؤمنين، حين كان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يحضّهم على الجهاد يتظاهرون بالطاعة لأمره، والاستجابة له، لكنّهم حين يغادرون مجلسه يقرّون في أنفسهم غير الذي وَعَدُوا به، ويبيّتون عدم الخروج للجهاد، والله مطّلع على سرائرهم، فلا تأبه – يا محمد- بهم، ولا تنتظر خروجهم معك، وتوكّل على الله حين تعزم على أمر – وحسبك الله هو الذي ينصرك على عدوّك.

- أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (82) :

الآية تأمر السامع أو القارئ بتدبّر القرآن ليعرف معاني الآيات، ليعرف به ربّه، ودلائل وحدانيته، وليعرف منه أحكامه وشرعه ومواعظه، وليعرف نِعمه وفضائله، ووعده ووعيده، وليتأكّد بتدبّره أنّه كلام الله حقّا، ولو كان من عند غير الله لوجد فيه الاضطراب والتناقض والتفاوت في الأسلوب، ولكنّ القارئ المتدبّر حين يقرأه يجده في أسلوبه ومواعظه وحدة كاملة رغم أنّ تنزيله دام أكثر من اثنين وعشرين عاما، ولو كان من كلام البشر ما كان ليكون متناسقا من أوله إلى آخره على نحو النّصّ القرآني من أول سورة منه إلي آخرها.

- وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا (83) :

هذه في قوم يحبطون العزائم، ويشيعون إشاعات مغرضة، والمعنى: هناك فريق من الناس إذا بلغهم خبر سرية من سرايا المسلمين أنّها أُصيبت وسَلِمت أو فشلت وخافت العدوّ، أذاعوا الخبر دون تثبُّت ولم يسكتوا عنه، وسارعوا بإفشائـــه بين النّاس، وتكلّموا به قبل أن يخبروا به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولو أنّهم سكتوا عنه حتى يُخبروا به الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأولي الأمر لكان خيرا لهم، ليعرف الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه كيف يتعاملون مع الخبر ليستخرجوا خفايا الإشاعة ومُرَوِّجيهـا، وليبحثوا في صدقها، ولولا رحمة الله بالمؤمنين وستره للضعفاء منهم في إيمانهم لنجح الشيطـان في اِستمالتهم إليه إلاّ من عصَمَه الله تعالى منه.

- فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (84) :

فامْضِ – يا محمد – في قتال الكافرين نُصرة لدين الله، وحُضّ المؤمنين وحثّهم على الجهاد معك رجاء أن يكفّ أذى الكافرين عنكم، ويكفّوا عن قتالكم، ومواجهتكم بالعداء، والله أشدّ بأسا على أعدائكم وأشدّ عقوبة لهم.

- مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا (85) :



هذه في حضّ المؤمنين على التدخّل بالصلح والحسنى بين النّاس لقضاء حوائجهم، من سعى بين النّاس ليقضي حوائجهم، أو ليصلح بين اثنين يكن له الأجر والثواب، ومن سعى فيهم بالنّميمة والغيبة، أو بتزيين المعصية، أو ليضرّ، يكن له نصيب من الوِزْرِ والإثم، كالذي يفعله أهل السياسة في تنافسهم على المناصب يشيع بعضهم في بعض إشاعات تمسّ من عرضهم وشرفهم، ويسيئون لبعض للحطّ من منزلتهم ولضمان خسارتهم في الانتخابات وِانتصارا لطرف منافس. (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا) والمقيت هو المقتدر، وهو الرزّاق، وهو الحافظ والشاهد. وهذه الجملة للتحذير من كسب الكِفْل الذي هو الوزر، ومن ذاك العمل غير الشريف.

- وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا **(86)** :

وهذه في إفشاء السلام بين النّاس. والمعنى إذا تلقيتم من أحد تحية وسلامًا فردّوا على تحيته بخير منها كأن تدعو له بالخير وبالبركة، وبما يفيد التقدير والاحترام، أو ردّوا بمثلها لإشاعة خلق التسامح بينكم، وللتعامل بالأدب والاحترام وحسن الخلق بينكم. ومن لم يردّ السلام فعليه إثم، وهذا خُلُق مكروه في الإسلام، ومُؤَاخَذٌ عليه، لذلك جاءت هذه الجملة (إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا) للحذر من المحاسبة على الامتناع عن ردّ السلام لما فيه من الإعلان عن الجفوة، وهو خلق يقطع صلة التّسامح والتّراحم والتّحابب في المجتمع الإسلامي. (وانظر في تفسير ابن عاشور، والقرطبي، وابن عربي فعندهم تفاصيل في التحية وفي ردّها وفي سننها وكيفيتها لمن أراد أن يستزيد من المعرفة).

- ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا **(87)** :

هذه في الإيمان بالبعث ليوم الحساب يوم القيامة. وبدئت الآية بالقسَم بوحدانية الله تعالى بأنّه جامع النّاس أجمعين يوم القيامة بلا شكّ لمحاسبتهم على إيمانهم وعملهم للجزاء أو للعقاب، كلٌّ بحسب ما في سجلّه من إيمانه وعمله. ولا أحد أصدق من الله حديثا وخبرا وإعلاما.

- فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا **(88)** :

هذه في تصنيف المنافقين، هم على فرقتين: فرقة ارتبطت بصلة بقوم بينهم وبين المسلمين معاهدة سِلْم، وفرقة ثانية وطَّدَتْ نفسها على النّفاق مع المسلمين ومع المشركين كذلك. والمعنى: إنّ لكم في المنافقين فريقين، فريقا قدموا إلى المدينة وأظهروا الإسلام، ثمّ لمّا رجعوا إلى مكّة أشركوا. والرّكس يعني النّكس، وهو الرّجوع إلى ما كانوا عليه. والمسلمون يريدون لهم الرّشد، وأن يتوبوا عن اِرتدادهم، ويحبّون لهم الهدي فلن تجد لهم طريقا لتقنعهم بأن يرجعوا عن فعلهم وعن ضلالتهم، فدعوهم لشأنهم، وفرقة ثانية وطّدت نفسها على النفاق مع المسلمين ومع المشركين كذلك.

- وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا(89) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا (90) :

هؤلاء المرتدّون يحبّون لو يرتدّ المؤمنون كما اِرتدّوا فيكونون سواء في الكفر والإشراك، هؤلاء يجب القطع معهم، ولا يجب اِتّخاذهم أخلاّء وأصفياء لسوء نواياهم ورغباتهم حتّى يهجروا ما حرّم الله، ويهجروا معاصيهم لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "والمهاجر من هجر ما حرّم الله عليه". فلا يُكَلَّمون، ولا يُخاطَبون حتى يتوبوا، فإن أعرضوا عن التوبة، وأصرّوا على ما هم عليه، (فَخُذُوهُمۡ) أيْ فَأْسُرُوهم، وأُقتلوهم حيث وجدتموهم، ولا تتّخذوهم أنصارا، ولا تستعينوا بهم في شيء، (إِلَّا) وهذا الاستثناء مَن كان تابعا لقوم بينهم وبين المسلمين حِلْف وعهد يجب حفظه، أو جاؤوكم وقد ضاقت صدورهم، وصارت محرجة ممّا صدر منهم، وضاقت صدورهم عن قتالكم، أو عن القتال معكم وكرهوه، ولو شاء الله لدفعهم لقتالكم ليُهزموا عقوبة، ولاختباركم لهم في صدق الإيمان. فإن تركوا قتالكم، وكفّوا أيديهم عنكم، أو صالحوكم، أو اِستسلموا واِنقادوا، فلا تؤذوهم، فليس لكم عليهم سبيل لتأديبهم.

- سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا (91) :

هذه في طائفة من المنافقين، كانوا يظهرون للمسلمين إسلامهم إذا أَتَوْهُم، ويظهرون شركهم للمشركين إذا كانوا معهم ليأمنوا هؤلاء وهؤلاء، وهم ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء، كلّما رُدُّوا للكفر والشِّرك رَجعوا، واِرتدّوا عن الإسلام. هؤلاء إن لم يتركوكم، ويبتعدوا عنكم، وإن لم يكفُّوا أيديهم عنكم، ولم يلقوا السلاح ولم يسالمُوكم، فامسكوهم واقتلوهم حيثما وجدتموهم وأدركتموهم وظفرتم بهم، فإنّا جعلنا لكم حجّة واضحة عليهم تبيح لكم قتلهم.

- وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (92) :

هذه في دية القتيل خطأً. لا يجوز لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن إلاّ إذا كان على وجه الخطإ، ولم يكن القتل متعمَّدًا، ولا سبق إضمَارُه. ومن قتل مؤمنا خطأ فعليه أن يحرّر رقبة مؤمنة وعليه أن يدفع لأهل القتيل (دية) وهو مالٌ يُدْفَع إليهم جَبْرًا لخاطرهم إلاّ إذا لم يرغبوا في قبولها عن طواعية منهم، وصدقة، ورحمة بالقاتل عن غير قصد وعمد. وإذا كان القتيل من قوم أعداء للمؤمنين – وهو مؤمن – فعلى القاتل أن يسلّم أهل القتيل دِيَتَه مالا، ويحرّر رقبة مؤمنة. وإذا كان القاتل فقيرا، لا مالَ له، فالواجب أن يتولّى جماعته دفع دية القتيل لأهله، وعليه أن يصوم شهرين متتابعين للاستتابة من الله تعالى. وكم من حادث مرور أودى بحياة شخص لم يهدأ بال صاحب العربة إلاّ بعد أن صام شهرين متتابعين للاستتابة! وكان الله عليما بمجريات الأمور، وحكيما في تحديد الأحكام المناسبة للموضوع. (وانظر في كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي لمعرفة دقائق كثيرة لمسائل الدية، وهي من الأحكام القضائية، وكذلك في كتاب ابن عاشور).

- **وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا (93) :**

وهذا في وعيد القاتل عمدًا، وعن قصد، فمن يقتل مؤمنا عن قصد فإنّ مأواه الخلود في جهنّم لأنّه أتى كبيرة من الكبائر، وعليه غضب الله ولعنته، وفي جهنّم يلقى العذاب العظيم، ويتولّى القضاء الحكم عليه بالقصاص، وبهذا يُعاقب في دنياه وفي آخرته لأنّه أتى جريمة نكراء.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنًا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا (94) :**

هذه فيما يجب على المؤمنين الحذر منه إذا خرجوا للجهاد. والمعنى: أيّها المؤمنون إذا خرجتم وسافرتم للجهاد، فتثبّتوا في قتالكم للنّاس، ولا تتّهموا الذي اِستسلم إليكم وأظهر لكم أنّه على ملّتكم: "كلاّ أنت كافر مشرك" تريدون سلبه أو سَبْيه واِستعباده. المغانم يؤتيكم الله إيّاها، والله عنده المغانم الكثيرة. واُذكروا أنّكم كنتم قبل إسلامكم مشركين فَمَنَّ الله عليكم بهدايتكم للإسلام فتبيّنوا، وتجنّبوا الظنّ السيّئ. والله مطلّع عليكم وعلى أفعالكم ونواياكم، لا يغيب عنه من أمركم شيئا.

- **لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا (95) دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا (96) :**

الآيتان في الترغيب في الجهاد في سبيل الله. والمعنى: ليس المتخلّفون عن الجهاد كالمجاهدين في سبيل الله مضحّين بأنفسهم وأموالهم، لا يستوون في صدق الإيمان وفي الأجر والثواب إلاّ إذا كان المتخلّفون من ذوي الأعذار، وأصحاب العِلل، لا يقدرون على الخروج للجهاد. المجاهدون بأموالهم وبأنفسهم أفضل من القاعدين، وأرفع منهم درجة. وعموما هم وأصحاب الأعذار موعودون بالجنّة، لكنْ للمجاهدين أجر أكبر، ومراتب أرقى، ومغفرة للذنوب، ورحمة. والله غفور رحيم بالمسلمين عموما وبالمجاهدين.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا (97) :

وبعد الوعد جاء هذا الوعيد للمتخلّفين عن الجهاد وبغير عذر يقعدهم عنه. هؤلاء حين تفيض أرواحهم، وهم عصاة، تتلقّاهم الملائكة بالسؤال للتّأنيب: فيم كنتم منشغلين عن الخروج للجهاد، فيردّون بادّعاءٍ كاذب: كنّا غير قادرين على الهجرة. وكنّا مستضعفين ليس لنا حولٌ ولا قوّة، فيُردّ عليهم: ألم تكن أرض الله واسعة من حولكم لتخرجوا إليها من دار الكفر وتهاجروا. هؤلاء مستقرّهم في جهنّم، وما أسوأ مصيرهم فيها؟

- إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (98) فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا (99) :

هذا الاستثناء لرفع الحرج عن الهجرة في العهد الأوّل للإسلام، حين كان الجهاد يتمثّل في الهجرة من مكّة إلى المدينة لتكوين المجتمع الإسلامي وللهروب بالدين من الفتنة والأذى. والاستثناء يخصّ الضعاف من الرجال والنساء العجز، والولدان الصغار لا قدرة لهم على الهجرة، وليس لهم تدبير، وليس لهم من يبلّغهم المكان الآمن، وليس لهم معرفة بالطريق، وفيهم من ليس له بَصَرٌ. ويُرْجَى لهؤلاء أن يعفو الله عنهم، والله سبحانه كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين المستضعفين.

- وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (100) :

ومن يهاجر في سبيل الله هروبا من الافتتان في دينه يجد أمكنة كثيرة للإقامة فيها في أمان بعيدا عن أذى المشركين، ورزقا واسعا بعيدا عن مضايقة أعدائه. وإذا خرج المرء مهاجرا إلى الله ورسوله وعاجله الأجل قبل أن يبلغ مكان الهجرة فقد ثبت ثوابه عند الله، وحصل على مغفرته ورحمته.

- وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا (101) :



هذه رخصة للتقصير في الصّلاة الرّباعية (الظهر والعصر والعشاء) الّتي تقام في ساحة المعركة، وتسمّى صلاة الخوف. والمعنى: إذا سافرتم خروجا للجهاد فليس عليكم إثم ولا حرج في أن تقصّروا الصلاة الرباعيّة: ركعتين بدل أربع، إذا خفتم أن يأخذكم أعداؤكم الكافرون على غرّة، وأنتم في حرب معهم، فإنّ الكافرين أعداء واضحون لكم يتربّصون بكم الدوائر، فلا تتركوا لهم الفرصة لمداهمتكم.

- وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا **(102)** :

هذه في كيفية صلاة الخوف أثناء الحرب بإمامة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. إذا كنت فيهم – يا محمد – وناديت فيهم لصلاة الخوف بإمامتك، فلتصلّ معك مجموعة من المجاهدين ركعة واحدة بإمامتك، فإذا أتممت الركعة بسجدتيها فاجلس حتى تأتي هذه المجموعة بالركعة الثانية لهم، ثمّ يسلّمون. فإذا قمتَ للركعة الثانية دخلت المجموعة الثانية معك في الصلاة فيصلّون معك ركعة واحدة، ثمّ أنت تسلّم للخروج من صلاتك والمجموعة الثانية تأتي بالركعة الثانية فرادى ثمّ يسلّمون، وبذلك تكون صلاتهم جماعيةً بإمامتك، وحينما تقوم الجماعة الأولى للصلاة معك تقوم المجموعة الثانية بحراستكم من حولكم ومعهم أسلحتهم مستعدّين لأيّ مواجهة، فإذا أتمّت المجموعة الأولى أخذت مكان المجموعة الثانية مكانهم ومعهم أسلحتهم ليدخل هؤلاء في الصلاة مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وفي الحالتين يجب حمل السلاح وأخذ الحذر والحيطة لحماية المصلّين. إنّ الذين كفروا يراقبونكم ويرغبون لو تدخلون جميعا في الصلاة لتضعوا أسلحتكم وأمتعتكم عند صلاتكم فيداهمونكم مداهمة قوية مستأصلة.

ولا جناح عليكم ولا إثم إذا هطَل عليكم المطر غزيرا أن تضعُوا دروعكم والمبطنّات حتى لا تثقل عليكم، وأن تضعُوا أسلحتكم حتى لا تصدأ، وكذلك يفعل المريض حتى يبرأ، ولابدّ من أخذ الحذر والحيطة في كلّ حال. واعلموا أنّ الله تعالى قد توعّد الكافرين بالعذاب المهين المذلّ لإذلالهم. (وفي كتب الفقه تفاصيل هذه الصلاة).

- فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا **(103)** :

فإذا فرغتم مِنَ الصلاة فاذكروا الله بالقلب واللسان في أيّ وضعية كنتم عليها، سواء أكنتم واقفين في حالة حراسة واِستعداد، أم كنتم جالسين للاستراحة أم كنتم على جنوبكم، فإذا انتهت الحرب وأمنتم من الخوف فأتوا صلاتكم بأركانها، وبكمال هيئتها في السفر على ما بيّنها لكم رسولكم صلّى الله عليه وسلّم، وإذا بلغتم الحضر وبيوتكم فأدّوها بكمال عددها، واعلموا أنّ الصلاة مفروضة على المؤمنين يؤدّونها في أوقاتها المعلومة.

- وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104) :

ولا تضعفوا في طلب الأعداء للخروج والنِّزال، إن كنتم تألمون ممّا أصابكم من الجراح، فإنّهم يألمون كذلك من جراحهم، وأنتم ترجون من الله الثّواب أو الشهادة، وترجون النّصر وإظهار الدّين، وهم لا يرجون شيئا من هذا، وكان الله عليما بحالكم، وحكيما في تصريف الأمور لصالحكم.

- إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا(105) :

في هذه الآية تشريف للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وفيها شيء من التّقويم على الجادّة في الحكم موجّه لكلّ من يتولّى أمر القضاء حتى لا يتحوّل إلى محامٍ عن الخصم خاصّة إذا لم يكن من أهل الاستقامة. والمعنى: إنّا أنزلنا إليك – يا محمد – ومن ورائه لكلّ قاضٍ – لتقضي بين النّاس بما علّمك الله من الحكمة ومن الكتاب، ولا تكن مدافعا تبحث لخائن الأمانة عن أعذار.

قيل نزلت هذه الآية في اِبن أبيْرَق كان سرق سرقة وتفصّى منها واِتّهم بها رجلا بريئا من الأنصار، ولكنّي غير مطمئنّ لهذه الرّواية وأشكّ فيها لأنّه حاشا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أن يدافع عن خائن كاذب سارق، فإمّا أن يكون لهذه المسألة تفاصيل غير معلومة، وإمّا تحتاج للتدقيق، وعموما فإنّ الآية تؤخذ على عمومها لتوجيه القضاة للعدل في الحكم.

- وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (106) :

خطاب عام لكلّ مؤمن ليحافظ على طلب المغفرة، فلا يدّعي أحد من المؤمنين أنّه معصوم من الوقوع في الخطإ والزّلل. وجاء الوعد من الله تعالى بأنّه يغفر لمن طلب المغفرة، وهو كثير الرّحمة بهم يوم القيامة لا يؤاخذهم عن أخطائهم.

- وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) :

ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المعاصي في خفاء وفي تستُّر. إنّ الله سبحانه لا يحبّ من يتعمّد الخيانة لنفسه ولدينه وللنّاس وللوطن، فإنّه كثير الآثام والذنوب.



- يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) :

الخونة يستحيون من أو يوصفوا عند النّاس بهذه الصفة المحتقَرة، ولذلك يحتاطون من أن يكشف أمرهم، ومن عجيب أمرهم أنّهم لا يستحيون من الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية وهذا من ضعف إيمانهم، ولا يعلمون أنّ الله حاضر في جلساتهم بالسمع والعلم بما يخطّطون ويدبّرون في الخفاء بليل، وبما يتكلّمون به في الدّين وفي الرسول، وفي الوحي بما لا يرضي الله عزّ وجلّ، والله على علم بكلّ جزئية من تدبيرهم.

- هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109) :

والمسلمون يغيب عنهم ما يقول هؤلاء وما يدبّرون لهم وللدّين من سوء في الخفاء، ويظنّون بهم خيرا لصفاء قلوبهم فيدافعون عنهم لينفوا عنهم صفة الخيانة، فمن يأتي مدافعا عنهم يوم القيامة أمام الله تعالى العليم بما كانوا يقولون ويعملون، ومن يكون لهم حافظا ومحاميا عنهم ليدفع عنهم عذاب الله وعقابه.

- وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (110) :

هذه في فتح باب الرجاء لمن أذنب. من يعمل سيّئة أو يرتكب معصية كبيرة ثمّ يندم عمّا فعل، ويطلب مغفرة ربّه يجد الله قابلا لتوبته، ويمنحه مغفرته ورحمته فلا يخاف بَخْسًا.

- وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (112) :

وهاتان للوعيد، ومن يرتكب عملا فيه إضرار للغير، أو يقول فيه قولا كاذبا أو يدبّر له سوءًا، فإنّما سيعود عمله عليه بالوبال، وسيضرّ به نفسه، وكان الله عليما بما عمل وقال ودبّر، وحكيما في تدبير أمر كشفه، وحماية المراد به إضراره. ومن يرتكب ذنبا ومعصية عن عمد وقصد، أو يأتِ بعمل سيّئ ثمّ يتّهم بهم رجلا بريئا ليورّطه ظلما فقد جاء بكذب مختلق يدهش المتّهم البريء ويبهته ويحيّره، وجاء بتُهمة زُورٍ بيّن.

- وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113) :

ولولا أن نبّهك الله إلى الحقّ بالنّبوّة والعصمة لكادت طائفة من هؤلاء الكاذبين المخادعين أن يغالطوك لتَتَحَيَّرَ فتقضي على غير وجه الحقّ، ولكنّهم ما يغالطون إلاّ أنفسهم والله عاصمك



منهم فلا يغالطونك، وأنزل الله عليك القرآن فيهِ حكم الله، وآتاك الحكمة لتقضي بالحقِّ، وعلّمك من الشرائع والأحكام والدلائل ما لم تكن تعرف. وكان فضل الله عليك عظيما بما علّمك وبما آتاك من الوحي وبما ألهمك من الحكمة.

- لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) :

لا خير في كثير من حديثهم السّرّي المكتوم، لا يصلح لشيء إلاّ أن يزدادوا ذنوبا، باستثناء الذين يتسارّون بأعمال البرّ والخير من مثل تنظيم الصدقات وتوزيعها من أجل المحافظة على كرامة المحتاجين، ولينالوا ثواب صدقة السرّ تجنّبا للرياء، وكذلك الذين يتسارّون فيما يجب فعله للإصلاح بين النّاس. هذا عمل إذا أريد به وجه الله تعالى ومرضاته فسوف يقابله من الله عزّ وجلّ الأجر الكبير، والثواب الجزيل.

- وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) :

هذه في تأديب المسلمين في علاقتهم بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ومن يخالف الرّسول ويفارقه من بعدما تبيّن له طريق الهدى والرّشاد والصدق، وينتهج منهج مخالفة سبيل المؤمنين نتركه لما ذهب إليه، ونتركه يبتعد عن سبيل الهدى فيستحقّ عندئذ مصيرًا سيّئا في جهنّم يُصْلَى بنارها. وقد إستند الفقهاء – وخاصة الإمام الشافعي– على جملة: (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) على حجّية "الإجماع".

- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) :

إنّ الله لا يتسامح مع الإشراك به، ويتسامح مع ما هو دون ذلك من المعاصي وإن عظمت لمن يشاء أن يتوب ويقلع عن المعاصي ويصلح عمله. ومن يشرك بالله فقد حاد عن الصواب وبعُد عنه بُعدا كبيرا لا يوصله للهدى.

وقد إستشهد بعضهم بهذه الآية، وغيرها على أنّ الكبائر تغفر بالتوبة، وهناك من المذاهب من لا يقول بالتوبة عن عمل الكبائر. وعندي أنّ النّصّ القرآني أصدق ممّا يقوله البعض من أصحاب المذاهب المتشدّدة.

- إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (117) لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ



خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا (119) يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (120) أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا (121) :

هذه في ذمّ عباده المشركين، وفي التّحذير من عمل الشيطان وعاقبته. كان المشركون يسمّون آلهتهم الأصنام بأسماء الإناث: اللات والعزّى ومناة، فجاءهم هذا التّعبير، إن يعبدون إلاّ إناثا، وكان العرب يكرهون جنس الإناث لأنّهنّ لا يدفعن عدوّا، ولا ينصرن، ولا يأخذن ثأرا، وفي عرفهم اِمتداح الرّجولة، فهذه مفارقة عجيبة فيما يقدّسون ويدعون لنصرتهم ولقضاء حاجاتهم وفيما يمتدحون ويحتقرون، وهذا من سَفَهِ العمل. وكان هذا من أكثر ما يُثير حَنَقَ المشركين ويظهر سُخْفهم، وإن يدعون إلاّ إبليس (الشيطان المريد) وهو مطرود من رحمة الله لأنّه متمرّد على أمر الله وعاصيه. وقد اِتّخذ لنفسه عهدا بأن يتّخذ عددا معلوما من عباد الله ليبعدهم عن الحقّ والصواب وعن التّوبة بالإغراء والتّغرير، وليخدعهم بالأماني الكاذبة الباطلة في الحياة العريضة المرفّهة. وليتمادوا في عاداتهم الزائفة من مثل شقّ آذان الإبل والبقر والشياه ثم يتركونها سائبة لا يمسّها أحد، ولا ينتفع بها أحد، وليأمرهم بتحريف دين الله وتغيير الفطرة بالخصاء وتشبّه الرجال بالنساء، وتشبّه النّساء بالرّجال. وجاءت الموعظة بأنّه من يتّخذ الشيطان ناصحا له ومرشدا ومدبّرا فقد خسر خسرانا واضحا لأنّه يَعِدُ بما لا يملك، ويمنِّي بما يُغرّر الفرد، وكلّ ما يَعِدُ به الشيطان ويمنّي به هوَ من الوعد الباطل الزّائف، الكاذب. ومن يتّبع الشيطان فسيكون مآله في جهنّم لا يجد عنها مهربًا ومحيدًا.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا (122) :

ويَعِدُ الله المؤمنين العاملين الصالحات بإدخالهم جنّات النّعيم يقيمون فيها إقامة أبدية، وهو وعد ثابت واقع لا محالة. وهل من قول أصدق من وعد الله الحقّ؟

- لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (123) وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا (124) :

ليس دخول الجنّة بالأمانيّ، لا بأمانيّ المسلمين ولا بأماني أهل الكتاب، من يعمل ذنبا يحاسب عليه، ويعاقب عليه ولا يجد من تولاّه ليحمل عنه الذنب، ولا من ينصره لينقذه منه. وكلّ من عمل أعمالا صالحة – سواء أكان ذكرا أم أنثى – وهو مؤمن بالله وحده غير مشرك فإنّه يفوز بدخوله الجنّة، ولا يظلم في ثوابه ولو بحجم النقرة في ظهر النّواة.



- **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (125) :**

وليس من أحد أحسن ممن أخلص نيّته في عبادته لله وحده، وهو مراقب لله في نفسه عند عبادته لربّه وعند طاعته ليكون مخلصا فيها، وسار على ملّة إبراهيم في ميله عن الشّرك إلى عبادة الله الواحد الأحد، وفي ميله عن الباطل إلى الدين الحقّ. وقد اِصطفى الله إبراهيم بكرامات بمثل ما يخصّ الخليل خليله بالفضل والتكريم.

- **وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا (126) :**

وكلّ ما في السموات وما في الأرض مِلْكٌ لله وحده، وهو سبحانه مطّلع على كلّ ما يجري فيهما من خير أو شرّ.

- **وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا (127) :**

يسألك أصحابك – يا محمد – في شأن النّساء، عمّا لهنّ من حقوق وما عليهنّ من واجبات. قل الله يجيبكم عمّا ترغبون في معرفته بخصوصهنّ، وبما جاءكم في القرآن من الأحكام المتعلّقة باليتيمات اللائي يكنّ عند الرجال من قرابتهن، وفيهم من يرغب في الزّواج بإحداهنّ ليكون شريكا لها في مالها، أو لينتفع بصداقها حينما يزوّجها لغيره ويحرمها منه، أو هو يحرمها من الزواج حتى تموت فيرث عنها مالها، ولا يحرمه أحد من التّصرّف في مالها. وكان هذا من عادات الجاهلية، وفي هذه المسألة اِستفتاء المؤمنين، ويجيبكم كذلك عمّا يجب عليكم في التّصرّف في إرث الأولاد الصغار اليتامى الذين تقومون عليهم في بيوتكم. عليكم أن تقوموا على اليتامى بالعدل في الميراث والأموال، عليكم أن تعطوا كلّ ذِي حقٍّ حقَّهُ غير منقوص، وأن تعاملوهم بالإحسان، ولا يجوز معاملة يتامى النّساء بمثل ما يعاملن به في الجاهلية من أشكال حرمانهنّ ما يحقّ لهنّ. إنّ الله بما تعملون عليم من قسط في المعاملة أو من ظلم. وسيحاسبكم عما تعملون خيرا بخير، أو عقابا بشرّ وظلم.

- **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) :**

هذه في التعامل بالحسنى والعدل بين الزوجين حفاظا على وحدة الأسرة. وإذا خافت اِمرأة من زوجها (نشوزا) أي بُغْضًا وتجافيا وسوء معاملة ظلما، وهذا يحدث أحيانا في بعض الزّيجات إذا



زهد أحدهم في زوجه وأراد أن يستبدلها بأخرى له بها علاقة خفية أو يطمع فيها إذا كانت ذات مال، وحتى يتخلص من زوجه يعمد إلى ظلمها في معاملته لها، واِختلاق المشاكل ليفسد عليها حياتها حتى يجعل حياتها الزوجية مريرة وفيها القهرُ فتضطرّ لطلب الخُلع، أو تخضع للطلاق بالتّراضي فيظفر الزوج بالخلاص من دفع النّفقة، وفي هذا ظلم عظيم، أو خافت المرأة من زوجها (إعراضا) أي يكره محادثتها، ولا يحبّ مجالستها كالمعتاد، فلا حرج أن يتحاورا مع بعض في هدوء، ويتناقشا فيما أفسد علاقتهما ببعض ليصلح كلّ واحد منهما ما بَدَا للآخر من خطإ في حقّ الثاني. وليعلم كلّ واحد منهما أنّ الصلح خير من فساد العلاقة بينهما ومن الطلاق والانفصال خاصة إن كان بينهما ذرية.

ويحذّر الله النفوس المشاحّة الحائلة دون المصالحة، وفي كلّ حال يجب التعامل بالإحسان وبالقسط بإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، واتّقوا الله في معاملتكم لبعض واعلموا أن الله بما تعملون عليم، وخبير بما في نفوسكم وما تُضمرون وتُظهرون.

- وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا **(129) :**

وهذه في العدل بين النّساء إذا عدّد الرّجل في الزيجات، وفيها ترغيب في تجنّب التّعداد خوفا من الظلم في المعاملة في النّفقة وحسن المعاشرة، والتّعامل بالمعروف، والله لا يُحبّ الظلم والقهر لعباده المستضعفين، وهذا من أجل المحافظة على سلامة العلاقة الزوجية داخل الأسرة لضمان وحدتها.

(وَلَن) لإفادة صعوبة حدوث الفعل إلى درجة قريبة من الاستحالة. والمعنى: لا تستطيعون العدل في معاملتكم لنسائكم إذا كانت لكم أكثر من واحدة، فالعدل في معاملتهنّ يكاد يكون مُستحيلاً مهما حرصتم واجتهدتم، فحاولوا أن لا تميلوا كلّ الميل لواحدة منهنّ فتُهْملُوا بذلك الأخريات، أو تتركوا الأولى كالمعلّقة، لا هي تعامل معاملة الزوجة في القدر والفراش والمعاملة وقضاء شوؤنها، ولا هي مطلّقة حرّة في نفسها، لا يحبّ الله الإذلال ولا القهر، والانحياز لواحدة دون غيرها مظهرٌ من مظاهر القهر والظلم، وسبب لإفساد الحياة الزوجية داخل الأسرة. وأنْ تصلحوا معاملتكم لنسائكم وتكتفوا بواحدة وأن تتّقوا الله وتخشوه في معاملتكم لأزواجكم خيرٌ لكم. والله غفور رحيم لمن أخطأ في حقّ أزواجه ثمّ عدّل من سلوكه وأصلح ما أفسده.

- وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا **(130) :**

وإذا فسدت العلاقة بين الزوجين، واِنفصلا بالطّلاق فإنّ الله تعالى يغني كُلَّ واحدٍ منهما عن الآخر، فلا يجعل أحدهما محتاجا للآخر لا ماديا، ولا معنويا، ولا للمؤانسة، والله يوسّع على المحتاج منهما فيما يحتاج إليه، وحكيم في توجيهه ليدبّر أمره، أو ليسخّر له من يقوم له بشؤونه.

- وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا **(131)** وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً **(132) :**

لمّا تحدّث الله تعالى عن فساد العلاقة الزوجية، جاءت الآيتان لتؤكّد على أنّ الإنسان ذكرا كان أو أنثى، غير محتاج لإنسان مثله ليرزقه أو ليكفله، ذلك لأنّ الله تعالى كفيل بوجود جميع خلقه حيثما كانوا في السموات أو في الأرض، وكفيل بأرزاقهم، بشرا أو حيوانا، وكفيل بسداد حاجاتهم من الهواء أو الماء أو غيرهما من مستحقّات الحياة، بشرا كانوا أو حيوانا أو نباتا، أو أرضا بورا أو صحاري أو بحارا، هو تعالى الغنيّ الذي يُغنِيهم بما يتفضّل عليهم من خيراتها، هو سبحانه الذي يغني المستضعف عن القويّ من البشر، وهو نصير المظلوم، وهو المستحقّ للحمد ولا أحد من البشر يستحقّ الحمد على ما سخّره الله لعمله. كلّ ما في السموات وما في الأرض بحاجة إلى الله، وإلى رزقه وفضائله ونعمائه، وهو الوكيل الموكّل بأمرهم، وعلى الإنسان أن يعمل بوصيته تعالى أن يؤمن به وحده، وأن يخشاه في السرّ والعلن، وأن يشكره على نعمائه وفضله، كذا وصّاكم كما أوصى الذين من قبلكم من الذين أوتوا الكتاب بدءًا من نوح وإبراهيم عليهما السلام. وإن تكفروا –يا عباد الله – فإنّ الله مستغنٍ عنكم، وهو حميد من قبل أن تحمدوه.

- إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا **(133) :**

هذه لبيان قدرة الله تعالى، فهو قادر لأن يذهب بجميع النّاس على وجه الأرض ويستبدلهم بآخرين، والله لا يعجزه شيء، وهو على كلّ شيء قدير، ولبيان اِستغنائه عن إيمان النّاس وحمده فهو إن يشأ يذهب بهم جميعا، بل هم الذين يحتاجون إليه تعالى.

- مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا **(134) :**

من كان من البشر يريد متاع الدنيا وزينتها فليسأل الله لأنّه الغنيّ والقدير والوكيل والكفيل، عنده سبحانه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، فاسألوا الله من فضله فإنّه يسمع لكم ولأدعيتكم، وبصير بما تحتاجون إليه، ويبصر وضعيتكم، فتوجّهوا إليه بالسؤال.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا **(135) :**

هذه في وجوب التّدخل بالحسنى في الأسرة المهددة بالانفصال بين الزوجين قبل أن يكون الطّلاق، ويقوم بهذا الدور الأهل والأقارب من الأسرتين المتصاهرتين لإصلاح ذات البيْنِ، فجاء الأمر بالقيام بالقسط الذي هو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه من غير نقصان، وهو وجه من وجوه



العدل، وذلك بإرجاع المتجاوز حدّه في التّجنّي عن غيّه بإظهار حقّه وإظهار وجه خطئه، والمتدخّل بالصلح يجب أن يشهد بالعدل لوجه الله تعالى، لا يميل عن الحقّ إلى الباطل ولو على نفسه يجب أن يقول الحقّ، أو على والديه إن أخْطَآ أو الأقربين خوفا من الله تعالى وبعدا عن الظلم. ولا يجب مراعاة الزّوج إذا كان غنيّا، فلا تخافوا من إظهار حقّ الطرف الثّاني إذا ظُلم، ولا يجب إفساد العلاقة الزوجية بسبب فقر الزوج، فالله أولى بكلّ واحد منهما. ولا تتّبعوا هوى النّفس حتى لا تحملكم على الشهادة بغير الحقّ، وحتى لا تحملكم على الجَوْرِ. وإن تميلوا في الشهادة إلى أحد الخصمين، أو تعرضوا عن أداء الحقّ فيها فإنّ الله خبير بما تعملون وسيحاسبكم على أعمالكم يوم الوقوف بين يديه، والله حسيب الجميع.

والآية عامّة في الفصل بين الخصمين، وفي التحاكم، وفي القضاء بالقسط منعا للجور والظلم والمحاباة، وفي الشهادة بالحقّ والقسط كذلك حتّى لا يتخلّف الشاهد عن الإدلاء بشهادته إذا كانت مهمّة في بيان حقّ أحد الخصمين. فالآية ذات أهمية في الفقه القضائي.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا **(136):**

الآية عامّة وموجّهة لعموم المؤمنين، وهي في بيان أركان العقيدة السليمة القائمة على الإيمان بالله والتصديق بوحدانيته والتّصديق بالقرآن الّذي أنزله على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وكلّ الكتب السماوية التي نزلت قبله. ومن يكفر بوحدانية الله أو بوجود الله ويكفر بوجود الملائكة، ويكذّب بالكتب السماويـــة، وبالرسل وباليوم الآخر فقد ضلّ عن الصواب ضلالا بعيدا.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا **(137) :**

هذه في طائفة من اليهود آمنوا بالله وبرسالة موسى عليه السلام لمّا جاءهم، ثمّ كفروا بالله لمّا عبدوا العجل، وكذّبوا بالرّسل الذين جاؤوا من بعده، ثمّ آمنوا بالله وبعيسى عليه السلام لمّا جاءهم، ثمّ كفروا لمّا قالوا بأنّ الله ثالث ثلاثة وأن عيسى ابن مريم هو ابن الله فجعلوا لله ولدًا اِفتراءً عليه، ثمّ ازدادوا كفرًا لمّا جاءهم محمد صلّى الله عليه وسلّم وأمرهم بتوحيد الله وبالإيمان بأن عيسى ابن مريم عبد الله أرسله رسولا إلى بني إسرائيل. هؤلاء المتردّدون بين الإيمان والكفر يتوعدهم الله بأن لا يغفر لهم كفرهم، وبأن لا يهديهم طريقا سويا في الإيمان.

- بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا **(138)** ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا **(139) :**



هذه في التّحذير من النّفاق وعلامته إتّخاذ الكافرين أنصارا لهم في خلافهم مع المؤمنين. والتبشير هو الإخبار بخبر سارّ، ولكنّه مستعمل هنا للتّهكّم لأنّ التبشير لا يكون بالتوعّد بالعذاب الموجع، واتّخاذهم الكافرين أنصارا على المؤمنين ليتقوّوْا عليهم لا يدلّ على حسن الإيمان وصدقه وهذا عمل مُنَافٍ للأخوة الإيمانية. ويريدون بهذا الاعتزاز بهم كي لا يغلبوا، ولو صدقوا في إيمانهم لعلموا أنّ الغلبة لله والمنعة، ومن كان معه الله تعالى فلن يُغْلَبَ.

- وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(140) :

وهذه في علامة أخرى من علامات النّفاق يرشد بها الله عباده المؤمنين بإخبارهم بأنّه قد جاءهم في القرآن أنّه حين يسمعون من جماعة يكفرون بآيات الله التي تنزل، ويستهزئون بها أو بالوعيد فعليهم ألاّ يجالسوهم حتّى يغيّروا موضوع حديثهم، فإنّهم حينما يجاملونهم بالجلوس معهم وهم يخوضون في آيات الله بالاستهزاء، يكونون أمثالهم في النّفاق. والمنافقون موعودون بجمعهم مع الكافرين في جهنّم لعقابهم.

- ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (141) :

هذه في علامة أخرى للنّفاق، إنّهم لا يشاركون المسلمين في القتال، ويقعدون عنه منتظرين أخبارهم، فإن كان للمسلمين نصر وظفر وغنيمة حتى إذا رجعوا إلى المدينة بغنائمهم سألوهم نصيبهم قائلين لهم: ألسنا منكم؟ وإذا كان الظفر لأعدائهم الكافرين سألوا هؤلاء نصيبهم من الغنائم قائلين لهم: ألم نُغَلِّبْكُم عليهم من إخلاصنا لكم وكرهنا لهم، ولقد حفظناكم منهم وحميناكم منهم. ويتوعّد الله هؤلاء المنافقين بأنّه سيحاسبهم عمّا كانوا يفعلون، وعن مواقفهم من المسلمين، ويطمئن المسلمين ويعدهم بالنّصر على أعدائهم، فلن يجعل للكافرين طريقا ليغلبوا المسلمين أو يقهروهم.

- إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142) :

وهذه في آيات أخرى من نفاقهم، إنّهم يفعلون فعل الغدر، ويتصرّفون مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه تصرّف الخداع، ويتوهّمون أنّ الله لا يعلم غدرهم، والله خادعهم بمجازاتهم بما يستحقّون من العذاب، وخادعهم بالإمهال إلى حين وباستدراجهم، ومن مظاهر نفاقهم أنّهم إذا



قاموا إلى الصلاة قاموا إليها متثاقلين من كرههم للصلاة، وإنّما يقومون بحركاتها للتّظاهر بها أمام النّاس، ولا يذكرون الله في أنفسهم ولا بألسنتهم إلاّ ما كان للرياء من ضعف إيمانهم.

- **مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (143):**

يعيشون متردّدين مضطربين فلاَ هُم من المسلمين، ولا هم من الكافرين، ومن أضلّه الله عن سبيله القويم فلن تعرف له طريقا ولا منهجا واضحا، ولا مبدأ أخلاقيا.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (144) :**

هذه موعظة للمؤمنين لإرشادهم لاتّخاذ بعضهم لبعض نصحاء وأنصارا، وحتّى يتجنّبوا الاستعانة بالكافرين، أو طلب النّصرة منهم، وهذا للحذر من أن تقوم عليهم حجّة واضحة ظاهرة لمعاقبتهم، فإنّ الله لا يحبّ الكافرين.

- **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) :**

يُستدل بهذه الآية على أنّ أحطّ عباد الله منزلة عند الله سبحانه، وأسوأهم مصيرا، وأشدّهم عذابا في قرار جهنّم، في منبع توقّد النّار، وصعود اللّهب هم المنافقون.

والمنافقون – كما جاء في القرآن الكريم في عرض صفاتهم وأعمالهم – قوم مخادعون، يأتون النّاس بوجهين. قوم لا يُظهرون ما يُبطنون، يحسدون أهل الفضل، ويكيدون في الخفاء، يوالون الأعداء. وهم قوم مخادعون يختفون عند الحاجة إليهم للجهاد أو للإنفاق، ويظهرون عند حاجتهم، هم دائما مع الغالبين لينالوا الحظوة والغنيمة وقضاء مصالحهم، ومستهزئون بالمستضعفين، لا تعرف لهم عقيدة ولا مبدأ ثابتا في المعاملة، يعطون بطرف اللسان حلاوة لمن يلاقيهم، فوجب الحذر منهم بأكثر من الحذر من الأعداء والكافرين ذوي المبادئ والوجوه الواضحة.

هؤلاء المنافقون لن يكون لهم أنصار لينقذوهم من عذاب الآخرة كما جاء في هذه الآية.

- **إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) :**

هذا الاستثناء لترغيب المنافقين في التّوبة ممّا يفعلون، وممّا يضمرون، وممّا يمكرون، وليزكّوا قلوبهم ويطهّروا أنفسهم من شرورها، فمن تاب منهم، وأقلع عمّا كان عليه، وأصلح عمله ليكون على غير ما كان عليه، وأخلص لله وحده في المعتقد، وأخلص في عبادته وطاعته وإيمانه دخل في زُمرة المؤمنين. ومن آمن دخل في أمان الله وفي رحمته وفي وعده بأن ينعم عليه بالثواب الذي يدخله في جنّة النّعيم والرّضوان.

- مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147) :

لا حاجة لله تعالى لعذابكم إن آمنتم به وشكرتموه على فضله، والله يُثيب المؤمنين ويعلمُ ما يفعلون. هذه الآية في حضّ المؤمنين للمداومة على شكر الله على نِعَمِهِ، وعلى الثبات على الإيمان، وهي آية في الوعد جاءت بعد آية وعيد المنافقين على عادة القرآن الكريم في اِقتران الوعد بالوعيد.

- لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) :

ينهاكم الله عن الدعاء على أحد بالشرّ والمكروه، وأن تذكروه للنّاس في غيابه بالسّوء إلاّ أن يكون الداعي مظلوما ظلما كبيرا، وكان المدعوّ عليه ظالما جائرا ومعتديا على حقّه، فالمظلوم مباح له أن يدعو عليه وأن يذكره بفعله، والله سميع لما تقولون يسمع لشكواكم، وعليم بما يفعل الظالمون.

- إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149) :

هذه في الترغيب في خلق التّسامح، وتفويض الأمر لله فيما لم يكن فيه ظلم كبير، واعتداء على حقّ، والمعنى: يحسن بكم أيّها المؤمنون أن تتعاملوا مع بعضكم بالحسنى وبالخير والمعروف، وأن تتجاوزوا عن الذين أساؤوا إليكم بالقول أو الظنّ السيّئ، فإنّ الله عفوّ، وهو القدير على الانتقام.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (150) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (151) :

هذه في نمطٍ من الكفر، يكفر من يدّعي أنّه يؤمن بالله ويكفر ببعضٍ من رسله، كالذين آمنوا بالله وبموسى عليه السّلام فلمّا جاءهم عيسى عليه السلام كفروا به، أو كالذين آمنوا بجمعٍ من رسل الله ولمّا جاءهم محمد صلّى الله عليه وسلّم كفروا به ولم يصدّقوه، إنّ الذين يميّزون بين رسل الله، يؤمنون ببعضهم ويكفرون بآخرين، ويحبّون أن يبتدعوا دينا من عندهم يقتضي الإيمان ببعض الرّسل والكفر بآخرين هم الكافرون بحقّ، لأنّ الإيمان الحقيقي يقتضي الجمع بين الإيمان بالله والإيمان بجميع رسله دون تفرقة وتمييز، لأنّ أصل الدين واحد، وأنّ باعث الرّسل جميعهم هو الله، وأنّ الكتب السماوية مصدرها واحد، ومن يكفر ببعض الرّسل ولم يصدّق بهم فإنّ إيمانه بالله اِدّعاء من نفسه. والكافرون موعودون بعذاب مهين.

- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (152) :



وهذه في الإيمان القويم الذي يقوم على الإيمان بالله وجميع رسله من غير تفرقة ولا تمييز، وهؤلاء يَعِدُهم الله بمجازاتهم، وبمغفرة ذنوبهم، ومَنْحِهم رحمتَه تعالى.

- يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا **(153) :**

هذه في بيان مدى تعَنُّت طائفة من يهود أهل المدينة، فقد طلبوا من الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم أمرا غريبا ليؤمنوا به، طلبوا منه أن يصعد إلى السماء – وهم يرونه – ثمّ ينزل إليهم بكتاب مخطوط من عند الله تعالى مباشرة بدون وحي. فأعلمَ الله رسوله بأنّ الأمرَ منهم غير مستغرب لأنّه قد سبق لهم أن طلبوا من نبيّهم موسى عليه السلام من قبل طلبا أعجب وأغرب، طلبوا أن يروا الله تعالى عِيَانًا، فعوقبوا على طلبهم ذاك بالصاعقة التي أهلكتهم في البداية، (وقد جاء خبر هذا في سورة البقرة)، ولقد رأوْا من المعجزات بما أنجاهم من فرعون وبطشه بهم فآمنوا بالله وقدرته، ولمّا نجوا منه صنعوا عجلا بأيديهم واتّخذوه معبودا لهم، وعفونا عنهم بعد ذلك رحمة ببعضهم، وآتينا موسى – عليه السلام – حجّة قاهرة، وهي الألواح والتّوراة.

- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا **(154) :**

وقد أخذنا هؤلاء المتعنّتين بالشدّة، رفعنا فوق رؤوسهم جبلا وهدّدناهم بالموت على أنقاضه تحت حجارته ليلتزموا بالأمر الذي أمرناهم به بحزم وجدّ، وحتّى لا يخالفوه، وأمرناهم بدخول القرية ساجدين لله تعالى سجود الشكر والطاعة في خشوع، وأمرناهم بالامتناع عن صيد الحيتان أيّام السبت، وشددنا عليهم في أخذ العهد عليهم بالقوة والتّهديد وبشهادة رسولهم عليهم حتّى يعملوا بما أمروا به دون مخالفة.

- فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا **(155)** وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا **(156):**

وهذه الآية لتفسير تعنّت اليهود، وللإجابة عن السؤال: لماذا لا يؤمنون إلاّ قليلا؟ ولماذا يشاقّون محمّدا صلّى الله عليه وسلّم؟ إنّهم جُبِلُوا على نقض العهد وحتى الميثاق الذي أخذ عليهم بالقوّة والشدّة، وجُبلوا على الكفر بمعجزات الله، واِعتادوا قتل الأنبياء بغير حقّ، بغير سبب، ويقولون قلوبنا مغلّفة بغلاف تحصّنها عن اِتّباع أيّ دين غير دينهم، وفي واقع الأمر فإنّ الله تعالى هو الذي ختم عليها بعد غلقها بسبب كفرهم، وتماديهم في الباطل، فلا يؤمنون إلاّ إيمانا ضعيفا ببعض الأنبياء، وبكفرهم بالمسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، وقولهم على أمّه



الكذب المفرط الذي يحيّر سامعه لأنّه قول شنيع. والغرض هو أن لا يأبَهَ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون معهم بموقفهم الرافض للإيمان به، فقد جبلوا على هذا التّعنّت والكفر بما يأتيهم من عند ربّهم.

- وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا **(157)** بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا **(158)** :

ويقولون بأنّهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم، ويقرّون بأنّه رسول الله بعدما قتلوه، والحال أنّهم لم يقتلوه كما أرادوا، ولم يصلبوه حينما أوثقوا شبيهه بالعمود على شكل صليب لتأكل الطير من رأسه فيموت وهو يُعَذّب، وقد أنقذ الله تعالى رسوله منهم، وما فعلوه كان على شبيهٍ منه. وقد اِختلف الناس بعد حدوث صلب الجثّة فيمن وقع فيه حكمهم لمّا رأوْا وجه القتيل وجسده إذ لاحظوا أنّ الجسم مختلف عمّا عرفوه في عيسى وشكّوا في علامات الوجه، وبهذا وقعوا في شكّ من قتله واِختلفوا، ولم يجزم أحد بشيء، ولم يكن لهم علم بما حدث إلاّ ما كان يغلب على ظنّهم. والأمر اليقين الثابت هو أنّهم لم يقتلوه لأنّ الله تعالى رفعه إليه إلى السّماء، وكان الله عزيزا لا يغلب على أمره، وقد قهرهم بتسليط حاكم البلاد الرومي عليهم فقتل منهم عددا كبيرا، وهرب آخرون وهجروا مدينتهم في ذُعْر، وهو تعالى حكيم في تدبير عقابهم على مكائدهم ومشاقّتهم لرسولهم.

- وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا **(159)** :

ليس أحد من أهل الكتاب يموت إلاّ ويقرّ قبل أن تخرج روحه بأنّ عيسى ابن مريم رسول الله، ولكنّه إيمان لا ينفعه لأنّه حاصل عند الغرغرة، ويوم القيامة يكون عيسى شهيدا عليهم بالتكذيب أو التّصديق، وهذا من عظيم التّشريف لهذا النّبيّ المضطهد من طرف قومه، والمكرّم عند ربّه.

- فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا **(160)** وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**(161)** :

ولقد حرّم الله عليهم طيّبات كانت حلالا عليهم عقابا لهم على الظلم، وعلى صدّهم عن اِتّباع النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم باستمرار، وبسبب أخذهم الرّبا رغم نهيهم عن التّعامل به، وبسبب أكلهم أموال الناس بالباطل وذلك بالتّحيّل عليهم لسلبهم أموالهم. وأعدّ الله للكافرين عذابا موجعا لعصيانهم وظلمهم.



• لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا(162):

هذا اِستثناء لمؤمني أهل الكتاب العالمين بكتاب الله وشرعه العلم الرّاسخ، الثابت، الذي لا يهتزّ، ولا ينحرف من مثل عبد الله بن سلاّم، وكعب الأحبار، ونظرائهما. وقد جاء هذا الاستثناء تجنّبا للتّعميم. التّعميم لا يصحّ، وهذا كما جاء في قوله تعالى (لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ) (آل عمران الآية 113) والمعنى : والكتابيون العلماء الثابتون في علمهم بكتب الله المنزلة وبشرائعه، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار، وأتباع الرّسول محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى يوم القيامة يصدّقون بالقرآن، وبالكتب المنزلة قبله، وأخصّ بالذكر المقيمين الصلاة منهم، والذين يؤتون الصدقات المفروضة، ويوقنون بوحدانية الله، ويصدّقون بيوم البعث، جميعهم سينالون أجرا عظيما كريما من عند ربّهم.

• إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا(163):

ذكر القرطبي في الجامع (المجلد السادس ص 15) عن الزبير بن بكار حدّثني أبو الحسن علي ابن المغيرة عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال: أوّل نبيّ بعثه الله تعالى في الأرض إدريس، واِسمه أَخْنُوخ، ثمّ انقطعت الرسل حتى بعث الله نوح بن مُتَوَشْلخ بن أخنوخ، وقد كان سام بن نوح نبيّا، ثمّ انقطعت الرسل حتى بعث الله إبراهيم نبيّا واتّخذه خليلا، وهو إبراهيم بن تَارَخ واِسم تاخ آزر، ثمّ بعث إسماعيل بن إبراهيم فمات بمكّة، ثم إسحاق بن إبراهيم فمات بالشام، ثم لوط، وعمّه إبراهيم، ثمّ يعقوب وهو إسرائيل بن إسحاق، ثمّ يوسف بن يعقوب، ثمّ شعيب ابن يَوْبَبْ، ثم هود بن عبد الله، ثمّ صالح بن أسف، ثمّ موسى وهارون ابني عمران، ثمّ أيّوب، ثمّ الخضر وهو خَضْرُون، ثمّ داود بن إيشا، ثمّ سليمان بن داود، ثمّ يونس بن متّى، ثمّ إلياس، ثم ذا الكفل واسمه عويدنا من سبط يهوذا بن يعقوب، قال: وبين موسى بن عمران، ومريم بنت عمران أم عيسى ألف وسبعمائة سنة، وليسا من سِبط، ثمّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

هذه الآية لإثبات ثلاثة عناصر: الأوّل: أنّ الوحي الذي جاء محمدا صلّى الله عليه وسلّم هو الوحي الّذي جاء الأنبياء قبله، فهم في الأمر سواء. والثاني : أنّ محمدا صلّى الله عليه وسلّم نبيّ كسائر الأنبياء الذين جاؤوا قبله، فَلِمَ يؤمن بعضهم ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض وبمحمد



صلّى الله عليه وسلّم، ولِمَ آمنوا بالوحي والكتب التي أنزلت من قبل محمد صلّى الله عليه وسلّم من مثل صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور والإنجيل، ولمّا جاءهم القرآن كفروا به؟ والعنصر الثالث يشير لوحدة الأديان، ووحدة الكتب ووحدة الشرائع لأنّ مصدرها واحد، هو الله سبحانه، جاءت عن طريق الوحي، وعن طريق الأنبياء فَلِمَ الاختلاف على محمد صلّى الله عليه وسلّم ومشاقّته بالتّكذيب؟

- وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا(164) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) :

ولقد أرسلنا رسلا كثرا، منهم من ذكرنا لك خبرهم، ومنهم من لم نذكرهم لك.

ذكر أبو الليث السمرقندي في تفسيره عن شعبة عن أبي إسحاق عن الحارث الأعور عن أبي ذرّ الغفاري، قال: قلت يا رسول كم كانت الأنبياء، وكم كان المرسلون؟ قال: "كانت الأنبياء مائة ألف نبيّ وأربعة وعشرين ألف نبيّ، وكان المرسلون: ثلاثمائة وثلاثة عشر". وكلّم الله تعالى موسى عليه السلام كلاما على الحقيقة من الكلام الذي يُعقل بدون واسطة جبريل عليه السلام.

وجميع الرّسل كانوا مبشّرين للمؤمنين بمغفرة ربّهم وبنعيمه عند الرجوع إليه، وكانوا منذرين للكافرين والعصاة بالعقاب. وذلك حتى لا يقول النّاس يوم الحساب، (رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ) (طه الآية 134)، والله عزيز في ملكه، حكيم في إرشاد عباده.

- لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) :

هذه في الردّ على المكذّبين بالقرآن وبالوحي الذي نزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم، والله تعالى يشهد بصدق القرآن، أنزله على محمد بأمره، والملائكة يشهدون بصدقه وصدق الوحي، وكفاك الله شاهدا على صدقك يا محمد. يا لشَرَفِ محمد بهذه الشهادة! صلوات الله وسلامه عليه!

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) :

إنّ الذين كذّبوا بك – يا محمد – وبنبوّتك وبالقرآن، وبالدين، ثمّ منعوا النّاس عن اِتباعك وصدّوهم بالإغراء أو بالتّعذيب حادوا عن الصواب حيادًا أبعدهم عن الحقّ وعن الرّشاد. وهذه في المشركين.

- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) :

وهذه في اليهود لأنّهم كذّبوا بمحمد وكتموا ما جاءهم عنه وعن بعثته في التوراة والإنجيل فظلموه بهذا الكتمان، ومن لم يتب منهم عن كفره وظلمه فلن يغفر الله له ذنبه، ولن يهديهم للطريق السويّ إلاّ إلى الطريق الذي يحشرهم في جهنّم ليقيموا فيها إقامة أبدية، وهو أمر يسير على الله تعالى.



- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170) :

هذه في حضّ جميع النّاس إلى آخر الحياة الدنيوية، والمعنى: يا أيّها النّاس – حيثما كنتم – قد جاءكم محمد صلّى الله عليه وسلّم بالوحي من الله عزّ وجلّ الذي تقرؤونه في كتابكم القرآن، وجاءكم بدين الله الحقّ: الإسلام، وجاءكم بالتّوحيد الحقّ فآمنوا بما جاءكم به وصدّقوه خيرا لكم من الكفر، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عنه لأنّه مالكٌ لكلّ ما في السموات وما في الأرض، وكان الله عليما بإيمانكم وحكيما في إرشادكم.

- يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (171) :

وهذه موجّهة بالخصوص للنّصارى أهل الإنجيل، والمعنى: يا أهل الإنجيل لا تتجاوزوا الحدّ في القول في الدّين من ابتداعكم، وممّا ليس منه، ولا يجب أن تقولوا على الله في صفاته إلاّ الحقّ. إنما المسيح هو ابن مريم، وهو رسول الله إليكم، وقد ألقى الله تعالى إلى مريم كلمته: "كن" فكان بكلمته هذه خَلْقُ عيسى، ونفخت فيه الرّوح منه تعالى فوُلِدَ، فآمنوا بالله وحده وآمنوا برسله جميعهم ومنهم عِيسى ابن مريم ولا تقولوا: الله ثالث ثلاثة من ابتداعكم، ومن مغالاتكم في الدين، ومن قولكم الباطل، اِنتهوا عن هذا القول خيرا لكم من الكفر والافتراء على الله. إنّما الله واحد سبحانه، تنزّه عن أن يكون له ولد، أو أن يكون بحاجة لولد. هو الغنيّ له كلّ ما في السماوات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا لأوليائه.

- لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) :

لن يأنف المسيح من أن يكون عبد الله ولن يترفّع أو يستكبر، ولا الملائكة المقرّبون يأنفون من أن يكونوا من خلق الله، وليس كما يدّعي عليهم كذبا واِفتراء كفّار مكة بأنّهم بنات الله. ومن يأنفْ ويترفّع عن عبادة الله ويستكبر، فسيأتي به إلى المحشر فيحاسبه عمّا يدّعي ويقول.

- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) :

ويوم المحشر، يوم الحساب يؤتي الله المؤمنين الصادقين العاملين الصالحات في عباداتهم وطاعاتهم أجورهم وافية ثمّ يزيدهم من فضله ليفرحوا بما آتاهم الله من عنده. وأمّا الذين أنِفُوا من



عبادة الله واستكبروا عن طاعته فسيلقون عذابا أليما، ولن يجدوا يومئذ من ينقذهم منه، أو ينصرهم ليخرجهم منه ويدفَع عنهم العذاب.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا **(174)** :

(بُرۡهَٰنٞ) هو محمد صلّى الله عليه وسلّم، سمّي برهانا لأنّه في ذاته معجزة، نبيّ أمّيّ يأتي برسالة خاتمة معجزة. و(النور) هو القرآن سمّي نورا لأنّه بيَّنَ الأحكام والطريق الموصل إلى الخير والرّشاد، ولأنّه كشف وجوه الضلالة، وهو (مبين) لأنّ دلائله واضحة للعقول الواعية، وللعيون البصيرة. والآية تدعو النّاس جميعهم للانتفاع بهذين الخَيْرَين.

- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا **(175)** :

وهذه للترغيب في اِتّباع الهدي النّبويّ والهدي القرآني. فأمّا الذين آمنوا بالله وحده (وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ) أي تمسّكوا بالقرآن وإرشاده وعملوا بأمره فيبشّرهم ربّهم بأن يدخلهم في رحمةٍ منه تنقذهم من الخوف يوم البعث وتنقذهم من عذابه، وبأن يؤتيهم من فضله وذلك بالإنعام عليهم بما عنده من نعيم في جنّة التكريم (وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ) أي يهديهم إلى ما ينالون بأعمالهم ثواب الله الجزيل، ويهديهم إلى الحقّ ليعرفوه ويسيروا عليه لينالوا فضله (صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا) دينا قيّما قويما هاديا للحقّ والرّشاد والصواب، دينا واضح المعالم.

- يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ **(176)** :

بدأت السورة بالدعوة لاتقاء المحارم وبيان أحكام الإرث، وجاءت هذه الآية الأخيرة من السورة في استفتاء في حكم الإرث في الكلالة، وبهذا اِحتكم الربط بين المقدّمة والخاتمة، واختتمت بهذه الخاتمة أحكام الإرث. وردّ العَجُزُ إلى الصدر – كما يقال...

يسألونك عن إرث الميّت الذي لا وَلَدَ لهُ ولا والد، لا فرع ولا أصل، فإن كان له أخت فمن حقّها أن ترث نصف تركته، وإن كانت الميّتة أنثى ولم يكن لها زوج ولا والد ولا ولد، وليس لها وريث غير أخيها فإنّه يرث تركتها. فإن كان الميّت في الكلالة رجلا وله أختان فترثان الثّلثيْن من تركته، أمّا إذا كان له إخوة، ذكرانا وإناثا – فللذكّر مثل حظّ الأنثيين من تركته. وهكذا يبيّن الله لكم أحكامه في الميراث لتوزّعوا التركة من غير ظلم، وحتى لا تحيدوا عن الصواب، والله بكلّ ما تعملون عليم، وسيحاسبكم عن أعمالكم، وهذه الجملة للتحذير من ظلم الورثة في حقوقهم. والله أعلم.



آياتها	ـــــ مدنيّة ـــــ	رقمها
120	ســـــورة **المائـــــدة**	**5**

بين يدي السورة، سورة مدنية، من خصائصها أنّها جاءت بـ 17 فريضة: عرضت ما يحرم من الأطعمة، وحرّمت الخمر والمسير والأزلام، وحرّمت صيد مكة. وفرضت: الوفاء بالعقود، وكفّارة اليمين، وعرضت مشروعيّة الأذان، والتيمّم. وأمرت بالقيام بالعدل في الحكم، وعند الشهادة على ما أنزل الله. وذكرت حدّ قتل النّفس، وحدّ الحرية، وحدّ السرقة. وأبطلت ما حرّم المشركون عليهم من الأنعام المتصدَّق بها إلى الكعبة. وقد ذكرت السورة الكثير من العادات الجاهلية المرفوضة، وهي ممّا أثارت حفيظتهم وعنادهم فشاقّوا الرسول صلّى الله عليه وسلّم وكذّبوه.

- وعرضت السورة قصتي: ابني آدم، ومائدة الحواريين قبل صعود عيسى إلى السماء مع مشاقّة اليهود لرسولهم موسى ممّا قضي عليهم بالتّيه.
- وجاء فيها الكثير من المواعظ للمؤمنين مع دعوتهم للتعاون على البرّ والتقوى.
- وعلى عادة القرآن فإنّ السورة لم تَخْلُ من الوعد والوعيد.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ **(1)**

(الوفاء بالعقود) يعني الالتزام بالشروط المتّفق عليها في العقد المكتوب الممضى عليه مع إحترام آجال الأداء، وإتمام الوفاء بالالتزام دون إخلال أو تأخير حفاظا على الحقوق، وتبرئة للذمّة. والمؤمنون عند عهودهم لا ينكثونها وملزمون بالوفاء بالعقود الممضاة ولا يغدرون ولا ينقضونها. وقد أُحِلَّ لهم أكل لحوم الإبل والبقر والأغنام إلاّ ما جاء في القرآن من التحريم من مثل أكل الميتة، وما أكل السبع، وما ذُبح على النّصب، وكذلك ما تمّ صيده عند المشاعر الحرم، وهُم في لباس الإحرام، فأكله حرام. إنّ الله يحكم ما يريد، وهذه الجملة للتّأكيد على نسخ الأحكام المتعارف عليها عند العرب قبل نزول هذه الآية، والله لا مُعَقِّب لحكمه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ **(2)** :



الخطاب للمؤمنين جميعا بأن لا يتعدّوا حدود الله فيما أمر، وفيما نهى عنه ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ ويجب أن لا تنتهكوا حرمة الشهر الحرام بالقتال، ولا بالاعتداء على الآمنين في البيت، أو المسافرين إليه، أو الرّاجعين منه إلى بلدانهم ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ ولا تعتدوا على ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ ولا ما يقلّد به الهديُ علامةً له، ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ ولا تؤذوا قاصدي الحجّ أو العمرة، وسهّلوا لهم الطريق ووسائل البلوغ إلى البيت ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ هؤلاء الذين دخلوا مكّة زمن الحجّ يبتغون الأرباح في التجارة ﴿وَرِضۡوَٰنٗا﴾ ويريدون في الآن ذاته نيل مرضاة الله وعفوه وتكريمه من حجهم وعمرتهم. ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ فإذا تحلّلتم من الإحرام، وخرجتم من أرض الحرم فلا إثم عليكم أن تصطادوا صيدكم. ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ﴾ ولا يحملنّكم بُغْضُكم لقوم لأنّهم صدّوكم عن المسجد الحرام سابقا أن تنتقموا منهم وتؤذوهم بعد أن تَقَوَّيْتُم. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ﴾ وساعدوا بعضكم على إنجاز كلّ ما فيه مصلحة للنّاس أو للبلاد. ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ وانصحوا بعضكم بتقوى الله حتّى لا يأتي أحدٌ منكم معصية أو مخالفة يضرّ بها نفسه أو غيره ولا يجد فيكم من يرشده وينصحه ليقلع على ما هو عليه، وليهتدي إلى التوبة وعمل الصالحات. وإيّاكم أن تتعاونوا على فعل المنكرات أو التآمر على بعضكم للاعتداء على العاصين أو للإضرار بهم وبممتلكاتهم عصبيةً، فتفسدون عليهم حياتهم وأمنهم على أنفسهم، وخاصّة إذا كانوا أجوارا، واخشوا الله تعالى وعقوبته إذا عصيتم أمره، فإنّ الله شديد العقاب لمن عصى أمره.

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (3) :

هذه في تحريم أصناف من الأطعمة، وفيها ما نزل حين فتح الرسول صلّى الله عليه وسلّم مكة في 8 رمضان سنة 9 للهجرة أو سنة 8 للهجرة، وفيها ما نزل يوم الجمعة في حجّة الوداع. والمعنى: يحرم عليكم أكل لحم الحيوان الجيفة الذي مات بغير ذبح وإهراق دمِه، وشرب الدم المسفوح السائل، وأكل لحم الخنزير، وما ذُكر عند ذبحه اِسم غير اِسم الله تعالى كأن يقول: باسم اللات أو العزّى، أو باسم سيدي فلان الوليّ الصالح، ويحرم أكل لحم الحيوان الذي مات خنقا ولم يهرق دمه، ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾ وهي الدّابّة التي ضُربت بشيء ثقيل كالحجر فماتت، ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهي الدّابّة التي سقطت من مرتفع إلى أسفل كسفح الجبل فماتت بسبب سقوطها، والتي نطحتها دابّة أخرى فقضت عليها بنطحها وماتت، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ وما جرح الحيوان المفترس من مثل

الذئب وأكل منها ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلاّ إذا أدركتموه وفيه حياة فقطعتم أوداجه وأهرقتم دمه، فهذا مستثنى من التحريم. وحرّم عليكم ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ وهي الذبيحة التي تُذْبَحُ على المكان الّذي تُعظّمونه، من مثل ما كان يفعل المشركون، يذبحون الذبيحة على الحجارة التي حول الكعبة، والتي كانوا يعظّمونها ويتبرّكون بها، وحرّم عليكم ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾ وهي عملية اِستخارة القِدَاح التي كان يضربها الجاهليون قبل خروجهم للسفر أو للتجارة ليعرفوا بضربها وممّا تعارفوا على أوضاع نتيجة الضرب هل سيربحون عند خروجهم أم يخسرون، فيحدّدون على نتيجة ضرب الأقداح عزمهم على السفر أو إبطاله، وهو من معرفة الغيب عندهم.

كلّ ما ذكر من عادات الجاهليّة محرّم، ويُعَدُّ العملُ به من الفسق، وهو الخروج عن الدّين.

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ هذه الجملة نزلت عند فتح مكة، والمعنى: اليوم يئس المشركون أن يعود المسلمون إلى دين الشّرك بعد أن رأوْا عزّتهم وانتصاراتهم، ورأوْا عددهم وعدّتهم، وعرفوا بأسهم، فلا تخافوهم – أيّها المسلمون– وخافوا الله تعالى وأعبدوه وأطيعوه.

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ هي الجملة التي نزلت في حجّة الوداع يوم الجمعة بعد العصر. لمّا قرأها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على الجمع بكَى عمر بن الخّطاب رضي الله عنه فسأله الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: ما يُبكيكَ؟ فقال: أبكانِي أنّا كُنّا في زيادة من ديننا فأمّا إذْ كَمُلَ فإنّه لم يكن شيء إلاّ نقص. فقال له النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: صدقتَ.

والمعنى: اليوم تَمَّ إنزال معظم الفرائض من تحليل وتحريم، ومعظم الدين، وأمر الحجّ، وتمّت نعمته على المسلمين بإكمال الشرائع، وإظهار دين الإسلام، ودخول مكة آمنين كما وُعِدْتُمْ، وأعلمتكم برضاي به لكم دينا.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ عودة لما جاء من أحكام تحريم تلك المأكولات، وفي هذه الجملة فَتْحُ باب التّيسير لمن خاف على نفسه من الموت جوعًا، وقد خلا بطنه من الطعام –وهو الخَمْصُ– ودعته الضرورة إلى أكل شيء من سائر هذه المحرّمات، ولم يكن مائلا للحرام، ولا باغيًا له، ولا معتديا على شرع الله عمدًا وقصدًا، فإنّ الله غفور رحيم لمن أكل منها مضطرّا لا يريد بما فعل اِرتكاب الإثم قصدا.

هذه الآية حين نزلت كانت شديدة على المشركين لأنّها أبطلت كلّ عاداتهم فيما كانوا يأكلون أو يفعلون، وهي مأكولات يعرف المختصّون في علم التّغذيّة أهمية تحريمها في المحافظة على الصّحة البدنيّة لمن يمتنع عن تناولها. وفيها آية غاضت المشركين وأعزّت المسلمين، وآية أخرى تشعر كلّ مسلم بالعزّة والفخر بانتسابه لهذا الدّين – والحمد لله.



- يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (4)

بعد آية التّحريم جاءت هذه فيما أحلّ الله تعالى لعباده أكله. أحلّ الله كلّ الطيّبات من الطعام وما اِصطادت كلاب الصيد والطيور الجارحة المدرّبة على الصيد والقنص، ولابدّ من ذكر اِسم الله عند إرسالها، فما تمسكه هذه الكلاب وهذه الطيّور ممّا اِصطادت وقد ذكرتم اسم الله تعالى عليه هو حلال أكله. واِخشوا الله في أحكامه، ولا تخالفوها فإنّ الله سريع الحساب لمن خالف أمره.

- ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (5) :

أحلّ الله لكم أكل كلّ الطيّبات ممّا لم يأتكم الأمر بتحريمه، ويحلّ لكم أن تأكلوا من ذبائح أهل الكتاب، وطعامكم حلّ لهم. ويحلّ لكم الزّواج بالحرائر من المؤمنات، والحرائر من أهل الكتاب شريطة أن تؤتوهنّ مهورهنّ، صداقهنّ متعفّفين، تزوّجوهنّ زواجا شرعيا غير سرّي لأنّ ذلك سفاح، والسفاح محرّم، ويحرّم عليكم أن تُصاحبوهنّ مصاحبة الخليلات للزنى سرًّا. ومن ينكر شرائع الإسلام، ولا يعمل بها، ولا يحبّ الالتزام بها فقد فسد عمله وهو في الآخرة من الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم فألقوا بها في جهنّم للعذاب.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (6) :

هذه في وجوب الوضوء ورخصة التيمّم لأداء الصلاة. والمعنى: أيّها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة فعليكم أن تتوضّؤوا لها. وذكر تعالى أربعة أعضاء: الوجه واليدين إلى المرافق، والمرفق هو العظم عند المفصل بين الذراع والعضد، وفرضهما الغسل، والعضو الثالث هو الرأس وفرضه المسح، والعضو الرابع هما الرجلان إلى الكعبين وفرضهما الغسل. ومن كان على جنابة فعليه أن يغتسل الغسل الأكبر لكامل البدن بنيّة رفع الجنابة ليبيح لنفسه الصلاة على طهارة، فرض المجنب للقيام للصلاة الاغتسال. وإذا كان الفرد مريضا، أو على سفر خارج بيته وخارج موطن العمران، أو تغوّط فخرج من مخرجه الثقيل، أو جامع زوجه فلم يجد ماءً للاغتسال إذا كان

فرضه الاغتسال، أو للوضوء إذا كان فرضه الوضوء فحسب فليقصد ما على وجه الأرض من التراب والحجر الطاهر الذي لم تمسسه نجاسة وليتيمّم به بمسح وجهه بيديه بعد أن ضرب بهما الصعيد الطيّب، ثمّ يعيد ضربهما بالصعيد ليمسح يديه منه، وهذه رخصة من الله تعالى حتى يقوم للصلاة ولا يفرّط في أدائها إن لم يجد ماءً، أو بسبب مرضه الذي يمنعه عن اِستعمال الماء. ما يريد الله أن يشقّ عليكم في الدين، ولا يريد بكم العسر، ولكن يريد ليزيدكم بطهارتكم الأجر والثواب، ويكمل عليكم نعمة الهداية، وعساكم تشكرون فضله عليكم بأداء طاعاته على وجهها الأكمل بإخلاص النية وحسن الأداء، والتسبيح بحمده.

وللغسل والوضوء والتيمّم الكثير من التفاصيل والشروط والسنن يرجع إليها في كتب الفقه (رسالة ابن زيد القيرواني – المنتقى في شرح موطأ الإمام مالك للباجي – أسهل المدارك على مذهب الإمام مالك لأبي بكر الكشناوي – بداية المجتهد لابن رشد – الخلاصة الفقهية للقروي – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – الفواكه الدواني للنفراوي وغيرها...).

- **وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (7) :**

الّذي عليه الجمهور من المفسّرين كابن عبّاس والسدّي أنّ الآية في العهد أو الميثاق الذي جرى بين الأنصار والنّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم ليلة العقبة وتحت الشجرة إذْ عاهدوه على السمع والطاعة في المَنْشط والمكره، وبايعوه على ذلك، ويومذاك كان أوّل من بايعه البراء بن معرور، وهو القائل وهو يبايع، والذي بعثك بالحقّ لنَمْنَعَنَّكَ ممّا نمنع منه أُزُرَنا (والأُزُر هنَّ النّساء) نحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلْقة ورِثناها كابرا عن كابر. (ذكره ابن إسحاق في السيرة النبويّة لابن هشام). والمعنى: أُذكروا نعمة الله عليكم بهدايتكم للإسلام، والعهد الذي عاهدتم عليه رسوله. – وكانت يد الله فوق أيديكم عند مبايعتكم له – وقد قلتم حينها: سمعنا منك ما تدعونا إليه، وعاهدناك على الطّاعة لما تأمرنا به وعلى الإخلاص لله تعالى في الطاعة لما يأمر به ولما ينهى عنه. واخشوا الله فيما عاهدتم الله عليه، إنّ الله عليم بخفايا صدوركم، وبما في قرارة نفوسكم.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (8) :**

هذه في الأمر بأداء الشهادة بالحقّ، وللحذر من شهادة الزّور. يا أيّها المؤمنون كونوا أهل عدالة، اشهدوا بالحقّ من غير ميل إلى أقاربكم شهادة لله تعالى، شهادة (بِٱلۡقِسۡطِ) أي تُظهِروا لصاحب الحقّ حقّه، ولا يحملنّكم بعضكم لقوم أن تشهدوا بالباطل، وبالحيْفِ، احذروا من أن لا

تعدلوا في حكمكم على النّاس، وفي الإدلاء بشهادتكم، أو أن تتجاوزوا حدّ القسم إلى الظلم والحيف والجور. الحكم بالعدل، والشهادة بالحقّ والقسط دليل على الخوف من الله، وعلى حسن إيمان المرء وصدقه. إنّ الله مطّلع على ما تعملون.

- وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ (9) :

يَعِدُ الله تعالى المؤمنين الطائعين العاملين الصالحات بأن يغفر لهم ذنوبهم ويؤتيهم أجرا وثوابا عظيما يوم يلقونه.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (10) :

بعد الوعد جاء هذا الوعيد للّذين كفروا وكذّبوا بالوحي وشرع الله فإنّهم موعودون بالعذاب في الجحيم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (11) :

يا أيّها الذين آمنوا اشكروا الله تعالى على فضله عليكم بطاعته وحمده وذكره، إذ همّ قوم من اليهود أن يزرعوا فيكم فتنة، وأن يبطشوا بكم القتل، فأفسد كيدهم. قيل نزلت الآية في دخول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى بستان لليهود يستعينهم في دية لمسلم، فهمّ أفراد منهم أن يُلقوا عليه حجرًا لقتله، فأوحى الله إليه لينصرف عنهم، فذهب عنه كيدهم، ولو فعلوا ما همّوا به لزرعوا فتنة في المسلمين كبيرة، فمنعهم الله منها. واخشوا ربّكم فيما أمركم به ولا تعصوه، وعليه فتوكّلوا إذا عزمتم على أمر فيه مصلحة لكم ولدينكم.

- وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (12) :

لمّا جاء ذكر محاولة أفراد من بني النّضير لقتل الرسول صلّى الله عليه وسلّم ناسب ذلك التذكير بما أخذ على اليهود من عهد مؤكّد بشهادة رسولهم وحضوره، والتذكير بعناصر الرسالة التي حملها النقباء لذويهم.

والنقيب هو كبير القوم عند اليهود وهو الشاهد عليهم، وهو الضامن لهم في تنفيذ الأوامر، وهو بمثل ما عند العرب: رئيس القبيلة. وعندنا رئيس العشيرة. والمعنى: ولقد أخذنا العهد على بني إسرائيل، وأرسلنا منهم اثني عشر نقيبا ليبلّغوا (أسباطهم) قبائلهم ما قال الله: إنّي معكم بالتأييد والحفظ والنّصر لئن أقمتم الصلاة على وجهها، وأدّيتم زكاة أموالكم، وآمنتم بجميع رسل



الله الذين سيأتونكم (وَعَزَّرْتُمُوهُم) أي وقَّرْتُمُوهم، ورددتم عليهم أداءهم، وتصدّقتم بأموالكم صدقات تطيب بها نفوسكم تبتغون بها وجه الله لأسترنّ عليكم سيّئاتكم ولأكرمنّكم بإدخالكم جنّات النّعيم. ومن كفر منهم بعد هذا البيان وهذا الترغيب فقد تاهَ عن الصواب، وضاع عن الطريق السويّ الذي وجب عليه أن يمشي فيه.

- فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (13) :

وبسبب مخالفتهم للعهد المؤكّد المأخوذ عليهم أطردناهم من رحمتنا، وجعلنا قلوبهم غليظة صلبة متحجّرة لا تقبل الوعظ، ولا تلين لوعيد، يغيّرون كلام الله، ويستشهدون به في غير موضعه اللازم، ويُؤَوِّلونه على غير الوجه الصحيح، وتغافلوا عن نصيب كبير ممّا وُعظوا به وذُكّروا به في التوراة، وما تزال ترى منهم خائنة الأعين والخيانة والغدر إلاّ من رحم ربّك منهم، وهم قلّة، فكن متسامحا معهم. اعف عنهم وأعرض عنهم إنّ الله يحبّ من أحسن من عباده، فإنّهم عائدون إليه وسيحاسبهم عمّا عملوا.

- وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (14) :

هناك طائفة من أتباع المسيح عليه السلام يقولون بألسنتهم بأنّهم نصارى – ولو كانوا نصارى بحقّ ما صدر عنهم ما يأتي – قد جاءهم في كتابهم التبشير بمجيء نبيّ بعد نبيّهم اِسمه أحمد، وقد أخذ عليهم العهد الموثوق بأن يؤمنوا به وينصروه، فلمّا جاءهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم نَسُوا هذا الحظّ، أي هذا الجزء ممّا جاءهم في الإنجيل، وذُكِّرُوا به في القرآن، فهيّجْنا تبعا لذلك بينهم العداوة والبغضاء فانقسموا إلى طوائف إلى يوم القيامة، وفعلا صاروا كاتوليك وأقباط وأورتدوكس وبروتستاند. ويوم القيامة يجدون في صحفهم تسجيلات بما كانوا يفعلون. وهذه الجملة للتهديد والوعيد.

- يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (16) :

الخطاب في الآيات لليهود والنّصارى لحضّهم على الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبكتابه وبدينه الإسلامي.



يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد صلّى الله عليه وسلّم يوضّح لكم كثيرا ممّا كان يخفيه السّابقون من علمائكم من الشرائع والبشائر. ومن أهداف رسالته رفع الحرج عمّن لم يكن يعلم بالحقائق المطموسة ليردّكم إلى صراط الله فيعفو الله عن كثير من أخطائكم. قد جاءكم من الله (نُورٌ) هو محمد صلّى الله عليه وسلّم، والقرآن الواضحة دلائله بأنّه من عند الله يهدي به الله تعالى من اتّبع أحكامه، واتّعظ بمواعظه (سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ) واتّبع دينَه القويم: الإسلام، ومن سار على منهجه نجّى نفسه من العذاب وسلّمها من أذى العقاب يوم القيامة، فيخرجهم من ظلمات الكفر والمعصية إلى نور الحقّ والهداية بفضل من الله، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم.

- لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (17) :

هذه في النّصارى غَالَوْا في دينهم حتّى قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم فكفروا. لو كان هؤلاء يعقلون ويعرفون صفات الله تعالى وقدرته حقّا ما قالوا هذا القول، فلو أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعا ما استطاع شيء أن يمنعه، إنّ الله على كلّ شيء قدير، وله ملك السماوات والأرض وما بينهما ويخلق ما يشاء. في الآية تقديم وتأخير، وهذا من مظاهر الأسلوب القرآني البلاغي.

- وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ(18) :

وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله لأنّهم يدّعون أنّ لهم من نسلهم ابنين لله تعالى هما: عزير وعيسى، سبحانه وتعالى عمّا يصفون. ويدّعون أنّهم أحبّاء الله لقولهم بأنّ الله تعالى قد اِصطفى منهم الأنبياء والمرسلين، ولأنّه تعالى قد جعلهم أهل كتاب. إن كان الأمر – كما يقولون– فأسألهم: لِمَ يعذّبكم الله بذنوبكم إن كنتم كما تقولون أبناءه وأحبّاءه، فقد عذّبكم بالتّيه، وبالمسخ، وبالتقتيل بسبب عبادة العجل، وغير ذلك؟ الأمر ليس كما تقولون، أنتم بشر كخلقه من البشر، لا تتميّزون عليهم بشيء. الله يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء.

ولله ملك كلّ ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، وإليه يرجع الأمر كلّه.

- يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (19) :

هذه في بيان فضل الله على أهل الكتاب ببعثة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وذلك لترغيبهم في اتّباعه. (قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا) وإضافة نون العظمة للرسول تشريف له – بعد فترة

من إرسال الرّسل (يُبَيِّنُ لَكُمۡ) أي يوضّح لكم تشريع الله، وإنحرافكم عن أصل الشريعة والمعتقد السليم، حتى لا تقولوا يوم القيامة إذا حُسبتم على إنحرافكم: ما جاءنا من رسول يتعهّدنا بالموعظة بشيرا ونذيرا، ها قد جاءكم رسولنا بشيرا ونذيرا فاتّبعوه وانصروه، والله قدير على إرسال من شاء من خلقه ليعلّم الناس دينه القويم.

- وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (20) يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ (21) :

وأذكر إذ قال موسى لقومه يا قوم أذكروا فضل الله عليكم إذ جعل منكم أنبياء وجعلكم كالملوك تُخْدَمون وتُبَجَّلُون وتُقَدَّرون لأنّكم أهلُ كتاب، وأعطاكم ما لم يُعْطِ أحدًا من النّاس، من ذلك المنّ والسلوى وأنقذكم من الاستعباد وقتل أطفالكم الذكور. يا قوم أُدخلوا الأرض المطهّرة المباركة أرض الشام التي وعدكم الله دخولها وسكناها، ولا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته فتخسروا بهذا الانقلاب عن طاعة الله رضوانه، وقيل معنى (وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ) لا ترجعوا عن ما أمرتكم به من قتال الجبّارين فتنقلبوا خاسرين في المعركة وتهلكوا. والمعنيان مقبولان.

- قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (23) :

الآية في جبن أتباعه، وفي تهرّبهم من قتال أعدائهم. قالوا يا موسى إنّ سكّان الأرض قوم جبّارون، وهم كنعانيون، كانوا أهل بطش وقوة. وإنّا لن ندخل هذه المدينة التي وعدنا الله إلاّ بعد أن يخرج منها هؤلاء الجبّارون. فإن يخرجوا منها فإنّا سندخلها. قال رجلان صالحان هما: يوشع أبن نون، وكالب بن يُوفْنا، كانا من نقباء بني إسرائيل، من الذين يخافون ربّهم، ويخافون عصيانه، وأنعم الله عليهما باليقين والصلاح والإسلام: لا تخافوا ولا يحملنّكم ضخامة أجسامهم على الجبن. إنّكم إذا دخلتم باب المدينة فإنّكم ستغلبونهم لأنّ الله تعالى وعدكم بالقرية وبالأرض. فتوكّلوا على الله إن كنتم مؤمنين بقدرته وتقديره ووعده.

- قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ (24) :

وكان جواب القوم مثالا للجبن والاستخفاف. قالوا: يا موسى لن ندخل القرية ما لم يخرجوا منها. فاذهب أنت ومعك ربّك فقاتلا الجبّارين، ونحن هنا قاعدون في إنتظار عودتك بالنّصر. وهو قول دالّ على الاستخفاف بوعد الله، وبأمر موسى، ودالّ على الجبن والتبرّؤ من المسؤولية.



- قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ (25) :

عندئذ توجّه موسى إلى ربّه بأنّه غير قادر على تسيير القوم للجهاد، وأنّه لا يملك القدرة إلاّ على نفسه وأخيه هارون لتنفيذ أمره تعالى. ودعا على قومه بأن يفصل بينهما وبين القوم الخارجين عن طاعة الله وطاعته.

- قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ (26)

وتبعا لعصيانهم، واِستجابة لدعاء موسى قضى الله تعالى أن يحرمهم من دخول القرية الّتي وعدهم بها، وجعلها محرّمة عليهم، وقضى عليهم بأن يعيشوا أربعين سنة في التّيهِ، يتيهُون في الأرض، لا يستقرّون في مكان، يسيرون في فلاة ضائعين متحيّرين، لا يعرفون الخروج منها، فلا تحزن عليهم لفسقهم وخروجهم عن الطاعة.

والمقصد من عرض هذا الحدث أن يتّعظ المؤمنون ليعرفوا سوء مآل التّعنّت، ورفض النّعمة التي أنعم الله بها على عباده بسبب الجبن والقعود عن الجهاد، وليعرفوا عاقبة الاستخفاف بأمر الرّسول، ونصح المؤمنين الصالحين. تاهوا في الصحراء وجاعوا وتعرّوا في الشتاء، وأحرقوا بالشمس صيفا، وهلك فيهم من هلك في تيههم، وكانوا من الخاسرين، ولحقتهم صفة الفاسقين.

- وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ (27) :

وهذه في قصّة ابني آدم، جاءت لبيان عاقبة التّعنّت بمثل ما سبق ذكره في قصّة التّيهِ، ولبيان سوء مآل عصيان أمر الله، ورفض نتيجة التّحكيم وقد حكم فيه الله عزّ وجلّ عند قبول قربان أحدهما ولم يتقّبل قربان الثاني، فكان من الخاسرين ووقع في شرّ النّدم والتحيّر، وكان مجرما في حقّ أخيه.

والمعنى: واِقرأ عليهم خبر اِبني آدم: قابيل وهابيل، اِختلفا في أمر زواجهما بأختيهما، فتحاكما إلى الله تعالى بأن يقدّم كلّ واحد منهما قربانًا، ومَنْ يُتَقَبّلْ منه قربانه يُعْتَمَد رأيه وحكمه، ومن يُرفضْ قُربانه يتنازلْ عن رأيه، ولا يُعمل بحكمه، فَتُقَبّلَ قربانُ الصادق في إيمانه الذي وقف على أمر آدم عليه السّلام في أن لا يتزوّج الأخ أخته التي وُلِدَتْ معه وكانت توأمًا لَهُ، ولم يُتَقبّل مِنَ الّذي تمسّك بالرّغبة في الزّواج بأخته التّوأم، فغضب هذا، ولم يَرْضَ بتحكيم ربّه، وبأمر أبيه آدم، وقال لأخيه لأقتلنّك حتّى لا يُنَفَّذَ أمرُك. قال الآخر – وكان من الصالحين – كان هذا تحكيم الله، وإنّما يتقبّل الله عبادة المتّقين، ويتقبّل عمل العاملين بأحكامه وأمر رسوله.

- لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (28) إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ (29):

فما كان جواب أخيه إلاّ أن قال له لئن مددت عَلَيَّ يدك لتؤذيني وتقتلني فإنّي لن أمدّ عليك يديَ لأقتلك إنّي أخاف الله ربّ العالمين، إنّي أريد أن ترجع إلى الله متحمّلا ذنبك وذنبَ قتلي ظلما بغير حقّ فتكون من أهل النّار وساكنها، وذلك جزاء كلّ من ظلم غيره.

- فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (30) :

وزيّنت له نفسه وسهّلت له قتل أخيه، وقتله فعلا، وبعمله هذا صار من الخاسرين في الدنيا لأنّه بات مجرما قاتلا لا يقربه أحد، وفي الآخرة لأنّه سيكون من أهل النّار مأوى الظالمين.

- فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (31) :

وتحيّر القاتل فيما يفعل بجثّة أخيه، فبعث الله غرابا تحت ناظريه، وجعل الغراب يحفر في الأرض، ثمّ جاء بجثّة غراب قتله، وجعل يردمها في التراب، وهكذا أخفى جثّته، فتعلّم القاتل من الغراب كيف يردم جثّة أخيه وجيفته، وقال متحسّرا كيف لم أتفطّن لأعمل مثل عمل هذا الغراب في مُواراة جثّة أخي، وأصبح القاتل من النّادمين على فعله، وعلى معصيته، وعلى تعنّته وعناده، وكلّ هذا من اتّباع هوى النّفس. وكلّ اِتّباع لها في ما كان معصيةً عاقبتُه النّدمُ والحسرةُ.

- مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ (32) :

وهذه محلّ العبرة في قصّة ابني آدم. والمعنى: بسبب فظاعة هذه الجناية وهذا الجرم فرضنا على بني إسرائيل أنّ كلّ من قتل نفسا واحدة بغير حقّ، قتلها ظلما واعتداءً، أو قتلها وهي لم تفعل شيئا من الفساد في الأرض يوجب قَتْلها والقصاصَ منها، فكأنّما قتل النّاس جميعا – وهذا لتعظيم الجرم وبيان فضاعته – ومن أنقذ نفسا من الهلاك كأن أنجدها من الغرق، أو من الموت تحت الأنقاض أو في مهلكة فأسعفها فكأنّما أحيا النّاس جميعا – وهذا لبيان فضيلة إنجاد النّاس وإسعافهم عند الشدّة والمهلكة –.

ولقد جاء الرّسل جميعهم بهذا التّشريع وتشاريع أخرى، ولكنّ كثيرا من النّاس بعدما جاءهم من هذا التّحذير، ومن تعظيم هذا الجرم ما يزالون متجاوزين حدودهم في قتل الأنفس البريئة بقطع الطريق عليهم، أو عند الإغارة عليهم لنهبهم، أو في الحروب لبسط النّفوذ على البلاد لاستغلال خيراتها واِستعمار أرضها، أو عند الغضب المبالغ فيه.

- إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) :



هذه في حدّ الحرابة. والمعنى: جزاء الذين يقطعون الطريق على النّاس فيقتلون ويسلبون ويروّعون، ويرمّلون النّساء ويُيَتِّمُون الصبيان، وقد سمّي هذا العمل محاربة لله ورسوله، (وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا) بحرق الزرع حسدا أو اِنتقاما، وقتل الأنعام أو سرقتها ونهبها، أو بإحراق المنازل والممتلكات الخاصّة والعامّة، وبالزّنى والاغتصاب، وبالخطف والسّلب داخل البيوت الآمنة وتحت التّهديد والترويع، وبترويج المخدّرات في أوساط اليافعين والشباب، أو بالتّغرير بالشباب لإرسالهم لبؤر التّوتر لقتل الأنفس البريئة مقابل المال والجنس، أو بقطع الطريق على العمّال لتعطيل وسائل الإنتاج أو على المسافرين... وما أكثر وسائل الإفساد في الأرض من مثل ما يفعل بالبيئة في تربتها أو في البحر بإلقاء الفضلات أو بالقيام بالتجارب النووية وطرح النفايات السّامّة التي تضرّ بالخيرات البحرية وتقتل الأسماك بالتلوّث، كلّ من يفسد في الأرض فحكمه القتل أو الصلب أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف كقطع اليد اليُمنى والرجل اليسرى أو على العكس، أو النّفي من البلاد. ولهم في الدنيا الخزي والعار وذلك بفضحهم حتى لا يعودوا لمثل ما كانوا يفعلون، وليعتبر مَن وراءهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم. وقد جاء في الحديث النّبويّ الشريف: "لا تروّعوا المسلم فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم" (رواه الطبراني عن عامر بن ربيعة، وهو حديث صحيح عند أهل الحديث).

- إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (34) :

هذا اِستثناء للذين توقّفوا عن الإفساد في الأرض وتابوا منه قبل أن يُمْسك بهم، ويُحاكموا، وكانت توبتُهم عن قناعةٍ منهم، فهؤلاء أمرهم إلى الله عزّ وجلّ.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ(35) :

بعد تلك العِبَر، والترغيب في التوبة عن الإفساد في الأرض جاءت هذه في موعظة المؤمنين، لدعوتهم لخشية الله. وخشيته تعني العمل بطاعته، والانتهاء عما نهى عنه، ودُعوا لأن يطلبوا القُربى منه بترك المعاصي وبالرغبة في نيل مرضاته، وأمروا بالجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الحقّ، نصرةً للدين بالموعظة الحسنة وبالإرشاد، وبالنّفير إذا دُعوا للنّفير، وكلّ هذا ليكونوا من الفائزين بنعيم الله في دنياهم وآخرتهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (36) :

بعد الوعد جاء هذا الوعيد ليدلّ على أنّ الذين كفروا لن ينجوا من عذاب الله الموجع يوم القيامة ولو اِفتدوا أنفسهم بكلّ ما عندهم في الأرض وأكثر منه، لن يُقبل منهم شيء. فيا لحسرتهم على أنفسهم يومئذ.



- يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ (37) :

وحينما يحشرون في جهنّم يودّون لو يخرجون منها، لكن لن يخرجوا منها ولا يستطيعون الهروب من داخلها لأنّ إقامتهم فيها دائمة أبدية.

- وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (38) :

هذه في حدّ السرقة. فمن سرق متعمّدًا ومحترفا لهذا العمل السّيئ تقطع يده، ويحكم القاضي العدل بهذا الحكم إن لم تكن السرقة من أجل طعام أكله جائع، إذ لا يجوز أن يجوع مؤمن في مجتمع دينه الإسلام. وهذا القطع هي عقوبة شديدة من الله لتمنع السارق أوّل مرّة من أن يعود لمثلها حتى لا تقطع يده الثانية، وليكون عبرة لغيره، والله عزيز في حكمه وحكيم في أحكامه، ليردّ الغيّ عن غيّه، ولحفظ أمن ممتلكات النّاس.

- فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (39) :

ومن تاب عن عمل السرقة بعد أن أقيم عليه الحدّ، وأصلح عمله وسلوكه فإنّ الله يتوب عليه في ما يحقّ على السرقة من عقاب يوم القيامة، إنّ الله غفور رحيم بعباده التّائبين الذين أصلحوا أعمالهم.

- أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (40) :

إنّ الملك لله تعالى يتصرّف في ملكه كيفما يشاء، والحكم له سبحانه، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء لأنّه عليم بنفوس عباده وبنواياهم وبأعمالهم وهو سبحانه على كلّ شيء قادر لا يغلبه أمر.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ (41) :

كان بعض المنافقين كلّما علموا من المسلمين خبرا يخصّ الكافرين من المشركين أو أهل الكتاب سارعوا إليهم بنقل الأخبار التي بلغتهم من الرسول صلّى الله عليه وسلّم ومن المسلمين عنهم، وقد حزن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وتألّم لمّا علم فعلهم، فجاءت هذه لتسليته لشدّ أزره. والمعنى: لا يؤلمك – أيّها الرّسول – فعلُ المنافقين من حولك الذين يقولون بألسنتهم إنّهم مسلمون، ولكنّ أعمالهم لا تدلّ على حسن إيمانهم لأنّ في قلوبهم مرضا. هم الذين يُسارعون إلى

الكفّار – كلّما سمعوا من المسلمين شيئا عنهم – لينقلوا إليهم الخبر. ولا يُؤْلِمْك عمل فريق من اليهود، كثيري التّسمّع عليك تَجَسُّسًا من أجل أن يحرّفوا كلامك، وهم يكذبون عليك، ثمّ ينقلون ما قلت إلى زعمائهم المستكبرين عنك الذين لا يحبّون أن يأتوك، ولا يحبّون اللّقاء معك. يغيّرون ما قلتَ ويبدلونه على حسب فهْمهم أو تأويلاتهم. يقولون إن حُكم لكم بهذا الحكم المناسب لنا فخذوه، وإن حَكَمَ لكم بحُكم آخر فاحذروه، ولا تنفّذوا ما قال، ولا تعملوا به. قيل نزلت في حكم الرّجم عن الزّنى الذي جاء في التوراة، وحكم به الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما جاؤوه للنّظر في حكمه في قضية الزّنى التي عرضت لهم، وكانوا يَوَدُّون أن يحكم الرسول صلّى الله عليه وسلّم بغير حكم الرّجم. ومن يرد ضلالَه وكفرَه وهلاكَه فلن تقدر له على شيء لتَهْدِيَهُ، ولتردّه عمّا يفعله ويقوله لإصلاح سلوكه. هؤلاء هم الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم من مرضها وفسادها ويطهّرها من النّفاق. هؤلاء لهم في الدنيا خزي حيثما حَلُّوا ولهم في الآخرة عذاب عظيم عمّا كانوا يفعلون.

- سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ **(42):**

هذه في صفة ذاك الفريق من اليهود، (سَمَّـٰعُونَ لِلۡكَذِبِ) أنهم كانوا كثيري السمع لما يأتيهم من الأخبار الكاذبة والإشاعات ويعتمدونها، (أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِ) السحت هو المال الحرام، وأكل المال الحرام يذهب بالمروءة، ولا مروءة لمن لا دين له، ومن السحت كلّ مال يذهب للحاكم رشوة، فقد جاء في الحديث الشريف: "كلّ لحم نبت من السحت فالنّار أولى به"، فقالوا: وما السحت؟ قال: "الرشوة في الحكم".

والمعنى: فإن جاءك هؤلاء للحكم بينهم فأنت مُخَيَّرٌ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم، فإن أعرضت فلن يصلوا إليك بشيء من أذاهم، وإذا حكمت بينهم فاحكم بالقسط، بأن تظهر لكلّ ذي حقّ حقّه. إنّ الله يحبّ المقسطين الذين يفصلون بين النّاس بإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. ويُستشهد بهذه الآية وبما سبقها على تسامح الدين الإسلامي، فرغم مكر المنافقين بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأتباعه ومكر أهل الكتاب إلاّ أنّ الوحي دعا للحكم بينهم بالقسط، وبعدم المبالاة والشعور بالحزن لما يمكرون.

- وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ **(43) :**

الاستفهام هنا للتعجّب من ميل اليهود للتحيّل في الدّين وللتهرّب من حكم الله الواضح عندهم في التوراة، وكانوا يريدون حكما أخفّ ممّا عندهم ليعتمدوه وليدّعوا أنّهم احتكموا لرسول الله وبهذا



حكموا إذا أعجبهم حكمه، وإذا جاءهم الحكم على غير ما يريدون تركوه وتهرّبوا منه، وقد حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيهم بما جاءهم في التوراة فكرهوا منه ذلك.

والمعنى: وكيف يحتكمون إليك وعندهم في التوراة حكم الله واضحا وبيّنا، ولمّا سمعوا منك الحكم رجعوا غير راضين، فلا تهتمّ بأمورهم إنّهم غير صادقين في إيمانهم، وإنّهم غير مصدّقين بأنّ حكمك كان من عند الله تعالى.

- إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ **(44) :**

الخطاب في الآية لليهود الذين ينتسبون للتّوراة ويعرفون أحكامها، ولكنّهم من تحيّلهم على الله وعلى دينه يبحثون عن حكم لهم خارج إطار دينهم، في دين لا يؤمنون به ولا يؤمنون بنبيّه.

إنّا أنزلنا التّوراة فيها (هُدٗى) لمن يشاء أن يهتدي لربّه في حسن عقيدة وصدق إيمان وطاعة، (وَنُورٞ) يبيّن شرع الله ويوضّح أحكامه جليةً يحكم بها (ٱلنَّبِيُّونَ): موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل. وكانوا كُثْرًا (ذكر القرطبي في تفسيره أنّ بين موسى وعيسى ألف نبيّ) ومعنى (أَسۡلَمُواْ) صدّقوا بالتوراة (لِلَّذِينَ هَادُواْ): للذين تابوا من الكفر، ويحكم بها (ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ): هم الحكماء وأهل الوَرَع من اليهود والعلماء بسياسة النّاس وتدبير مصالحهم (وَٱلۡأَحۡبَارُ) علماؤهم، (بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ) بما إستودعوه وائتُمنوا عليه من كتاب الله، وكانوا رقباء يحمون التوراة من التّحريف والتّغيير. فلا تخافوا النّاس إذا صرَّحْتُم بالحقّ. اصدعوا بالحقّ وأعلنوه واخشوا الله تعالى، ولا تسكتوا عن الحقّ لتأخذوا مقابل ذلك ثمنا، فكلّ ما تحصلون عليه من مال هو قليل إزاء ما يتلقّاه المرتشي من عذاب. ومن ترك الحكم بالذي أنزله الله في التّوراة، وحكم برأيه كأنّه هو المشرع فهو الكافر الذي طمس الحقّ وشرّع من نفسه ما لا حقّ له في تشريعه.

- وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ **(45) :**

هذه في القصاص أو العفو الذي جاء في شرع التّوراة. فرض الله عليهم أن يحكموا في القصاص بالمثل: النفس بالنفس بالاستواء، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسنّ بالسن، والجروح بالمثل. ومن تصدّق بالقصاص فعفا فهو كفّارة للمتصدّق من ذنوبه ثوابًا من عند الله على عفوه، وترغيبا للنّاس في العفو. ومن ترك الحكم بالذي أنزله الله في التّوراة ليحكم برأيه فهو ظالم.



- وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ (46) :

سبق أن ذكرنا على ما ذكره القرطبي في تفسيره أنّ بين موسى وعيسى ألف نبيّ، والآية تُشير أنّ الله سبحانه قد أرسل جمعا من الأنبياء بعد موسى، وأتبع جمعهم بعيسى ابن مريم فأرسله إلى بني إسرائيل مصدّقا ومؤمنا بما وجده بين يديه من التوراة، وآتى الله تعالى عيسى الإنجيل فيه (هُدًى) إرشاد للدّين القويم والعقيدة السليمة، (وَنُورٌ) لما فيه من مواعظ وإرشاد وتسابيح، ومصدّقا بالتوراة لأنّ كليهما من عند الله، (وَهُدًى) يرشد لطرق الاستقامة على الدين والعمل الصالح، وفيه مواعظ ليزداد بها المؤمن إيمانا وتقوى.

- وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (47) :

وعلى أتباع عيسى أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله عليهم في كتابه من أحكامه. ومن لم يحكم بما فيها فهو فاسق خارج عن الدين الذي شرعه الله له.

- وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (48) وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ (49) أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (50) :

تحدّثت الآيات السابقة عن تنزيل التوراة وبها هدى ونور، ودعت للحكم بما أنزل الله تعالى، ثمّ جاءت الآيات بالتذكير بأنّ الله عزّ وجلّ أنزل الإنجيل فيه هدى ونور، مصدّقا بما نزل من قبل، ودعت للحكم بما أنزل الله. وجاءت هذه تدعيما لما سبق لتخبر بأنّ الله سبحانه أنزل القرآن مهيمنا ومصدّقا بما نزل من قبل ودعت للحكم بما أنزل الله تعالى. اتّحدت هذه الآيات في موضوع واحد للتأكيد على أنّ الكتب المنزلة مصدرها واحد، وجميعها هدى ونور، وجميعها تدعو لأمر واحد في الحكم، هو الحكم بما أنزل الله، وكلّ ما نزل سابقا ولاحقا يدعو للإيمان بما سبق مصدّقا به.

فهل من مزيدٍ من الأدلّة للدلالة على وحدة الأديان، ووحدة مواضيع الكتب المنزلة؟

والمعنى: وأنزلنا إليك – يا محمّد – القرآن حقّا، فإنّك لا تكذب. و ما جاء في القرآن يصدّق بالموجود من الكتب السماوية: التوراة والإنجيل. والقرآن (مهيمن) على ما سبق من الكتب لأنّه شاهد يُقِرُّ بما فيها من الحقّ، وكاشف لِمَا حُرِّف فيها، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله وبما جاءك من الحقّ، ولا تسمع لما يرغبون من هوى أنفسهم. لكلّ أمّة منكم جعلنا شريعة وطريقا واضحا في الدين. ولو شاء الله لجعلكم على ملّة واحدة، ومنهج واحد، ولكن جعلكم مختلفين في ما جاءكم من الأحكام ليختبركم بالعمل بما جاءكم من الشرائع في القرآن، فبادروا إلى (الخيرات): صدق الإيمان، وخالص الطاعات، وصالح الأعمال، وطلب الأجر والثواب من عند الله، ونعيمه ورضوانه. ستعودون إلى الله جميعا فيخبركم بما كنتم تختلفون فيه في العقيدة وفي العمل بشرعه، وفي الاتّعاظ بمواعظه، ويفصل بينكم بالحقّ.

وإذا حكمت بينهم – يا محمد – فاحكم بما أنزل الله، وإيّاك أن تجيبهم لرغباتهم وما تميل إليه أهواؤهم، واحذرهم أن يصرفوك بكيدهم وجدالهم عن أن تحكم بغير ما أنزل الله إليك، فإن أعرضوا عنك بسبب تمسّكك بما أنزل الله وعدم اتّباع أهوائهم فاعلم أنّما يريد الله أن يوقع فيهم مصائب بما خالفوا الله فيما أمرهم به، فأذنبوا. وإنّ كثيرا من النّاس لفاسقون أيْ لخارجون عن الدّين لأنّهم لا يحبّون الحقّ، ولا ينضبطون لحكم الله وشرعه.

أيريدون الحكم بالشهوات وبرغبات الرؤساء كمثل ما يُحكم به في الجاهلية؟ والاستفهام للتّوبيخ بسبب تلاعبهم بالأحكام الشرعية. وهل من حكم أحسن من حكم الله لقوم يؤمنون ويوقنون بأنّه حكيم في تشريعه، وعليم بما ينفع عباده المؤمنين لحسن علاقتهم ببعض؟ والجواب عن الاستفهام الإنكاري: كلاّ.

ملاحظة: تعتبر هذه الآيات من الفقه القضائي، وهو فقه لأهل الاختصاص في القضاء، فيه الكثير من المسائل المتعلّقة بالحكم في قضايا المواطنين من أهل الكتاب، اليهود والنّصارى المقيمين في البلدان الإسلامية، من الذين يحتكمون إلى محاكمها في قضاياهم المتعلّقة بمعاملاتهم التجارية أو المالية أو الخدماتية أو شركاتهم مع المسلمين، وكذلك في خلافاتهم الأسريّة في زواج المسلم بكتابية وفي مسائل الإرث والدفن عند الوفاة، يُرجع فيها إلى كتب الفقه القضائي المختصّة.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ **(51) :**

هذه في موعظة المؤمنين حتى يحذروا من خيانة الخائنين، وغدر المتربصين بهم. يا أيّها الذين آمنوا لا تجعلوا اليهود والنّصارى أخلاّء تستنصرونهم وتطلعونهم على أسراركم، إنّهم أنصار

لبعضهم عليكم. إنّهم مُوالون لبعضهم أكثر من موالاتهم لكم، إنّهم عليكم أكثر ممّا هم لكم. ومن يستعن بهم منكم على إخوانه المسلمين فإنّه معهم، وليس معكم، وهذا من الظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين لأنّه لا يحبّ الغدر والخيانة والاستعانة على المسلمين بأعدائهم.

- فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ **(52)** وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ **(53)** :

هذه في اِستعانة المنافقين بأهل الكتاب. ترى كثيرا منهم يتسارعون في التودّد إليهم، وفي الحصول على رضاهم وصداقتهم بدعوى أنّهم يخافون أن تحيط بهم شدّة من شدائد الدهر فيطمعون أن يجدوا عندهم العون والمساعدة لتجاوز شدّتهم. وقد فعل هذا قوم من قبلنا بالاستعانة بالأجانب من أهل الكتاب لمدّهم بالمال لإنجاز مشاريعهم في البلاد، واِستقرضوا منهم حتى غرقوا في الدين وعجزوا عن تسديده، فاستعمر الأجانب أرضهم وبلادهم واستحكموا في خيرات البلاد واِستغلّوها لفائدتهم وسخّروا مواطنيها لخدمتهم، وصاروا هم الأسياد، وصار أهل البلاد عبيدا وخدما عندهم.

ولذلك دعا الله تعالى في هذه الآية للحذر من الاستعانة بهم، ودعاهم ليرجوا من الله عزّ وجلّ أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيفرّج عنهم كربتهم، ويصلح لهم شأنهم، وبهذا ينقذهم منهم، ويصبحون بهذا نادمين على ما كانوا قد حدّثوا به أنفسهم من الاستعانة بغيرهم من أهل الكتاب.

ويقول الذين آمنوا حينما تكشف رغبة المنافقين في الاِستعانة بأهل الكتاب من أعداء المسلمين متعجّبين من أمرهم في تفكيرهم وتدبيرهم وعملهم : أهؤلاء الذين أقسموا بكلّ يمين واجتهدوا في أيمانهم إنّهم معنا؟ لا نريد أعمالهم وبَطُلت، وأصبح المنافقون بهذا الإبطال لجهودهم من الخاسرين. خسروا موالاة اليهود فلم تحصل لهم ثمرة، وخسروا ثقة النّاس بهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ **(54)** :

هذه في الحضّ على التّمسّك بالدّين رغم ما يتعرّض له المسلمون من صدّ ومشاقّة، وللتّحذير من الردّة. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا من يرجع منكم إلى الكفر والشرك بعد إسلامه خوفا على نفسه ومصالحه أو رغبة في الحصول على منافع أغراه بها المشركون فإنّ الله غنيّ



عنه، وسوف يأتي الله بقوم يخلصون له في الدين، ويطيعونه حُبًّا فيه، ويثيبهم الله على إيمانهم وطاعتهم ويكرمهم من بعد ذلك محبَّةً، رفقاء بالمؤمنين، رحماء بينهم، يشفقون عليهم، ويعطفون، أشدّاء، غلاظًا على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله نصرةً لدينه ولرسوله، لا يأبهون بلَوْمِ مَنْ يلومهم على شدّتهم على الكفّار، وعلى نصرتهم لرسول الله ولدين الله. وهذا من فضل الله عليهم وهديه لهم، وهداه يؤتيه من يشاء من عباده المخلصين له في الدين، والله واسع الفضل والرحمة، وعليم بما يحتاج إليه عباده المؤمنون المخلصون له في الدين والطاعة.

- إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (55) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ (56) :

بعد التحذير من الارتداد، جاء في هاتين الحضّ على طاعة الله ورسوله، وفي وعد المؤمنين بالغلبة حتى لا يتولّوا المشركين ولا أهل الكتاب، فإنّ ولاية المؤمنين لله ورسوله والمؤمنين الصادقين فقط. والمؤمنون الصادقون هم الذين يحافظون على إقام الصلاة في أوقاتها ويداومون عليها، ويؤدّون زكاة أموالهم وهم خاشعون لله عزّ وجلّ. ومن (يَتَوَلَّ) ينتصر بالله ورسوله والمؤمنين فإنّهم هم الجمع الغالبون القاهرون لأعدائهم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (57) :

وهذه للتأكيد على تجنّب إتّخاذ أهل الكتاب والمشركين أنصارا خاصّة إذا كانوا من الذين يهزؤون بالإسلام سخرية من أحكامه وتكاليفه، ويضحكون على المتديّنين ويتندّرون عليهم، ويلهون إذا دعوْا لسماع ما يُتلى عليهم من القرآن أو عند دعوتهم لحضور مناسباتهم الدينيّة. وإخشوْا ربّكم – أيّها المؤمنون – بالسمع والطاعة إن كنتم صادقين في إيمانكم.

- وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (58) :

في هذه الآية إشارة لمشروعية الأذان في قوله تعالى (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ). حين يسمع أولئك الأذان للنّداء للصلاة الجامعة كان تعليقهم على الأذان وعلى سعي المؤمنين الحثيث للذهاب للمسجد ساخرا، وضحكوا على حركاتهم في الوضوء والصلاة، وذلك لأنّهم قوم لا يعقلون فضل السعي للصلاة وفضل أدائها، ولا يعقلون ذنب من تركها وجحدها.

- قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (59) :

الاستفهام في الآية للاستغراب. والمعنى: يا أهل الكتاب تهزؤون منّا فهل تكرهوننا وتريدون الانتقام منّا لأنّا آمنّا بالله وحده، وبالقرآن، وبالتّوراة والإنجيل، والحال أنّ أكثرهم خارج عن الدّين، ولا يأبه به ولا بشرعه؟ فما أغرب موقفكم منّا؟



- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (60) :

أخبرهم: هل أُعْلِمُكم بالأسوإ من ذلك جزاءً من عند الله.. من أطرده الله من رحمته، وغضب عليه فلا ينظر إليه يوم القيامة، والقوم الذين كالقردة في حركاتهم يضحك النّاس عليهم، وفي رائحتهم كالخنازير ينفر النّاس من حضورهم وملاقاتهم ومجالستهم لنتانة روائحهم، وعبدة الشيطان والذين يقدّسون الكهنة الذين ينهبونهم. أولئك أسوأ حالا ومكانةً، وأدعى للسخرية منهم، وأبعد النّاس عن الطريق السويّ الذي لا اِعوجاج له.

- وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ (61) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (62) :

هؤلاء قوم لا يُطمأنّ إليهم ذلك بأنّهم إذا جاؤوك وقالوا آمنّا فقد كذبوا لأنّهم دخلوا بالكفر، ولم يكونوا يصدّقون بك ولا بدينك، وحتى بعد الخروج من عندك والسماع منك فإنّهم يخرجون بالكفر كما دخلوا به، والله أعلم بما كانوا يخفون في صدورهم من الكفر والمَكر.

وترى كثيرا منهم يبادرون سريعا للكذب وتجاوز الحدّ في اِرتكاب المعاصي والاعتداء على النّاس بالكذب أو التآمر عليهم، أو بالتحيّل عليهم، وأكلهم المال الحرام والرّشاوي، وما أسوأ ما كانوا يعملون وما أسوأ عاقبتهم!

- لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ(63) :

هلاّ نهاهم صلحاؤهم وعلماؤهم وحكّامهم على ما يفعلون من المنكر، وعن ما يقولون من الكذب والافتراء على النّاس، وعمّا يروّجون من إشاعات كاذبة، وأكلهم المال الحرام بالباطل أو بالرشاوي، ما أسوأ ما كانوا يأتون من الأعمال والأقوال.

- وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (64) :

وقالت اليهود إنّ الله يبخل عنّا بالخيرات، ولا يبسط بالعطاء، ويقبض عن فضله، (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) دعاء عليهم بأن تُوثق أيديهم فتتعطّل عن الحركة والعمل، وتصيبهم إعاقة، (وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟) وبسبب ما ادّعوا على الله أطردهم الله من رحمته. بل يدا الله ممتدتان بالعطاء والإحسان



ينفق كيفما يريد. وسيزيد الكثير من هؤلاء اليهود ما ينزل عليك – يا محمد – من خير وفضل ووحي، ونصر على أعدائك، سيزيدهم (طُغۡيَٰنٗا) ظلما وسطوة، وكفرا. ولقد جعلنا بينهم عداوة وبغضاء إلى يوم القيامة. كلّما أشعلوا نار الفتنة بينكم وبين أعدائكم أخمدناها وأفشلنا تدبيرهم ورددنا عليهم كيدهم. وما يزالون يحاولون حيثما حلّوا في مكان أن يفسدوا علاقة الناس ببعضهم، والله لا يحبّ المفسدين الذين يزرعون الفتنة في الناس.

- وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (65) :

هذه في فتح باب الرّجاء للتّائبين من أهل الكتاب عن قولهم الباطل بأنّ الله ثالث ثلاثة، وما هو إلاّ إلاه واحد سبحانه، والذين لا يشهدون لمحمد صلّى الله عليه وسلّم بالنبوّة والرّسالة. فإنّهم إن آمنوا بوحدانية الله تعالى، وانتهوا عن شركهم، وإذا شهدوا لمحمد صلّى الله عليه وسلّم بالنّبوّة والرّسالة، وبالقرآن كتابا منزلا من عند الله عزّ وجلّ، ثمّ انتهوا عن التآمر على الإسلام والمسلمين بنصرة المشركين عليهم، وأقلعوا عن نفاقهم فإنّ الله تعالى يعدهم بأن يستر عليهم آثامهم، وذنوبهم، ويعفو عنهم، ويغفر لهم ما كان منهم، ثمّ يدخلهم ربّهم جنّات النّعيم برحمة منه تعالى وفضل.

- وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ (66) :

الآيتان في ترغيب اليهود والنّصارى في الإسلام. ولو أنّ اليهود والنّصارى آمنوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبما أنزل عليه، وتجنّبوا الكفر به وبالتّنزيل لسترنا عنهم ذنوبهم ولأكرمناهم بإدخالهم جنّات النّعيم.

ولو أنّهم اِلتزموا بالعمل بما في التّوراة والإنجيل من شرائع، (وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ) وهو القرآن لوسّع الله لهم في الرّزق وإنزال الخير من السماء، وبإخراج الخيرات من الأرض فأكلوا من كلّ جانب ومن كلّ ثمر وطعام، وهَنَؤوا بعيشهم. منهم فريق معتدل في طاعتهم، وفيهم السّابقون للإسلام. ومنهم قوم آخرون يفعلون السيّئات ولا يطيعون الله عزّ وجلّ.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (67) :

يا أيّها الرّسول لا تنشغل بإيمان أهل الكتاب، وداوِمْ على تبليغ ما ينزل عليك من ربّك، وإن قصّرت فما بلّغت رسالته تبليغا واسعا، ونشرا عند عموم النّاس، والله يمنعك من أذى كلّ من أراد بك سوءًا لتصل إلى جميع النّاس. إنّ الله لا ينصر القوم الكافرين المعرضين عن طاعته، ولا يطهّر قلوبهم لأنّهم لا يؤمنون به.

- قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ **(68):**

أخبر – يا محمد – أهل الكتاب أنّهم ليسوا على شيء من الإيمان حتى يعملوا بالتوراة والإنجيل والقرآن معا. وسيزداد كثير منهم غيضا وغطرسة وعنادا وكفرا كلّما نزل عليك في كتابك شيء من أخبار كفرهم السابق ونفاقهم ومن أخبار تحريفهم لكتابهم واختلافهم على أنبيائهم وقتلهم لبعضهم. فلا تحزن ولا تأسف عليهم إن لم يؤمنوا، وأصرّوا على كفرهم.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ **(69) :**

إنّ المؤمنين المسلمين واليهود، وعبدة الملائكة والكواكب الذين أسلموا، والنّصارى الذين صدّقوا بوحدانية الله تعالى وآمنوا، وصدّقوا بيوم الحساب فعملوا صالحا من العبادات والطاعات يرجون به رضوان ربّهم وثوابه فلا خوف عليهم إذا قاموا للحساب فإنّهم سيكونون آمنين يومئذ، ولن يحزنوا على ما فاتهم من خيرات الدنيا ونعيمها لأنّهم سيجدون ما هو خير منها.

الملاحظ أنّ (ٱلصَّٰبِـُٔونَ) ورد لفظا مرفوعا في جملة اسمية مسبوقة بالناسخ (إِنَّ) وذلك لأنّ الصابين ليسوا أهل الكتاب مثل الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى، ولكن لمراعاة زمن ظهور هذه الديانة، وهي شبيهة بالديانة السماوية وذلك لأنّهم يعبدون إلاه الشمس وإلاه القمر – ظهر في زمن بين الديانتين اليهودية والنصرانية. فالواو ليست واو عطف حقيقي وإنما هي بمعنى واو حتّى أي وكذلك...

- لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ **(70) :**

في هذه تذكير بما أُخِذَ علَى بني إسرائيل من ميثاق ليؤمنوا بما يُرْسَلُ إليهم من رُسلٍ بعد موسى، ولكنّهم لم يلتزموا بما عاهدوا الله عليه، بل أخلفوه وذلك بأنّهم كانوا قد كذبوا برسل جاؤوهم بما لا يرغبون من تشريع يردّهم للهدى وصالح الأعمال، وعمدوا لقتل رسلٍ جاؤوهم طغيانا وكفرا.

- وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ **(71) :**

وهذه في ما كان من عقابهم لنقضهم الميثاق، والمعنى: وظنّوا أنّهم مفلتون من العقاب بما فعلوا. ولقد فتنهم الله بالشّدائد، وبلاهم بالخزي والذلّة، وتغشّت أبصارهم عن طريق الهدى، وسدّوا آذانهم عن سماع الحقّ، ولم ينتفعوا بما أصاب غيرهم من الأمم السالفة بسبب كفرهم، وجاء من بعدهم قوم تابوا ممّا كان عليه من سبقهم فتاب الله عليهم وكشف الله عنهم القحط والشدائد، ثمّ

عاد من بعدهم قوم عموا عن إبصار الهدى فأتوا المعاصي وكذّبوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم. وسدّ كثير منهم سمعه عن سماع القرآن الحقّ، والله عليم بما يفعلون، ويرى أعمالهم.

- لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (72) :

هذه في اِنحراف النّصارى عن المعتقد السليم، وتبرّؤ عيسى ممّا يقولون. قال النّصارى إنّ الله هو المسيح ابن مريم لمّا رأوْا معجزاته الدّالّة على صدق بعثته من عند ربّه، وكان هذا من مغالاتهم في الدّين، ومن اِنحرافهم عن المعتقد السليم في توحيد الله، لقد أشركوا بالله بما قالوا وكفروا. ولقد أبلغهم المسيح في رسالته لبني إسرائيل بأن يعبدوا الله ربّه وربّهم، وحذّرهم من أن يشركوا بالله أحدا، وأخبرهم بأن كلّ من يشرك بالله يحرّم الله عليه دخول جنّة النّعيم، ويحشره في نار جهنّم، وهو من الظالمين لله في حقّه في التوحيد وفي التوجّه بالعبادة إليه وحده، ولن ينصر أحدٌ ظالما لله بالشرك لينقذه من العذاب ويخرجه من مأواه الأخير في جهنّم.

- لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) :

هذه لتصحيح المعتقد. لقد كفر الذين قالوا كذبا واِفتراءً من عندهم: إنّ الله ثالث ثلاثة (ويقصدون بأنّ الله هو الأب وزوجه مريم هي إلاهة ثانية، وادّعوا أنّ المسيح ابنه وهو إلاه ثالث) وهذا شرك وهذا كفر، لأنّه ليس من إلاه إلاّ الله وحده، وهو إلاه واحد. وإن لم يكفّ القائلون بأنّ الله ثالث ثلاثة عن قولهم الباطل، ويصحّحوا معتقدهم لَيَلْحَقَنَّهم عذاب موجع لكفرهم بوحدانية الله ولتماديهم في القولِ عن الله القولَ الباطل الكاذب.

- أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (74) :

هذه لتوبيخهم ولاستعجالهم للاستتابة وللاستغفار والله غفور للمستغفرين ورحيم بالتائبين.

- مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (75) :

هذه لبيان بشرية الرسول المسيح، ولنفي صفة الألوهية عنه. ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول كسائر الرّسل الذين جاؤوا من قبله. وأمّه مريم عليها السلام كانت ملازمة للصدق مع الله جلّ وعلا في توحيده وطاعته. كانا كسائر البشر بحاجة للطعام، ومن صفات الإلاه أنّه لا يحتاج لشيء وللطعام، فبطُل الاعتقاد في إلاهيتهما. تأمّل كيف نوضّح لهم الدلائل البيّنة على بطلان زعمهم، ثمّ تأمّل كيف ينصرفون عن هذا الحقّ بعد بيانه وتوضيحه.

- قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرࣰّا وَلَا نَفۡعࣰاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (76) :

الاستفهام هنا للتقرير – والمعنى: اِسألهم أتعبدون غير الله من لا يستطيع لكم ضرّا، ولا يستطيع أن ينفعكم بشيء، وتنصرفون عن عبادة الله الذي يسمع دعاءكم ونداءكم، والعليم بحوائجكم، ومن كانت هذه صفاته فهو الإلاه الحقيقي.

- قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمࣲ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرࣰا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (77) :

وهذه للتذكير والتحذير. والمعنى: والخطاب لعموم الكتابيين انتهوا عن المغالاة في الدين واحذروا أن تقولوا في الدين غير الحقّ وتتجاوزوا الحدّ في اِدّعاء الباطل كقول النّصارى بأنّ الله ثالث ثلاثة وما هو إلاّ إلاه واحد، ولا تقولوا بأقوال كهنتكم ورؤسائكم من هوى أنفسهم ممّا لم ينزل به شرع، فضلّوا عن سبيل الله وأضلّوا من اتّبعوهم وأطاعوهم، وبهذا تاهوا عن طريق الحقّ والصواب والرّشاد. وتكرّر فعل (وَضَلُّواْ) ثلاث مرّات لاستنكار الابتداع في الدّين اِتّباعا للهوى وفي غير إطار الشرع.

- لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ (78) :

لقد شاقّ قوم داود وقوم عيسى وهم من بني إسرائيل الرّسوليْن، فدَعَوا عليهم باللعنة بطردهم من رحمة الله لشدّة ما نالهما منهم من تكذيب وعناد وأذى وعصيان وتآمرٍ عليهما وعلى أتباعهما، وكانوا يعتدون على المؤمنين من ذويهم لصدّهم عن سبيل الله وطاعة رسوليْه.

- كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرࣲ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (79) :

كانوا يسكتون عن بعضهم حين يرونهم يفعلون المنكر، والمنهي عنه في الشرع، وكأنّهم راضون عنهم، ولا يستنكرون عليهم فعلهم. بئس هذا الموقف منهم وبئس ما كان يفعل أولئك الّذين يأتون المنكرات.

- تَرَىٰ كَثِيرࣰا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ (80) وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرࣰا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ (81) :

ترى كثيرا من اليهود يناصرون المشركين على المسلمين، بئس ما زيّنت لهم أنفسهم من هذا العمل الذي جلب عليهم سخط الله وغضبه، ورماهم في العذاب يوم القيامة إلى الأبد. ولو أنّهم كانوا مؤمنين بالله حقّا وبصدق نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبصدق القرآن ما رَضُوا بأن يتّخذوا أعداء المسلمين أنصارا، ولكن كثيرا منهم خارجون عن الإيمان.



- لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (82) :

(لَتَجِدَنَّ) على قول النحويين: الخليل وسيبويه فإنّ اجتماع لام التوكيد ونون التوكيد في هذا الفعل يدّل على الحال والمستقبل. والمعنى: ستجدون – أيّها المسلمون في عصركم هذا وكذلك في كلّ عصر من المستقبل اليهود أشدّ النّاس عداوة لكم وكذلك المشركين فلا تطمئنوا إليهم، ولا تتّخذوا منهم نصيرا ولا معينا.

وأقرب الكتابيين إليكم النّصارى لأنّ فيهم (قِسِّيسِينَ) رؤساء علماء في الدين، (وَرُهْبَانًا) وهم العبّاد النّسّاك الذين اِنقطعوا لعبادة الله وأعمال البرّ ووهبوا أنفسهم وحياتهم لها، ولأنّهم قوم لا يتكبّرون عن الإذعان للحقّ والقبول به، ومَثَلُ أَحَدِهم: النّجاشي الذي نصر المهاجرين إلى الحبشة على المشركين وأمنّهم على حياتهم، وآواهم آمنين مكرّمين.

- وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ (84) فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (85) :

هذه في صفات القسّيسين والرّهبان إذا سمعوا ما تيسّر من القرآن فاضت أعينهم بالدمع ممّا سمعوا من الكلام فعرفوا منه أنّه قول من الله حقّا، يقولون عندئذ ربّنا صدّقنا بما سمعنا وصدّقنا بأنّه من عند ربّنا فاكتبنا مع العدول الذين يشهدون يوم القيامة على غيرهم بصدق التّنزيل. ويقولون لا مانع لنا من الإيمان بالله وبما أنزل من الحقّ، ويرجون من الله أن يدخلهم مع القوم الصالحين جنّات نعيمه. ويبشرهم الله بأن يثيبهم عمّا قالوا وعمّا شهدوا به من الحقّ – جنّات النّعيم ليخلّدوا فيها أبدا، وهكذا يكون جزاء المحسنين.

- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (86) :

وهذه في وعيد الكافرين والمكذّبين بالقرآن وبدلائل وحدانية الله وصدق نبيّه فإنهم موعودون بالعذاب في الجحيم يقيمون فيه إقامة المالك لا يخرجون منه.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ(87) :

هذه في الإرشاد لعدم المبالغة في الزّهد، فقد جاء في الأثر أنّ قوما حرّموا على أنفسهم ألوانا من الأطعمة، وقُرْبَ النّساء زهدا وتعبّدا، يرجون به من الله القربى، فجاءت هذه الآية بالدعوة

للاعتدال والتوسط في العبادة. والمعنى: أيّها المؤمنون لا تحرّموا على أنفسكم الأطعمة الطيّبة التي أحلّها الله لكم من عند أنفسكم، ولا تتجاوزوا حدودكم في التحريم ولا تعتدوا على شرع الله، إنّ الله لا يحبّ الذين يشرّعون لأنفسهم تحريم ما أحلّ الله لأنّه اِعتداء على ما شرعه الله.

- **وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ (88) :**

وكلوا ممّا أنعم الله به عليكم حلالا طيّبا واِخشوا ربّكم الذي تؤمنون به.

- **لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (89) :**

هذه في كفّارة اليمين، والمعنى: لا مؤاخذة عليكم بما يجري على ألسنتكم من الحلف ممّا لا يُقصد به القَسم نحو: لا والله.. والله بخير... ولكن حين يكون الحلف مقصودا، ويقسم المرءُ بالله لإثبات صدقه، أو ليلتزم بأمر، أو لأيّ أمر يؤكّده باليمين بالقصد والنّية والعزم، ثمّ أراد أن يتحلّل منه فعليه وجوبا للتكفير عن الحِنْث فيه أن يطعم عشرة مساكين بمثل ما يطعم هو أهله لغذائهم وعشائهم، فلا يبخس طعام الحنث، أو يكسو عشرة من المساكين كساء محترما كالقميص أو الرّداء ممّا يحمي البدن، أو يحرّر رقبة، فمن كان فقيرا ومن لم يجد ما يفي به من طعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فعليه أن يصوم ثلاثة أيّام بنيّة الكفّارة. هذه كفّارة اليمين إذا حلفتم قصدا، وخير لكم أن تحفظوا أيمانكم، فلا تحلفوا بدون سبب قويّ، ولا تنكثوا الأيمان بعد عقدها. هكذا يوضّح الله لكم أحكامه لعلكم تشكرون ربّكم على ما جعل لكم من التحلّل من اليمين لأنّ هذا التحلّل لم يكن مشروعا في الديانات السّابقة.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ (91) :**

هذه في تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام على المؤمنين لأنّها (رِجۡسٞ) خُبث وقذارة وإثم من تزيين الشيطان ليبعدهم عن طاعة الله. وأمّا (ٱلۡخَمۡرُ) فما أسكر كثيره، فقليله ملحقٌ به في التحريم. و(ٱلۡمَيۡسِرُ) هو القمار، وهو كلّ مال جاء من ربح، ولم يأتِ من وجه من وجوه الكسب، فمن ربح منه شيئا فإنّما أُخذ من مال خسارة الكثير من إخوانه، وأُخذ من خسارة هؤلاء مال أكثر ممّا ربحه الرّابح منظّم الميسر، فهو أكل مال بالباطل، وقد تعدّدت وجوه (ٱلۡمَيۡسِرِ) ووجوه الإغراء بالربح عن طريق الإرساليات القصيرة من الهاتف الجوال أو عبر طريق شبكات التواصل

الاجتماعي، ومن أمثال (ٱلۡمَيۡسِرِ) ما يسمّى بالمراهنة كما يفعل في الرّهان على نتائج المقابلات الرياضية، أو في الرهان على تسابق الخيل، أو على الرابح في مقابلات الملاكمة. وأمّا (ٱلۡأَنصَابُ) فهي الحجارة التي يقدّمها قوم ويعظّمونها جهلا من اِختلاقاتهم للأساطير ويذبحون عليها قرابينهم أو ذبائحهم للتبرّك بها، وأمّا (ٱلۡأَزۡلَٰمُ) فهي الأقداح التي ترمى لاسترشادها قبل سفر المسافر، فإذا رميت وظهرت على وجه معيّن اِستبشر المسافر وخرج لسفره وهو متفائل بربحه من سفره، وإذا ظهرت على وجه متعارف عليه يدلّ على الشؤم أبطل المسافر سفره ولم يخرج، وهو من الضرب للاستطلاع على أمر الغَيْب.

وجاءت الآية باجتنابه عسى تحقّق الفوز والنجاح، والاجتناب مثل الابتعاد يعني عدم القرب منه، وهذا من باب الإرشاد الذي يعني عدم ممارسة العمل المطلوب اِجتنابه، وعدم التفكير فيه، ووجوب الابتعاد عنه.

وجاءت الآية الثانية لتعليل التحريم: فإنّ هذه الأعمال من تدبير الشيطان ومن تزيينه للعباد ليثير من خلالها الإحَن والفتنة بين النّاس ويقطع المودّة وحسن الصلة بينهم وخاصة في الخمر والميسر فإنّ النّاس يعلمون كيف تنتهي جلسات الخمرة ولعب الميسر، لا تنتهي إلاّ بالخصومة وتبادل العنف وقد يصل الأمر إلى جناية. ويريد الشيطان بهذا التزيين صدّ النّاس عن ذكر الله ويريد أن يشغلهم عن الصلاة وعن طاعة الله. (فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ) اِستفهام للتحذير والتوبيخ والتهديد كذلك لمّا سمعه الصحابة: قالوا انتهينا فأراقوا ما كان عندهم من الخمرة واِنتهوا عن تناولها والمتاجرة فيها، وحرّموها على أنفسهم وانقطعوا عن كلّ أشكال الميسر.

- **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (92)**

هذه للترغيب في طاعة الله وطاعة الرّسول، وللتّحذير من معصية الله، ومن مشاقّة الرسول، فإن أعرضتم – أيّها النّاس – عن دعوته وعن طاعة الله فاعلموا أنّما على الرّسول البلاغ الواضح لإبلاغكم كلام الله تعالى وشرعه.

- **لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (93) :**

هذه في السؤال عن الذين كانوا يشربون الخمرة ويلعبون الميسر ثمّ ماتوا على ذلك، قبل نزول هذا الحكم، وكانوا مسلمين، بمثل السؤال عن الذين لم يصلّوا إلى قبلة المسجد الحرام ثم نزلت آية تحديد قبلة المسلمين، فجاءت هذه الآية في رفع الحرج عنهم فيما طعموا من قبل وكانوا مؤمنين يعملون الصالحات، وكانوا متّقين، وليس على الذين شربوها وتعاطوها قبل نزول هذه الآية – وهم

أحياء – فلمّا نزل هذا الحكم اتّقوا شربها، وصدّقوا بالتحريم، ثمّ اِتّقوا فيما بقي من أعمالهم، وأحسنوا في طاعتهم لربّهم، والله يحبّ المخلصين له في الدين.

تكرار جملة (ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ) ثلاث مرّات أوجد صعوبة في فهم الآية، وقال المفسرون في هذا التكرار أقوالا من اِجتهاداتهم ولم تكن عندي واضحةً، ولا مقنعة، وقد فهمت الأولى على أنّها خاصة بالذين ماتوا قبل نزول حكم التحريم، والثانية في الذين اتقوا شرب الخمرة وهم أحياء، والثالثة في الذين داوموا على التقوى في أعمالهم فيما بقي من أعمارهم. والله أعلم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ (94) :

يا أيّها الذين آمنوا ليختبرنّكم الله بشيء من الطيور أو الأنعام يسهل عليكم صيدها، وتكون في متناول أيديكم أو في مرمى رماحكم ولا تهرب منكم، وهذا في الحرم وزمن الإحرام، بمثل ما اِختبر بني إسرائيل بصيد السمك يوم السبت، وهذا الاختبار لتقييم مدى اِمتثالكم لحكم الله في التّحريم في قرارة أنفسكم، وفي حال أن لا أحد يراكم تصطادون، فما كان قبل هذا فأمره إلى الله، ومن اِعتدى بعد نزول هذا الحكم فله عذاب موجع على تعدّيه على حدود الله في النّهي والتّحريم.

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (95) :

هذه في تحريم الصيد في الإحرام. والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا يحرم عليكم في موسم الحجّ أو في العمرة وعند لباس الإحرام أن تصطادوا أيّ صيد لأنّ المحرِم في لباس إحرامه هو في عبادة، والصيد من هوايات اللهو المباح في زمن إباحته. ومن قتل صيدا في حجّ أو عمرة متعمّدا فعليه أن يعوّض ما اِصطاده بمثل ما يقابله من إبل أو بقر أو ضأن أو معز يُهْدَى لفقراء الكعبة.. يحكم به عدلان، أو ما يعادل ذلك من طعام يُقدّم للمساكين بمثل كفّارة طعام المساكين للذي أفطر من أيّام الصيام من رمضان، وذلك ليعرف سوء عاقبة فعله. عفا الله عمّا سلف ممّا كان من صيد المحرمين في الحرم قبل نزول هذا الحكم، ومن عاد لسوء عمله مخالفا حكم ربّه فإنّ الله سينتقم منه والله عزيز ذو اِنتقام. وهذه جملة شديدة التّحذير.

- أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) :

هذه في تحليل صيد البحر من الحيتان، فطعامه حلال وكلّ ما يستمتع بأكله وينتفع به للمحرمين وللمسافرين السائرين إلى بيت الله. وتؤكّد الآية تحريم ما سبق تحريمه من صيد البرّ



مادام الحاجّ أو المعتمر في لباس الإحرام. وحذّرت الآية من مخالفة الحكم بأن دعت لتقوى الله الذي إليه سنرجع وذلك بتجنّب معصية أمره.

- جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (97) :

جعل الله الكعبة البيت الحرام صلاحا للنّاس لصلاتهم وأمنهم ومعاشهم، فلا يحلّ لأحد أن يدوس حرمتها. وحرام عليكم أن تنتهكوا حرمة الشهر الحرام، وما يهدى من الأنعام إلى الكعبة، وما هو مقلّد من الأنعام بقلادة والمخصّص للفقراء بالبيت. شرع الله هذا الحكم لتعلموا أنّ الله يعلم ما يجري في السماوات وفي الأرض وحول بيته ويعلم مصالحكم وأنّه بكلّ شيء عليم.

- ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (98) :

اِحذروا مخالفة أحكام الله فإنّ الله شديد العقاب، وأنّه غفور رحيم بعباده المطيعين.

- مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (99) :

هذا حكم الله قد بلّغه الرّسول إليكم، وما عليه إلاّ البلاغ، والله يعلم ما تظهرون من الطاعة وما تخفون في سرّكم من النّفاق أو التكذيب أو تبييت المعصية.

- قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (100) :

قل لا يستوي الحرام وكلّ ما هو باطل وقبيح مع الحلال وكلّ ما هو خير وصلاح، ولو أعجبك كثرة ما يأتيكم من الحرام فاخشوْا ربّكم في ما تكسبون وما تطعمون يا أصحاب العقول الواعية لعلّكم تفوزون برضوان الله ونعيمه.

- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ (102) :

يا أيّها الذين آمنوا لا تكثروا من السؤال عن أحكام لم ينزل شيء فيها من حكم الله فإن تظهر لكم تشقّ عليكم. وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومَنْعًا وهات" (يقصد الشحّ والطمّع أو الجشع). وكره لكم ثلاثا: "قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال". وفسّر العلماء كثرة السؤال بأنّه في المسائل الفقهية وهو سؤال التنطّع والتكلّف والتشدّد والتدقيق في الجزئيات تكلّفا. (وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ) جملة فيها غموض عند جميع المفسّرين، والمعنى الأقرب إلى فهمي – وأرجو من الله أن لا أكون مخطئا فيه – أنّكم إذا أعدتم السؤال عنها حتى ينزل بها

القرآن فيظهر فيها حكم الله يشقّ عليكم حكمها فتندمون عن إلحاحكم في السؤال عنها، (عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا) لقد تركها الله، ولم يُعرف بها في حلال ولا حرام فهو معفوّ عنها والله غفور حليم بكم لا يكلّفكم بما يشقّ عليكم.

لقد سأل قوم من قبلكم عن مسائل، فلمّا جاءهم الحكم فيها وفرضت عليهم أصبحوا بها كافرين، فوقعوا في المعصية، وهذا في النّهي عن مسائل سكت عنها الشرع رحمة بالمؤمنين.

- مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (103) :

ما جعل الله من (بَحِيرَةٖ) وهي النّاقة التي تُشقُّ أذنها، وتحمل للطواغيت، وهي المولودة الخامسة من بطن ناقة واحدة (وَلا سَآئِبَةٖ) هي النّاقة أو الماشية تُسيَّبُ للأصنام قربانا للنجاة من مرض أو قتل في حرب، و(وَلَا وَصِيلَةٖ) هي الشاة التي ولدت سبعا عُمِد إلى السابع فإن كان ذكرا لآلهتهم، وإن كانت أنثى تُركت، (وَلَا حَامٖ) هو الفحل من الإبل إذا لقّح عشر سنين قيل: حمى ظهره، فيترك لا يُركب ولا يحمل عليه، وهذه من عقائد المشركين، وهي من ادّعائهم الكاذب، لم ينزل شيء في تحريم هذه الأصناف، وأكثر المشركين يعملون عمل من لا عقل له ولا حسن تدبير.

- وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ (104) :

هذه في الذين عطّلوا عقولهم وكانوا مشركين، وكانوا يصرّون على تقليد أسلافهم وإن كانوا على خطإ، ويرفضون كلّ تجديد وتغيير وإن كان أصلح لهم وأقوم وأفيد، هؤلاء إذا دعوا ليسمعوا ما جاءهم ممّا أنزل الله، وليسمعوا لما يقول الرسول ولما يرشدهم إليه رفضوا الاستماع وقالوا يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا وما علّمونا إيّاه. هؤلاء المقلّدون يخافون من كلّ تجديد من تعطيلهم لعقولهم ومن جهلهم ومن تقديسهم لآبائهم. (أَوَلَو كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ) الاستفهام للاستغراب، أيرفضون الاستماع لما يأتيهم ليصلحوا أوضاعهم؟ ألهذه الدرجة يقدّسون آباءهم ولو كان آباؤهم مثلهم في الجهل وتعطيل العقل وكانوا غير مهتدين للصواب ولا يدركون ضلالتهم!

- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (105) :

يا أيّها المؤمنون لا تأبهوا بهؤلاء، اِلزموا الطاعات واحفظوا أنفسكم من المعاصي، ومن تعطيل السمع والعقل والفهم والإدراك. لا يضرّكم كفر من كفر إذا اِهتديتم، ولا يصلكم منه مكروه. سترجعون جميعا إلى الله فيخبركم بما كنتم عليه من الهدى والسمع والطاعة فيحاسبكم عمّا كنتم تفعلون.



- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (106) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (107) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (108) :

هذه الآيات قد أشكل على العلماء فهمُها وعلى الفقهاء. جاء في تفسير القرطبي: "قال مكيّ –رحمه الله– هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن إعرابا ومعنى وحُكْمًا" قال ابن عطية: "هذا كلام من لم يقع له الثلجُ في تفسيرها" (ويقصد لا يجد في تفسيرها ما يثلج الصدر وتطمئنّ إليه النّفس)، ومثل هذا قاله المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره. والله المستعان في بيان ما هداني الله إلى فهمه من هذه الآيات بعد المراجعة والنّظر.

هذه في الشهادة على الوصيّ إذا كان في سفر في تجارة وحضره الأجل وكانت معه بضاعة ومال، ولم يكن في قافلته من يكتب عنه وصيته كتابة وتوثيقا بالشهود، وكانت وصيته فيما يملك شفهية، ولم يكن له توثيق فيما عنده من مال وبضاعة في قافلته، وكان في قافلته بعض من أهل دينه وعشيرته، وفيهم من لم يكن من أهل عشيرته وكان ذمّيا على غير ملّته، وطولب الشاهدان باليمين، وجاءت الآية بتحديد الحكم في الشهادة وفي اليمين.

والمعنى: يا أيّها الذين آمنوا إذا سافرتم في تجارة أو في غرض آخر، وكنتم في قافلة وحضر أحدكم أجله، فأوصى من كان معه بماله ليدفع لأهله، وكان معه من هو من عشيرته إثنان من أهل الثقة والأمانة وسمع وصيته، فليشهد هذان حين تبلغ القافلة أهل الميّت بما أوصى الميّت ولْيُقسما على شهادتهما بالصحة، ويكون القسم وأداء اليمين بحضور من كان معهما من القافلة وأهل الميّت من بعد صلاة العصر إن كانا مسلمين، يحجزان في المسجد مع الجماعة حتى تؤدّى الصلاة ثمّ يقسمان. ويؤكّدان القَسم بأنّهما أديّاها على وجهها الحقّ، وإن كان عند أهل الميّت شكّ أو ريْب فإنهما يقسمان لا يشتريان بقسمهما وشهادتهما ثمنا من أحد، ولا يقبلان رشوة ولو كان من عند قريب منهما أو قريب من الميّت، وأنّهما لا يكتمان شيئا من الوصية، وأنّهما لو فعلا لحقّ عليهما أن يكونا من المذنبين اللذين يحقّ عليهما عذاب "اليمين الغموس" الذي يغمس صاحبه في النّار.

فإن ظهر أنّهما قد حرّفا في الوصية وكتما شيئا من مال الرجل، أو وجد عندهما شيء من مال الميّت الموصّى به وأخذاه خيانة، فإنّه يحقّ لأولياء الميّت أن يردّوا يمينهما وشهادتهما

ويبطلوهما بقسمهم أنّ هذين يكذبان، وقد كتما شيئا من مال الرجل وأنهما قد خاناه في رزقه ووصيته، أو يقوم اثنان من أهل الذمّة ممن كانا قد حضرا الوصية وعرفا مال الرجل أو كانا مع الميّت في القافلة ويعرفان تجارته وماله فيقسمان على ملّتهم ومذهبهم بأنّ الشاهدين كاذبان فتردّ شهادة الأوّلين، ويقسمان على أنّ شهادتهما أحقّ وأصحّ من شهادة الأولين، وأنّهما لا يريدان بقسمهما إثارة الفتنة في أهل الميّت أو الطعن في نزاهة الشاهدين. ولو فعلا لكانا من الظالمين الذين يستحقّون المحاكمة وغضب الله تعالى.

وهذا الحكم بما فيه من تفصيل وردود وبما فيه من تقييد في القسم هو أدنى ما يُفصّل فيه لأداء الشهادة على وجهها الحقّ ولردّ الأمانة لأصحابها على ما هي عليه، ولتخويف الشاهدين المقسمين باليمين أن يطعن في نزاهتهما وفي عدلهما وفي صدقهما ومروءتهما وتردّ عليهما شهادتهما فيخزيان، فاتقوا الله واِخشوه في أداء الأمانة، وفي الشهادة، وعند أداء اليمين ليكون القسم صادقا وليكون الشاهد أمينا. وأنصتوا لما يأتيكم من التنزيل، وتفهّموه، واجتهدوا للعمل به، ولا تغفوا عمّا ينفعكم لدينكم ولمروءتكم ولآخرتكم، والله لا يهدي الخارجين عن دينه لأفعال الخير ولما يرفع قدرهم عند الناس، وفي آخرتهم.

- يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ **(109)** :

هذه آية عامّة جاءت بعد الدعوة في الآية السابقة إلى تقوى الله والسماع من الرّسول.

والمعنى: يوم القيامة يجمع الله رسله أمام أقوامهم ليشهدوا بالإيمان لمن آمن منهم، وليشهدوا على من كذّب وكفر بالعصيان، ويُسأل الرسل: كيف كان تلقّي أقوامكم لرسالاتكم ودعواكم. يومئذ يجيب الرّسل في تواضع: لا علم لنا إنّك أنت العليم بهم، والعليم بما فعل أقوامنا من بعدنا.

- إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ **(110)** :

وأذكر إذ قال الله يا عيسى ابن مريم تذكّر فضلي عليك وعلى أمّك إذ قوّيْتك بجبريل روح القدس عليه السلام، وجعلتك تكلّم النّاس وليدا لتبرّئ أمّك ممّا أُتّهمت به، وتكلّم النّاس كهلا بالنّبوّة، وعلّمتك الخطّ والكتابة والقول الرشيد والتوراة والإنجيل، وجعلتك تصنع من الطين شيئا في صورة الطير بإذني، وحين تنفخ فيه يكون طائرا حيّا بإذني، وتبرئ الذي أصابته ظلمة في عينيه فطمست بصره، وكذلك المصاب بالمرض الجلدي الذي يجعل الجلد قشرا أصفر ويسبّب لصاحبه حكّا مؤلما وبمسح منك يبرأ بإذني، وإذ تحيي الموتى بإذني، وإذ حميتك من أعدائك من بني

إسرائيل فأبعدناهم عنك، وجئت قومك بالمعجزات الباهرة والدلالات على صدقك فاتّهمك القوم لمّا رأوْها بعمل السحر البيّن الواضح، ولم يُصدّقوك.

- وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ **(111)** :

وأُذكر أنّي ألهمت أصحابك الحواريين بأن يؤمنوا بي إلاهًا واحدًا، وقذفت في قلوبهم التصديق بك وبرسالتك، فأجابوا دعوتك وقالوا آمنّا بك رسولا واشهد بأنّا على دين الله: الإسلام، أسلمنا وجهنا إليه وأسلمنا له أمرنا سبحانه.

- إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ **(112)** قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ **(113)** :

واذكر إذ قال الحواريّون يا عيسى ابن مريم يستجيب لك ربّك إن سألته أن ينزّل علينا مائدة من السماء عليها طعام من لدنه. قال عيسى متعجّبا: اخشوا الله إن كنتم صادقين في إيمانكم، فهذا طلب لا يُطلب. فأجابوا: نريد أن نجتمع عليها ونطعم منها، وتطمئنّ قلوبنا بسماع ربّنا إلينا وباستجابته لطلبنا، ونعلم صدقك في دعائك ونكون عليها من الشاهدين لك بصدق النّبوّة، ويلزمنا طعامنا منها طاعتك، وتجنّب خيانتك، وكان الاجتماع على الطعام في عادات أقوام يمنح الأمان لمن اجتمعوا عليه من الخيانة والغدر، وما يزال المسيحيون يتبرّكون بما يقدّم إليهم في الكنيسة من الطعام من أيدي القسّيسين.

- قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ **(114)** :

ودعا عيسى ربّه بأن ينزل عليهم مائدة من السماء يكون يوم إنزالها يوم عيد لهم يعظّمونه، ويُسَرّون به، ويفرحون به كلّ عام لهم ولمن يأتي بعدهم، وتكون معجزةً تدلّ على تكريم الله لعيسى وتدلّ على حظوته عنده، ودعا بأن يرزقهم من لدنه رزقا حسنا لأنّه سبحانه أفضل الرّازقين.

- قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ **(115)** :

فأُستجاب الله لدعائه ولرغبة الحوّاريين ولكن مع التّحذير الشديد لهؤلاء، فمن يكفر بعد هذا التّنزيل الذي لبّى رغبتهم فإنّه سيعذّب عذابا من أقسى العذاب لا يعذّب بمثله أحد من البشر لشدّته.

- وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ **(116)** :

هذه في تبرّؤ عيسى ممّا يقول عنه قومه وأتباعه من بعده. وأُذكر إذ يقول الله لعيسى ابن مريم حين يُؤْتى به للشهادة على قومه (كما سبق ذكره في الآية 109) – وهذا من الإخبار بالغيب يوم القيامة – أقلت للنّاس اجعلوني وأمّي، إلهين لكم من دون الله؟ وهذا الاستفهام للتقرير. فيجيب عيسى: تنزّهت يا ربّي تنزيها خالصا من أن أقول ما ليس لي فيه حقّ، لأنّ الألوهية من حقّك وحدك، لو كنت قلته لَعَلِمْته لأنّه لا يخفى عليك شيء، وهذا أمر لم تحدّثني به نفسي، ولو حدّثتها به لعلمته لأنّك تعلم ما في نفسي، وأنا لا أعلم ما عندك إنّك أنت علاّم ما تخفي الصدور وما يغيب عن الخلقِ عِلمُه، وتعلم ما كان من أمر خلقك وما يكون، وما لم يكن.

- مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ **(117) :**

وأردف عيسى قائلا حين كنت فيهم في الدنيا ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به أن اعبدوا الله سيّدي وسيّدكم، وإلاهي وإلاهكم، وكنت عليهم حفيظا بما أمرتني به حينما كنت حيّا بين ظهرانيهم، فلمّا توفّيتني كنت أنت العالم بهم والشاهد عليهم والمطّلع على ما يقولون وما يفعلون وأنت سبحانك على كلّ شيء مطّلع، وكنت بهم عليما.

- إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ **(118) :**

تشير الآية لأدب عيسى مع ربّه، وعلى رقّته ورأفته في قومه فقد تشفّع فيهم بكلّ أدب ورقّة فقال: إن تعذّب هؤلاء على شركهم، وعلى اِفترائهم عليّ، فهذا من عدلك، وما هم إلاّ عبادك، وإن تغفر لهم – وهذا ما أرجوه لهم – فإنّك أنت يا ربّ العزيز الذي لا تنفعه طاعة، ولا تضرّه معصية، وأنت الحكيم الذي يحسن التّصرّف في أمر عباده.

- قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ **(119) :**

هذه موعظة عامة. قال الله عن يوم القيامة: هذا يوم ينفع الصادقين الذين صدقوا في إيمانهم بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الشرك وعن الصاحبة والولد، ينعم الله عليهم بجنّات النّعيم يخلّدون فيها أبدا لا يحوّلون عنها، رضي الله عن أفعالهم، ورضوانهم بما آتاهم من فضله ونعيمه وتكريمه، وسُرُّوا به كثيرا. وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يضاهيه فوز.

- لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ **(120) :**

هذه خاتمة السورة تذكّر المؤمنين بأنّهم عائدون إليه، فله سبحانه ملك كلّ ما في السماوات وكلّ ما في الأرض بما في ذلك خلقه من البشر، وهو قدير على إنشائهم وخلقهم وقادر على إرجاعهم إليه، وقادر على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم للحساب، وقادر على مجازاة الطائعين، وعقاب المذنبين الظالمين، وهذه دعوة للتقوى وللتفكّر في يوم الحساب. والله أعلم.



رقمها	سـورة **الأنعـام**	آياتها
6	ــــ مكيّة ــــ	**165**

بين يدي السورة : جاء في الخبر أنّ هذه السورة نزلت جملة واحدة غير الآيات الثلاث: "وما قدروا الله حق قدره..." وآيات الوصايا العشر الثلاث. وهي عند أهل العلم أصلٌ في محاجّة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذّب بالبعث والنّشور، وعليها بنى المتكلّمون أصول الدّين. وذكر ابن عبّاس أنّ من أراد أن يعلم جهل العرب فعليه أن يقرأ فيها ما فوق الآية 130 من قوله تعالى: "قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها..." وفي هذه السورة قصّة إبراهيم عليه السلام كيف اِهتدى لعبادة ربّه من خلال تبصّره في النّجوم.

- ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ **(1)** :

بدأت السورة بتخصيص الحمد لله، وأثبتت ألوهيته في خلق السماوات والأرض، وبأن جعل تعاقب الليل والنّهار. وجاء الافتتاح بالحمد كسورة الفاتحة ثمّ سيعاد في سور أخرى، وكلّ واحد منها خصّ بموضوع، لذا فإنّ وجوه الحمد لله كثيرة ومتنوّعة، وليست خاصّة بإسناد النّعم، فحتى الخلق يستحقّ الحمد، وإنّ تعاقب الليل والنّهار من نِعَم الله على خلقه– سواءً أكان بشرا أم حيوانا أم نباتا. ولذلك تعدّدت صور الحمد، وتعدّدت السور الّذي ذكر فيها الحمد الذي يعني الثناء على الله عزّ وجلّ وتخصيصه بهذا الشكر. وأمّا خلق السماوات والأرض فلا يعني فقط الإيجاد، وإنّما هو إيجاد، وإبداع بدون مثال، وهو قيام عليها، وتنظيم سيرها، وتحديد أجل لاستبدالها، وفيها تقدير، وعلم بأحوالها. ولتعاقب الليل والنّهار حكمة وتبادل الأدوار في معيشة خلقه. (ثُم ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) وما أغرب ما يبتدعه الكافر حين يجعل للخالق المنشئ المبدع عدْلاً له وشريكا لا دليل له على خلقه، ولا دليل له على ألوهيته.

- هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ **(2)** :

بعد الخلق الكبير جاء الحديث عن الخلق الصغير، وأشرف خلقه: الإنسان، والإنسان الأوّل: آدم خلقه تعالى من طين، ثمّ من نسله الخلق الكثير من جنسه. وخلق للإنسان أجلا يعيشه ثمّ يردّه إليه إلى (أَجَلٌ مُّسَمًّى) وهو يوم القيامة، وهذا الأجل لا يحدّده إلاّ هو، وعلمه عنده وحده، ولا أحد يعرف توقيتـه، (ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) ثمّ أنتم تشكّون في قدرته وتقديره وفي يوم البعث وتنكرونه.



- وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (3) :

هو المعبود بحقّ السماوات والأرض، ولا يقدّس غيره، وهو المتصرّف فيها. لا يخفى عليه من أمركم شيء ما أخفيتم وأسررتم ويعلم ما تجهرون به من قول أو عمل، ومطّلع على أعمالكم، ويعلم ما تستحقّون عليها من أجر وثواب، أو ما ينالكم منها من مؤاخذة وآثام. والكسب هو الفعل للحصول على نفع أو لدفع ضرّ.

- وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (4) :

هذه في المكذّبين، وما يطّلعون على معجزة من معجزات ربّهم الكونية في حياتهم اليومية، أو يحضرون من أحداث أليمة تصيب بعضهم ليعرفوا قدرة ربّهم عليهم إلاّ كانوا عنها غافلين أو متجاهلين ليظلّوا على عنادهم.

- فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (5) :

وهذه لتهديد المتمادين في التكذيب، والمعنى: فقد كذّبوا بالقرآن وبالنّبوّة وبشريعة الله وغفلوا عن معجزاته فسوف يأتيهم أخبار هلاك العتاة وأشكال عذابهم وما كانوا يتندّرون بخبره.

- أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (6) :

ألم يعلموا بأخبار الأقوام الذين أهلكناهم من قبل لكفرهم بأنبيائهم، وقد كانوا أكثر منهم قوّة وعددا وانتشارا في الأرض، وأشدّ تمكينا ممّا لم يبلغوا مثله، أرسلنا عليهم مطرا غزيرا كثير الصبّ، وجرت الأنهار والأودية من حولهم فهلكوا غرقا وتدميرًا لبيوتهم وممتلكاتهم عقابا لهم بسبب عصيانهم، ثمّ أنشأنا من بعدهم – بعد تطهير الأرض منهم – أمّة من النّاس غيرهم، فليحذر هؤلاء من أن يصيبهم مثلما أصاب غيرهم وكانوا أشدّ منهم قوّة.

- وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (7):

ولو نزّلنا عليك – يا محمد – كلاما مكتوبا في ورق، وعلّق الورق بين السماء والأرض ولمسوه بأيديهم لَمْسًا ورأوه رأي العين لقال الذين كفروا ما لمسناه وما رأيناه كان من عمل السّحر الواضح البيّن إصرارا على الكفر، وعنادًا، وتكذيبا.

- وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (8) :

وطلبوا لتعجيزك وتحدّيك، هلا جاءنا ملك في صورته الحقيقية ليخبرنا بنبوّتك، ولو قضى الله أن ينزل عليهم ملكًا لقضي عليهم جميعا لأنّ الملائكة لا تنزلون على قوم يكذّبون برسل الله تعالى إلاّ لتنفيذ أمر الله فيهم بالعذاب، ثمّ لا يُمهلون.

- وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (9) :

ولو شئنا أن نرسل للبشر ملكا من الملائكة لهديهم لجعلناه على شاكلتهم وعلى صورتهم البشريّة، (وألبسناه مثل ما يلبسون من اللّباس، ولن يكون الملك على صورته الحقيقية).

- وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (10) :

هذه لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: لا تألم – يا محمد – من هزء طائفة من قومك بك حسدا واِحتقارا فقد حدث لرسل من قبلك مثل ما يحدث معك، فأحاط بالمستهزئين عذاب أليم، ولم يفلت منه أحد.

- قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (11) :

وإن كنتم تكذّبون بالوعيد عن الكفر فسيحوا في الأرض واِسألوا الآثار الّتي تمرّون بها عن عاقبة المكذّبين من قبلكم كيف كانت، وكيف كانت نهايتهم لعلّكم تنتهون عمّا أنتم عليه.

- قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) :

هذه في ترسيخ عقيدة الإيمان بيوم القيامة. اِسأل هؤلاء المكذّبين: لمن ما في السموات والأرض؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: لله وأوجب الله على نفسه الرّحمة من فضله وإحسانه. (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) فعل مؤكّد بلام التوكيد في أوّله وختم بنون التّوكيد الثقيلة، بما يدلّ على أنّ الفعل واقع مستقبلا بكلّ تأكيد، والجمع سيكون للخلق كلّهم: مؤمنيهم وكافريهم، وذلك يوم القيامة، وهو يوم واقع حتما لا ريب في قيامه. فمن لم يكن مؤمنا فسيكون من الخاسرين لأنفسهم، لأنّهم اِستحَبُّوا لها العذاب.

- وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (13) :

وإنّه سبحانه عليم بما اِستقرّ، وما حلّ من الكائنات والموجودات بالولادة والنشوء والنموّ، أو بالموت والمرض أو الهدم بالليل أو بالنّهار، لا يغيب عنه شيء من أمر مخلوقاته، وهو سميع لشكر الشّاكرين أو لدعاء الداعين، أو لِإستغاثة المستغيثين أو بتآمر المتآمرين، ومحاسب كُلاًّ عن عمله وقوله جزاءً وثوابا، أو عقابا.

- قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (14) :

الخطاب عام في هذه الآية، ويجب أن يكون هذا القول على لسان كلّ مؤمن، وأن تكون في عقيدة كلّ مؤمن أن لا يكون مشركا. والمعنى: أتريدني أن أتّخذ نصيرا غير الله الّذي أبدع السماوات والأرض، واخترعها على غير مثال سابق، وهو الّذي يرزق خلقه ليحيا ويتكاثر، ولا



يحتاج لأحد من خلقه ومخلوقاته وغنيّ عنهم، ومستغْنٍ عنهم. قل لمن يجادلك في الله وقدرته إنّي أمرت من الله سبحانه أن أكون أوّل من خضع لله تعالى وخشع له متذلّلا بقلب صادق، ولن أكون من المشركين الحائدين عن الصواب.

- قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (16) :

قل إنّي أخاف عذاب الله إن عصيته يوم ألقاه للحساب، إنّه يوم شديد على النّفس غير المؤمنة، من يبعد عنه ذلك العذاب في ذلك اليوم فقد رحمه الله وفاز فوزًا عظيما بيّنًا، وهو النّجاح الكبير.

- وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (18) :

وإذا حلَّ بك العذاب فلا منقذ منه إلاّ الله سبحانه، وإن أراد بك خيرا فهو قادر قدرة تامّة على أن يوصله إليك، وينعم به عليك. إنّه سبحانه هو الغالب المتحكّم في عباده بقدرته وتسييره، لا يفلت من حكمه وقضائه أحد، وهو الحكيم الذي يحسن تصريف الأمور، وهو الخبير بما يصلح لعباده، أو بما يردّهم عن غيّهم.

- قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (19) :

اِسأل – يا محمد – زعماء قريش عن أصدق شهادة وأعظمها للشهادة لك بصدقك. قل الله. والله شهيد بيني وبينكم على صدق نبوّتي، وصدق ما جئتكم به من الوحي. ولقد أوحي إليّ هذا القرآن لأحذّركم من الشرك به، ومن معصيته، ولأحذّر به كلّ من بلغه سماعُه، ووصل إليه خبرُه. إنّكم تعتقدون أنّ مع الله آلهة أخرى ندًّا له، وأنا لا أشهد بذلك ولا أقرّ ولا أعتقد. أخبرهم – يا محمد – أنّما الله إلاه واحد لا إلاه غيره، وقل لهم إنّني بريء من الآلهة التي تشركون به، وبريء من الشّرك.

- ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ(20) :

إنّ أهل الكتاب يعرفون صدق النّبيّ ممّا جاءهم في كتابهم من صفاته بمثل ما يعرفون أبناءهم. والذين لا يصدّقون به – طمسا للحقيقة – هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم بأن رضوا لها العذاب يوم القيامة لكفرهم.



- وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (21) :

وهل من أحدٍ أظلمَ لنفسه ممن كذب على الله في وحدانيته، وأشرك به، وكذّب بدلائل الوحدانية، وبالمعجزات، وبالقرآن، والظالمون لا ينجحون في شيء ولا يفلحون في شيء.

- وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ (23) ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (24) :

هؤلاء المشركون حينما يحشرون يوم القيامة للحساب ويجمعون يقال لهم أين آلهتكم التي كنتم تدْعُون، وكنتم بهم تؤمنون كما تدّعون من زعمكم الباطل وأوهامكم، أُدعوهم لينجوكم من العذاب. يومئذ يعتذرون عمّا كانوا عليه من الشرك، ويقولون: قسما بالله ربّنا كنّا نؤمن بك وحدك، ولم نكن من المشركين. ما أعجب كذبهم وإنكارهم على أنفسهم تهرّبا من العقاب والعذاب، وضاع عنهم ما كانوا يدّعون لأنفسهم من الآلهة الباطلة، ولم يجدوها لتنقذهم من المهلكة.

- وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ(25) وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (26) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (27) بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ (28) وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ (29) :

هذه في منكري البعث: في موقفهم من الوحي ورأيهم فيه، وفي سوء عاقبتهم. والمعنى: ومن الكافرين من يستمع إلى ما ينزل عليك من القرآن، ولكنّهم لا يصدّقون منه شيئا، لا تلين له قلوبهم ولا يعُون، أغلقوا على قلوبهم وغلّفوها بأغطية سميكة حتى لا يصل إليها شيء من النور والهدي، وحتى لا يعُوا ولا يفهموا منه شيئا، وصار ما يسمعون من الرّسول كالطرق العنيف الذي يقع على مسامعهم، ولا يصدّقون بكلّ معجزة يرونها رأي العين، وحين يأتونك لمناقشتك في ما ينزل عليك من الوحي ما يكون قولهم فيما يسمعون إلاّ أنّه خرافات من خرافات الأوّلين. وهم ينهون الناس عن الاستماع للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن اِتّباعه ويحذّرونهم منه، ويبتعدون عنه. وبتصرّفاتهم هذه ما يهلكون إلاّ أنفسهم، وما يشعرون بسوء عاقبة ما يفعلوه. وحين تقوم الساعة، ويقفون على أبواب جهنّم ويبصرون النّار ويسمعون حسيسها، سيقولون يومئذ وهم في حسرة وندم يا ليتنا نردّ إلى الدنيا حتى نكون من المصدّقين ومن المؤمنين، ولا نكذّب بآيات ربّنا ودلائل وجوده ووحدانيته. بل ظهر لهم عاقبة ما كانوا يقولون ويفعلون وما كانوا يمكرون في

الخفاء، ولكنّهم جُبِلوا على الكفر والعناد الشديد والتكذيب فلو ردّوا إلى حياتهم الدنيوية لعادوا لما كانوا يقولون ويفعلون ويناقشون لأنّهم كاذبون في كلّ ما يقولون ويَعِدُونَ.

ذلك لأنّهم ينكرون البعث ويقولون ليس بعد مماتنا من بعث ولا من إعادة للحياة ولا للحساب، إن هي إلاّ حياتنا الدنيا تنتهي بالممات.

- وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ **(30)** :

هذه في تحذير ناكري البعث وقيام الساعة للحساب، والقائلين بأنّه لا عودة للحياة بعد الممات وتحذيرهم من الندم الشديد يوم وقوعها، ومن سوء المآل بسبب معتقدهم الفاسد، وبسبب تفريطهم في الإعداد له بالعمل الصالح. والمعنى: ولو ترى مآل هؤلاء حينما يُعرضون على ربّهم للحساب حال البعث الذي أنكروه، وحينما يسألون عن بعثهم وعن وقوفهم عند الميزان –وقد عاينوه– أليس قد وقع البعث حقّا، وأنّكم تقفون للحساب حقّا؟ يومئذ وفي موقفهم ذاك سيجيبون مستعطفين ربّهم (بَلَىٰ وَرَبِّنَا): أيْ لقد وقع حقّا وعزّتك وجلالك، ولكن لن ينفعهم يومئذ إقرارهم بهذا، ولا اِستعطافهم، فإنّ مآلهم للعذاب بسبب كفرهم وعنادهم وإنكارهم للحقّ الذي جاءهم به رسولهم.

وهذا كقوله تعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ)(الأحقاف الآية 34) .

- قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ **(31)** :

قد خسر المكذّبون بيوم الحساب وعاقبتهم، وإنّهم سيندمون النّدم الشديد حين تقوم القيامة فجأة، يومئذ يقولون في حسرة وألم وندم، واحسرتاه على ما فرّطنا وما ضيّعنا من إيمان وعمل صالح في دنيانا وعمّا قصّرنا فيها، وهم يحملون آثامهم وذنوبهم الثقيلة على ظهورهم، وما أسوأ ما يحملون وما أسوأ ما أتوْا به من ذنوب وآثام.

- وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ **(32)** :

هذه موعظة عامّة للتأكيد على أنّ الحياة الأخروية أفضل، وأكثر نعيمًا يحظى بها المتقون، وأمّا الحياة الدنيوية ففيها لهو كثير، وهذه ممّا يتّعظ بها العاقلون.

- قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ**(33)** :

إنّا نعلم أنّ تكذيب قومك لك يؤلمك، وإنّهم يعلمون أنّك صادق لا تكذب، ولكنّهم يكذّبون بما جئتهم به، وينكرون الوحي عنادًا ومكابرة.

- وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (34) :

هذه لتسلية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، لا تحزن على تكذيبهم لك بما جاءك من الوحي، فلقد حدث للرسل السابقين لك مثل ما يحدث معك، وقد صبروا على تكذيبهم، وقد أوذوْا بدنيًا ونفسيا حتى جاءهم نصر الله فأظهر الله دينه، وهزم المكذّبين. ويحقّ قول الله دوما في نصر رسله والمؤمنين معهم، وإلحاق الهزيمة والهلاك بالمكذّبين، ولقد جاءك فيما نزل عليك من الوحي من قصص الرسل ما يدلّ على مشاقّتهم وما لحق بمكذّبيهم، وذلك للاعتبار.

- وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (35) :

وإن شقّ عليك إعراضهم عن سماع ما يوحى إليك، وعن الاستمتاع بما تدعوهم إليه فإن اِستطعت أن تجد مَسْرَبًا تنفذ منه داخل الأرض، أو أن تجد سلّما ترقى به إلى السماء لتأتيهم بمعجزة. فافعل ولكن إنْ عليك إلاّ البلاغ، وإنّ الهدى من الله، ولو شاء الله لجعلهم مهتدين، فلا تكوننّ من الذين لا يعلمون أنّ إيمان العبد إنّما بمشيئة الله تعالى.

- إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ (36) :

هذا مثل ضربه الله للمؤمن الذي يستمع للموعظة التي تنفعه، وللهدي الذي يرشده، وللعلم الذي ينفعه فيستفيد منه ويَعِيه، فهذا يسمع ويعي فيستجيب لما يُدعى إليه ويهتدي، وأمّا الذي يعطّل سمعه وعقله فيفقد صفة الوعي ولا يستفيد بشيء ممّا يصلح حاله ويفتح بصيرته فيكون مثله مثل الميّت الذي لا يحرّكه شيء. ويوم القيامة يبعث الله الجميع، ويرجع إليه الأموات الصمّ البكم العمي لمحاسبتهم عمّا أصمّوا عليه آذانهم وأعموا عليه أعينهم وعن خرسهم عن النطق بالحقّ.

- وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (37) :

وقال المشكّكون والمكذّبون: هلاّ نزلت عليه معجزة ظاهرة مثل عصا موسى، أو ناقة صالح لتصديقه. أجبهم – يا محمد – بأنّ الله قادر على أن ينزّل معجزة ولكنّ أكثرهم لا يعلمون أنّ الإيمان لا يدخل القلب بمعجزة، الإيمان تصديق يأتي عبر الإرشاد والوعي وفتح البصيرة والسمع والفهم والإدراك.

- وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ (38) :

وما من مخلوق – من حيوان أو حشرة – يزحف أو يمشي، أو يطير بجناحين إلاّ وله نظام في حياته ومعاشه وتكاثره، وفي سكناه، وفي تواجده في بيئة مخصوصة أمّةً قائمة لها أعداء من صنف مخصوص، وتعامل مع صنف آخر مثلما للإنسان خصائصه المميّزة في نظام حياته ومعاشه وتكاثره، وفي سكناه، هي أمم أخرى لها أيضا خصائصها المميّزة، ما أغفلنا ولا تركنا شيئا من أمر هذه المخلوقات للصدفة، وما أوجدناها عبثا، كلّ مخلوق له زمن معيّن ليوجد وله أجل معيّن ليغيب عن الوجود، وفي اللوح المحفوظ قضينا لكلّ صنف من الدّوابّ غرائزه، وفيما سخّرناه له ليكون له ذلولا، أو ليكون له عدوّا. ثمّ يُحشر الكلّ إلى ربّهم يوم الحشر.

- **وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (39) :**

والمكذّبون بدلائل الله الوجوديّة، ودلائل الوحدانية ودلائل القدرة والعظمة المرئية في نظام سير الحياة والكون، والمكذّبون بالوحي، وبالنذير، وبيوم القيامة، والبعث بعد الممات شأن أحدهم شأن الأصمّ الذي لا يسمع ما يفتح بصيرته، وما يعلّمه ما يجهله، وشأن الأبكم الذي يعجز عن النّطق بالحقّ، ويعجز عن الدعاء بما يطلب، يعيش كلاهما في ظلمة لا يبصر فيها شيئا، ولا يرى فيها نورًا.

(مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) في معنى هذه الجملة خاض المتكلّمون من أهل المنطق والكلام، والقائلون بالقدرية، وما تطمئنّ إليه نفسي – والله أسأل هداه وأن أقول فيها الصواب، فهذه من الآيات المتشابهات وما يعلم تأويلها إلاّ الله تعالى –.

إنّ الخلق هو خلق الله، وهو تعالى يتصرّف في خلقه كيف يشاء، ولا يُسأل عمّا يفعل، فقضى أن يجعل النّاس مختلفين في الرّأي، وفي الخلق، وفي الطباع ليختبر بعضهم ببعض، وليعلم المؤمنين والمجاهدين والصابرين والداعين إلى الهدي الآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر ويعلم الصادقين، وهؤلاء يمتحنون بشياطين الإنس من الكافرين والمنافقين والمنحرفين والظالمين، وكلّ إنسان مُسَيَّرٌ لَما خُلق له. ومن أركان الإيمان الستّة: الإيمان بالقضاء: خيره وشرّه، ولا مبدّل لكلمات الله.

ولتقريب الصّورة – لا للشَّبَه – فإنّ الصانع حينما يصنع صناعتين من مادّة واحدة، يصقل واحدة ويجعل منها تحفة للزّينة، ويصنع من نفس المادّة صناعة تصلح لإيقاد النّار وإثارة اللهب، فلا يقال له: لماذا جعلت هذه للزينة وتلك للنّار، فكلاهما صُنِعَا لغاية.

- **قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (40) بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ (41) :**



الآيتان تدلّان على أنّ الفطرة التي خُلِق عليها الإنسان تشهد لله تعالى وحده بالألوهيّة، ذلك لأنّ النّاس حين تصيبهم مصيبة جماعية تخيفهم وتنبئهم بالهلاك فإنّهم يلجؤون إلى الله وحده بالدعاء ليكشف عنهم كربهم ولا يذكرون آلهتهم ولا يدعونها لنجدتهم ولنصرتهم، وحينما يحضرون قيام الساعة فإنّهم لا يدعون إلاّ الله وحده لينقذهم من العذاب، ولا يدعون أحدا غيره لينصرهم. إنّهم في العسرة والشدّة لا يدعون إلاّ الله وحده، والله بيده الأمر إن شاء كشف عنهم كربهم، ورفعه عنهم. عند العسرة والشدّة ينسون آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله، وينسون ما يشركون، وهذا من الفطرة التي خلقت فيهم، تدفعهم لذكر الله وحده، ولا يذكرون سواه.

- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (43):

وهاتان للاعتبار بما حدث للأمم السّالفة التي لم تلتجئ بالدعاء إلى الله تعالى حين أصيبت بالبأساء، أصيب أقوامهم بشدائد، وضيق في العيش، وبالأوبئة الفتّاكة عساهم يتضرّعون إلى الله تعالى بتذلّل لكشف ضرّهم، ولكنّهم – وهم في مصائبهم – لم تلن قلوبهم للإيمان وللتوجّه إلى الله بالدعاء والذكر، وتمادَوْا في غيّهم وأعمالهم التي زيّنها لهم الشيطان ليبعدهم عن الهدي والاستقامة.

- فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (45) :

وهاتان في عاقبتهم. فلمّا أعرضوا عن ذكر الله، والالتجاء إليه أعطاهم الله من كلّ نعمة من الرّخاء وسعة العيش والصحة إستدراجا لهم، حتى إذا بطروا بالنّعمة، وتكبّروا بما حصلوا عليه من مال وخيرات أهلكهم الله فجأة وسلب منهم النّعمة، كالذي كان وزيرا أو رئيسا لدولة بطر بنعمة الله وظلم وفجر فانقلب عليه الوضع فجأة فوجد نفسه سجينا وسحبت منه أملاكه وأصابه الضرر في سلامة بدنه وفي شرفه ولحق الضرر عائلته، أو هرب من بلاده متخفّيا فحكم على نفسه بالنفي وترك من ورائه جميع ممتلكاته (فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) منكسرون، حزينون ومتحيّرون في أمرهم، لا يفهمون، ولا يستوعبون ما حدث لهم، وكيف صاروا بعد غناهم لا يملكون شيئا، أو بعد عزّهم صاروا ذليلين. وهكذا تكون عاقبة القوم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر يقطع دابرهم ويُهلكون غير مأسوف عليهم، والثناء لله ربّ العالمين لأنّه يطهّر الأرض من الفاسدين والمفسدين ليعمرها الصالحون، وليُوَرِّثها لعباده المؤمنين الصالحين.

- قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (47) :

هاتان للموعظة ليكون العبد شاكرا على ما أنعم الله به عليه من النّعم، وليخشى من عذاب الله إذا ظلم نفسه بالكفر. والمعنى: أُنظروا في ما أنعم الله به عليكم إذ منحكم نعَمَ السمع والبصر والفهم والإحساس، لو سُلِبت منكم هذه النّعم فمن ذا الذي يردّها إليكم. تعرّفوا على فضل الله عليكم من أنفسكم وأُشكروا له، وتدبّروا آياته التي أنزلت إليكم، ولا تُعْرِضُوا عنها ولا تكذّبوا بما نزل.

وأخْبِرهم: أرأيتم لو أصابكم عذاب الله بغتة بدون إشعار، أو جاءكم في وضحِ النّهار من مثل هطول مطر بغزارة مع فيضان الأودية فأُلْتقى عليكم الماء، وشعرتم بِدُنُوِ اُلهلاك والموت غرقا، فهل يُهلك إلاّ القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، ولم يلجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء ليكشف عنهم الكرب والضرّ؟

- وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ(48) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ (49) :

وهذا في بيان فضل الله على عباده في إرسال رسله إليهم لتبشير المؤمنين ليطمئنّوا، ولتحذير المكذّبين من سوء العاقبة – فمن آمن بالله وأصلح عمله في الطاعات وفي معاملته للنّاس فلا خوف عليهم إذا جاء أجلهم، وحين يبعثون يوم القيامة للحساب لأنّهم سيجدون من النّعيم خيرا ممّا كانوا فيه، ولا هم يحزنون على دنياهم حين يفارقونها لأنّ ما سيلقونه عند ربّهم من الخيرات ينسيهم ما فاتهم. وأمّا الّذين كذّبوا رسله، وكذّبوا بما جاءهم من الأوامر والنواهي الإلهية فسيلقون عذابا موجعا لخروجهم عن دين الله وطاعته.

- قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) :

لمّا جاء فيما سبق بيان مهمّة الرّسل الحصرية جاءت هذه في رفع الالتباس الذي في ذهن بعض النّاس الذين يتصوّرون أنّ رسول الله مستودع الخيرات والأرزاق لينهلوا منها، أو أنّه مطلّع على علم الغيب ممّا لم يُوحَ إليه به، ليسترشدوا منه لما يخفي لهم مستقبلهم ممّا يهمّهم أن يعلموا به قبل حدوثه ليرتقبوا ما هو آتيهم من خيره، وليهربوا أو يحاولوا أن يفلتوا ممّا يُصيبهم من شرّه، وما علموا أنّ الغيب علمه عند الله وحده، ويظنّون أنّه ملك من ملائكة السماء، فهذه تصوّرات خاطئة لرسل الله لأنّهم لا يكونون إلاّ بشرا أمثالهم، وإنّما يفضُلون عليهم بالوحي الذي ينزل عليهم، فيتّبعونه، فلذلك يختلف النّاس في إدراك مهمّة الرّسول، منهم من يَعِيَها، ومنهم من يريدها على قدر تصوّره ورغبته، وبهذا لا يستوون في الفهم والإدراك مثلما لا يستوي الأعمى والبصير في إبصار ما يوجد من حوله. والاستفهام في آخر الآية (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) لتحفيز العقول على الفهم والإدراك ليحصل الوعي والتدبّر، ثمّ الاستقامة على السويّ.

- وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(51) :

وأمّا الذين يخافون أن يقوموا للحساب وليس إلاّ الله ليشفع لهم من العذاب وينقذهم منه بنصرته فَخَوِّفْهم من الكفر بالله ومن معصيته عساهم يخشون ربّهم ويتّقون بالعمل بطاعته وتجنّب معصيته.

- وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (52) :

ولا تبعد عنك ضعفاء المسلمين وفقراءهم الذين يعبدون الله بالليل والنّهار لا يَملُّون يبتغون رضوان الله، ولا يطلبون بعبادتهم عرض الدنيا، لست مسؤولا عن محاسبتهم عن ما في باطنهم إن كان غير مُرْضٍ، ولستَ مُحاسبًا على أعمالهم من شيء، لا تطردهم من حولك، ولا تبعدهم عنك، فإن فعلت فإنّك من الظالمين للمستضعفين المؤمنين، وهذا خطاب للدعاة والوعّاظ.

- وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ (53) :

وكذلك جعلنا جمعا من المؤمنين فقراء ومستضعفين، وقد إبتلينا النّاس بالفقر وبالغنى ليختبروا وليقول بعض الأغنياء للمؤمنين الفقراء، أهؤلاء الذين فضلّهم الله علينا، يقولونه إستهزاءً بهم، والله عليم بعباده الشّاكرين علما لا يعرفه أحد غيره.

- وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (54) :

هذه في تبشير المؤمنين بالله وبرسوله وبالوحي بأن يلقوا أمانا من الله من عذابه ومن عقابه على ذنوبهم بعد توبتهم منها لأنّ الله جلّ وعلا أوجب على ذاته العلية الرّحمة على عباده المؤمنين الصادقين التّائبين ممّا كانوا قد عملوا من السيّئات جهلا منهم بحكم الله تعالى وغفلة، ثمّ أصلحوا أعمالهم بالطاعات لأنّه سبحانه وتعالى غفور يغفر ذنب المذنب التّائب المصلح لعمله، ورحيم بعبده المؤمن المطيع لا يعذّبه.

- وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ (55) :

وهكذا نوضّح أحكام المؤمنين التّائبين العاملين الصالحات، وأحكام من لقي ربّه كافرا ظالما ونبيّنها للنّاس لنقيم عليهم الحجّة، ولتتوضّح عاقبة المجرمين وليعرفوا مسلكهم يوم الحساب.

- قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ (56) :

في هذه إيحاء لما يجب أن يقوله المسلمون إذا حاجّهم المشركون والمعنى: قل – أيّها المؤمن المسلم – إنّي أمتنع أن أعبد آلهتكم التي تدْعون وتدَّعون من دون الله الواحد الأحد، وإنّي لا أسير وِفق ما تريدون وترغبون في عبادة الأصنام. لو فعلت لأكوننّ حينئذ من الذين تاهوا عن السبيل السويّ، ولا أكون إذًا من الذين عرفوا طريق الصواب فساروا عليه.

- قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ (57) :

قل لهم يا محمد إنّي أسير على منهج واضح في العقيدة والعبادة الذي هداني إليه ربّي الله، ولقد كذّبتم به، وليس بيدي إنزال العذاب الذي تستعجلونه تحدّيا وتكذيبا بالنّذير، فإنّ الأمر بيد الله تعالى وحده هو المتصرّف في ملكه وعباده، وهو تعالى يَعِدُ ويتوعد بالحقّ، وهو الحَكَمُ العدل الذي سيفصل بيننا وهو خير الفاصلين وأعدلهم.

- قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ (58) :

وقل لهم: لو كان الأمر بيدي لأتيتكم بما تستعجلون به من العذاب أو إظهار المعجزة التي ترغبون، ويحسم الأمر بيننا عندئذ، ولكنّ الأمر بيد الله، وهو تعالى العليم بما يطلبه الظالمون، والعليم بهم وبما يستحقّون من العذاب في الأجل الذي يحدّده.

- وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (59) :

هذه في بيان سعة علم الله تعالى، لا يفوته من أمر خلقه شيء مهما عظم أو خفي أو صغر ودقّ، وفي التأكيد على أنّه المتفرّد بعلم الغيب والمستأثر بما يُوصِل إلى معرفته. والغيب هو خبر مجريات الأحداث في المستقبل، ومن أسرار الغيب معرفة آجال العباد، وآجال أنظمة البلدان، وخبر قيام الساعة، وعاقبة الأحياء يومها ومآلاتهم، ومن الغيب العلم بما يجري في الملكوت العلوي، وكلّ ما ينغلق على العقل البشري فهمُه وإدراكه. كلّ هذا، وغيره من علم الغيب نؤمن بما جاءنا من خبره عبر الوحي تصديقا، وإنّ الخوض فيه مُضيّعة للوقت والجهد لأنّ علم الغيب منغلق عن الفهم والعلم، وسرّه لا يعلمه إلاّ الله وحده، ويفتح منه شيئا لمن شاء من رسله لإبلاغه للنّاس ممّا يتعلّق بأحكامه وقضائه في الآخرة ليقيم على النّاس حجّة، وهو ما يعرف بالوعد والوعيد، أو بالبشارة والنّذارة. ومن صفات المتّقين أنّهم يؤمنون بالغيب، وأكبر عنوان للغيب: علم الساعة، واِستقرار الأرواح، وعودة الحياة إلى ما رمَّ من العظام، وما اِندثر من الأجساد، والعرض عند الميزان، ونسأل الله تعالى لأنفسنا وأهلينا النّجاة والفوز والفلاح يومئذ. ويجب التّنبيه للفظ (مَفَاتِحُ) فإنّه جمع لـ (مَفْتَح)، وليس لمفتاح فإنّ جمع مفتاح هو مفاتيح،

والمفتاح آلة، وليس عند الله آلة لفتح باب، وإنّما عنده المَفْتح يفتح منه ما يشاء من علمه لمن يشاء من رُسله فيفتح به عليه.

وأمّا علم الله فهو في سَعَتِه، وعمقه، ودقّته ما لا يخطر على عقل إنسان اِستيعابه. يعلم كلّ ما يجري ويحدث في البرّ، في باطن الأرض أو على سطحها، في جوّها أو في بحارها ولُجَجها، حتى الورقة اليابسة الجافّة أو الورقة الخضراء الصغيرة غير ذات الشأن إذا سقطت من شجرة يحيط بها علما!، وحتى الحبّة المطمورة في باطن الأرض، أنبتت أو أكلتها دودة، أو تسوّست يعلمها! والعود الغضّ الأخضر الذي يينع بعلمه والعود اليابس الجافّ المجرّد الذي لا ينفع لشيء عنده علم به في سجلّ واضح بيّن! كلّ ما خُلق فحيي وأزهر وأثمر، أو جفّ واحترق من النبات مسطّر في كتاب، وكلّ ما خلق من حيوان برّي وبحري عاش وتناسل أو باض فأكل، أو عاش حتى مات مسطّر في كتاب واضح البيان كيف عاش وكيف هلك. هذا لعمري ممّا لا تدركه الأفهام، ولكنّه واقع حقّا، والمؤمن يصدّق به تصديقا يقينيا.

هذه الآية ممّا تعجز العقول على إداركها، وهي آية عظيمة تدلّ على أنّ الله تعالى محيط بكلّ شيء علما، لا يفوته من أمر خلقه شيء، سبحانه وتعالى وسع كلّ شيء علما...

- وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (60) وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ (62) :

بعد أن بيّن تعالى إحاطته التامّة والدقيقة والواسعة بما يجري في الكائنات الحيّة أو اليابسة في باطن الأرض، برًّا، وبحرا، على سطحها أو في باطنها، جاءت هذه في بيان قدرته تعالى على الإنسان وإحاطته علما بما يعمل، وفي بيان ما يحدث عند حضور أجله وعند قيامه للحساب، فتبيّن من هذا أنّ الآية السابقة كانت تمهيدا لهذه الآيات لبعث الوعي في الإنسان ليعمل لآخرته، وليخشى يوم الحساب، فمن وافته المنية وكان في غفلة عن هذا، فقد قامت عليه الحجّة إذا خسر آخرته بما جرح في دنياه، وليس له يومئذ وجه للاعتذار.

والمعنى: وهو الله تعالى الذي يتوفّاكم بالليل، ويقهركم بالنوم، وأُستعمل فعل (يَتَوَفَّىٰكُم) للدلالة على أمرين: أولهما للإشارة أنّ الوفاة كالرقاد، ولكنّه رقاد طويل، لا يقظة بعده إلاّ عند قيام الساعة، وثانيهما لأنّ النّوم يتغلّب على الإنسان إذا راوده ولا يستطيع الإنسان أن يغالبه، والوفاة لا أحد يستطيع ردّها ولا تأخيرها. ويعلم الله ما كسبتم من السيّئات بالنّهار، ثمّ يردّكم بعد النّوم إلى النشاط الحيوي اليومي حتى يحضر الأجل الذي سمّاه الله لكم ليتوفّاكم، ولا علم لأحد

بتاريخه ووقته ومكانه، ثمّ تعاد إليكم الحياة ثانية يوم البعث والنّشور لتُعرضوا على ربّكم للحساب. يومئذ يخبركم الله بما كنتم تعملون من خير وشرّ.

وهو الغالب على أمره في عباده، ويرسل عليكم ملائكة حفظة، تحفظكم من المهالك حتى تبلغوا آجالكم، ولتسجّل عليكم أعمالكم بدقّة وأقوالكم في سجلاّتكم، فإذا جاء أحدكم أجل موته جاءه ملك الموت فقبض روحه، وملائكة الموت ينفّذون أوامر الله بدون تفريط أو تأخير. ويوم الحساب تقفون جميعا بين يدي الخالق والمولى الحقّ وهو الله. ألا فانتبهوا أيّها النّاس فإنّ الحكم يومئذ لله وحده، وهو أسرع الحاسبين، لا يؤخّر تنفيذ حكمه وأمره، ولا معقّب لحكمه، ولا رادّ له.

- قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (63) قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ (64) :

الآيتان في بيان ظاهرة من ظواهر جحود بعض المشركين، إنّهم من فطرتهم التي فطرهم الله عليها حينما يقعون في مخافة عظيمة يخشون فيها هلاكهم يلتجئون بدعائهم إلى الله وحده يطلبون منه إنجاءهم من التّيه ومخاوف الطريق وهجوم العاديات عليهم في ظلمات البريّة أو مغاور الجبال أو قيعان الأودية أو معاور الطرق غير السالكة، أو إنجاءَهم من الغرق في لحجج البحار، يدعون وقتئذ الله وحده بتذلّل وتضرّع بنداء مسموع، أو في أنفسهم سرّا من شدّة ما يصيبهم من الفزع والخوف، ويعدون الله تعالى إذا أنجاهم من كرب لَيكونون من الشاكرين بالعبادة والصدقات والطاعات.

وبعدما ينجيهم الله من خوفهم، وينقذهم ممّا كانوا عليه من غمّ وسوء الحال ومن كربهم ينسون ما عاهدوا الله عليه، ويعودون لشركهم وعبادة أصنامهم.

- قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ (65) :

أَخْبِرْ هؤلاء المخلفين للوعد أنّ الله هو القادر، بمثل ما أنجاهم من قبل من الهلاك ومن فزعهم سابقا، أن ينزل عليهم عذابا نافذا من فوقهم بسيل من المطر وبالصواعق أو العواصف والرياح الهوجاء المهلكة للزرع والمخرّبة للبيوت والشجر، أو عذابا من تحتهم بالزلازل المدمّرة أو تسليط السوامّ عليهم أو الوباء، أو يسلّط عليهم أقواما غزاة فيذيقونهم بالسيف والرمح والرمي ألوانا من التعذيب بالحرق أو القتل أو الجرح أو السبي أو الاستعباد، ونشر الفزع وإفساد الزرع وسلبهم، تبيّنوا كيف ننبّههم إلى قدرة الله عليهم بأنواع من الوعيد عساهم يفهمون، ويعرفون ما يجب عليهم إدراكه ليؤمنوا بربّهم القادر القويّ والحافظ.

- وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ(66) لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ(67):

وكذّب قومك – يا محمد – بما جئتهم من الوعيد، وهو الحقّ المنزل عليك من ربّك، فقل لمن كذّب به: لست عليكم حفيظا فستتحمّلون تَبِعَات تكذيبكم حين ترون عاقبتكم. لكلّ خبر وقت معيّن يظهر فيه صدقه، وتظهر حقيقته، وسوف تعلمون عاقبة المكذّبين. وقد رأى بعضهم حقّ هذا الوعيد يوم بدر، وفي وقائع أخرى، وكان الشاهد الأعظم يوم فتح مكة، وشاهده الأقوى ما نراه اليوم من اِنتشار الإسلام في ربوع الأرض مشرقا ومغربا، شمالا وجنوبا، وما يزال النّاس يدخلون في دين الله أفواجا رغم الهزّات التي يتورّط فيها الجاهلون والمأجورون والمغرّر بهم من المنتمين للإسلام من أعمال الإرهاب باسم الجهاد في سبيل الله خطأ وجهلا واغترارا بما يدفعهم إليه أعداؤهم وأعداء دينهم وأعداء أوطانهم، والطامعون في خيرات بلدانهم، وكسر شوكة عزّتهم حسدًا واِنتقاما منهم ثأرا لآبائهم ونصرة لدياناتهم المنسوخة والمحرّفة.

- وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (68) :

هذه في ترك مجادلة الناعقين المتكلّمين في الدين بغير علم ولا هدى، والخطاب فيها لكلّ مؤمن.إذا رأيت قوما يتندّرون بالوعيد، ويتكلّمون في مجلسهم في آيات القرآن بالتعريض أو الاستهزاء والاستخفاف فلا تجالسهم، واِنصرف عنهم حتى يغيّروا موضوع حديثهم. وإذا كنت فيهم ولم تقم من مجلسهم غفلة ونسيانا، فلا تقعد معهم ثانية بعد هذا التذكير، إنّهم ظالمون لأنفسهم بما يخوضون فيه من كلام.

- وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (69) :

وأمّا المؤمنون الذين يخشون ربّهم فليس عليهم من إثم المستهزئين من شيء، ولكن هذه موعظة وتذكرة ليتركوا مجالسهم من خُلُق التّقوى وصفتها.

- وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ (70) :

وهذه في وعيد المستهزئين بالدّين، والمعنى: ودع الذين جعلوا الدعوةَ للهدى والإنذار بالوعيد، والتبشير بالجنان، وبمثُلِه، ودلائله، مواضِيعَ لتندّرهم في نواديهم ومجالس لهوهم، وإذا رأوا من حولهم المستضعفين من المؤمنين، وقد غرّهم ما هم فيه من غنًى وترف وصحة وقوة وجاه، وغرّهم الإمهال، وذكّر بالله تعالى وبالتنزيل، كلّ نفس تخشى أن تُسَلَّم إلى الهلاك وتُحْبَسَ في

العذاب بما عملت من آثام وبما اِقترفت من ذنوب يوم لا يكون لها أحدٌ غير الله ينصرها ممّا تستحقّ من العذاب، ولا أحد غيره يشفع لها منه ولو تقدّمت بأيّ فدية مهما عظمت لتنقذها ممّا قُضِيَ به عليها. أولئك الذين اتّخذوا دينهم لعبا ولهوًا وغرّتهم الحياة الدنيا أسلموا أنفسهم للهلاك وحبسوها في العذاب بما اِرتكبوا من المعاصي والآثام، سيشربون شرابا حارّا جدّا بالغًا نهايته في الحرارة. وسينالهم عذاب موجع بما كانوا يكذّبون ويسخرون، وهذا من عمل الكفر.

- قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ **(71)** وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ **(72)** :

وهذه فيما يتعلّمه المؤمنون من وحي الله لرسوله صلّى الله عليه وسلّم بما يرشدهم لما يجب عليهم قوله إذا حاجّهم قومهم من المشركين. قولوا لهم: أنعبد إلاها غير الله لا يفيدنا بشيء، ولا يستطيع لنا شيئا من الضرّ، إلاها صنما جامدا؟! تريدون أن تردّونا إلى الخلف لنعود إلى الشرك والكفر بعد أن أرشدنا الله للمعبود الحقّ وأنقذنا من الجهالة والضلالة! تريدون لنا أن نكون مثل الذي يتعرّض إليه الشيطان في صورة غول مخيف في الصحراء يدعوه إليه وهو تائه حيران، ضائع لا يعرف طريقه فيأخذه إلى هلاكه، إنّ هدى الله الذي جاء به الوحي هو الهدى الحقيقي والرشاد الصائب لكلّ حيران، ولقد أمرنا بأن نخضع لله وحده، ونسلم له وجوهنا وأمرنا في خشوع وتذلّل وهو ربّ الخلق أجمعين. وقد أمرنا أن نقيم الصلاة لعبادته وحده ولدعائه وشكره، وأمرنا بخشيته في السرّ والعلن حتى لا نعمل إلاّ صالحا، وهو الذي ستحشرون –أيّها القوم– إليه جميعا.

- وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ **(73)** :

وهو الله الذي خلق السماوات والأرض بالحقّ والصدق والواقع، ويوم القيامة حين يقدّر له قيامه وحدوثه يقول له كن فتقوم الساعة على النحو الذي أخبر به ويكون أمره نافذا، وما أخبر به عنه واقع حتما لا محالة، وحين ينفخ في الصور النّفخة الثانية للقيام للحساب، فيومئذ الملك والسلطان والحكم لله وحده. وهو تعالى عالمٌ بكلّ ما يحدث في الغيب فيما لا يعلم به أحد، فيما يختصّ به وحده العلم به، وما يحدث في عالم المشاهدة وعالم الواقع، وهو تعالى الذي يحسن التدبير، وهو تعالى المطّلع على أعمال عباده اطلاعا دقيقا ويعلم ما يصلح لنظام الحياة والوجود والكون فيقدّره.

- وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ **(74)** :

هذه إلى آخر آية 89 في جزء من قصّة إبراهيم، وهو الجزء الخاصّ بإيمانه بوجود إلاه خالق السماء وما فيها من نجوم وكواكب، وفاطر الأرض وما عليها، وقد اِهتدى بالنظر وبالتّدبّر العقلي لهذا الإيمان، وبعقله وبصيرته النّافذة أيقن أنّ الأصنام محال أن تكون آلهة، وأنّ عبادتها من الضلال البيّن الواضح لكلّ ذي عقل وبصيرة.

وأذكر إذ قال إبراهيم عليه السّلام لأبيه آزر – وقد قيل آزر هو اِسم عمّه الذي ربّاه منذ صغره وقد كان في مرتبة أبيه، فقد كان إبراهيم يتيم الأب، وهذا خبر غير مؤكّد – وقد كان آزر نحّاتا للأصنام وكان يتاجر بصناعتها، قال له إبراهيم متعجّبا، أتتّخذها للتقديس وللدعاء لها وقد نحتّها بيديك من حجر أصمّ، وصنعتها بآلاتك ومطرقتك ونَبُّوتِك. إنّي أراك بما تعمل أنت وقومك بَعِيدِين بُعدا واضحا وبيّنا عن الحقّ والصواب والمنطق.

- وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ (75) :

وهكذا أرشدنا إبراهيم للبحث عن ربّه في عالم السماوات والأرض بعيدا عن قومه، وذلك ليكون من المؤمنين بالله الحقّ الإيمان الثابت. والملكوت على وزن فعلوت، وهو وزن يدلّ على العظمة، فهو المُلْك العظيم للسلطان العظيم.

- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ (76) :

فلّما أظلم على إبراهيم الليل أبصر كوكبا مرتفعا في السماء قال هذا سيّدي لأنّه يراني وهو مرتفع في السماء وهو يشعّ ضوءًا، لكن حين غاب هذا الكوكب قال لا أحبّ أن يكون ربّي الذي أعبده غائبا عنّي، فمن الصفات التي يحبّها إبراهيم في ربّه أن يكون حاضرا حضورا دائما يرى خلقه ويطلّ عليهم، والحضور الدائم يعني الوجود الدائم أي يجب أن يكون حيًّا قيّوما على خلقه ويراهم ويضيء عليهم بنوره.

- فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (77) :

ولمّا رأى القمر منيرا قال هذا ربّي، ولكنّه لمّا غاب تبرّأ منه وقال في نفسه إن لم يهدني ربّي إليه فسأكون من التائهين لا أعرف ربّي من يكون ؟ وكذا أحبّ إبراهيم أن يكون ربّه هاديا لخلقه يعلّمهم ويعرّفهم بصفاته ويسمعهم ولا يتركهم في الضلالة.

- فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ(78) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (79) :

ثمّ طلع النّهار فلمّا رأى الشمس تطلع بنورها الساطع المضيء المشعّ على المكان من حوله كلّه، ورأى الشمس عظيمة وكبيرة قال هذا ربّي، واطمأنّ إلى ذلك لصفة العظمة والعلوّ والكبر



فيها لكن لمّا أفلت أعلن في قومه أنّه بريء ممّا يعبدون من آلهتهم المتعدّدة لأنّه من فطرته وسلامة تفكيره ووضوح بصيرته لا يجب أن يكون الخلق كلّه من صناعة آلهة كثيرة متعدّدةٍ. لكلّ قومٍ ولكلّ جمع من الكائنات إلاه. وقال فيهم إنّي أتوجّه بدعائي وتقديسي للّذي أوجد هذه السماوات وهذه الأرض وخلقها وأبدعها مائلا عن الشرك وعمّا تعبدون إلى الدين الحقّ، ولستُ ممن يعبد آلهة متعدّدة. وهكذا اِهتَدَى إبراهيم للصفات الّتي يجب أن تكون في ربّه، أن يكون عظيما وخالقا لهذا الوجود كلّه، ولا يمكن أن يكون إلاّ واحدا فحسب، مبدعا، وهاديا، ومحال أن يكون للكون وللخلق آلهة متعدّدة لا تدلّ عليها آياتها في الخلق وفي الوجود والموجود.

- وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ **(80)** وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ **(81) :**

أغلب الرّأي عندي أنّ الآيتين هُما بعد تكليف إبراهيم برسالته إلى قومه للقرائن التالية: المحاجّة – الخوف من الوعيد – الحديث عن سعة علم ربّه – الدعوة إلى التذكّر – والسلطان – والحديث عن الأمن.

والمعنى: (وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ) وهذا ما يدلّ على أنّ إبراهيم صار يدعو لنبذ الشرك علنا وفي القوم مما يجعل أغلب الرأي على أنّ هذا كان حين كلّف بالرّسالة فصار قومه يحاجّونه فيما يدعوهم إليه لأنّهم رأوْا في دعوته غرابة، وكانوا ينتصرون لآلهتهم فقال لهم مستغربا أتحاجّونني وتناقشونني في دعوتي لكم لعبادة الله وحده، وقد هداني لتوحيده ولا أخاف ما تشركون به من آلهة لأنّها لا تقدر لي على شيء، وإذا أصابني شيء فمن عند ربّي إن شاء، وإنّه تعالى واسع العلم والاطلاع على كلّ أمر، محيط بكلّ معرفة، (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) اِستفهام لدعوتهم للتدبّر والتفكّر، ولحضّهم على ذلك. ولقد خوّفوه من الضرر الذي سيلحقه من آلهتهم، فردّ تخويفهم بأنّهم الأحقّ بالخوف لأنّهم أشركوا بالله ما ليس لهم بألوهيته حجّة ولا دليل ولا سلطان وهو الكتاب المنزل المقروء، (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِ) اِستفهام لحفز الهمم للنّظر، والأمن هنا هو الإحساس بالأمان من العذاب، وهذه دعوة للتحذير من الوعيد، (إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) تفيد الجملة أنّ عقيدتهم لم تقم على علم وإنّما هي عقيدة من الوهم والتقليد.

- ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ **(82) :**

هذه بشرى من الله تعالى إلى الذين آمنوا بالله وحده وبرسوله وبكتابه وعملوا بشرعه، ولم يخلطوا إيمانهم بالشرك لأنّ الشرك ظلم عظيم، وبالمعاصي، فقد بُشِّرُوا بالسلامة من الخوف يوم الفزع الأكبر، وبالسلامة من العذاب عند الحساب، وذلك لأنّهم على صراط مستقيم في عقيدتهم.

- وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) :

وهكذا أَلْهَمْنا إبراهيم الحجّة التي أقامها على قومه في تفنيد عقيدة الشّرك وعبادة الأصنام، وفي الدعوة إلى توحيد الله في الطاعة والعبادة والدعاء، والله يرفع ذكر من يشاء من عباده بالعلم والحكمة ووضوح البصيرة، وبإيمانه الصحيح. إنّ الله حكيم في تدبير إرشاد خلقه للصراط السويّ، وعليم بمن يستجيب للحقّ، وبمن يكذّب به عنادا وجهلا وعمًى.

- وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (84) :

ولقد كرّم الله تعالى إبراهيم الذي اِهتدى لربّه والإيمان بجملة من صفاته العُليا التي لا يشاركه فيها أحد فوهب له – رغم كبر سنّه – اِبنه إسحاق من زوجته سارّة، ثم أنجب ولده إسحاق حفيده يعقوب بن إسحاق، وثلاثتهم هداهم الله إليه ورفع ذكرهم. ومن قبل إبراهيم هدى الله نوحًا وجعله نبيّا ورسولا. وجعل تعالى من ذريّة إبراهيم أنبياء ورسلا منهم داود وسليمان وأيوب ويوسف بن يعقوب، وموسى بن عمران وأخوه هارون: وهكذا يجزي الله المحسنين بهديهم إليه وبرفع ذكرهم وإيتائهم النّبوّة والرسالة،وكان إحسانهم في صدق إيمانهم وحسن تقواهم وصالح طاعاتهم وأعمالهم.

- وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (85) :

ومن ذريّته وعلى دينه: زكرياء ويحيى وعيسى وإلياس، وهم من الصالحين العابدين الصادقين.

- وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (86) :

وكذلك إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية القبطية، ومن ذريته وأهله: اليسع، ويونس بن متّى، ولوط ابن أخ إبراهيم. كلّ هؤلاء فضّلهم الله على أهل زمانهم بالنّبوّة والرّسالة والصلاح ورفع ذكرهم.

- وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (87) :

ومن آباء هؤلاء الأنبياء والرسل وذرّياتهم وإخوانهم كانوا هداة مهتدين اِصطفاهم ربّهم، فهداهم إلى صراطه المستقيم، وصراط الله المستقيم هو الإسلام. إنّ الدين عند الله هو الإسلام، وجميع هؤلاء أشهروا إسلامهم أو أوْصَوْا ذريّاتهم بأن لا يموتوا إلاّ مسلمين.

- ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ(88):

ذلك هدى الله يتفضّل به على من يشاء من عباده الذين يوحدون الله ولا يشركون به أحدا، ولو أشرك أولئك الذين سبق ذكرهم لبطل الثواب عن عملهم ولخسروا جزاء الله وفسدت أعمالهم، ولكنّهم لم يكونوا مشركين، بل كانوا مسلمين، صادقين في إيمانهم بالتوحيد.

• أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ (89) :

أولئك الذين سبق ذكرهم من الأنبياء والرّسل عليهم السلام قد آتاهم الله كتبا وحْيًا من لدنه لهدي النّاس للإيمان به ولطاعته وليبيّن لهم شرعه وأحكامه، وليرشدهم لما يتّعظون به، وآتاهم النّباهة للفصل بين النّاس في نوازلهم بالعدل والحقّ ووهبهم الحكمة في توجيه النّاس لوجوه الخير والبِرّ، وآتاهم النبوّة وكرامة الوحي. فإن يكفر بالكتب والرسل والأنبياء وشرائعه (هَـٰٓؤُلَآءِ) وهم كفّار مكّة، فقد وُكّل للإيمان بهذه الأركان الإيمانية المهاجرون والأنصار ومن سار على دربهم من المؤمنين من أتباع محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى يوم القيامة، وخاصّة منهم الوعّاظ والعلماء والدعاة وكلّ من يرشد للإيمان والعمل الصالح ليتولّوا هذه المهمّة.

• أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَـٰلَمِينَ (90) :

أولئك الأنبياء المذكورون في الآيات السابقة ومن تَبِعَهم قد هداهم الله للإسلام وللطاعات، فسِرْ على منهجهم في التوحيد وفي طاعة الله والإخلاص في العبادة وصدق القول والعمل، وفي تقواه، واِتّبعهم، واقْتَدِ بهم، وهذا خطاب عام لجميع الخلق إلى يوم الدّين. (قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ) الأمر هنا للرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، ومن ورائه كلّ داعية وعالم، وواعظ بأن لا يطلب أجرا على وعظه، ولا يقبل عطاءً على دعوته للنّاس للاهتداء والاستقامة على دين الله سبحانه.

• وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَـٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ (91) :

كان لأهل قريش رحلتان شهيرتان للتجارة، رحلة الشّتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشّام. وقد ربطتهم الرّحلتان بعلاقة ودّية بجماعة من اليهود في البلدين، وعرف العرب منهم أنّهم أهل كتاب، وأهل دين سماوي، فلمّا بعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم برسالته كذّبوه، وكذّبوا بالوحي الذي يأتيه. ولمّا كانت رحلاتهم سألوا من عرفوا من اليهود عمّا يحدّثهم به محمد صلّى الله عليه وسلّم وسألوهم رأيهم، فأشار عليهم بعضهم أن يسألوه عن ثلاث: الفتية الذين اِختفوا عن أهليهم، وعن الملك الذي طاف بالأرض، وعن الرّوح، فإن أجابهم عنها فقد صدق، وإن عجز فقد كذب، ونزلت بالإجابة سورة الكهف. ولمّا علم اليهود بما جاءهم من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في السورة سألوا عن صفاته فلمّا عرفوه أنكروا ما كانوا قد علموا من التوراة خبر مجيء رسول بعد رسولهم، وكتموا ما كانوا يعلمون من صفاته.

وجاءت هذه الآية في فضح ما خفي من أمر ملاقاة المشركين باليهود، وفي فضح كتمان اليهود بما جاءهم في التوراة من خبر التبشير بمجيء نبيّ خاتم وصفاته، بما يشهد بعلم الله تعالى بالمخفيات، وبما يشهد بثبوت الوحي، وصدق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

والمعنى: وما يعرف عظمة الله وجلاله ودقّة علمه بما يخفى وما يُجهر به هؤلاء الذين يكذّبونك – يا محمد – من قومك، ويكذّبون بالقرآن والتّنزيل لمّا قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء لأنّهم أمّيّون، لم يكونوا من أهل كتاب، وما جاءهم قبلك من رسول، ولكنّهم كانوا يعلمون من اليهود الذين يتعاملون معهم أنّهم أهل كتاب، وأنّهم أهل ديانة سماوية جاءهم بها موسى من عند ربّهم، فاسألهم: من أنزل التوراة التي جاء بها موسى (نُورًا) يهتدون بها إلى دين الله الحقّ ترفع عنهم الجهالة وتبيّن لهم شرع الله وأحكامه (وَهُدًى لِّلنَّاسِ) وموعظة ليعرفوا طريق سعادتهم في دنياهم وآخرتهم. (تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ) في هذه الجملة تعريض باليهود لأنّهم برعوا في هذه الصناعة يظهرون منها في أوراق يخطّونها بأيديهم ما يتاجرون به لتحقيق مصالحهم (وَتُخۡفُونَ كَثِيرًا) ويخفون ما في التوراة من تعريف بصفات النبيّ الخاتم الذي سيأتيهم مبشّرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه، (وَعُلِّمۡتُم) وهم اليهود لمّا جاءهم موسى، وأنزلت عليهم التوراة والألواح، تعلّموا كثيرا من صفات الله تعالى وما يجب عليهم من مظاهر الطاعة، وما يجب عليهم من الحذر من معصيته، وتعلّموا خبر من قبلهم من الأنبياء وخبر الآخرة ممّا لم يكونوا يعلمون قبل نزولهما.

(قُلِ ٱللَّهُ) أخبرهم أنّ الله هو الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، وهو الذي علّمكم ما لم تكونوا تعلمون أنتم وآباؤكم، ثمّ أُتركهم لما يكيدون، ودعهم في باطلهم فسوف يعلمون ما سيأتيهم.

- وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (92) :

وهذا القرآن أنزله الله كثير المنافع والفوائد، يصدّق بالكتب السماوية المنزلة قبله، ولتحذّر أهل مكّة وسائر النّاس والمقيمين بجوارها مشرقا ومغربا، شمالا وجنوبا من التكذيب بالله وبوحدانيته وبالبعث وبالحساب، والذين يصدّقون بالله وتوحيده وبالبعث وبيوم الحساب يصدّقون بما جاء فيه، وهم على صلاتهم لمناجاة ربّهم وشكره على هدايته يحافظون ليدلّوا على صدق الطاعة.

- وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ (93) :

هذه في وعيد من يدّعي لله شريكا، أو يدّعي النّبوءة. ليس أظلم ممّن كذب على الله بأن ادّعى له نِدًّا، أو شريكا، أو ولدا. وليس من أحد أظلم لنفسه ممّن ادّعى النّبوّة والرّسالة، وادّعى تَلَقِّي الوحي من عند الله ولم يوح إليه شيء، أو كذب على النّاس وقال سأنزل مثل ما أنزل الله. وقد حدث ممّا جاء من التحذير منه كما كان مع مسيلمة الكذّاب. من يظلم نفسه بادّعاء شيء من هذا الكذب والافتراء فسيلقى عذابا مُذْ أن يحضره الأجل، فحينما تبلغه سكرات الموت وشدائدها تمدّ له الملائكة أيديهم بالضرب والتعذيب لانتزاع روحه، ويتلقّى عذاب الإهانة والإذلال بما كان يدّعي على الله الكذب، ولاستكباره عن الإيمان، وعن التّصديق بآيات الله الصادقة.

- وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (94) :

هذه من الإخبار بالغيب فيما سيحدث للمفترين على الله تعالى الكذب ومدّعي النّبوّة يوم الحساب. يومئذ يقال لهم لقد حضرتم بين أيدينا مثلما خلقناكم سابقا عراة لا تملكون شيئا من المال والعزّ والجاه، تركتم كلّ ما أكسبناكم من الجاه وما منحناكم من الأرزاق والثروات وراءكم في دنياكم التي ذهبت، وليس معكم ما كنتم تدعون من الآلهة التي ستشفع لكم من العذاب كما كنتم تتوهمون، أين هي الآن فلماذا لا تُرى معكم وقد زعمتم أنّها شركاء في نصركم وحفظكم، لقد اِنفصلتم عن بعض، وضاع عنكم كلّ شيء.

- إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) :

لمّا ثبت بطلان عبادة الأصنام، وبطلان الشرك، وثبت جهالة النّاس كما تبيّن في قصّة إبراهيم عليه السّلام ومشركي مكّة جاءت هذه الآية في عرض آيات من فضل الله جلّ وعلا على عباده ليعرفوا قدرته وفضله ليشكروه، وآيات من خلقه لتعظيمه، ولبيان أنّ ما يدّعيه المشركون في تأليه ما ليس له آيةٌ من خلقٍ وفضلٍ لا يستحقّ الألوهية، وعساهم بهذا العرض

وهذا العلم يعرفون ربّهم الحقّ ويفردونه بالعبادة والطاعة، فيؤمنون الإيمان الحقّ، والإيمان السويّ.

95: إنّ الله يجعل الحبّ اليابس في باطن الأرض ينشقّ وينفلق فيخرج منه زرع ونبت بإذن الله، وتُطمر النّواة الجافّة في باطن الأرض فتنفلق بإذن الله وتخرج منها فسيلة ثمّ نخلٌ أو شجر مثمر. والله سبحانه هو الذي يخرج الكائن الحيّ من نطفة ميتة أو بيضة لا حياة فيها، وهو سبحانه يخرج من الحيّ الميّت من مثل البيض من الطير أو السمك أو بعض الحيوان، والمنيّ من الكائن الحيّ الذكر، وهو ماء لا حياة فيه. ذلكم الله القادر المرتفع في ملكه، فكيف تصرفون أنفسكم عن عبادته، وتصرفون أنفسكم عن معرفة قدرته وفعله.

96: والله سبحانه هو الذي يشقُّ غبشَ الصبح لإظهار النّهار، وهو الذي يجعل الظلام يخيّم على المكان بالليل ليسكن فيه النّاس وكثير من الكائنات للرّاحة، وجعل تعاقب الليل والنّهار وظهور القمر لتعلموا عدد الأيام والشهور والسنوات، وهذا من تقدير العظيم العليم بما تحتاجون إليه في حياتكم.

97: وهو سبحانه جعل لكم النّجوم علامات لتعرفوا بها طرقكم في الأسفار برّا وبحرا كي لا تتيهوا، وإنّكم لتعرفون فضائلها حين تغمّ عليكم في الظلمات الحالكة. قد وضّحنا هذه الدلائل وبيّنّاها لقوم يعلمون فضل الله عليهم وتقديره وخلقه.

98: وهو جلّ وعلا الذي خلق البشر جميعهم على كثرة عددهم وتعدّد أجناسهم واختلاف ألسنتهم وتباعد أماكنهم من نفس واحدة، من آدم، جميعهم من آدم، ومنهم من هو مستقرّ في الأصلاب والأرحام ويظهرون عند ولادتهم، وآخرون أُستُودعوا في القبور بعد ما كانوا أحياء. قد وضّحنا الدلائل لقوم يفهمون.

99: وهو تعالى الذي تفضّل عليكم بإنزال الماء من السماء ليسقيكم، ولريّ مزارعكم وبساتينكم، فأخرجنا به الزروع بجميع أصنافها، وأخرجنا النبات الأخضر: الورقَ منه والسنابل المملوءة حبًّا، وأخرجنا النخيل من (طَلۡعِهَا) أول ما يخرج من ثمرها، فينمو ويصبح عراجين من التّمر (دَانِيَة) يسهل قطعها، ويخرج بالماء من غراسات الأعناب والزيتون والرّمان ثمرا متشابها في الشكل واللون والطعم، وغير متشابه في اللون والشكل والطعم والحجم. تأمّلوا في الثمر وتنوّعه ومذاقه وفضائله حين يزهر ويثمر وينضج، وتعرّفوا على الذي له الفضل في إخراجها لكم لتنتفعوا بها لأكلكم ولتجارتكم، إنّ فيها خير دليل على فضل الله عليكم لتشكروه وتعبدوه ولتؤمنوا به وحده.

- وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ **(100) :**

كان العرب يقولون عن جهل أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ، وهذا قول باطل لأنّ الجنّ الذين ادّعوا أنّ منهم صاحبات لله سبحانه عمّا يقولون هم من خلق الله تعالى. هو الّذي خلقهم، واختلقوا على الله الصاحبة والبنين والبنات اختلاقا كذبا وبهتانا بغير علم. تنزّه الله تعالى عمّا يدّعون.

- بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (101) :

وهو سبحانه خالق السماوات والأرض بغير مثال سابق خلقا رائعا وجميلا وعظيما، فكيف لهذا الخالق العظيم المبدع أن يحتاج لأن يكون له ولد، وكيف يكون له ولد وليس له زوجة؟ لقد خلق كلّ شيء، وهو مطّلع على كلّ شيء يحدث في خلقه.

- ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ(102) :

ذلكم هو الله ربّكم فالق الحبّ والنّوى، مكوّر الليل على النّهار، خالق النجوم لتهتدوا بها، الذي خلق البشرية جمعاء من نفس واحدة، منزل الماء من السماء لسقيكم وريّكم، مبدع السماوات والأرض، الحفيظ، العليم، العزيز، ليس له ندّ ولا شريك، وليس لكم من خالق غيره، خلق كلّ شيء، فآمنوا به وبوحدانيته، وأطيعوه وصلّوا له تقديسا وتعظيما، وهو على كلّ شيء من خلقه رقيب وحفيظ.

- لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ (103) :

هو الله سبحانه لا تبلغ الأبصار رؤيته، ولا تستطيع لمحدودية بصر الخلق، وهو يبصر كلّ شيء ويدركها ببصره وعلمه، وهو الرّحيم بعباده والرؤوف والحفيظ، وهو العليم بدقائق الأشياء، والعليم بما يصلح لشأنها.

- قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ(104):

هذه حقائق وأدلّة وبراهين في الكون المنظور تَبْصُرُونها لتعرفوا بها ربّكم، فمن تأمّل فيها وأبصر فيها قدرة ربّه وعظمته ووحدانيته فقد نفع نفسه بعلمها وبالاهتداء بها لربّه، ومن أغمض عنها عينيه وعطّل بصيرته واِستمرّ في العناد والمكابرة فلم يضرّ إلاّ نفسه، (وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ) هذا ممّا على الرسول صلّى الله عليه وسلّم أن يقوله لقومه: وهذا ممّا جاءني لأبّلغكم به لتعرفوا ربّكم، ولسْتُ عليكم رقيبا فيما تعتقدون، وفيما تدّعون.

- وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (105) :

وهكذا ننوّع الأدلّة ونأتي بحجج كثيرة ليهتدي بها صاحب العقل والنظر والمتدبّر، وإنّ المكابرين والمكذّبين ليقولنّ لك – يا محمد – لقد درست هذه الحجج وقرأتها وعَلِمتها من أهل الكتاب وما هي من الوحي، ولكنّه وَحْيٌ أوحينا لك به لنوضّح للنّاس الذين يحبّون أن يعرفوا دلائل وجود الله ووحدانيته، ودلائل بطلان الشرك ما يجبُ عليهم معرفته وعلمه.

- ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ **(106) :**

هذا خطاب للنّبي صلّى الله عليه وسلّم ليلازم ما يأتيه من الوحي ليبلّغه للنّاس، وهو وحي من عند ربّه، والله إلاه واحد، لا إلاه غيره، فمن اِهتدى فلنفسه، ودعك من مكابرة المشركين وتكذيبهم ولا تأبهْ بهم.

- وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ **(107) :**

هذه لتسلية النّبي صلّى الله عليه وسلّم ليعلم أنّ الهدي هدي الله، وما عليه إلاّ البلاغ. والمعنى: ولو شاء الله تعالى ما جعل أحدا يحيى مشركا، ولو شاء لجعلهم جميعا مسلمين لأنّه هو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق وبما في قلوبهم ولكن قضت حكمته أن يكون النّاس مختلفين، وحمّلهم مسؤوليتهم في الإيمان، فمن شاء آمن، ومن شاء كفر، ثمّ إليه يُرجعون لمحاسبتهم عمّا كانوا يؤمنون ويعملون. والخطاب للنّبيّ ولكلّ واعظ وداعية وعالم من بعده: وما جعلناك على النّاس حافظا ورقيبا لتلزمهم جميعا بالإيمان بما تدعوهم إليه، كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، وما أنت عليهم بحفيظ لتحفظ مصلحتهم.

- وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ **(108) :**

هذه في دعوة المسلمين لأنّ لا يلعنوا أصنام المشركين حتى لا يُردَّ عليهم بمثل لعنهم وسبابهم اعتداء، وعن جهل بعِظم الجرم بسبّ الله سبحانه. وما أبشع ما نسمع أحيانا في الخصومات في الأسواق أو الأحياء والشوارع من سبّ للدين والاعتداء على مقام الجلالة بالسبّ. أمرٌ تقشعر له الأبدان، وتمتعض له النّفوس، ورغم وعظ الواعظين فإنّ هذا الأمر المشين الذي يجلب سخط الله سبحانه إلاّ أنّه لم يردع الفاعلين، إذ يلزمه قرار وحكم رادع وحازم ونافذ.

وإنّ من سنّة الله في خلقه أنّ كلّ أمّة تستحسن ما جُبِلَت عليه من عادات وطباع وتقاليد دون تمييز بين ما هو صالح، وما هو فاسد، ثمّ سيعود الجميع إلى ربّهم لحسابهم، وحينئذ يخبرهم الله تعالى بما أصلحوا، وبما فسدت فيه أعمالهم بما تتلقّاه أيديهم من سجلاّت.

- وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ **(109) :**

ويحلف لك – يا محمد – جمعٌ من المشركين وزعمائهم بأغلظ الأيمان عندهم لئن جئتهم بمعجزة باهرة يبصرونها ليصدقُنّ بك رسولا، وليُؤْمِنُنَّ بما تدعوهم إليه من أركان الإيمان.

أخبرهم بأنّ المعجزات من أمر الله. وما يُدْرِيكم أنّ المعجزات إذا جاءتهم أنّهم سيؤمنون. إنّهم لا يؤمنون لأنّ الله يعلم ما في قلوبهم، ويعلم عنادهم وكبرياءهم وإصرارهم على التمسّك بآلهتهم التي يدعون.

- **وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) :**

وما يدريك أنّ المعجزة إذا جاءتهم آمنوا في حينها، ثمّ تتقلّب قلوبهم، وتُعرِض أبصارهم عمّا يرون ليعودوا للكفر وعلى ما كانوا عليه، وتحُولُ قلوبهم دون الإيمان عنادا، وإصرارا على الشرك، وكذا نتركهم على ما هم عليه في تجاوز حدّهم في الكفر، وعلى عمههم، والأعْمَهُ هو المبصر بعينيه، ولكنّه من ذهوله أو من تحيّره أو من عناده لا يبصر الشيء الذي أمامه لأنّه لا يحبّ أن يبصره، ويدّعي للشيء الذي يراه أنّه لا يبصره. وهذا لأنّ الله يهدي الذي يهتدي إليه، والذي يحبّ أن يهتدي إليه، والذي يعلم الحقّ فيتّبعه، ويرى الباطل فيحذره ويتجنّبه، وأمّا الذي يُعمي بصره ويجعل على بصره غشاوة، والذي يحبّ أن يصمّ أذنيه، والذي يغشي على قلبه ويعطّل عقله، ويرتضي بجهله تقليدا أو عنادا فيُترك لجهله وعمهه وطغيانه وكفره، وسيرى بعد ذلك سوء عاقبته ممّا اِرتضاه لنفسه.

- **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) :**

هذه في تأكيد معنى الآية السابقة، وهي لتسلية النّبي صلّى الله عليه وسلّم حتى لا يحزن لموقف قومه منه وممّا جاءهم والمعنى : ولو أنّا أريناهم الملائكة، ونزلناهم تنزيلا عيانا وهم يبصرون نزولهم، ولو جعلنا موتاهم يكلّمونهم، وجمعنا لهم بكثرة كلّ شيء ممّا طلبوا أمامهم وقبالتهم (مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) لأنّه سبق في علمه أنّهم غير مؤمنين، ولأنّ أكثرهم طائشون معاندون سفهاء العقول، ولأنّهم عطّلوا عقولهم عن اِستيعاب الحقّ، وقبوله.

- **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) :**

وهذه أيضا لتسلية النّبي لنفس الغرض، وعليه أن يثابر على نشر دعوته رغم معارضة المعارضين لتقوم عليهم الحجّة يوم الحساب، وحتى لا ييأس. والمعنى: وهكذا واجه كلّ نبيّ معارضة لدعوته من جمع من قومه تصدّوْا له وحاجّوه وعادوه وآذوه، وهم من أهل الشرور من صنفيهم: الإنس والجنّ الذين يوحون لإخوانهم من الإنس بمعاداة الرسل والأنبياء ومشاقّتهم،



وشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض من ذويهم بالتدبير السيّئ المزوّق بالكلام المعسول للتغرير بهم حتى يكونوا لهم أنصارا على الباطل من الأعمال. ولو شاء الله ما تركهم ليفعلوه بإهلاكهم أو بفضحهم أو بإفساد تدبيرهم، ولكن دعهم على ما هم عليه واتركهم وما يفعلون وما يكذبون وما يكيدون فلن يبلغوا لشيء ممّا يريدون، فإنّ كيدهم سيذهب هباءً، وسيحاسبون عمّا كانوا يفعلون، وذلك لأنّ جملة (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) للتّهديد.

- وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (113) :

الآية تابعة للجملة (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)، وستميل قلوب المكذّبين بالآخرة لما يقول هؤلاء الشياطين لأنّها أقوال تناسب أهواءهم فيصغون إليها ويستسيغونها ويرضون بها حجّة على تكذيب رسولهم، وليرتكبوا من الآثام والذنوب ما هم مرتكبون ومكتسبون، وهذه أيضا للتهديد والوعيد.

- أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (114) :

وقل للمكذّبين، أفغير الله أطلب قضاءه وحكمه للفصل بيننا بالحقّ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مبيّنا للحقّ ومبيّنا للباطل للفصل بينهما، ولتعلموا الحقّ والباطل. وإنّ اليهود والنّصارى الذين جاءهم كتاب الله من قبلكم يوقنون أنّ ما جاءكم من عند الله من دعوة للتوحيد ونبذ للشرك ومن خبر قيام الساعة ويوم القيامة ومن خبر إحياء الموتى والحساب والوعد والوعيد هو منزلٌ من عند الله بالحقّ. فلا تكوننّ – يا محمد – ومن وراءك من المسلمين إلى يوم الدّين – من الشّاكّين، أو المرتابين في هذا التّنزيل.

- وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (115) :

وتمّ توضيح الحقّ والباطل، والوعد والوعيد، والوعد صادق، وشرع الله واضح والأحكام بيّنة، والوعيد عدل، ولا نقض ولا خلف في كلمات الله، في إنذاره وتبشيره، والله سبحانه هو السميع لدعاء خلقه وندائهم وتسبيحهم، وهو العليم بإيمانهم وعملهم ونواياهم، ورجائهم، والعليم بتقواهم، وهو السميع لما يقوله المكذّبون، والعليم بمكرهم، وبما يتآمرون به، ويتآمرون عليه وبما يبيّتون.

- وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (117):

هذه في التحذير من مصاحبة أهل الكفر. وإن تتبع أهواء الكفّار من أهل الأرض وما يقولون في الدّين وأحكامه الشرعية يبعدوك عن الطريق التي تبلّغك رضى الله عنك وثوابه ونعيمه في

آخرتك، ويضيّعوك. إنّهم لا يتّبعون في مجادلتهم ومحاجّتهم الدلائل والحجج البيّنة الثابتة، وإنّما يتّبعون أهواءهم وظنونهم وجهلهم بالحقائق، وإنّهم يكْذِبُون فيما ينسبون إلى الله بالظنّ والباطل.

إنّ ربّك هو أعلم بمن يتيه عن طريقه السويّ، ومن يضلّل النّاس، وهو عليم بالمهتدين إليه بالطاعة والعبادة، ولكلٍّ حسابُه عند ربّه.

- فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ **(118)** :

كُلُوا ممّا ذبحتم من الأنعام، وذكرتم اسم الله عليها عند ذبحها إن كنتم من الذين يعملون بأحكامه وشرعه ومصدّقين بما جاءكم من عند الله من الأحكام.

- وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ **(119)** :

وما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه اسم الله عند ذبحه، وقد بيّن لكم ما حرّم عليكم من الأطعمة إلاّ ما ألجأتكم الضرورة والحاجة الأكيدة لتناول ما حرّمه الله عليكم، وإن كثيرا من أهل الشهوات والأهواء يحيدون عن الصواب وعن أكل الحلال بغير علم بسوء عاقبة معصية أمر الله، وهذا من الاعتداء على أحكام شريعته، والله عليم بهم، وسيحاسبهم على تعدّيهم على حدوده.

- وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ **(120)**:

هذه في موعظة المؤمنين ليكونوا من أهل التقوى، والمعنى اتركوا ما يظهر من الإثم والمنكر والذنب من مثل الكذب والعنف والسبّ والغشّ في المعاملة، وتناول المسكرات (لأنّ الإثم عند العرب في جاهليتهم من أسماء الخمرة)، وتجنّبوا ما خفي من الإثم من مثل الحسد، وسوء النّية، والتآمر على أمن العباد أو أمن البلاد، والسرقة والغصب والاتهام بالباطل وشهادة الزور. إنّ الذين يأتون هذه الآثام، بعضها أو جلّها سيعاقبون عمّا كانوا يرتكبونه من أعمال الشرّ والمحرّمات.

- وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ **(121)** :

وينهاكم الله عن أن تأكلوا لحوم ذبائح لم يذكر اسم الله عليها. الأكل من لحومها من المعصية، ومن الخروج عن الطاعة. وإنّ الشياطين يوسوسون إلى المُوالين لهم في المعصية، وهم المشركون والعصاة ليحاجّوكم في الدين محاجّة عناد من غير علم ولا دليل، ونصرة للباطل، فلا تسمعوا لهم، فإن استمعتم إليهم، وملْتم لما يقولون من الافتراءات وتزيين المعاصي فإنّكم ستكونون أمثالهم في نصرة الشّرك.

- أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ **(122)** :

في هذه الآية اِستعارات كثيرة، فالميّت هنا من كان كافرا، وأحييناه اِستعارة لاهتدائه للدين القويم، والنور هنا اِستعارة لشرع الله وكتابه، والظلمات اِستعارة للكفر والجهل، (لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) اِستعارة للعناد والإصرار على الكفر. والمعنى: أيستوي من كان كافرا جاهلا فهديناه للإسلام ونوّرنا بصيرته، وجعلنا له كتابا يقرأه يعرف منه شرع الله وأحكامه وهديه، يسير وِفْقه في حياته مع النّاس، وفي معاملته معهم ليكسب من الحلال، وليحذر من كلّ معصية، هل يستوي هو مع الذي يسير في ظلمة الجهل وفي المعاصي لا يبصر فيها نُورًا ولا يهتدي إلى الطريق الموصل للخير وليس بخارج منها لعناده وإصراره على ما هو عليه، وما هو فيه رَضِيًا به، كلاّ لا يستويان. هكذا يرى الكافرون أعمالهم في ظلماتهم جيّدة ومرضية عندهم مِنْ عمَهِهِمْ.

- وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ **(123)** :

وهذه للتحذير من دعاة المعاصي من أهل السيادة والزعامة. وهكذا جعلنا في كلّ بلد رؤساء الكفر، وزعماء الإجرام فيها أهل مكر، يدبّرون السوء من الأفعال بالحيلة والخداع، والمؤامرة، وما يضرّون بهذا المكر إلاّ أنفسهم، وما يشعرون أنّ مكرهم سينقلب عليهم وسيُكشفون، وسيُهلكون به عاجلا أو آجلا، فلا يحيق المكر السّيئ إلاّ بأهله.

- وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ **(124)** :

هذه في المكذّبين المعاندين، وإذا جاءهم برهان على صدق نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم قالوا لن نصدّق به حتى تكون عنده معجزات ظاهرة مثل ما جاء الأنبياء السابقين والرّسل. (ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ) هذه للردّ على الذين حسدوا النّبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم على اِصطفائه بالنّبوّة، وقالوا: "لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم"، ولم يعلموا أنّ الله يصطفي برسالته الصادق الأمين، وأعلم بموضع رسالته، والذي هو الأجدر بأداء الأمانة إلى أهلها. وسينال الذين كذّبوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن وبالبعث ذلّة وهوانًا عظيمًا في دنياهم، وسيلحقهم عذاب موجع في آخرتهم بسبب تآمرهم الكيدي على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه وعلى الدين وأحكامه.

- فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ **(125)** :

هذه في أصحاب القلوب غير المتحجّرة، وأصحاب العقول الواعية، والذين يحبّون العلم الحقّ، هذه الفئة من النّاس عندهم قابلية للفهم ولتعديل مواقفهم الخاطئة ليتّبعوا الأصح. والمعنى: فمن يرد الله به خيرا بأن يهديه لدينه الحقّ يقذفْ في قلبه نورًا، ويجعله متقبّلا للهدى فترتاح نفسه لما يبلغه من العلم بالحقّ ويطمئنّ إليه قلبه فيسلم وجهه وأمره لله تعالى فيكون مسلما على ملّة الأنبياء والمرسلين، ومن يرد الله أن يتركه في ضلاله لِعمى بصيرته وعناده يجعل قلبه غير مطمئنّ لما يسمع حتى يتحجّر رافضا كلّ دعوة للإيمان، ولا يلين حين يسمع كلام الله تعالى ووعيده، ويضيق بما يسمع ويرتفع عنده الضغط (كأنّه حُمِّلَ على ظهره ثقلا يصعد به إلى مرتفع عالٍ ومائل، حتى أنّه يشعر كأنّه يصعد به إلى السماء فلا يستطيع أن يبلغها). وقال: "اينشتاين" – أحد علماء الغرب– الارتفاع في السماء يؤدّي إلى انعدام الهواء أكثر فأكثر إلى حدّ الاختناق. هكذا يجعل الله العذابَ وكلّ ما لا خير فيه على الذين لا يؤمنون.

- وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (126) :

هذا الذي جاءك – يا محمد – من الوحي والشرع هو صراط الله الذي لا اعوجاج فيه، الموصل للهدى والحقّ. قد وضّحنا وبيّنا الدلائل لقوم يُعمِلون عقولَهم ويفهمون.

- لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (127) :

هذه في وعد الذين هداهم الله وشرح صدورهم للإسلام، يبشّرهم ربّهم بأن يكونوا في دار السلام، وهو اِسم من أسماء الجنّة تكريما من عند ربّهم، وهو ناصرهم بما كانوا يعملون من الطاعات والصالحات.

- وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (128) :

وهذه في وعيد العصاة المذنبين من الذين كفروا وكذّبوا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وشاقّوه وتآمروا عليه ودبّروا له ولأصحابه المكائد. هؤلاء من طائفتي الجنّ والإنس حينما يقومون يوم الحشر للحساب يحاسبون على إضلالهم لبعض، يقال يومئذ لمعشر الجنّ المضلّين للذين اِستمالهم واِستمعوا لهم، قد أضللتم الكثير من بني الإنسان وأغويتموهم. وقال أنصارهم من الإنس: ربّنا قد زيّن لنا الجنّ عمل المعاصي، وقد اِنغمسنا فيها، ووجد أولئك متعة حينما أطعناهم، حتى بلغنا الأجل الذي قضيته لنا، كأنّهم يحمّلون الجنّ المسؤولية عن ضلالتهم إلى آخر يوم من حياتهم، وكانوا مستمتعين بضلالتهم، وكأنّهم يجدون لأنفسهم بهذا الاتّهام عذرا لضلالتهم، ولكن في ذلك اليوم لا يُقبل للإنسان العاقل عذرٌ عن ضلالته، فيقال للجنسين: النّار

مستقرّكم مخلّدين فيها إلاّ ما شاء الله أن يفعل مع بعضهم فإنّ الله حكيم في قضائه، وعليم بما كان في نفوس خلقه: إنسهم وجنّهم، وفي نواياهم وأعمالهم، والأمر يومئذ لله وحده سبحانه.

- وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (129) :

وهكذا نتبع بعضَ الظالمين أنفسهم بالكفر والشرك وإتيان المعصية بعضًا في إدخالهم النّار بسبب ما كانوا يعملون ويكيدون ويستهزئون بالدين وشرعه.

- يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ (130) :

ويقال يومئذ لهؤلاء الضالّين والمضلّلين من الجنّ والإنس تقريعا وتوبيخا وتذكيرا: ألم نرسل إليكم رسلا جاؤوكم لينذروكم من الكفر والمعصية، وليقصّوا عليكم أخبار الأمم السالفة من الذين كفروا فأهلكهم الله وأبادهم لتحذروا الكفر والإعراض عن الإيمان، وقد جاؤوكم بالوعيد حين تلقون ربّكم في هذا اليوم: يوم الحساب وهو يوم التغابن والعقاب لمن كفر. وقالوا متوسّلين بالاعتذار: نشهد على أنفسنا أنّا كنّا ضالّين وظالمين أنفسنا بالكفر والمعاصي، فقد خدعتنا الدنيا بطلب الجاه وحبّ الشهوات، وشغلتنا عن طلب الآخرة، ولا يُقبل منهم اِعتذارهم، فيقال لهم: قد أقررتم على أنفسكم أنّكم كنتم كافرين.

- ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ (131) :

هذه لبيان الغاية من إرسال الرسل الذي جاء ذكره في الآية السابقة، لقد أرسل الله تعالى رسله للقرى الّتي فشا فيها الكفر وإتيان المعصية لإرشادهم وإنذارهم، فما كان الله ليهلك قوما بكفرهم، وهم في غفلة لم يأتهم رسول ليرفع عنهم جهلهم وليرشدهم للصواب، فإن آمنوا نجوا من الهلاك، وإن أعرضوا عنه أهلكهم الله على علم بالوعيد، ولم تعد لهم حجّة على الله سبحانه.

- وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) :

ولكلّ مخلوق يوم الحساب منزلته ومرتبته في الجنّة حسب درجة عمق إيمانه وصدقه، ودرجة إخلاصه في طاعته وحسن عمله، أو تكون له منزلة ومرتبة في نار جهنّم حسب درجة كفره وسوء عمله ودرجة إتيانه المنكرات وإعراضه عن طاعة ربّه، وما كان الله بغافل عمّا يعمله عباده من الخير أو الشرّ.

- وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ (133) :



والله سبحانه غنيّ عن عباده، لا تنفعه طاعة ولا تضرّه معصية، لا يحتاج لخلقه ولا لعبادتهم وطاعتهم، وهو سبحانه واسع الرّحمة بعباده، يثيب الطائعين ويحفظهم من السوء، ويمهل العصاة المذنبين عساهم يتوبون قبل الغرغرة. وهو تعالى قادر على أن يهلك جميع العباد ويذهب بهم، ويستبدلهم بآخرين خيرا منهم يؤمنون به ويطيعونه، ينشئهم كما أنشأكم ولكن من قوم آخرين غير الذين كانوا موجودين.

- إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (134) :

إنّ ما جاءكم من خبر الوعيد واقع لا محالة، ولستم بمفلتين من عذاب الله، ولا هاربين من عقابه، وقد حدث هذا الوعيد وصدق يوم بدر الذي ذهب برؤساء الكفر وزعمائهم في ذلّة، وقهر ومن ورائهم أتباعهم ومناصريهم.

- قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (135) :

هذه كقوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)، والمعنى: قل – يا محمد – للمعارضين لك، والمكذّبين بك، أُثبتوا على ما أنتم عليه في دينكم وعملكم، وأنا مداوم على ما أدعو إليه فسوف تعلمون حين يأتي أمر الله من ستكون له العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة، وأُذكروا أنّ الظالمين لأنفسهم بسوء العمل والظالمين للنّاس بالتكذيب أو القهر – وهم صادقون – لا ينالون خيرا من وراء أعمالهم.

- وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) :

هذه الآية إضافة للآيات الأربع الموالية تبيّن واقع المجتمع الجاهلي في معتقده وعاداته وتقاليده في الصدقات التي يقدّمها قرابين للآلهة المزعومة عنده للتقرّب إليها. جعلوا نصيبا ممّا خلق الله تعالى لهم من الزّروع، ومن مواليد الأنعام من الإبل والبقر، والضأن، والمعز صدقات. ويجعلون صدقاتهم من هذا الإنتاج على قسمين – على حسب ما يتوهّمون – قسم يجعلونه لله، وقسم آخر للأصنام: للكهنة وزوّار البيت. وكلّ ما يُخصّص للأصنام للصدقة لا يؤخذ منه شيء للتّصدّق به على الفقراء، وما يخصّصونه لله فإنّهم يحوّلون جزءا منه للأصنام. بئس ما يفعلون في قسمتهم وتوزيعها.

- وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) :

ومن عاداتهم كذلك ومعتقدهم أن زيّن لهم زعمُهم الباطل وسخفُ عقولهم وَأْدَ بناتهم شركائهم في النّسب والميراث ليهلكوهنّ ويقتلوهنّ، وقد زُيّنَ لبعضهم هذا العمل لأنّه تلبّس عليهم الأمر، إذ كانوا يعتقدون أنّهم على دين إسماعيل، وكان فيه قتل الولد، وقد تغطّى عليهم الحقّ، وتلبّس عليهم لأنّه ليس في دين إسماعيل قتل النفس البريئة التي أحياها الله بالنفخ فيها من روحه. ولو شاء الله لأهلكهم بهذا الفعل ولكن أمهَلهم حتى يأتيهم الحقّ، فاتركهم لما يختلقون من الكذب والأباطيل ماداموا للحقّ الذي جاءهم كارهين ورافضين.

- وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ **(138) :**

وهذا نوع آخر من جهلهم إذ شرعوا لأنفسهم شرائع من عندهم، فقالوا هذه البحيرة والسائبة والقلائد حرام وممنوع على النساء أن يأكلن من لحومها، وهي حلال على الرّجال وخدّام الأصنام، وجعلوا أنواعا من الزروع ممّا كانوا يحرثون حرامًا على النساء أن يأكلن منها، وللرجال وخدّام الأصنام أن يتناولوها. وجعلوا ركوب البحيرة والوصيلة والحام حراما، وكذلك الحمل عليها. وجعلوا أصنافًا من الأنعام لا يحجّون عليها حتى لا يذكروا اِسم الله عليها لأنّها مخصّصة للأصنام. وكانوا يقولون: الله أمرنا بهذا، وهم يكذبون على الله فيما يقولون، ويفترون عليه لأنّه لم ينزل عليهم شيءٌ من هذا، وسيعاقبهم الله على اِفترائهم عليه، وهذا وعيد لهم.

- وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ **(139) :**

وادّعوا أنّ ألبان بعض الأنعام المعيّنة عندهم يحلّ على الذكور شرابه وطعمه، وحرام على الإناث شرابها وطعمها، وما يولد منها ميّتا فللنساء الحقّ أن يأكلن منه ويشاركن الرجال في طعامه. سيعاقبون بوصفهم الكذب على الله من التّحليل والتحريم، إنّه حكيم فيما يشرّع، وعليم بما شرّع، وبما يُفترى عليه.

- قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ **(140) :**

هذا حكم الله تعالى فيهم، قد خسر كلّ من وَأَدَ اِبنته أو قتل صَبِيَّهُ خوفا من الفقر من سخف عقله وضعف تفكيره وتدبيره، ومن جهله، وخسر الذين حرّموا على أنفسهم نِعَمًا رزقهم الله تعالى بها فحرّموا على أنفسهم أو نسائهم الأكل منه أو الشرب، وكلّ هذا من اِختلاقهم وكذبهم على شرع الله، قد ضيّعوا صوابهم، وضيّعوا أبناءهم وخيراتهم، وما كانوا مهتدين إلى الصواب وللحقّ بما فعلوا.

- وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (141) :

جاءت هذه الآية بين مجموعتين من الآيات، عرضت المجموعة الأولى فساد عادات الجاهلية ترضية لأصنامهم المزعومة، والمجموعة الثانية التي سيأتي ذكرها في تشريعاتهم الباطلة ترضية كذلك لمعتقدهم الباطل، وهذه الآية للتنبيه لفضل الله على خلقه في إنشاء الطيّبات لهم حتى يعرفوا قدرته وفضله فلا يغفلون عن شكره وتخصيصه بالطاعة والعبادة وبالصدقات، والمعنى: هو الله الذي أنعم عليكم ببساتين ذات أشجار عنب تحتاج للتعريش لتمتدّ فروعها ويكثر ثمرها ويتدلّى، وبساتين ذات أشجار مثمرة لا تحتاج للتعريش، وأنشأ لكم واحات نخيل لتأكلوا من ثمرها ورطبها، وأنشأ لكم حقول الزرع على مختلف أنواعه من قمح وشعير وذُرَة وغيرها ممّا اِختلف شكله وطعمه وحاجتكم له، وأنشأ لكم غابات الزيتون والرّمان، منه ما تشابه في هيأته وحجمه ومذاق طعمه، ومنه ما اِختلف، ولكلّ خاصيته لتنويع طعامكم وطيّباتكم. كلوا ممّا أنتجته لكم مزارعكم وحقولكم وغاباتكم وواحاتكم حلالا طيّبا، واِنعموا بثمراتها وحبوبها، وآتوا يوم حصاد الزرع، أو جني الثمر صدقاتكم لشكر الله المنشئ الخالق على فضله، آتوا حقّ الله منها إليه وحده، لا لأصنامكم، ولا تمنُّوا بها على خلق الله، أدّوها لله شاكرين له على فضله، ولا تبالغوا في أداء الصدقات حتّى لا تُحرَمُوا من إنتاج أرضكم، وقيل الخطاب في قوله تعالى: (وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ) موجّه لجامعي الصدقات لئلاّ يأخذوا من ثمر الأرض أكثر ممّا عيّنه الله، فهو العشر ممّا لا يسقى بماء، وهو نصف العشر ممّا يسقى من الآبار والعيون ويُنفق عليه للإنتاج، إنّ الله لا يحبّ المتجاوزين حدّهم في الإنفاق أو في جمع الزكوات.

- وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (142) :

في هذه الآية تمهيد لإبطال تشريع الجاهلية ممّا كانوا يحلّلون ويحرّمون، والمعنى: وسخّر الله لكم الأنعام لتحملوا عليها أثقالكم لسفركم، أو لخدماتكم، ولتتّخذوا من جلودها مفروشات لكم ومتاع بيوتكم. كلوا لحومها طيّبة حلالا إذا ذُبحت بذكر اِسم الله عليها، ولا تحرّموا على أنفسكم ما أحلّه الله لكم تبعا للأهواء ولاختلاق الباطل من تدبير الشيطان، إنّ الشيطان عدوّ واضح للإنسان المؤمن.

- ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (143) وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ

وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (144) :

سبق ذكر ما كان يحلّ الجاهليون لأنفسهم من لحوم الأنعام وألبانها، وما كانوا يحرّمون في الآيتين 139 و140 وجاءت هاتان الآيتان لإبطال تشريعهم الذي كانوا قد شرّعوه لأنفسهم من تلقاء أنفسهم.

خلق الله تعالى من الأنعام ثمانية أزواج: من الإبل والبقر والغنم والمعز: الذكر والأنثى، هي أربعة أصناف، من كلّ صنف زوج: ذكر وأنثى، فاسألوا المشركين عن العلم الذي جاءهم في تحريم هذا الصنف أو ذاك على إناثهم وتحليله على ذكورهم، أو في تحريمه على ذكورهم وإناثهم من أين جاءهم؟ وكيف جاءهم؟ إن كانوا صادقين في ما يزعمون. فإن لم يكن لهم كتاب بهذا فاسألوهم هل كانوا حاضرين وشهداء حين وصّاهم الله بهذا التشريع؟ وحين حرّم عليهم ما يذكرون فاعتمدوه. فإن لم يكن لهم هذا العلم، ولا هذه الشهادة فليعلموا أنّه ليس من عبد أظلم لنفسه ممن يكذب على الله تعالى ويفتري عليه في تشريع ما لم يُشرِّعْهُ قصد إضلال النّاس بغير علم ولا دراية. إنّ الله لا يهدي الظالمين المفترين على الله للصواب، وسواء السبيل. وفي هذا وعيد لكلّ المتشدّدين الذين يشرّعون للنّاس من أنفسهم تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، وهم من غير أهل العلم، وهم من المتجرّئين على الإفتاء، ومن المتنطّعين، وما أكثرهم في أوساط المهمّشين، وأغلبهم من المستويات الدنيا في دراستهم، وفي مداركهم العلمية وفي أفهامهم.

- قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (145) :

لمّا ذكر تعالى اِفتراء المشركين على شرع الله فيما أحلّ وحرّم، ناسب هذا أن يدلّ على ما يحرمّه. أخبر – يا محمد– قومك أنّك لا تجد فيما أوحي إليك من المحرّم على المسلمين أكله إلاّ الجيفة الميّتة، والدم السائل المهرق من الذّبيحة، ولحم الخنزير لأنّه قذر ونجس وخبيث نتن، وكلّ ذبيحة ذبحت لم يذكر اسم الله عليها، وإنما ذبحت لغيره خروجا عن دين الله وطاعته، إلاّ من ألجأته الضرورة الملحّة لأن يأكل منها محافظة على حياته، ولم يكن يبغي بأكلها معصية الله والتعدّي على المحرّمات اِتّباعا لهوى نفسه، أو لإضلال النّاس، شريطة أن لا يأكل من هذه المحرّمات أكثر ممّا يحتاج إليه لمقاومة جوعه، في هذه الحالات لا يُؤاخذ المؤمن على ما طعمه فالله غفور لعبده الذي يحفظ حدود الله إلاّ لما اُضطرّ إليه قهرا، ورحيم به لأنّه عليم بحاله وبضرورته.

- وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ(146):

وناسب ذكرُ ما حُرِّم على المسلمين أكله بيانَ ما حرّم الله على اليهود من الأطعمة، وكان هذا التحريم عقابا لهم على ظلمهم. والمعنى: وعلى اليهود حرّمنا طعام ما كان من البهائم والطير غير منفرج الأصابع، وكلّ حيوان له مخالب، من مثل الإبل، والنّعام، والإوز، والبطّ... وحرّم عليهم شحوم البقر والغنم إلاّ ما علق بالظهر من الشحم أو ما اختلط بالمصارين والأمعاء في الكرش، وكذلك ما لصق بالعظم، وكان هذا عقابا لهم بسبب غلوّهم في الدين، وكيدهم بالأنبياء، وبسبب فسادهم، وهذا من ظلمهم لأنفسهم وللدّين. وهذا هو القول الصدق فيما حُرِّمَ عليهم من الأطعمة.

- فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (147):

فإن كذّبك – يا محمد هؤلاء المشركون واليهود فقل لهم: إنّ الله يمهل عباده رأفة بهم عساهم يتوبون إليه، ولا يفلت مجرم من عذابه وانتقامه إذا حلّ به فاحذروا عذابه، والجرم هنا هو التكذيب بشرع الله، والتعدّي على محرّماته.

- سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) :

هذه في حجّة المشركين في اِعتمادهم تلك الشرائع، وتلك العادات الباطلة باسم الدين كذبا واِفتراءً، مدّعين أنّها من مشيئة الله تعالى للتهرّب من تحمّل مسؤوليتهم في الافتراء على الله، والمعنى: سيقول المشركون – حين تُنْبِئُهم بما نزل عليك – يا محمد – من تنزيل يبطل مزاعمهم، إنّ شركنا وتحريمنا لما حرّمنا إنّما وقع بمشيئة الله، (وقد كذبوا لأنّ الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر)، واِنّما جاء اِحتجاجهم هذا من باب العناد والإصرار على الكفر، والتّفلسف على المشيئة الربّانية، قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا، ولو شاء الله ما حرّموا من شيء على أنفسهم.

وجاءهم الوعيد من الله تعالى على كذبهم بتذكيرهم بما حدث لأمم سالفة من قبلهم كذبوا على الله فادّعوا له الندّ أو الشريك، وأصرّوا على الكفر فأتاهم العذاب بغتة وأهلكهم. ودُعُوا لأن يظهروا حجّتهم في التحريم من كتاب نزل عليهم بذاك التشريع للاطلاع عليه. ولمّا لم يكن لهم

من تشريع به ثابت بنصّ فإنّ ما يدّعون هو من الظنّ الكاذب والتخمين والوهم، وإنّهم لينسِبُونَ إلى الله شرائع بلا برهان، وبلا حجّة، وهذا معنى الخرص.

- قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ (149) :

أخبرهم – يا محمد – لله الحجّة القوية الواصلة إليكم بإرساله رسولا إليكم يعلّمكم شرائعه الحقّة، ولو شاء لهداكم أجمعين ولكنّه جعلكم تتحمّلون المسؤولية عن أعمالكم، ولذلك جعل لكم يوما للحساب ليجازي المهتدين لله المطيعين له، ويعاقب المذنبين.

- قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ (150):

قل تعالوا وأحضروا معكم الذين أبلغوكم أنّ الله حرّم عليكم ما تقولون بحرمته لنسمع منهم، فإن أحضروا جمعا يقولون بتحريم ما يدّعون، فإنّما هم يكذبون ويفترون على الله، فلا تصدّقهم فإنّ الله لم يبعث إليهم أحدا من رسول قبلك، ولا تأبه بما يقول أهل الأهواء الذين يكذّبون بالتّوحيد والوحي، ويكذّبون بيوم القيامة، وهم يجعلون لله الواحد الأحد أندادا يعدلونه ويشاركونه في الألوهية.

- قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (151) :

هذه مع الآيتين المواليتين في الوصايا العشر القرآنية لأنّ كلّ آية منها قد ختمت بقوله تعالى (ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ)، وفيها عشر وصايا، هذه في خمس وصايا، والثانية في أربع، والثالثة في وصية واحدة. وقد علم النّاس أنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل على موسى عليه السلام وصايا عشرا محفورة على الألواح، ويجهل أغلبهم أنّ الله قد أنزل في القرآن الكريم وصايا عشرا كذلك. خمس منها تتفّق مع ما نزل في الألواح، وتختلف في خمس. ما اتّفق فيها هي: التوحيد، والبرّ بالوالدين، وتحريم الزنى، وتحريم قتل النّفس، وشهادة الزّور.

والمعنى: ادعُ المؤمنين ليسمعوا ما حرّم ربّهم عليهم: الإشراك به، ويوصيهم بالإحسان للوالدين، وينهاهم عن قتل أولادهم الصغار مخافة الفقر فالله يرزقهم ويرزق أبويهم وينهاهم عن قرب الفواحش ما ظهر منها وهو الزنّى باتفاق الطرفين، ومن الفواحش: المثلية الجنسية كقوم لوط، وما بطن من الفواحش هو الزنى بالإكراه كالاغتصاب بالعنف وبالإكراه، أو بتدبير الإيقاع فيها. ويحرّم عليهم قتل النفس البريئة التي حرّم الله إلاّ إذا كان قد حكم به قاضٍ عدل في قضايا إجرامية وجنائية أو في القصاص العدل. هذه وصايا من ربّكم (لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ) للحصول على إكتمال العقل والرّشاد.

- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (152) :

وحرّم عليكم أكل مال اليتيم إلاّ بحقّه إذا كنتم فقراء، وكنتم تعملون في ماله، تأخذون منه بمثل ما يأخذه العامل الذي يعمل عملكم، إلاّ أن يبلغ اليتيم رشده، فإذا بلغ رشده فادفعوا له ماله كاملا غير منقوص ولا مهدور. ويوصيكم الله بإيفاء الكيل والميزان حتى لا تكونوا من المطفّفين، كلٌّ يأخذ حقّه. لا نكلّف بهذا التشريع وهذه الوصايا النّفس ما لا تطيق، لا نكلّف نفسا إلاّ ما تقدر عليه. ويوصيكم الله بالعدل في الشهادة، ولو كانت شهادتكم في غير صالح قريبكم الذي تشهدون عليه حتى لا تشهدوا زورًا فتضيّعوا القسط، ويوصيكم الله بالإيفاء بالعهد الذي توثقونه باليمين حتى لا تحلفوا باليمين غدرا، هذا ما يوصيكم الله به لتكونوا من الذاكرين الذين يذكرون الله في أنفسهم ويخشون معصيته.

- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (153) :

هذه الوصية العاشرة، وهي في الدعوة إلى السير على صراط الله المستقيم، وصراط الله المستقيم هو دين الله: الإسلام، فسيروا على منهجه بالعمل بطاعاته، والحذر من المنهيات والمحرّمات. ولا تتّبعوا سبيلا غير سبيله فتنحرفوا بذلك عن سبيل الله وطاعته. هذا ما وصّاكم به ربّكم لتكونوا من أهل التّقوى.

- ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ (154) :

الوصايا العشر السابقة تذكّر بكتاب موسى عليه السلام الذي فيه الوصايا العشر في التشريع، وقد أنزل على بني إسرائيل كتاب موسى (التوراة) (تَمَامًا) أي إتماما للنّعمة عليهم، وإكمالا للدين على كلّ من أحسن في طاعته لربّه، (وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ) ولبيان ما يحلّ لهم ويحرم عليهم من شرع الله (وَهُدٗى) موعظة وتذكيرا، (وَرَحۡمَةٗ) لمن سار على هديه فلا ينال من ربّه إلاّ خيرا ونعما، ولعلّهم بهذا يؤمنون بلقاء الله في الآخرة، ويتزوّدون لها بحسن الطاعة والعبادة.

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (155) :

وناسب التذكير بكتاب موسى ذكر فضائل القرآن الكريم وميزته، (وَهَٰذَا كِتَٰبٌ) هو القرآن الكريم أنزله الله وحيا على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم فاعملوا بشرعه، واهتدوا بهديه، وانتفعوا بإرشاده وحِكَمِه وأمثاله، واتّقوا الله في إيمانكم وطاعاتكم وأعمالكم عساكم ترحمون في آخرتكم فتنعموا بما عند ربكم من الخيرات، وتنجوا من عذابه وعقابه.



- أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ (156) :

وحتّى لا تقولوا إنّما أنزل كتاب الله على اليهود والنصارى من قبلنا، وما كنّا ندري ولا نعلم ولا نفهم ما في كتبهم فلم نكن مؤمنين، فغفلنا بهذا عن توحيد الله وعن العمل بأحكامه وشرعه، فبمجيء القرآن إليكم ما عادت لديكم حجّة في الغفلة عن ربّكم الحقّ: عن عبادته وعن طاعته.

- أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ (157) :

وحتى لا تقولوا يوم الحساب: لو أنزل علينا كتاب كما أنزل على اليهود والنّصارى لكُنّا أحسنَ منهم إيمانا واهِتداءً. ها قد جاءكم كتاب من ربّكم يبيّن لكم طريق الهدى والدّين الحقّ، فيه ما يرشدكم للعدل والحقّ والصواب، وما يجنّبكم الضلالة، (وَرَحۡمَةٞ) وموعظة ووعد بالجزاء والثواب للمؤمنين الصادقين يوم الحساب. وليس من أحدٍ أظلمَ لنفسه من الذي كذّب بالوحي وبالرّسول، وأعرض عن سماع القرآن وعن النّظر في آيات وجوده ودلائل توحيده وفضله، ودلائل بطلان الشّرك، ثمّ صرفَ النّاسَ عن سماعه والانتفاع بهديه وإرشاده. هؤلاء الضّالّون المضلّلون سينالون أشدّ العقاب يوم القيامة لإعراضهم عن سماع الحقّ، وصَرْفِ النّاس عن سماعه وعن الاهتداء به إلى ربّهم.

- هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (158) :

هل ينتظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة من السماء – كما طلبوا – ليؤمنوا بالوحي وبالرّسول، أم ينتظرون أنْ يأتيهم الله ليؤمنوا، أو هم ينتظرون بعضًا من آيات العذاب والهلاك التي تفزعهم فيسارعون للإيمان. يوم تأتيهم بعضٌ من آيات الله المهلكة فإنّه لا ينفع أحدَهم إيمانُه إن لم يكن قد آمن قبل مجيء العذاب ولم يكن قد دلّ عملُه وطاعته على صدق إيمانه. قل اِنتظروا ما تطلبون إنّا معكم منتظرون، وسترون ما يسوؤكم يومئذ.

- إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (159) :

إنّ الذين جعلوا الدّين الذي هو دين الله، وهو دين واحد لكلّ الخلق وفي كلّ مكان وكلّ زمان، جعلوه أديانا ومِلَلاً، وفرّقوه طوائف وفرقا مختلفة في الطاعات والمعتقد لست منهم – أيّها المسلم – في شيء من هذا الاختلاف والتفرّق، وأمرهم إلى الله فيما يبتدعون في دين الله أو يغالون، ويوم القيامة سيخبرهم الله بما اِبتدعوا وغالوا وسيحاسبهم عن أفعالهم.

- مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (160):

هذه في التّرغيب في اِتّباع دين الله والاستقامة عليه، فمن جاء من المؤمنين بحسنة واحدة فإنّ الله تعالى يضاعف له في الأجر والثواب عنها بعشر أمثالها جودًا وكرما، ومن جاء بسيّئة فلا يؤاخذ إلاّ عليها دون زيادة وهذا من عدل الله، ولا يظلم الله أحدا فيما يأتيه به من عمل صالح أو آخر سيّئ.

- قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (161) :

قل إنّني هداني ربّي إلى طريق واضح، ومنهج لا اِعوجاج فيه، هو دين الإسلام وهو دين مقوّمٌ لأمور النّاس بما ينفعهم لدنياهم وليوم الحساب، ملّة إبراهيم مائلا عن الباطل إلى الحقّ والصواب، وما كان إبراهيم من المشركين.

- قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ (163) :

قل إنّ دعائي وتقديسي وعبادتي كلّها لله ربّ العالمين، وإنّ حياتي من أمره وكذلك وقت حضور أجلي للوفاة بيده. أعبده وأومن به ربّا لا شريك له، وبهذا الأمر أمرتُ، وأنا أوّل من أذعن وأخلص لربّه في الطاعة والعبادة وخضع لقضائه.

- قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (164) :

كان بعض زعماء قريش يحاولون مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صرفه عن دعوته للإسلام وللتّوحيد، كانوا يرغّبونه في عبادة آلهتهم وترك ما يدعو إليه، فجاءت هذه الآية في الرّد عليهم، وقد بدئت باستفهام للتّوبيخ، والمعنى: أغير الله مالك كلّ شيء أطلب ربّا غيرهُ لا ينفعني بشيء؟ ولا تحتمل نفسٌ ذنبَ غيرها ولا إثمَها، فكلّ نفس مسؤولة عن ذاتها، ولا تحمل ثقل آثام نفس أخرى آثمة فوق ذنوبها، لا تُؤْخَذُ نفس بذنب غيرها. والوزر هو ثِقَل الذنب. ثمّ إنّكم ستُرجعون جميعا إلى ربّكم لمحاسبتكم عن أعمالكم وسيخبركم يومئذ بحقيقة ما كنتم فيه تجادلون وتحاجّون.

- وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ (165) :

لقد قضى الله تعالى حينما خلق الإنسان لأن يكون خليفة في الأرض، فالنّاس جميعهم خلائف الأرض، وبتناسلهم وبموتهم يخلف جيل جيلا آخر، جيلا بعد جيل، وهم بهذا خلائف



كذلك. وقضى الله تعالى أن يجعلهم متفاوتين في الفقر والغنى والمكاسب والأرزاق، وفي العلم والجهل، وفي الذكاء والقدرات على الإبداع والصناعة والقوة البدنية والتسخير للخدمات، وهذا من سنن الحياة ليحتاج بعضهم لبعض ولتتنوّع خدماتهم، لكلّ واحد من الخلق وظيفته في الحياة: كبرت أو صغرت، وهذا الاختلاف مفروض ليمتحن كلّ إنسان فيما يعمل بما آتاه الله من موهبة وقدرة، هذا يصرف جهده في أعمال الخير، وذاك يصرف موهبته في ما ينهى الله عنه، والله سريع العقاب لأهل الشرور، وغفور رحيم بعباده المؤمنين الطائعين المستقيمين.

(الحمد لله الذي أعانني على تفسير هذه السورة التي تعدّ من أصعب السور في التّفسير لأنّها في العقائد، وفي الخصوصية الإلهية، والله أسأل التوفيق).